تفسير سورة الملك

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها ثلاثون آية .

وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون

وحروفها : ألف وثلثمائة وثلاث عشرة .

مجموع فواصل آياتها (تمر) . على الميم اثنان : (أليم) (مستقيم)

اسمائها :

ولها فى القرآن والسنن سبعة أسماء : سورة الملك ، لمفتتحها ، والمنجية لأنها تنجى قارئها من العذاب ، والمانعة ، لأنها تمنع من قارئها عذاب القبر — والدافعة ، لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة من قارئها وعذاب الآخرة من قارئها ، والشافعة ، لأنها تشفع فى القيامة لقارئها ، والمجادلة ، لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها ، السابع : المخلصة ، لأنها تخاصم زبانية جهنم ، لئلا يكون لهم يد على قارئها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة ، والنظر إلى السموات للعبرة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أعد للمنكرين من العذاب ، والعقوبة وما وعد به المتقون من الثواب ، والكرامة وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور فى الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة ، بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة ، والهداية ، وتعجل الكفار بمجىء القيامة وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله تعالى : ﴿ **يأتيكم بماء معين** ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **فارجع البصر** ﴾ وبعده : ﴿ **ثم ارجع البصر كرتين** ﴾أى : الكرة الأولى وقيل : هى ثلاث مرات : أى : ارجع البصر — وهذه مرة — ثم ارجع البصر كرتين فمجموعها ثلاث مرات . قال أبو القاسم الكرمانى : ويحتمل أن يكون أربع مرات ، لأن قوله تعالى : ﴿ **ارجع** ﴾ يدل على سابقة مرة .

قوله تعالى : ﴿ **ءَأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض** ﴾ ، وبعده : ﴿ **أن يرسل عليكم حاصباً** ﴾ خوفهم بالخسف أولاً ، لكونهم على الأرض ، وأنها أقرب عليهم من السماء ، ثم بالحصب من السماء ، فلذلك جاء ثانية .

فضل السورة

فيه حديث حسن عن النبى ﷺ أنه قال : إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل ، فأخرجته يوم القيامة من النار ، وأدخلته الجنة ، وهى سورة تبارك .

وأخرج أحمد بسنده عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذى بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث شعبة ، وقال الترمذى هذا حديث حسن[1].

مناسبة السورة لما قبلها

إنه لما ضرب مثلاً للكفار بتلك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانت تحت عبدين صالحين ، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفاراً ــ افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه ــ عز وجل ــ وقهره وتصرفه فى ملكه على ما سبق به قضاؤه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ

(١) مسند أحمد ٢/٣٢١ وسنن الترمذى ــ كتاب فضائل القرآن ــ باب فضل سورة الملك ٥/١٦٤ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الأدب ــ باب ثواب القرآن ٢/١٢٤٤ رقم ٣٧٨٦ .

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

معانى المفـــردات

﴿ **تبارك** ﴾ : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره . ﴿ **بيده الملك** ﴾ : له الأمر والنهى والسلطان . ﴿ **خلق الموت** ﴾ : أوجده أو قدره أزلاً . ﴿ **ليبلوكم** ﴾ أى : ليختبركم والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم . ﴿ **أحسن عملا** ﴾ أى : أخلصه لله . ﴿ **العزيز** ﴾ أى : الغالب لا يعجزه عقاب من أساء ﴿ **الغفور** ﴾ أى : كثير المغفرة والستر لذنوب عباده . ﴿ **طباقاً** ﴾ أى : طبقة بعد طبقة . ﴿ **تفاوت** ﴾ أى : اختلاف وعدم تناسب ، والفطور الشقوق ، واحده فطر . ﴿ **كرتين** ﴾ أى : رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل ، والمراد بذلك التكرير والتكثير : أى : رجعة بعد رجعة . ﴿ **ينقلب** ﴾ أى : يرجع ، ﴿ **خاسئاً** ﴾ صاغراً ذليلاً ، ﴿ **حسير** ﴾ أى : كليل منقطع لم يدرك ما طلب . والحاسر : المعيا لنقاد قواه . ﴿ **مصابيح** ﴾ واحدها (مصابح) وهو السراج والمراد بها الكواكب . ﴿ **والرجوم** ﴾ واحدها (رجيم) (بالفتح) وهو ما يرجم ويرمى به . ﴿ **أعتدنا** ﴾ أى : هيأنا . ﴿ **عذاب السعير** ﴾ أى : عذاب النار المسعرة الموقدة ﴿ ألقوا فيها ﴾ أى : طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار . ﴿ **والشهيق** ﴾ تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرد : ﴿ **تفور** ﴾ أى : تغلى بهم كغلى المرجل قاله ابن عباس : ﴿ **تميز** ﴾ أى : ينفصل بعضها من بعض . ﴿ **الغيظ** ﴾ شدة الغضب . قاله الراغب : ﴿ **فوج** ﴾ أى : جماع . ﴿ **خزنتها** ﴾ واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، ﴿ **ينذر** ﴾ أي : رسول **ينذركم** بأس الله وشديد عقابه . ﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ أى : ما أنتم إلا فى ضلال بعيد عن الحق والصواب . ﴿ **فسحقاً** ﴾ أى : بعداً لهم من رحمة ربهم .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور** ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أن بيده الملك أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ قال ابن عباس : بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيى ويميت ، ويغنى ويفقر ، ويعطى ويمنع . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾[١].

ثم شرع سبحانه يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، فقال تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾

قال ابن كثير : استدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم كما قال تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾[٢] فسمى الأول وهو العدم موتاً وسمى هذه النشأة حياة .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة** ﴾ قال كان رسول الله ﷺ يقول : إن الله أذل بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء[٣].

قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أى : ليعاملكم معاملة من يُختبر حاله وينظر أيكم أخلص فى عمله ، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أى : أكثركم للموت ذكراً وأحسن استعداداً ، ومنه أشد خوفاً وحذراً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾[٤].

وفى الآية ترغيب فى الطاعات وزجر عن المعاصى كما لا يخفى على ذوى الألباب .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢/٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض ــ رحمه الله ــ أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً والخالص . أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لابد أن يراد به وجه الله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده ... وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله ، وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولابد ــ مع ذلك ــ أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر وهو الخير ، وضده المعصية ، والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

وقال ابن القيم ــ رحمه الله ــ قال بعض السلف : مامن فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه ، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا من محبة الروح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك التعبد ، أى : هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

قوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز الغفور** ﴾ أى : هو سبحانه العزيز العظيم المنيع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعد ماعصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز ، وإثبات العزة والغفران له سبحانه يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات ، ليجازى المحسن والمسيء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصى فلا يقع خطأ فى إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثوابا كان أو عقاباً كما قال تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾[1]

(١) سورة غافر الآيات : من ١ إلى ٣ .

ثم ذكر سبحانه دلائل قدرته فقال تعالى :

أى : هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق بعض فى جو الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بحيز معين ، ونظم ثابتة لا تتغير . قال تعالى : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش * وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى * يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت * فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ أى : لا ترى أيها الرائى تفاوتاً وعدم تناسب ولا نقص ولا عيب ولا خلل ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾ أى : أنك إذا كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة .

قال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج** ﴾[٢] أى : من شقوق .

وبعد أن بين سبحانه خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية فى الحسن والبهاء فقال تعالى : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت وهى التى يراها الناس مضيئة بالليل يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[٣]

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾ قال ابن كثير : الضمير فى قوله وجعلناها عائد على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ **وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى كما قال تعالى : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾[٤]

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[٥].

---

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

(٢) سورة ق الآية : ٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٧ .

(٤) سورة الصافات الآيات من ٦ إلى ١٠ .

(٥) تفسير الطبرى ٢٩/٣ .

قال العلامة ابن كثير : يقول رب العزة : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً** ﴾ قال ابن جرير يعنى الصياح ﴿ **وهى تفور** ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله تعالى : ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم . ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ يذكر تعالى عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾[2] وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ماكنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ قال الأمام أحمد بسنده عن أبى البحترى الطائى قال أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »[3] وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

وعد ووعيد

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١ .

(٣) مسند أحمد ٤/٢٦٠ .

معانى المفردات

﴿ **بذات الصدور** ﴾ أى : بما فى النفوس ، ﴿ **اللطيف** ﴾ : هو العالم بالأشياء التى يخفى علمها على العالمين . ﴿ **الخبير** ﴾ أى : بظواهر الأشياء وبواطنها . ﴿ **ذلولا** ﴾ أى : سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وبما فيها . ﴿ **مناكبها** ﴾ : جوانبها . أو طرقها وفجاجها . ﴿ **إليه النشور** ﴾ : إليه تبعثون من القبور .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أوعد الكفار بما أوعد ، وبالغ فى ترهيبهم بما بالغ ـ وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم وذكر سبحانه أنه عليم بما يصدر منهم فى السر والعلن ، ثم أقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق ، فلا يخفى عليه شىء من أمرهم ، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها ، ثم عدد نعماءه عليهم ، فذكر أنه ذلل لهم الأرض وهيأ لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن ، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم ، وإليه بعثهم ونشورهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غالباً عن الناس فكيف عن المعاصى ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير أى تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل . كما قال تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[2] وكقوله جل فى علاه : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[3]

---

(١) سورة ق الآيات من : ٣١ حتى ٣٥ .

(٢) سورة الرحمن الآية : ٤٦ .

(٣) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

وفى الحديث الصحيح إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٤].

ثم نبه سبحانه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى : إن عملكم وقولكم على أى سبيل وجد فالله عليم به ، فداوموا أيها الخاشعون على خشيتكم وأنيبوا أيها المغترون إلى ربكم ، وكونوا على حذر من أمركم .

وقوله : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ كالعلة والسبب لما قبله . فهو سبحانه محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة فى الصدور ، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به . قال تعالى : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾[٥].

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ أى : كيف لا يعلم السر والجهر من أوجد بحكمته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن وهو اللطيف الخبير .

قال القرطبى : قال أهل المعانى : إن شئت جعلت (مَن) اسماً للخالق — جل وعز — ويكون المعنى : ألا يعلم الخالقُ خلقه . وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق ، والمعنى : الا يعلم الله من خلق . ولابد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال سعيد بن المسيب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ أى : إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذللها لكم ، فجعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل . كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها**

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥ .

(٥) سورة طه الآيتان : ٧ ، ٨ .

فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[(١)] وكما قال سبحانه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[(٢)]

وقوله : ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئا إلا أن ييسره الله لكم ولهذا قال تعالى ﴿ **وكلوا من رزقه** ﴾ فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل كما قال الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطانا»[(٣)] فأثبت لها رواحاً وغدوا لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر المسير المسبب .

وقوله تعالى : ﴿ **وإليه النشور** ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . وقيل : معناه أن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرض ذلولاً قادر على أن ينشركم .

عظمة الله تعالى المطلقة

قال تعالى :

ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٣١ .
(٢) سورة الحجر الآيات : من ١٩ حتى ٢١ .
(٣) مسند أحمد ١/٣٠ .

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

﴿ **أأمنتم** ﴾ الأمن ضد الخوف . ﴿ **من فى السماء** ﴾ هو ربكم الأعلى . ﴿ **تمور** ﴾ أى : تهتز وتضطرب . ﴿ **حاصبا** ﴾ أى : ريحاً شديدة فيها حصباء تهلككم . ﴿ **نذير** ﴾ أى : انذارى وتخويفى . ﴿ **نكير** ﴾ أى : انكارى عليهم بإنزال العذاب بهم . ﴿ **صافات** ﴾ أى : باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، ويقبضن . أى : ويضممنها تارة أخرى . ﴿ **جند** ﴾ أى : عون ﴿ **ينصركم** ﴾ أى : يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ﴿ **من دون الرحمن** ﴾ أى : من غيره . ﴿ **فى غرور** ﴾ أى : فى خداع من الشيطان الذى يغركم بأن لا عذاب ولا حساب . ﴿ **أمسك رزقه** ﴾ أى : بإمساك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ منها الرزق . ﴿ **لجوا** ﴾ أى : تمادوا . ﴿ **فى عتو** ﴾ أى : تكبر وعناد عن قبول الحق ﴿ **نفور** ﴾ أى : إعراض وتباعد منه ﴿ **مكباً على وجهه** ﴾ أى : واقعاً عليه . ﴿ **سوياً** ﴾ أى : معتدلا منتصباً. ﴿ **الأفئدة** ﴾ العقول واحدها فؤاد . ﴿ **ذرأكم** ﴾ أى : خلقكم . ﴿ **الوعد** ﴾ أى : الحشر الموعود . ﴿ **إنما العلم** ﴾ أى : العلم بوقته . ﴿ **زلفة** ﴾ أى : مزدلفاً قريباً . ﴿ **سيئت** ﴾ أى : تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والفترة ، ويقال ساء الشىء يسوء إذا قبح . ﴿ **تدعون** ﴾ أى : تطلبونه وتستعجلونه استهزاء وإنكاراً . ﴿ **أرأيتم** ﴾ أى : أخبرونى . ﴿ **غوراً** ﴾ أى : غائراً فى الأرض لا تناله الدلاء . ﴿ **معين** ﴾ أى : جاء سهل المأخذ تصل إليه الأيدى .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من نار تلظى ، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان — أردف ذلك بترهيبهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم فى الدنيا مثل ماحل بالمكذبين بالرسل من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض موراً ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم ديارا ولا نافخ ناراً . ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منته على عباده ، فطلب منهم أن يروا الطير وهى تبسط أجنحتها فى الجو تارة وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ماهى فى حاجة إليه ثم أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً ، منكرا عليهم ما اعتقدوه ، مبينا لهم أنهم لا يصلون إلى ما أمّلوه ، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه . أما وقد وضح الحق لذى عينين فهم فى لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة . ثم ضرب مثلاً يبين حالى المشرك والموحد ، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية بذكر خلق الإنسان فى الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم .

ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شىء ، وإنما هو نذير مبين وذكر حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ماكانوا ينكرون تعلو وجوههم غبرة ، ترهقها قترة ، ويقال لهم : إن ماكنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غداً من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور** ﴾ قال ابن عباس : المعنى أأمنتم عذاب من فى السماء إن عصيتموه أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ﴿ **فإذا هى تمور** ﴾ أى : تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً .

وقوله تعالى : ﴿ **أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير** ﴾ أى : أم أمنتم الله العلى الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ ﴿ **فستعلمون كيف نذير** ﴾ أى : فستعلمون عند معاينة العذاب ، كيف يكون إنذارى وعقابى للمكذبين .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن**

ربكم لرءوف رحيم ﴾[1] وهذا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل كما قال تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جا أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً** ﴾[2]

قوله تعالى : ﴿ **ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾ أي : ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب مالا مردّ له ، وحل بهم من البأس مالم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير** ﴾ أى : غفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهى باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى وما يمسكهن فى الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع الرحمة من براهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألهمهن حركات تساعد على الجرى فى الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟

﴿ **إنه بكل شيء بصير** ﴾ أى : أنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التى هو عليم بفائدتها لعباده .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[3].

آلهـــى :

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له	طـوبى لمـن عاش بين النـاس يهواك
إنى لأعجـب ممـن قد رأى طرفـاً	من فيض جودك ــ ربى ــ كيف ينساك
والله ما سعدت روحـى ولا فرحت	فى الدهر ــ ما بقيت ــ إلا بذكراك

قوله تعالى : ﴿ **أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن *إن الكافرون إلا في غرور * أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور** ﴾ يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره ويبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه ومخبراً لهم أنه

---

(١) سورة النحل الآيات من ١٤٥ حتى ١٤٧ .

(٢) سورة فاطر : ٤٥ .

(٣) سورة النحل الآية : ٧٩ .

لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال تعالى : ﴿ **أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن** ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ أى : ما الكافرون فى اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا فى جهل عظيم ، وضلال مبين ، حيث ظنوا الأوهام حقائق فاعتزوا بالأوثان والأصنام . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **أمّن هذا الذى يرزقكم أن أمسك رزقه ، بل لجو فى عتو ونفور** ﴾ أى : من هذا الذى إذا قطع عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ــ عز وجل ــ وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل لجو** ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ **فى عتو ونفور** ﴾ أى : فى معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه . كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾[2]

قوله تعالى : ﴿ **أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشى سوياً على صراط مستقيم ، قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ، قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى منكبا على وجهه أى : يمشى منحنياً لا مستوياً على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران** ﴾[3] أهذا أهدى ﴿ **أمّن يمشى سوياً ؟** ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى : على طريق واضح بين وهو فى نفسه مستقيم وطريقه مستقيم ؟ هذا مثلهم فى الدنيا وكذلك يكونون فى الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سوياً على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم وبئس المصير .

أخرج أحمد بسنده عن نفيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله : كيف

---

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩١ حتى ١٩٨ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧١ .

يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ؟ » . رواه أيضاً البخارى ومسلم[(١)].

وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾ هو سبحانه ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أى : العقول والإدراك ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره كما قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[(٢)]

قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ أى : هو سبحانه بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم . كما قال تعالى : ﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾[(٣)]

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ⁕ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ⁕ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى ما تعدنا به من الخسف والحاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقاً فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجبهم فإن علم ذلك عند بارىء النسم فقال : ﴿ **قل إنما العلم عند الله ⁕ وإنما أنا نذير مبين** ﴾ أى : وإنما أنا منذر من عند ربى أبين لكم شرائعه ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ **فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا** ﴾ أى : فلما رأوا العذاب الموعود قريباً ــ وكل آت قريب وإن طال زمنه ــ ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتها القترة والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله مالم يكونوا يحتسبون قال تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾[(٤)] ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ **هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : تستعجلون . كما قال تعالى : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾[(٥)]

---

(١) مسند أحمد ١٦٧/٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٨٩

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الجاثية الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

(٤) سورة الزمر الآيتين ٤٧ ، ٤٨

(٥) سورة الذاريات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ، قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ . أى : قل لهم يا محمد ـــ يريده مشركى مكة ، وكانوا يتمنون موت النبى ـــ ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾[1]: أرأيتم إن متنا أو رحمنا فأخرت آجالنا فمن يجيركم من عذاب الله ، فلا حاجة بكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة . ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا** ﴾ أى : قل لهم آمنا بالله الواحد ، وعليه عتمدنا فى جميع أمورنا ، لا على الأموال والرجال ، ﴿ **فستعلمون من هو فى ضلال مبين** ﴾ أى : فسوف تعلمون عن قريب من هو فى الضلالة نحن أم أنتم ؟ وفيه تهديد للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً** ﴾ أى : ذاهباً فى الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤس الحداد ، ولا السواعد الشداد والغائر عكس النابع ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، أى : لا يقدر على ذلك إلا الله وحده ـــ عز وجل ـــ فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة فلله الحمد والمنة قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾[2].

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

سياحة مباركة فى سورة الملك

الحمد لله والصلاة على نبينا وحبيبنا محمد ﷺ .

أما بعـد

فإن سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التى تعالج موضوع العقيدة فى أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهى « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة ، وإقامة الأدلة على وحدانية رب العالمين ، ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير** ﴾ . هذا هو التوحيد الخالص فلا قدرة لأحد سواه ، ولا ملك بيد غيره ، فهو سبحانه كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، قوة كل ضعيف ، ورضا كل قنوط ، ومفزع كل ملهوف ، وأمان كل خائف ، وشفاء كل سقيم ، وغنى كل فقير » من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾

---

(١) سورة الطور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

وهـذا دليـل لقدرة الفائقة التى لا سلطان لأحد عليها ولا يد لمخلوق فيها . ثم يقيم الدليل على وحدانيته بأنه خالق الموت والحياة ، وهل هناك على ظهر البسيطة من يحيى أو يميت سواه . اسأل العالم من أقصاه إلى أقصاه ، هل من الجبابرة أو الأكاسرة أو القياصرة أو الأباطرة أو أصحاب الصولجان من استطاع أن يدفع الموت عن نفسه ﴿ **قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾[١] فسبحان من أمره قضاء وحكمه ورضاه أمان ورحمة ، وكيف يجرؤ مجترىء فيقول : أنا أحيى وأميت . إنه إن قالها فقد سفه نفسه ، وضل رشده وزلت قدمه وتعثر قلمه .

﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[٢]

لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال : ﴿ **إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

وأراد ربك أن يقيم الأدلة الواقعية على أنه الواحد الذى يحيى ويميت فأقام لنا هذا المشهد الواقعى قال سبحانه : ﴿ **أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾[٣]

ولما قال إبراهيم الخليل للنمروذ : ﴿ **ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ أحب أن يترق من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى * قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾[٤]

وإنما كان السؤال من الله وكانت الإجابة بإثبات الإيمان من إبراهيم حتى لا يتوهم قلب مريض أن سؤال إبراهيم كان سؤال شك بل كان سؤالا للاطمئنان كيف يكون إحياء الموتى أمام الجبابرة القساة : ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[٥]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، لا محيى إلا أنت ، ولا مميت سواك .

ثم يؤكد هذه الأدلة بدليل مشاهد أمام العين نصبه الله فى الآفاق الكونية ، وفى سورة تبارك قال سبحانه : ﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾ .

الجـزاء يـوم البعـث

وينتقل بنا النظم الكريم من إثبات الوحدانية لصاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، إلى ساحات الجزاء يوم البعث فيقول تعالى : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ .

وبعد نيران الوعيد يشرق علينا نور الوعد

﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ هذا وعد من الله للذين يخافون الله وهم لم يروا ذاته ، وهذا سر عظمة المؤمنين أن يخافوا بالغيب ويؤمنون بالغيب ، وإلا لما كان للإيمان فضل إذا كان حسياً يقع تحت حاسة البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو الذوق : قيل للإمام على يا إمام . هل رأيت ربك ؟ قال :وكيف أعبد مالا أرى . قالوا : فكيف رأيته ؟ قال الإمام : سبحانه ربى إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأبى بكر الصديق — رضى الله عنه — يا صديق بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى قالوا : فكيف عرفته ؟ قال الصديق : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله اشراك . ما جزاء هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب . لهم مغفرة لذنوبهم ، ومكفرة لسيئاتهم ولهم أجر كبير فى الآخرة .

جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ يبين أجر الذين يخشون ربهم بالغيب حيث قال ﷺ : « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق

بالمساجد ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع »[١].

فأنت ترى فى هؤلاء السبعة نوعين ممن يخشون الله بالغيب ، هذا الذى دعته امرأة لنفسها فما خاف إلا الله ، وهذا الذى تصدق بالمال فلم يعلن ذلك على الناس ليحمدوه ، إنما تصدق ابتغاء مرضاة من لا يغفل ولا ينام .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى علم الله الذى لا حدود له ، وإلى سمع الله الذى لا نهاية له فيقول سبحانه : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾

فسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون ، وسبحان من يسمع ويرى دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وسبحان من أمره بالكاف والنون وكيف يغيب عن مسمع الله أو بصره شىء وهو الذى قال : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر واخفى** ﴾[٢] وهل هناك أخفى من السر ؟

نعم إنها ذات الصدور أى النيات التى لم يتلفظ بها العبد بل عقد عليها النية وأضمرها، وكيف لا يعلم ذات الصدور وهو الذى قال : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[٣]

وكيف لا يرتبط بكل شىء علماً وهو الذى جمع الكائنات كلها تحت مفاتح علمه وغيبه : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾[٤]

وكيف تخفى عليه خافية ؟ أو تغرب عن علمه شاردة ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٥]

وكيف يعلو صوت على كبريائه وعظمته وهو القاهر فوق عباده .

وكيف يستغشى جاهل أو غافل ثوبه ليستخفى منه وهو القائل : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾[٦] ﴿ **ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾[٧] نعم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠

(٢) سورة طه الآية : ٧ .

(٣) سورة غافر الآية : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٦) سورة هود الآية : ٥ .

(٧) سورة المجادلة الآية : ٧ .

لطيف يعلم دقائق الأشياء ، وخبير يدرك حقائق الكائنات على هذا المنهج القرآنى ربى الرسول أصحابه ، رباهم على مراقبة البصر العلوى لهم فى تحركاتهم وسكناتهم .

أو ما سمعت إلى تلك الإجابة الشافية الكافية الوافية التى أجاب بها سيد الخلق وحبيب الحق عن سؤال جبريل . ما الإحسان ؟ فماذا كان الجواب أيكون الإحسان صدقة ؟ أيكون إتقان شيء ؟ أيكون إخلاص العمل ؟ لقد كانت إجابة الرسول ﷺ عن الإحسان أرحب أفقاً وأوسع دائرة وأصلب عوداً : لقد بين أن للإحسان مقامين أحدهما مقام المشاهدة والآخر مقام المراقبة .

فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ولذا قال أحد الناس لسفيان الثورى ــ رضى الله عنه : دلنى على نصيحة إن عملت لا أجترىء على معصية الله ، فقال سفيان الثورى : تذكر خمسة أشياء :

١ – أيليق بك أن تعصى الله وهو يرزقك .

٢ – أتظن أنك تعصى الله وهو لا يراك .

٣ – أتستطيع أن تعصى الله خارج ملكه .

٤ – أتستطيع إن أتاك الموت أن تطلب تأجيله

٥ – أتقدر يوم القيامة إذا ذهب بك إلى النار أن تدفع العذاب عنك ؟ قال : لا أستطيع شيئاً من ذلك .

قال : سفيان : فكيف تجترىء بالمعصية على من رزقك ورآك وأنت فى ملكه ، وكتب عليك الموت ولا تستطيع أن تدفع عذابه عنك .

قال الرجل : والله لا أعصيه مادمت حياً .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى الامتنان الإلهى فيقول سبحانه : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾

ويواصل النظم الكريم مسيرته المباركة فيذكر نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده ألا وهى تذليل الأرض وتمهيدها وتسخيرها وإصلاحها للعباد يقول جل شأنه : ﴿ **ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون** ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٠ .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٣ ، ٤ .

وقال عز من قائل : ﴿ **والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾[١]

وقال تبارك اسمه : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾[٢]

وقال عز وجل : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[٣]

إلهى ، لا يسعنا إلا أن نثنى عليك بما أنت أهله ، فلك الشكر على ما أوليت ولك الثناء الجميل، وكيف يستطيع لسان أن يؤدى شكرك وأنت الذى قلت وقولك الحق فى سورة النعم وهى سورة النحل :

﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعلى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾[٤]

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٤٨ .

(٢) سورة فصلت الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٩ .

(٤) سورة النحل من الآية : ١ ـ ١٨

أخا الإسلام قف عند هذه المشاهد الكريمة التى تفيض فيها يد الرحمن جوداً وكرماً وسخاءاً ونعمة .

تأمـل فى نبـات الأرض وانظـر
إلى آثـار ما صنـع المليـك
عيـون من لجين شاخصـات
بأبصـار هى الذهـب السبيـك
على قضـب من الزبرجـد شاهـدات
بأن الله ليـس لـه شريـك

كيف يستطيع العبد أن يؤدى شكر نعمتك ولك فى كل نفس يتردد فى صدره نعمة وآلاء وفضل .

﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ ومناكب الأرض جهاتها وجوانبها المختلفة . وفى القصير بالمشى ما يفيد عدم الاندفاع وراءها فإن من سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ، فإن من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا عندما يصطدم رأسه بجدار القبر بين معسكر الموتى حيث تذهب السكرة ، وتحل الفكرة ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ندموا لا ينفع الندم .

غـداً تـوفى النفـوس ماكسـبت ويحصـد الزارعـون مازرعـوا
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسهـم وإن اسـاءوا فبـئس ماصنعـوا

سبحانك يا صاحب الحكمة البالغة ، يا من أمرت بالمشى فى الدنيا وأمرت بالسبق والاستباق والإسراع إلى الدار الآخرة . ألست أنت القائل وقولك الحق : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[1]

ألبست أنت القائل ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾[2]

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٣ .
(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

وأنت القائل : ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك * وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾[٣]

هذا إذا كان الحديث حديث الدنيا : فانتشار ومشى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾[٢]

وإلقاء باللائمة على الذين يؤثرون العاجلة على الباقية : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾[٣].

ثم ماذا بعد المشى فى مناكبها ؟ أيتمرغ أين آدم فى طينها ويتقلب فى حمئها المسنون ؟ لا . ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[٤] إن هناك إشارة تنبيهيه يقول فيها مولانا جل ذكره : ﴿ **وإليه النشور** ﴾ والنشور هو البعث والإحياء بعد الموت والخروج من القبور ، وهذا دليل قاطع على أن الحياة لا يمكن أن تدوم لأحد . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالحياة ألم يخيفه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرىء بما فعل .

﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾

وبعد ما بين العلى الحكيم آلاءه العظمى ونعمه التى لا تحصى حيث جعل الأرض ذلولاً كالدابة المذللة لراكبها ، وأعطانا من القوى ما نستطيع أن نمشى عليها ، ونطرق مجالاتها ومناكبها ونستعمرها وننقب فى بطنها وتستخرج منها المعادن والطاقات التى لا تعدو لا تحصى ، ونلتمس الرزق فى خباياها . إذا به سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات على سبيل الوعيد ، فما السر فى أن يقرن آية الأرض بآيات الوعيد ـــ نعم . إن السر رهيب إذا عرف ، وخطير إذا وقفنا عند حقيقته ، فالآية السابقة تستدعى الشكر للمنعم جل جلاله ، فإذا ما جحدنا شكره وأنكرنا فضله فما جزاء الجحود خسف وتدمير

---

(١) سورة المطففين الآيات : من ٢٤ حتى ٢٦ .

(٢) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٣) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

ورجم بالحصباء وعذاب شديد . ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد** ﴾[1]

إن هناك أمم كانت عاتية ولربها عاصية ملكت الأرض فلم تحسن قيادتها بل ظلمت وتجبرت ﴿ **وقالوا من أشد منا قوة** ﴾ ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيات الله يجحدون ، وعن آلائه يعرضون ، واستهزءوا بالرسل وأنكروا الرسالات ، بل وهددوهم بالنفى إلا أن يكفروا مثلهم ، وهنا حق الوعيد « ان الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، ان الله يملى **للظالم** حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا أن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[2] واقرءوا : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾[3]

خسف الأرض آية من آيات الله

إننى وأنا أخط سطور هذه الآيات اطلعت على بحث نشرته إحدى المجلات المصرية عن الزلازل ، ولما كان هذا بحثاً علميا يتعلق بخسف الأرض فإذا هى تمور وتدور وتضطرب ، رأيت من باب التتمة للفائدة أن أنقل هذا البحث فى هذا الموطن ليقول العلم كلمته :

يقول كاتب البحث : « لقد كان سكان إقليم بريتنزا بجنوب إيطاليا متجمعين حول الموائد لتناول وجبة العشاء الخفيفة التى يتناولونها عادة فى الساعة السابعة ، فى نفس الوقت الذى ينتبهون فيه جيداً لمتابعة أهم أحداث العالم التى ينقلها التليفزيون فى أهم نشراته الإخبارية وإذا بهم يتحولون إلى أهم حدث يتطلع إليه سكان العالم بالأسف والأسى ، ففى تمام الساعة السابعة و ٣٦ دقيقة تحولت ١٥٠ مدينة وقرية فى الجنوب الإيطالى إلى ما يشبه الأطلال ، وبالرغم من أن مجموع الذين اشتركوا فى عمليات الإنقاذ بلغ سبعة عشر ألف وخمسمائة رجل ، بغض النظر عن حالة الفوضى التى سادت الإنقاذ ، فإن ذلك لم يحل دون وقوع عدد كبير من الضحايا .

وتشير التقارير النهائية إلى أن عدد القتلى سوف يصل إلى ثلاثة آلاف وحوالى ألفى مفقود وثمانية آلاف جريح . أما المشكلة الكبرى فهى تشرد حوالى ربع مليون إنسان ، ولم تكف المدارس والمنازل والأكواخ الصيفيه وعربات السكك الحديدية فى توفير المأوى للآلاف المشردة .

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة النحل الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

إذن فما هو الزلزال ؟

ويستطرد كاتب هذا البحث فيطرح بهذا السؤال ثم يجيب قائلاً :

الزلزال هو عبارة عن اهتزازات خاطفة سريعة تنتاب الأرض من حين لآخر وتترك وراءها فى معظم الأحيان شقوقاً وتصدعات تحدث فى قشرة الأرض ، وتغير معالمها الجغرافية والعمرانية تغييراً ملحوظاً وقد يحدث مع وقوع الزلازل انهيار للجبال وهياج لأمواج البحار والمحيطات والأنهار بالإضافة إلى دمار واسع للمنشآت وضياع الكثير من الأرواح .

ونحن نضيف هنا قوله تعالى : ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾[1] ويضيف كاتب المقال قائلاً :

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة إن هناك نوعين من الأسباب التى تؤدى إلى حدوث الزلزال ، فهناك الزلازل البركانية التى تنتج عن نشاط بركانى ، وقد تسبق ثورة البركان أو تعقبها ، وكانت هذه هى النظرية السائدة فى الماضى ، وأرجع العلماء إليها سبب حدوث الزلازل حتى وقعت زلازل فى مناطق ليست بها براكين ، هنا اتجه العلماء للبحث عن سبب آخر لحدوث الزلازل وهى الزلازل الحركية . أى التى تحدث نتيجة حركة صخور القشرة الأرضية وهذه هى أكثر أنواع الزلازل حدوثاً وأكثرها تأثيراً على حياة الناس والمنشآت .

والزلازل الحركية تحدث نتيجة كسر فى صخور القشرة الأرضية ، وعند حدوث الكسر تتحرك الصخور بالنسبة لبعضها البعض . ومن هنا نشعر بهذه الحركة . وقد توصل العالم الجيولوجى الشهير (ريدا) فى عام ١٩٠٦ إلى أن هذه الكسور تحدث نتيجة لضغوط تتعرض لها القشرة الأرضية سواء من باطن الأرض أو من خارجها ، وعند تعرض الصخور لهذه الضغوط الهائلة تصبح فى حالة إجهاد ، وتظل على ذلك إلى أن يبلغ الضغط درجة لا يتحملها الصخر ، ويختزن الصخر تلك الضغوط بداخله عبر ملايين السنيين ، وينتشر ذلك الضغط المختزن إلى الصخور وطبقات القشرة الأرضية المجاورة ، وعند نقطة الذروة لا يستطيع الصخر اختزان مزيد من الطاقة فيتصدع وتنطلق الطاقة المختزنة على هيئة موجات تسبب اهتزازا لسطح الأرض تتناسب قوته مع مقدار الطاقة المختزنة .

وهناك عدة عوامل تساعد على تولد تلك الطاقة التى تختزنها الصخور ثم ينتج عنها الزلزال . من بينها الحركة الدائمة للكرة الأرضية والمواد الإشعاعية التى تصل إليها أو تصدر منها . وكذلك انصهار أجزاء معينة داخل القشرة الأرضية مما يؤدى إلى حدوث اختلال الخواص الطبيعية للصخور .

فالصخور الذى تتعرض للحرارة فى باطن الأرض يكون وزنه أو كثافته أقل من ذلك الذى لا يتعرض للحرارة فوق سطح الأرض .

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٥ .

وعندما تكون هناك مناطق جبلية تجاورها سهول منبسطة يحدث انتقال للضغط من المناطق المرتفعة إلى المناطق السهلة مما يسبب الزلازل والهزات الأرضية ، فعادة ما تحدث الزلازل فى المناطق السهلة التى تحيطها سلاسل جبلية عظيمة مثل جبال الهيمالايا ، وسلسلة الجبال فى غرب أمريكا وجبال أطلس فى المغرب العربى .

وتتركز أحزمة الزلازل فى المناطق المتباينة الارتفاع وقد وجد العلماء أن هناك ثلاثة أحزمة رئيسية للزلازل تحيط بالكرة الأرضية !

١ - الحزام الزلزالى الأول : يطوق المحيط الهادى . ويمتد من شيلى وبيرو فى أمريكا الوسطى فالمكسيك فكاليفورنيا فكندا ثم جزر اليابان فأندونيسيا فالفلبين . وهذه المناطق تتركز فيها سلاسل جبلية عظيمة وتجاورها مناطق سهلة قليلة الارتفاع .

٢ - الحزام الزلزال الثانى : يمر بشمال أفريقيا وينحرف لحسن الحظ عند منتصف ليبيا ثم يمر بأسبانيا فإيطاليا فاليونان فتركيا فإيران ثم شمال الهند وبورما والصين .

٣ - الحزام الزلزالى الثالث : يمر بمناطق متفرقة فى المحيط المتجمد الشمالى وسيبريا ووسط وشرق أفريقيا ، ويمس مصر فى طرفها الجنوبى الشرقى ولكنه لا يمثل خطراً كبيراً لقلة ارتفاع جبال تلك المنطقة .

وهناك نظرية علمية تقول : إنه حيث تلتقى وتتصادم تكثر الزلازل ومن المعروف أن قارات الأرض فى حالة حركة نسبية وبطيئة وتحسب بملايين السنين .

وعند مدينة الأصنام (بالجزائر) تتصادم كتلة القارة الإفريقية مع كتلة القارتين الأوروبية والأسيوية فتتجه القارة الأفريقية غرباً بينما تتجه كتلة القارتين الأوروبية والأسيوية نحو الشرق ، حينئذ تحدث بعض الاضطرابات الجيولوجية التى أدت إلى حدوث ثمانى هزات أرضية شهيرة فى منطقة البحر المتوسط منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن .

هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟

هذا السؤال يشغل بال الكثير من العلماء المتخصصين فى ذلك المجال وأيضاً البشر الذين يقطنون المناطق التى يكثر وقوع الزلازل بها .

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى : إنه من رابع المستحيلات التنبؤ بمكان وزمان وقوع الزلزال .

فنحن لا نعرف أين ستختزن الطاقة التى ستسبب الزلزال ، ثم أين سينكسر الصخر الذى يختزن تلك الطاقة ، وبالتالى لا يمكن تحديد مكان وزمان وقوع الزلزال . إلا أنه يمكن القول بأن هناك مناطق تحيطها أحزمة زلزالية معروفة حددها العلماء ، والمناطق التى وقعت فيها زلازل هى أكثر عرضة لوقوع مزيد من الزلازل .

وهناك محاولات لعلماء الصين واليابان والولايات المتحدة للتنبؤ بوقوع الزلازل ، فهم يلاحظون أن الثعابين تخرج من الشقوق والجبال قبل وقوع الزلزال ، كما تصدر القطط والخيول أصوات معينة تدل على الفزع والخوف ويحدث ميل بسيط فى سطح الأرض كما يتغير المنسوب الطبيعى للمياه الجوفية .

وقد حدث عام ١٩٦٤ م وبعد هزة أرضية اجتاحت مدينة بكين أن خرج متحدثاً أكاديميا يقول : إن الصين لن تشهد زلازل خلال السنوات الخمس أو الأربع القادمة على الأقل ، ولم يكد يمر يوم واحد حتى وقع زلزال عنيف اجتاح مدينة بكين !! ففقد الناس الثقة فى إمكانية التنبؤ بالزلازل حتى ولو كان علمياً ! وما تم التوصل إليه من أجهزة حتى الآن . ترصد الزلازل بعد وأثناء حدوثها فقط ، وليس قبل ذلك وكل الدلائل التى يتم تجميعها قبل حدوث الزلزال سواء كانت طبيعية أو بأجهزة علمية ، لا تعطى فترة كافية للاستعداد لتجنب الزلزال .

وقد نشأ فى الفترة الأخيرة علم حديث عن الزلازل وعلاقتها بالمنشآت فى أمريكا واليابان والصين ، وأصبحوا يبنون المنشآت ذات القيمة الاقتصادية والاستراتيجية بطريقة تقلل من الدمار الناتج عن حدوث الزلزال ، وأفضل مثل لذلك هو الكوبرى المعلق الذى يمر عبر خليج مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية لمسافة ١٠٥ ميلاً ، فقد تم تصميمه بطريقة هندسية تساعد على امتصاص الهزات الناتجة عن الزلزال .

ولقد زار الدكتور بيومى تلك المدينة منذ عشرين عاماً ، وقد حدث زلزال فى ذلك الوقت ، وتأرجح الكوبرى يميناً ويساراً ولم يتحطم رغم أن طوله حوالى ٢٢ كم ، ويساعد ذلك العلم الجديد على ابتكار أنواع معينة من حديد التسليح والأسمنت ومواد البناء ، وأيضاً يتم تصميم المبانى بطريقة هندسية تجعلها تمص الزلازل ولا تسقط ..

مقيـاس الـزلزال

هناك عدة مقاييس لتقدير الزلازل وأشهرها مقياس ريشتر وفى مقياس ريشتر يتم تفسير قوة الطاقة الناتجة عن الزلزال إلى درجات ، وكل درجة تعادل مائة « أرج » وهى وحدة لقياس الطاقة الناتجة عن الزلزال . ومقياس ريشتر مقسم إلى ١٢ درجة وهناك علاقة بين تقدير قوة الزلزال وبين الدمار الذى يخلفه ، فإذا قلنا إن ذلك الزلزال قوة درجة واحدة على مقياس ريشتر فمعنى هذا أن قوة الزلزال ضعيفة لا ينتج عنها أى دمار ولا يشعر به الانسان ولا تسجله المراصد . أى : أن الطاقة التى خرجت من الصخور وقت وقوع الزلزال ضئيلة جداً ولم تسبب أى اهتزاز للصخور والمنشآت والأرواح .

لقد كان زلزال شان تسى الذى وقع فى الصين عام ١٥٥٦ هو أخطر الزلازل التى عرفتها البشرية ، فقد راح ضحيته ما يزيد على ٨٣٠ ألف شخص بل إن العلماء يرجحون أن يكون ذلك الزلزال هو أسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشرية . وغالباً ما تكون زلازل الصين ذات عدد ضخم من الضحايا نظراً للكثافة السكانية بها (حوالى ألف مليون نسمة) كما شهدت الصين بعد ذلك فى عام ١٩٦٦ م فى مدينة هيسنج ناى ومدينة هابشنج عام ١٩٧٥ م فى مدينة ناتج شان عام ١٩٧٦ م زلازل رهيبة ، ففى الزلزال الأخير فقط فقد ٦٥٠ ألف نسمة أرواحهم طبقاً لإحصائية الأمم المتحدة ...

وقد أطلق عدد من علماء أمريكا واليابان والصين أخيراً نظرية جديدة تقول : إن أحزمة الزلازل يمكن أن تهاجر إلى مناطق أخرى غير المناطق المعروفة حالياً .

ويرد الدكتور عبد الرحيم بيومى قائلاً : إذا اعتبرنا أن السلاسل الجبلية تقع فى نطاق أحزمة الزلازل فى العالم باعتبارها أسباب حدوث الزلازل كما أوضحنا ، فإن مصر ليست بها مثل هذه السلاسل الجبلية الشاهقة التى تؤدى إلى حدوث الزلازل ، لذا فإنه لم يثبت علمياً حتى الآن أن مصر يمكن أن تتعرض لزلازل عنيفة فى المستقبل القريب . وذلك مالم تظهر أدلة علمية أخرى تثبت عكس ما هو قائم . كما أن الزلازل التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنوفية كانت زلازل ضعيفة لم تترك أى دمار خطير ، ولم تزد قوة أى زلزال فى مصر على أربع درجات على مقياس ريشتر . ا.هـ .

مسـألة فى العقيـدة

وبعد هذا الطواف فى مناكب الأرض وبيان انتقام الله تعالى وآيات وعيدة وما يجرى على أهل الأرض من زلازل وخسوف ومسخ لابد لنا من وقفة هنا تتعلق بقوله تعالى : ﴿ **أأمنتم من فى**

السماء ﴾ كيف نفهم هذه الآية وأخواتها مثل قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[١] ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾[٢]، ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾[٣] **ومثل قوله** ﷺ : « **ان قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء** »[٤]

كيف نفهم هذه النصوص وأمثالها ونقول وبالله التوفيق : إن الراسخين فى العلم يقفون من هذه الآيات موقف الايمان المحض قائلين ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾[٥] ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾[٦] إذ أن هذه الآيات جميعها راجعة إلى أصلها المحكم فى قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[٧] وفى سورة الاخلاص ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[٨].

وما فتح على المسلمين أبواب الخلاف والفرقة إلا اختلافهم فى عقائد كانت أولى ما تكون بالتسليم لله دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل فعلى المؤمن إذا قرأ مثل هذه الآيات أن يقول ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾[٩] فالقاعدة الأصيلة فى هذه العقائد أن الله ـــ تبارك اسمه ـــ لا يحويه مكان لأنه خالق المكان ، ولا يسأل عنه بمتى كان ، لأنه لا يجرى عليه زمان ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾[١٠] هو الأول فلاشيء قبله ، والآخر فلاشيء بعده ، والظاهر فلاشيء فوقه ، والباطن فلاشيء دونه ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر فهو سبحانه ليس كمثله شيء وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ...

اعلم يا أخى أن مسائل العقيدة أحد من السيف وأدق من الشعرة لذلك يجب العلم بها ويحظر الخلاف عليها ، اعلم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد ، فإياك أن يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ الآيات السابقة الذكر أن الله تعالى له جارحة وأصبع تماثل أو تشابه من بعيد أو قريب الحوادث إنما القول الحق أن تؤمن بما قاله الله تعالى وتقول فيها ما قاله الإمام مالك في قوله تعالى :

---

(١) سورة طه الآية : ٥ .

(٢) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٥ رقم ٢٦٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٧) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٨) سورة الإخلاص الآيات : من ١ حتى ٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(١٠) سورة الحديد الآيات : من ١ حتى ٣ .

﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ قل مثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾ فاليد والوجه معلومان ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والايمان به واجب إنك إن فعلت ذلك فعد سلمت من الزلل ، ولقيت الله بقلب سليم ويكون جزاؤك عند الله الفلاح ، لأنك آمنت وصدقت وأذعنت وأيقنت وفوضت وسلمت واعتقدت ، فحكم الله لك الفلاح قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾[١]

عالم الطير

قال الله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير . أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور * أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور * أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم** ﴾

فى هذا المشهد الربانى الكريم يوجه القرآن الكريم أنظار البشرية إلى عالم من العوالم الشتى الكثيرة المختلفة التى لها نظامها وآجالها وأرزاقها وأقدارها ، إنه عالم الطير : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾[٢]

وتأمل معى قول رسول الله ﷺ وهو يعلم البشرية القناعة والرضا فى طلب الرزق فضرب لهم مثلاً بعالم الطير فقال ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[٣].

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **صافات** ﴾ أى : صافات أجنحتها وهذا أكثر حالاتها ولذا عبر عنه بالصفة ، أما ﴿ **يقبضن** ﴾ فمعناه قبض الأجنحة فى بعض الحالات لا فى أكثرها ولذا عبر عنه بالفعل الذى يفيد التجدد والحدوث وبين سر العظمة الإلهية فى هذا العالم العجيب فقال : ﴿ **مايمسكهن إلا الرحمن** ﴾ وفى الإمساك قدرة وفى التعبير بالرحمن رحمة فليس الإمساك هنا جبروتاً أو قهراً أو قوة إنما هو رحمة فياضة لتقوم الطير برسالتها وجمع أرزاقها لأفراخها فى أعشاشها وتسبيح ربها ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾[٤].

فى سورة النحل يقول تعالى عن هذا العالم : ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[٥].

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ١ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .
(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .
(٤) سورة النور الآية : ٤١ .
(٥) سورة النحل الآية : ٧٩ .

اعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من الحقائق والأسرار ودقائق الأخبار ماينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى تعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن المقصد ، ويوضح جميل الصبغة ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلاً من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة ــ كالبوم والحدأة ــ ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم ، بينما الأوز والبط لهما مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة مثلاً طويل طولا ملحوظاً ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء الطير من النظرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً »(1) .

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتفاق الحكيم .

﴿ مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾

قال تعالى : **﴿ أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾** .

---

(1) مسند أحمد ١/٣٠ .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات أنه تعالى بعد ما بين آيات قدرته فى الأنفس والآفاق والكونيات . وهذا الكوكب الأرضى ، وجه مولانا هذا السؤال إلى كل من استعان بغيره أو طلب المدد من سواه ، فقال لهم فى أسلوب إنكارى بعد أمن التى تدل على الهمزة والاستفهام وكأنه تعالى يقول : من هذا الذى هو جند لكم يوفر النصر ، ويرعى الأنفس والثمرات والأموال غير الله ، وعبر هنا بلفظ الرحمن لإفادة النعم والآلاء التى يغدقها بخالص رحمته وعميم فضله ، والجواب أنه لا أحد . فمن الذى يستطيع أن يدعى أن بيده الملك وأنه قدير على كل شيء من غير الله يستطيع ذلك .

بل من الذى يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض وزين السماء بنجومها وجعل الأرض ذلولا ؟ هذه أدلة قاطعات يشاهدها من كان لديه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وحيث بطل هذا الادعاء فمن زعم ذلك فهو كافر خدعه كفره ، وضال ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ وهذا أسلوب يفيد القصد فإن حرف (إن) هنا يفيد النفى أى ما الكافرون إلا فى غرور وخداع وغش .

ثم يقول مولانا تبارك اسمه ﴿ **أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور** ﴾

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الذى يملك النصر وحده هو الذى يملك الرزق وحده فهو صاحب الآيات والآلاء ، آيات القدرة وآلاء الرحمة .

وقوله جل وعلا : ﴿ **إن أمسك رزقه** ﴾ لها معنيان فإما أن تكون (ان) نافية بمعنى ما أمسك رزقه أى : ما حجب الرزق عنكم ليلاً ولا نهاراً : سماء يفيض بالماء ، وأرض تفيض بالخيرات والنبات ، والمعنى الثانى أن تكون (ان) شرطية على اضمار جواب الشرط من ، باب الايجاز والمعنى إن أمسك رزقه هلكتم .

﴿**بل لجوا في عتو ونفور**﴾ وهذا تعقيب على السؤال السابق أنهم يعلمون أن الله بيده مفاتيح الرزق .

قال جل شأنه : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون** ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله** ﴾[2]

فقد أقروا بأنه هو الرازق إذن فلماذا انصرفوا ؟ لأنهم لجوا وتمادوا فى عتو وكبر ونفور وشرور وبطر للحق وغمط للمعايير .

---

(١) سورة يونس الآية : ٣١

(٢) سورة العنكبوت ية : ٦٣

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ **أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى * أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم** ﴾ وقد جاءت هذه الآية الكريمة نتيجة فاصلة بين أتباع الحق والسائرين وراء الباطل ، فمن أقر واعترف بآيات الله فى كونه وأن لهذا الكون إله واحد ، مشى سوياً على صراط مستقيم ، ومن عمى ولج فى باطله مشى مكباً على وجهه ، قال تعالى : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾[1]

قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾

مازال النظم الكريم يواصل زحفة المبارك فى إسباغ النعم التى لا تعد ولا تحصى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[2]

وهذا أمر يخاطب الله به كل من يعقل الخطاب بقوله : ﴿ **قل** ﴾ هو الذى أنشأكم بعد ما كنتم فى عالم العدم ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحيكم ثم إليه ترجعون** ﴾[3] ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[4]

فهذه الآيات المعرفة ووسائل العلم : سمع وبصر وفؤاد مدرك ، وكان الواجب أن تقابل هذه النعم بالشكر ، ولكن ياللأسف يعقب المولى على أحوال العباد بما هو واقع حالهم فيقول سبحانه : ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ وذرأكم بمعنى كثركم ونشركم ، وإليه تحشرون بمعنى المصير والمآل إليه وحده لا شريك له ، وتلك قضية العقيدة التى لا شك فيها ولا ريب .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ والمقصود بالوعد هنا اليوم الموعود وهو يوم القيامة ومتى اسم استفهام يراد به على لسانهم الا ستبعاد والاستحالة والتحدى بدليل قولهم بعد ذلك : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾

قال تعالى : ﴿ **إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً** ﴾[5].

وقال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**

---

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ - ١٠١

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٥) سورة المعارج الآيتان : ٦ ، ٧ .

ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها * وأن الله يبعث من في القبور ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار رأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ماهو آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما هم هناك من الشر ، فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله مالم يكن لهم فى بال ولا حساب ﴿ **وبداهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون** ﴾(٢).

وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ **هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾...

وهكذا قضينا هذه السياحة المباركة فى سورة الملك التى تسمى المنجية والتى قال فيها رسول الله ﷺ : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك . رواه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد(٣). ا.هـ (**من كتاب سياحة مباركة فى سورة الملك للمؤلف**) .

---

(١) سورة الحج الآيات : من ١ حتى ٧ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٣٣ .

(٣) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى ــ كتاب فضائل القرآن ــ باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الأدب ــ باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ وسنن أبى داود ١١٩/٢ رقم ١٤٠٠ .

تفسير سورة القلم

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : اثنتان وخمسون

وكلماتها : ثلاثمائة

وحروفها : ألف ومائتان وست وخمسون

فواصل آياتها : (من)

ولها اسمان : سورة ن ، وسورة القلم . وهذا أشهر .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الذب عن النبى ﷺ ، وعذاب ما نعى الزكاة ، وتخويف الكفار بالقيامة ، وتهديد المجرمين بالاستدراج ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس ــ عليه السلام ــ فى قلة الصبر ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين كما فى قوله تعالى : ﴿ **ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ الآية .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **حلاّف مهين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **زنيم** ﴾ تسعة أوصاف ، ولم يدخل بينها واو العطف فيدل على ضعف القول بواو الثمانية ﴿ **فأقبل** ﴾ بالفاء سبق بيانه . ﴿ **فاصبر** ﴾ سبق .

مناسبة السورة لما قبلها

١ - أنه ذكر فى آخر (الملك) تهديد المشركين بتغوير الأرض ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمر البستان الذى طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون .

أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع ، وأنه لو شاء لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله ، وكان المشركون ينسبونه فى ذلك مرة إلى الشعر ، وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون ــ فبرأه الله فى هذه السورة مما نسبوه إليه ، وأعظم أجره على صبره على أذاهم وأثنى على خلقه .

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

تفسير المفردات

﴿ **يسطرون** ﴾ أى : يكتبون . ﴿ **ممنون** ﴾ أى : مقطوع . ﴿ **المفتون** ﴾ : المجنون لأنه فُتن : أى : ابتلى بالجنون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ن والقلم ومايسطرون * ماأنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ قال العلامة ابن القيم : الصحيح أن (ن) ، (ق) ، (ص) من حروف الهجاء التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهى أحادية ، وثنائية وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، أما مقسماً به ، واما مخبراً عنه ، ماخلا سورتين سورة (كهيعص ، ون) كقوله تعالى : ﴿ **آلم ذلك الكتاب** ﴾ ﴿ **آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب** ﴾ ،وكقوله : ﴿ **آلمص * كتاب أنزل إليك** ﴾ ﴿ **آلمر * تلك آيات الكتاب** ﴾ وهكذا إلى آخره ، ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها وجلالتها . إذ هى مبانى كلامه وكتبه التى تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ونهيه ، ووعيده ، ووعده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى مافى أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله إلى المقصود ، وأدلة عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم . كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهاً لا يتكلم . وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات . فهى دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه ، وصدق رسله .

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ـــ أعنى القرآن ونطق اللسان ـــ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان** ﴾[1] فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها فى الأذهان ، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فآياته سبحانه فى تعليم البيان كآياته فى خلق الإنسان ، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه فى هؤلاء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم فى الحلقوم وينفرش فى أقصى الحلق ، ووسطه وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفى الشفتين ، والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هى كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هى كلام دال على أنواع المعانى ، أمراً ، ونهياً وخبراً ، واستخباراً ونفياً ، وإثباتاً ، وإقراراً وإنكاراً وتصديقا وتكذيبا ، وإيجابا ، واستحبابا ، وسؤالا وجواباً . إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، فى مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهى دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الإستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة . فهى من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً . وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة فى كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق .

السر فى القسم بالقلم

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ **القلم وما يسطرون** ﴾ فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحى . وقيد به الدين . وأثبتت به

(١) سورة الرحمن الآيات : من ١ حتى ٤ .

الشريعة وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد فى المعاش والمعاد فوطدت به الممالك . وأثبتت به السبل والمسالك وأقام فى الناس أبلغ خطيبَ وأفصحه . وأنفعه لهم وأنصحه . وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم . وطبيباً يبرىء بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم . ويودعها حكمة فتصير بوادر الفهوم والأقلام نظام للأفهام . وكما أن اللسان بريد القلب ، فالقلم بريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم بريد القلب ورسوله وترجماته ولسانه الصامت .

مراتب الأقلام ، وقلم القدر

والأقلام متفاوتة في الرتب . فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة »[1] واختلف العلماء . هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين . ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمدانى أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء »[2] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش . والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عباده هذا .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذى أقسم الله به .

قلـم الوحـى :

القلم الثانى قلم الوحى ، وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم .والعالم خدم لهم . وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبى ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدير بها أمر العلوى والسفلى .

---

(١) أنظر منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود ـــ كتاب القدر ٣/٢٥٥

(٢) صحيح مسلم ـــ ٤/٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

قلم الفقهاء والمفتين :

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم فى الدماء والأموال والفروج والحقوق . وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام . وأقلام العالم خدم لهذا القلم .

قلم طب الأبدان :

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة . وترد إليها صحتها المفقودة . وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

قلم التوقيع عن الملوك :

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك ، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، والمشاركون للملوك فى تدبير الدول . فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

قلم الحساب :

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذى تضبط به المقادير ومابينها من التفاوت والتناسب . ومبناه على الصدق والعدل . فإذا أكذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

قلم الحكم :

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

قلم الشهادة :

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين .

قلـم التعبـير :

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى ، كاشف له ، وهو من الأقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد على طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته وتحريه الصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحسن مؤيد بالنور الإلهى ، ومعرفة بأحوال الخلق وهيأتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدها تشيئاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال والمستقبل ، فتعرف هذا القلم فى المقام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطاته .

قلم تواريخ العالم :

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذى تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحانى ، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

قلـم اللغـة :

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفاصيلها من شرح المعانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفية الدلالة ، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .

القلـم الجامـع :

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل ، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدم لكل مخالف للرسل . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن .

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه وتعالى أقسم به فى كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم ، ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول فى وصفه :

لك القلـم الأعلى الـذى بشباتــه ... يصاب من الأمر الكلى والمفــاصل
له ريقــه طل ، ولكــن وقعهــا ... بآثاره فى الغـرب والشرق وابــل
لعاب الأفاعــى القاتــلات لعابــه ... وأرى الجنا اشتارتـه أيـد عواسل
له الخلــوات الــلاء لولا نجيها ... لما احتفلت للمــلك تلك المحافــل
فصيـح إذا امتنطقتــه وهــو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهــو راجــل
إذا ما امتطى الخمس للطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافــل
أطاعتـه أطراف القنا ، وتقــوضت ... لنجواه ـــ تقويض الخيام ـــ الجحافل
إذا استغـزر الذهـن الذكـر وأقبـلت ... أعاليه فى القرطاس وهــى أسافــل
وقــد رفدتــه الخنصـران وسـددت ... ثــلاث نواجيــه الثــلاث الأنامــل
رأيت جليـلاً شأنه وهــو مرهــف ... ضنـاً وسميناً خطبه وهــو ناحــل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ . أى : ولست والحمد لله بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

قال ابن القيم : وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا عن عقل وافر ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاتيان بها ، ولاسيما من أمى لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً عن الاختلاف ، بريئاً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر إلا فك .

فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق مالا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء وخضعت له ألباب الأولياء ، وتلاشت فى جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائعة مختارة وهى ترى عقولها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به ، ولا كمال لها إلا بما جاء به ! فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدى . ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق .

وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى . فكيف يكون

متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فغض عنه الجنون بنعمته عليه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتى نبيه ﷺ فى دنياه وأخراه فقال تعالى : ﴿ **وإن لك لأجراً غير ممنون** ﴾ أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال تعالى ﴿ **إن فى ذلك لعبرة** ﴾ ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ ﴿ **إن فى ذلك لذكرى** ﴾ ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير . ثم قال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾

وهذه من أعظم آيات ثبوته ورسالته لمن منحه الله فهماً . ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فأجابت بما شفى وكفى فقالت : كان خلقه القرآن . **فهم** سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك ومن هذا قال ابن عباس وغيره . أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية . وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال ، والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخرقاً ، هى أزكى الأخلاق وأشرفها ، وأفضلها ــ فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلا له ،**وتبياناً**، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه . والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن »[1] وفهم هذا السائل عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى .

ويقول ابن القيم : فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإرادتهم ، وأعمالهم ، مستفادة من القلم وما يسطرون ، وكان فى خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذى أعطاه أعلى الأخلاق وأفضل العلوم ، والإرادات ، التى لا تهتدى للقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك فى الدنيا . ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به .

قوله تعالى : ﴿ **فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين ــ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

أى : ستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **سيعلمون غداً من الكذاب الأشر** ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾[٢] . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : (**ستعلم وتعلمون يوم القيامة**) . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بأيكم المفتون** ﴾ أى : المجنون . وكذا قال مجاهد : وقال قتادة : وغيره فى قوله : ﴿ **بأيكم المفتون** ﴾ أى : أولى بالشيطان ومعنى المفتون ظاهر أى الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه وقوله : ﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾ تقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون . ثم قال تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[٣] أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ويعلم الحزب الضال عن الحق . قال تعالى : ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾[٤]

من أخلاق النبى ﷺ

يقول الدكتور : أحمد محمد الحوفى فى كتابه القيم « من أخلاق النبى » ما ملخصه :

(تمهيد)

ما الأخلاق؟

هذه الأخلاق التى تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتى لا يعرى إنسان من لبوسها لأن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة والفجور والشجاعة والجبن ، هل هى فى حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعاً ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها .

ولعل أسهل ما تعرف به أنها عادة مقصودة مرادة ،وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أو إلى الشر .

وذلك لأن العادة كثيراً ما تكون عفوية غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تسمى خلقاً .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل فى نطاق الأخلاق ، كالذى يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزيمته ، والذى يرى شخصا فى البحر

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٢٤ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٤) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

مشرفاً على العزق ، فيسارع إلى نجدته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرراً ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذى يبذل ماله مضطراً مجبراً لا يسمى سخياً .

لهذا نقول : إن العزيمة اعتادت عملاً صار خلقاً ، فالذى تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذى تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه . والعفيف هو الذى تسيطر عليه العفة فى جميع حالاته ، والفاجر هو الذى تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها ومعنى هذا أن ميلاً من الميول طبع الشخص بطابعه زمناً طويلاً ، فصار خلقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغلابة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شراً كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفل درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها وينعم وهذا هو ما أراده الغزالى بقوله : « وغاية هذا الخلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع .

ولقد سبق الإمام الغزالى إلى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ، فقال : إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لتتحقق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشتراطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه السخاء والحلم ...

لمحة إلى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق فتعددت آراؤهم ، ولم تسلم من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامى للأخلاق ، أن ألم بهذه المذاهب فى إيجاز يغنى عن التفضيل .

١ – العـــرف :

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التى تتوسم الخير فى اتباعها ...

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقى ، فما وافق العرف كان خيراً ، وما خالفه كان شراً ، وما سكت العرف من كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لاثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية ، فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطريق لتحرير الأرقاء .

ثم إن الاستمساك بالعرف صمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو إلى هذا كله معاداة للإصلاح والمصلحين .

٢ – المنفعـــة الماديـــة :

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل . فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وأنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى ، ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابر . فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة إذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرون خصوماً له ، فلا تعاطف ولا تآلف ، ولا محبة ولا إيثار ولا إخاء ، ولا ثقة ولا سلام ...

٣ – الســعادة الشخصيـــة :

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ،

وهى بحور الأعمال ، والعمل يكون خيراً بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شراً بقدر ما يسبب من ألم .

وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .

والحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال والأحوال ، فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيراً ما يشقون ، وكثيراً ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم .

وإن المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون إلى شيء غير إعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب ؟

نعم إن فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأثرة ، وإنها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغير مجلبة للذة أثر يفعل خيراً لنفسه لا للناس فهو يجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شيء من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم ، إلا القدر الذى يمس سعادته أو شقاءه .

٤ - السعـادة العامـة :

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاق على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس .

وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت الفاعل نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) م .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقة ومع قربه إلى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من

الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً محدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص وباختلاف الملابسات ...

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف فى العصر الواحد من بيئة إلى بيئة .

٥ - الضمـــير :

أقام زينون الفيلسوف اليونانى (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م) مذهبه الأخلاقى على الضمير ، ثم عزز هذا الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن فى كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملاً بأنه خير أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم ، كما يذهب مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى نتائج العمل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون فى حكمهم على الأعمال أختلافاً كبيراً ، وكثيراً ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيات . فالسرقة الخفية كانت فى إسبرطة عملاً ممدوحاً يُمَرَّن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة فى الحرب ، والاسترقاق كان فى العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب فى الجاهلية .

وشتان ما يبين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التى ترجع إلى الإدراك ، كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير فى حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيراً ما يغشِّيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيرا ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا رُبِّى تربية دينية كان رقيباً على النفس وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائم الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ، فإن فى الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهى العزيمة

التى كثيراً ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل . فلابد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

٦ - الوسطيــة :

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً وأعظمها تأثيراً على الدارسين والباحثين منذ وضع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

ومثل أرسطو للحد الأوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والبشاشة وسط بين السخرية والغظاظة ، والصداقة وسط بين الملق والشراسة .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الإسلام ويحمدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط ...

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب

١ - ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقتاها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة بل الشجاعة فضيلة حينما كانت وكيفما كانت ، مادامت سنداً للحق ، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

ولن تكون الشجاعة فى حال من أحوالها هذه/مزعومة ، ولن تكون فى مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل فى التدبير ، وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب .

فليست الشجاعة دائما ألا يخاف المُقِدم ، فإنها كما تكون فى الإقدام ، تكون فى الإحجام ، وكما تكون فى الاستهانة بالمخاوف ، تكون فى توقى بعض المخاوف وفى تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولاها فضيلة ، وعلياها فضيلة بل أفضل الفضيلة وهى الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود

بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص فى سبيل الخير بالعشرة أو المئة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتمل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفاً ، لأن ثراءه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه ...

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعاً أو يشترى به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة فى الأريحية والسخاء .

وهذا الذى نقوله فى نقد الوسطية فى الفضائل كلها نقول مثله فى نقد الوسطية فى الرذائل كلها ، كالجبن ، والبخل ، والفجور وغيرها .

٢ – على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرُف ؟ ومن الذى يحكم فإن هذه النقطة هى الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذى يعين المنتصف الذى عناه أرسطو وسواه ؟ وقد ذكر أرسطو أن إدراك الوسط فى كل شيء أمر صعب جداً ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس .

٣ – ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطا بين الفجور والخمود ، بل العفة هى العفة ...

٤ – أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ۞ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾[1] فإنه موضع نظر

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ۞ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ۞ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً** ﴾[2].

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة بالأخذ بيد آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير وهو البعثرة في السرف والإنفاق في المعاصي وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعن مجاهد وقتادة وابن زيد . أما الإنفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ، ولو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيراً .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

ثم نهى الله عن البخل بالمال فى الحقوق التى أوجبها فى أموال الأغنياء ، ونهى عن العطاء الذى لا يبقى عند صاحبه شيئاً ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

والذى يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هى الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف بإختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل الكثير ، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلاً وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا * وكان بين ذلك قواما** ﴾[1] لاتعنى الوسطية بين الجود والشح ، أو بين السخاء والتقتير ، بل تذم الإسراف ، وتذم الشح ، وتدعو إلى العدل ، ليس الاعتدال حداً وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

٧ - القــوة :

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوى هو الذى يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع ، لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء ...

وإن هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلاً لا تقره الإنسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سوراً لا ينفذ منه تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض يبطش قويهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويهم ، وإن أدى البطش والخنوع إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها إلى هذا المذهب البغيض .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٧ .

الأخـلاق الإسلاميـة ينبوعهـا

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكدرة وانقطاع فى الطريق وغيض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثرٌ لا ينضب ، متدفق لا يغيض ، نقى لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف مبّرأ من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فمـا هـذا الينبـوع ؟

إنه الإسلام الذى لا يهدى إلى الاخلاق الفضلى والمثل العليا سواه . إنه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ الذى يعلم السر والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعاً : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] وهو الذى ﴿ **يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾[2]

محـورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟

ما المحور المركوز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

إنـه التقـوى

فمـاذا تعنـى التقـوى ؟

١ - للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .

هى الإساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يميد ، ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير ...

ومامن شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى ــ وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها ــ إلا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيما غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والعذر والكذب ومن كل رذيلة .

---

(١) سورة الملك الآية : ١٤ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤١ .

٢ – وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومئتى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين ...

٣ – ونستطيع أن نستنبط للتقوى ـــ مع هذه الدلالة العامة التى تجمع كل فضيلة ، وتنفى كل رذيلة ـــ معانى جزئية تتصل بها فضائل معينة كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها .

(أ) فالكرم متصل بها فى قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى** ﴾[1]. وفى قوله : ﴿ **وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى** ﴾[2] .

(ب) والشجاعة متصلة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[3] وقوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[4].

(جـ) والعدل مرتبط بها فى قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله * واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[5]

وفى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا * اعدلوا هو أقرب للتقوى * واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[6].

(د) والعفة ذات علاقة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً** ﴾[7]

(هـ) والصدق صلة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[8] وفى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾[9]

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها فى قوله تعالى : ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها * وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾[10].

---

(١) سورة الليل الآيات : من ٥ حتى ٧ .
(٢) سورة الليل الآيتان : ١٧ ، ١٨ .
(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٣ .
(٤) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠ .
(٥) سورة البقرة الآية : ١٩٤ .
(٦) سورة المائدة الآية : ٨ .
(٧) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .
(٨) سورة التوبة الآية : ١١٩ .
(٩) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .
(١٠) سورة الفتح الآية : ٢٦ .

عن الحسن : إن كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها .

وفى قوله تعالى : ﴿ **الذين عاهدت منهم * ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** ﴾[١]

(ز) والرحمة غصن من درجتها ، فى قوله تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾[٢].

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

(ح) والعفو جزء منها فى قوله تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[٣].

(ط) والصبر جانب من جوانبها فى قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به * ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وماصبرك إلا بالله * ولا تحزن عليهم * ولا تك فى ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[٤].

وفى قوله تعالى : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٥].

(ى) والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : ﴿ **فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾[٦].

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى فى قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو * وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٧].

(ل) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى فى قوله تعالى : ﴿ **فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾ .

(م) وإصلاح ذات البين مرتبط بها فى قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم * واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾[٨].

(ن) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسخاء فى معاملتهن المالية وثيق الاتصال

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٦ .
(٢) سورة النساء الآية : ٩ .
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤
(٤) سورة النحل الآيات : من ١٢٦ حتى ١٢٨ .
(٥) سورة يوسف الآية : ٩٠ .
(٦) سورة البقرة الآية : ٢٨٣ .
(٧) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .
(٨) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

بالتقوى فى قوله تعالى : ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى * ولا تنسوا الفضل بينكم * إن الله بما تعملون بصير** ﴾[1].

(س) والكسب الحلال متصل بهما فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا** ﴾[2].

خصائص الأخلاق الإسلامية

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :

١ - الخير المطلق :

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إيثار فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

تحقق الخير المحض للفرد والناس جميعاً ، فى كل البيئات ، وفى جميع الحالات ، وفى كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها ، لأنها خير يجب أن يفعل ، ونهى عن الرذيلة ، وبغضها إلى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الإسلام بفاعلى الخير وتاركى الشر من أن يتوقعوا جزاء من الناس لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن إتخاذ الخير سلماً إلى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة و بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التى تقرر هذه الحقيقة كثيرة جداً ، منها قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[4] وقوله : ﴿ **وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله** ﴾[5].

٢ - الصلاحية العامة واليسر :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس فى كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة

---

(١) سورة البقرة الاية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٨ .

(٣) سورة الروم الآية : ٣٩ .

(٤) سورة النساء الآية : ١١٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢ .

ميسورة ، ليس فيها أرهاق ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل الإسلام سنَّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقية ، وتهش لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة . وقد صدق المولى سبحانه فى قوله : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[١] وفى قوله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[٢].

لهذا أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، وأباح للمسافر وللمريض أن يرجىء صوم رمضان إلى زمن مقبل ، وبين العقوبة لا تكون إلا على ذنب مقصود متعمد ...

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققان فى الأخلاق الإسلامية ، على حين أن مذهب العرف ضيق المجال ، متغير الأحكام فى البيئات والأعصار ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير ضيق ، ومقياسة مضطرب لا حدود له ولا استقرار . أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ، لأن الإسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، وفى الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة ...

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو لدائمة ، وكثيراً ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام .

أما الفضائل الإسلامية فإنها صالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، فى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة سهولة التكليف الإسلامى ويسره قال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبكُ إلى ما لا **يريبك** فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبه » رواه البخارى[٣].

وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » متفق عليه[٤]. وعن عائشة ــ رضى

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب البيوع ٣/٦٦ وسنن الترمذى ٤/٦٦٨ رقم ٢٥١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٣١ .

الله عنها ـــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »[(١)].

٣ - الثبــات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهى إذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وإن النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ولهذا تعددت فى العصر الواحد وفى مختلف الأعصار .

٤ - الإلــزام المســتجاب :

ماالذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس ؟

وماالذى يريده العالم حين يضع مذهباً فى الأخلاق ؟

إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم فى السر والعلن ، وفى الوحدة والاجتماع ، وفى النعماء والبأساء .

ولكن ماالذى يحدث فى كثير من الأحيان ؟

ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده إذا ماواتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟

ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقى إذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟ ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسفة ؟

ذلك بأن الوازع هنا خارجى لا سلطان له على دخائل النفوس ، وأعماق الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمردت الأهواء والنزعات .

أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة ناقدة تلزم بها فى العلن والخفاء ، وفى السراء والضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وإن هذا الإلزام لمحبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ـــ جل جلاله ـــ قد ربى المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحى يمدها بأعظم الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

---

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب البر والصلة ٢٠٠٣/٤ رقم ٢٥٩٣ .

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمراً مطلقاً قائماً على الإلزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهياً مطلقاً مبنياً على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح .

اقرأ قوله تعالى فى الأمر بغض البصر وصيانة الفرج : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم * إن الله خبير بما يصنعون** ﴾[1] واقرأ قوله تعالى فى الدعوة إلى صلح الزوجين : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾[3] والآيات التى تتضمن هذا كثيرة جداً .

٥ - الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الإسلامية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترىء إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ثم يندم على ما اجترح وبأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عتيداً من الدين نفسه ، ورقيباً من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورباه ، ورقيباً من العقل السليم الذى صقله الدين وهداه .

غـــايتها

تبين أن الأخلاق الإسلامية منفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها وإنها لمتميزة أيضاً بغايتها . وماعسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشربت إليه الإنسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعله الروح الطاهر الذى يسرى فى كل نفس وفى كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟

(١) سورة النور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات : من ٩٠ حتى ٩٢ .

ماالذى يبتغيه الاتقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة ؟

إنهـا السعـادة

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة ، لا الأوهام الملفقة .

السعادة الماثلة ، لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

شغف النبى ﷺ بمكارم الأخلاق

اصطفاه الله من أكُرم دوحة ، وتعهده فى طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو * وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] و ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى * وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** ﴾[2] و ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[3] و ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[4] و ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾[5] .

وكان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت كان خلقه القرآن[6].

فيكف لا يكون فى القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا ؟

لقد كان ﷺ فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم كما حسنّت خَلْقى فحسّن خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت »[7].

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٣) سورة لقمان الآية : ١٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٥) سورة فصلت الآية : ٣٤ .

(٦) صحيح مسلم ـــ كتاب صلاة المسافرين ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

(٧) مسند أحمد ٨٦/٦ .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[١] وكان ﷺ لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة منها :

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »[٢].

وقوله : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل **الظامى** بالهواجر »[٣].

وقوله : « من سعادة المرء حسن الخلق »[٤]

وقوله : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »[٥] .

وقوله : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[٦].

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن[٧] .

وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال أحسنهم خلقاً[٨] .

والذى يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أن النبى ﷺ ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق رباط ، ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هى من أهل النار[٩].

وبلغ من كلفه ﷺ بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى لكرم أخلاق أبيها . وقال بعد أن أطلق سراحها « فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق » .

كان ﷺ شغوفاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه ، فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقاً بثناء الله تعالى عليه فى كتابه الكريم كقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق**

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/١٩٢ .

(٢) سند الترمذى ٤/٣٧٠ رقم ٣٠١٨ .

(٣) مسند أحمد ٦/١٣٣ والمستدرك للحاكم ١/٦٠ .

(٤) الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن جابر — باب الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها .

(٥) مسند أحمد ٢/٣٩٢ .

(٦) سند أبى داود ٥/٦٠ رقم ٤٦٨٢ وسند الترمذى ٣/٤٥٧ رقم ١١٦٢ .

(٧) مسند أحمد ٤/٣٨٥ .

(٨) الجامع الصغير للسيوطى رقم ١٢٩٢ .

(٩) السنن الكبرى للبيهقى ٤/١٦٦ .

عظيم ﴾[٢] وقوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[٥]

وحسبه من هذا التشريف الإلهى أن الله تعالى أقسم بحياته فى قوله : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[٦] ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبى طالب : « إنه كان أجود الناس كفاً ، وأجرأ الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه »

خلق الشجاعة

« لم يكن النبى ﷺ شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى فى الشجاعة ، إذ كان شجاعاً فى السلم ، وشجاعاً فى الحرب ، وشجاعاً في وحدته ، وفى قلة من أنصاره ، وشجاعاً فى جماعته ، وفى كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً فى جهره بالحق ، وفى دفاعه عن العقيدة ، مهما تكن عاقبة الشجاعة . وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل فى صفحاته أسماء كثير من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله ﷺ من ضروب الشجاعة المثلى فى مصادرها وفى مظاهرها وفى غاياتها .

مصادرها :

أما مصادر شجاعته فهى وراثته وفطرته وتربية الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[٧]. وقوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى**

---

(١) سورة القلم الآية : ٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .
(٣) سورة الحاقة الآيات : من ٣٨ حتى ٤٠ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ٣١ .
(٦) سورة الحجر الآية : ٧٢ .
(٧) سورة التوبة الآية : ٤١ .

سبيل الله فيقتلون ويقتلون * وعداً عليه حقاً فى التوارة والأنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[1]

مظـاهـرها :

أما مظاهر شجاعة الرسول ﷺ فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأى ، وشجاعة الحرب .

١ - شـجاعة الـرأى :

١ - فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها وعيب آلهتها فمشوا إلى عمه أبى طالب وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم أبو طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال لمحمد : ياابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : ياعم ، والله لوضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب . فقال : أقبل ياابن أخى فأقبل عليه ، فقال : أذهب ياابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ[2]

٢ - وعرض عتبة بن ربيعة على قريش - بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب أن يعرض على الرسول أموراً لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والعلاء فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً .

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٨٥ .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال الرسول : فاسمع منى

قال : أفعل

فقال الرسول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه** ﴾ ومضى رسول الله يقرؤها عليه ، وعتبة منصت ، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله إلى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش . أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

٢ - الشجاعة فى الحرب :

وقد تجلت شجاعته ﷺ الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله ﷺ بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم . وحدث رسول الله بقوله : كنت أنبل على أعمامى . ﴿ **أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها** ﴾[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١ .

ثم بعد النبوة كان ﷺ يشارك فى المواقع ، ويقدم إقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتماداً على أنه النبى ، فيتوارى أو يتحصن ، أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب أو ملام ، لو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم .

الغاية من شجاعته :

وأما الغاية من شجاعته فإنها إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال الوثنية ، وإرهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازى العقائد والنظم ومفاسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة ، وأصلح نظام فى السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمّية ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله(١)

فلم تكن الشجاعة التى اتصف بها النبى ﷺ والتى حرض عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المدل بقوته ، المفاخر بها بين الناس ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير الحق ، بل كانت الشجاعة المثلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »(٢) .

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو فى قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى وقال : لن أستعين بمشرك(٣)

الإشـادة بشجاعتـه ﷺ

لقد كان المسلمون يعجبون بشجاعة رسول الله إعجاباً يصغر فى عيونهم شجاعتهم ، ويهون بسالتهم .

يقول الإمام على : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤٤ .

(٢) سنن أبى داود ١٢٨/٥ رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى فى الديات حديث رقم ١٤٢١ وابن ماجه فى الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن الترمذى ـــ كتاب السير ١٢٨/٤ رقم ١٥٥٨ .

ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشد بأساً .

ويقول أنس بن مالك . كان النبي ﷺ أشجع الناس ، فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخبر ، فإذا النبي ﷺ عائد على فرس ليس عليه سرج ، وفى عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن تُراعوا ، لن تُراعوا »[1].

وقال عمران بن حصين : مالقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

حضه على الشجاعة

كان النبي ﷺ قدوة المسلمين فى شجاعته الحربية ، وغير الحربية ، وكان يحضهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقوال ، ويوضح لهم الغاية النبيلة التى يجب أن يتوخوها فى جهادهم ، وله فى هذا المجال أحاديث كثيرة منها :

١ – من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد[2].

٢ – أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر[3]

قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله[4].

٤ – « إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »[5]

٥ – « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[6].

٦ – « لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل »[7]

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٨٩ .

(٢) سنن أبى داود ١٢٨/٥ حديث رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى فى الديات حديث رقم ١٤٢١ وسنن ابن ماجه فى الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن أبى داود فى الملاحم ٥١٤/٤ رقم ٤٣٤٤ والترمذى فى الفتن حديث رقم ٢١٧٥ وابن ماجه فى الفتن حديث رقم ٤٠١١ .

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب فضل الجهاد والسير ١٨/٤ .

(٥) صحيح البخارى ــ كتاب فضل الجهاد والسير ١٩/٤ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣٤ .

(٧) صحيح البخارى ــ كتاب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام ٦٤/٤

٧ – قال في يوم بدر : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »[١].

خلـــق الكـــرم

كـرم النبى ﷺ

لم يشغف العرب فى الجاهلية والإسلام ، بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم فكان الأمراء والملوك أشد حرصاً على أن يذيع فى الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ، ويختصون هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين أحياناً .

لكن كرم النبى ﷺ كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه العرب ، ولم يألفه غيرهم .

١ – فلم يكن جوده لكسب محمدة أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستقلال ، أو لاجتلاب المادحين ، بل كان فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

كان فى حماية الدين ، وفى مؤازرة الدعوة ، وفى محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم فى سبيل الله أو عجزوا عن الكسب وكان فى رعاية اليتامى والأيامى ، وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال ، وكان فى اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتذابهم إلى الإسلام .

٢ – وكان من كرم النبى ﷺ إيثاراً على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، ويبذل الكثير ، وهو محتاج إلى القليل ، لأنه لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنيه أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هى الدرجة العليا من الكرم التى امتدحها الله تعالى فى قوله : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[٢].

لهذا قالت السيدة عائشة : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا »[٣].

٣ – وكان ينفق فى سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطى العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شىء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط فقال لا .

---

(٦) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢ .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٧١ .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة[١] .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

ولما قفل من حنين جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت **رداءه** ، **فوقف** وقال : أعطونى **ردائى** ، لو كان لى عدد هذه العضاة (شجر شائك كثير فى الصحراء) نعماً لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً[٢] .

٤ — وبلغ من الكرم أنه كان يستحيى أن يرد سائله خالى اليدين معتذراً بالفاقة .

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندى شيء ، **ولكن** ابتع علىَّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه .

فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيته من قبل ، فما كلفك الله مالا تقدر عليه .

فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أنفق ولا تخشى من ذى العرش إقلالا ، فأبتسم النبي ، وعرف البشر في وجهه ثم قال : بهذا أمرت[٣] .

وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمسك شيئاً .

قال ابن عباس : كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبى ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل — عليه السلام — كان أجود بالخير من الريح المرسلة[٤] قال الزين بن المنير : وجه التشبيه بين أجودتيه ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة أن المراد بالريح ريح الرحمة التى يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذى يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أى فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم **الْقيم** الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ .

يامـــن له الأخـــلاق ما تهـــوى العـــلا
منهـــا ومـــا يتعشـــق الكـــرمـــاء
زانتـــك فى الخلـــق العظيـــم شمائـــل
يغـــرى بهـــن ويولـــع الكـــبراء

---

(١) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ١٨٠٦/٤ رقم ٢٣١٢ .
(٢) صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير ٢٧/٤ ومسند أحمد ٨٢/٤ .
(٣) مختصر الشمائل المحمدية للترمذى صفحة ٣٨١ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٠ .

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت مالا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
لايستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنا برهزة
تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لاضغن ولاشحناء
لو أن إنسانا تخير ملة
ما أختار إلا دينك الفقراء

حضه على الكرم ﷺ

لطالما حض النبى ﷺ على الكرم بمعناه الذى يرتضيه الإسلام ، من بذل فى تقوية الجيش ، أو فى الدفاع عن الدعوة ، أو فى البر بالفقراء .

من هذا قوله :

١ – قال رجل للنبى ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تتصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغني وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان »[١]

٢ – سأل رجل النبى ﷺ : أى الاسلام خير ؟ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير — فقال له : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[٢]

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١١ .
(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان ١١٥١ .

٣ – عدْ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة رجلاً تصدق فأخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (متفق عليه)(١)

٤ – وقال لأسماء بنت أبى بكر الصديق : « أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك . ولا توعى فيوعى الله عليك » (متفق عليه)(٢).

٥ – « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »(٣).

٦ – من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »(٤).

٧ – « إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران » (الجامع الصغير)(٥)

٨ – « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه »

خلـق العـدل

المراد بالعدل هنا إعطاء كل ذى حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ومؤاخذة المسىء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعنات أو محاباة .

مظـاهـره :

استقى النبى ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك فى حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف الفضول قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبى ﷺ هذا الحلف ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .
(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٠٨ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٩١ .
(٤) مسند أحمد ١٧٤/٢ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى ٣٩٧/١ رقم ٧٤١ .

ما أحب أن لى به حُمْر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت »[١] (سيرة ابن هشام)

ثم إن النبى ﷺ هو المبلغ للشريعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها ، وهو القاضى الأول الذى يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟

أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ — لما نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ناداهم بطناً بعد بطن ، فقال : يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يابنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً[٢]

٢ — كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم ، فكان يجِلّ العباس اجلال الوالد والوالدة ، ولكنه لم يفضله فى عطاء .

٣ — شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها ، وطلبت منه خادماً من السَّبى يكفيها مئونة العمل ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع[٣]

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفه المسجد ، وليس لها مرتزق .

كان يُعِّدلُ صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قِدْحُ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزيَّه وهو ناتىء من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، **وقد بعثك الله بالحق ، فأقدنى (أى دعنى أقتص منك)** .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استقد يا سواد ، فعانقه سواد ، وقبَّل بطنه ، فقال الرسول ، ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير » (سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى)[٤].

٥ — سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : « ومن يكلم فيها رسول الله ؟

(١) سيرة ابن هشام ١/١٤١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣ .

(٣) الحلية لأبى نعيم ٢/٤١ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٨ .

ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء فى خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » (متفق عليه)[1].

٦ - قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن على المهاجرين ، والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتذمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى ظنوا أن الرسول حابى قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ، لما صنعت فى **هذا الفىء الذى أصبت .**

قال الرسول ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

قال : فاجمع لى قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى الله ورسوله أمنَّ وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل .

قال : أما والله لوشئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناءَ أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً »[2].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٢) صحيح البخارى ـــ كتاب المغازى ٥/٢٠٠ .

حضه على العدل والمساواة ﷺ

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح ، قال تعالى : ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[١].

١ – وقال عليه الصلاة والسلام : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ولا فضل لعربى على عجمى ، ولا عجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الشاهد الغائب » (كنز العمال)[٢].

٢ – وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله في حاجته »[٣].

وقال ﷺ : « لايقضين حكمٌ بين اثنين وهو غضبان » (متفق عليه)[٤].

٤ – وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »[٥]

وقال : « من كانت له امرأتان فمال إلى احدهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »[٦].

٦ – وقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[٧].

٧ – إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[٨] .

خلــق العفــة

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته مالا يحل له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفة .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣ .
(٢) كنز العمال ٩٥/٣ رقم ٥٦٥٥ .
(٣) صحيح البخارى ــ كتاب المظالم ١٥٩/٣ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١١٩ .
(٥) صحيح البخارى ــ كتاب المظالم ١٦٠/٣ .
(٦) مسند أحمد ٣٤٧/٢ .
(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .
(٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٦٨ .

مظـاهرها :

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات فى جميع ضروب العفة وأنواعها فقد كان المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالأمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد .

١ - أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيات التى لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته ، فلم يزل قط ، ولم يهم بفاحشة قط ، حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو محرماً أو ملك يمين .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس فى عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ، أو تمر بعض نساء يبدو منهن ــ من غير قصد ــ شىء من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يغضوا أبصارهم ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردو السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف[1].

٢ - وكان الرسول ﷺ عفيف اللسان حتى فى أشد حالات الخصام ، لم يعرف البذاء والسباب سبيلاً إلى شفتيه .

لما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دوس[2].

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً ، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

فلم يشأ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين فى غزوة الأحزاب بقوله : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[3].

لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

---

(١) الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن ابن عباس

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ٢٢٠/٥ .

(٣) صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ١٤٢/٥ .

حضه على العفة ﷺ

حرص رسول الله ﷺ على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة فى كثير من أحاديثه كقوله :

١ – أن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال[1]

٢ – اليد العليا خير من اليد السفلى . (اللؤلؤ والمرجان)[2]

٣ – لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه[3] (متفق عليه) .

٤ – ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس[4] (متفق عليه)

٥ – سأل ناس من الأنصار رسول الله فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده فقال : « ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر » (متفق عليه)[5].

٦ – معاشر الشباب ، عليكم بالباءه ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فالصوم وجاء[6].

٧ – ذكر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله[7].

خلـق الصـدق

أجمع الذين عرفوا النبى ﷺ وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين لم يسمعوا من فمه أكذوبة قط ، ولم يشكوا فى خبر من أخباره ، أو يستريبوا فى قول من أقواله .

١ – فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدىء به روعه حين أتاها خائفاً بعد أن نزل عليه الملك يقول ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ خيراً من قولها له : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكلَّ ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق[8].

---

(١) سنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ١٣٨٠/٢ رقم ٤١٢١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٢ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٤ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٧ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٨٤ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .

(٨) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ٢١٤/٦ .

٢ — وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة وصعد الصفا فقال : ياصباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وماكسب * سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾[1].

٣ — على أنهم وإن كذبوه فى دعوى النبوة لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب فى سواها ، فقد قال أبو جهل للنبى ﷺ إننا لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[2].

٤ — ولما سأل هرقل امبراطور الروم أبا سفيان فى ركب من قريش بعد صلح الحديبية : « هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال ، لا ، فقال : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله »[3] (الحديث بقوله فى البخارى)

٥ — جاء فى وصف على بن أبى طالب لرسول الله ﷺ أنه كان أصدق الناس لهجة[4]

الرســـالة

لقد صدق رسول الله ﷺ فى تبليغه عن ربه ، لكن قريشا التى وثقت واطمأنت إلى صدقه فى صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ — فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذى يصدقهم الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله .

ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ماران عليها من حجب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا وشهواتها لأيقنوا أن النبى يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أوج التوحيد الخالص الذى تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموا عن هذا كله ، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول ولم يتبصروا فى قوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[5].

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٣ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب بدء الوحى ١/٧ .

(٤) سنن الترمذى — كتاب المناقب ٥/٥٩٩ رقم ٣٦٣٨ .

(٥) سورة الحاقة الآيات : من ٤٤ حتى ٤٧ .

لأنه لو كان مدعياً للنبوة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذى لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ – على أن النبى ــ وهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه ــ قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأمور ستقع وقد وقعت فعلاً ، فمن أين جاء النبى بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ **وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾[1] .

من أين جاء النبى بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنبوة ولا رسالة ﴿ **قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به * فقد لبثت فيكم عمراً من قبله * أفلا تعقلون** ﴾[2]

٣ – وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبى ﷺ إلى الهداية ، ويتشوف إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحى بالقضاء الحاسم .

ويكفى أن أشير هنا إلى قصة الإفك التي نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحى ، والمسلمون فى قلق ، والنبى فى قلق ، والنبى ﷺ نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحى بتبرئتها مما افتروا عليها .

فلو أن النبى كاذب ــ كما يدعون ــ لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرصون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهى أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار : لأن الفرية مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ، ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبى نفسه ﷺ وعرض صديقه أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد فى هذا المأزق عن أن النبى ﷺ عربى من أشرف قبيلة فى العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وخيانة لنسائهم لم يكن ما بين الأمم نظير ومثال .

٤ – على أن الوحى كان ينزل أحياناً بمالم يكن النبى يتوقعه ، فيأذن له في شيء لايقبل عليه ، كتحريمه بعض الطعام على نفسه . أو يعاتبه فى عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه فى أن يتخلفوا من غزوة تبوك ، معتذرين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم في الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : ﴿ **لو كان عرضاً قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة * وسيحلفون بالله لو**

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٦ .

استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾(١) .

٥ – والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدى صارخا ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا ، عجزا فاضحاً ، ولكنهم حاولوا أن يستردوا خزيهم فاتهموا النبى بأنه شاعر ، وبأنه كاهن ، وبأنه ساحر ، ولم يسائلوا أنفسهم لم قدر هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلهم ساءلوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم فى الغي والضلال .

وشيء آخر بأنهم بأذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام ، وتمييز بعضه من بعض كانوا يجدون فرقاً كبيراً من القرآن وكلام النبى ﷺ ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا فى البلاغة ، ولكن كلام النبى على كثرة رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يدع النبى نفسه ولم يدع أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .

فأنى له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزاً ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكى هذا الكلام ؟

٦ – ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذى كانوا يظنون أنه يدفع النبى إلى الكذب ؟ لقد احتمل فى دعوته أفدح المخاطر ، وأقسى الشدائد . وصبر على مالا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان ، ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يجن من وراء دعوته ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان .

فلو أنه كان كاذباً – كما يدعون – لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يئسوا من تراجعه عن الدعوة إلى الإسلام الذى يسفه عقولهم ويلغى أديانهم ، ويبطل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقا لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء .

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسوراً عليه . بل آثر أن يقضى حياته زاهدا مبغضا لمظاهر الجاه والسلطان .

٧ – على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حينا من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأشربتها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم وأموالهم ، لأنهم أيقنوا أن محمداً الذى لم يكذب عليهم قط لم يكذب على الله قط ، وليس بصاحب بهتان ولا طالب مال أو جاه .

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

حضه ﷺ على الصدق

للرسول ﷺ كثير من الأحاديث فى الأمر بالصدق وتزيينه ، وفى النهى عن الكذب وتقبيحه ، منها قوله :

١ - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(١).

٢ - « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان »(٢).

٣ - « البيعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما محقت بركة بيعهما » (متفق عليه)(٣).

٤ - « تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة » (كنز العمال)(٤).

٥ - « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئا فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت »(٥).

« كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق ، وأنت له به كاذب »(٦).

خلق الأمانة

أمانة الرسول ﷺ كفضائله ، كلها شاملة كاملة متعددة المظاهر :

١ - وليس من شك فى أن مظهرها العظيم هو نهوضه بتبليغ الرسالة التى ائتمنه الله عليها ، وكلفه أن يقوم بها ، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام ، واحتمل فى سبيلها أشق ما يحتمله بشر .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٥ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩٨٠ .

(٤) كنز العمال ٣٤٤/٣ رقم ٦٨٥٦

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٤ .

(٦) مسند أحمد ١٨٣/٤ .

٢ – وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين ، ولهذا رحبوا بتحكيمه فيما كان يهم من نزاع ، وارتضوا ما قضى به فى شأن وضع الحجر الأسود ... (تاريخ الطبرى)

٣ – كان رسول الله ﷺ « إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى ثلاثاً فى الناس فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمها ويخمسِّها ، فجاءه رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالا ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال فما منعك أن تأتينى به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبى ﷺ لن أقبله منك حتى تكون أنت الذى توافينى به يوم القيامة »[(١)]

٤ – استعمل رسول الله ﷺ عاملاً ـــ ابن اللتيبة ـــ على الصدقة ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أهدى إلىّ ، فقال له : أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك ، فنظرت أيهدي إليك أم لا .

ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدى إلىّ ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه ، فنظر هل يهدى له أم لا ؟

فوالذى نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيراً جاء له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار ، وإن كانت شاة جاء بها تيعر[(٢)] (خ)

٥ – قال جابر بن عبد الله : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد ضحى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لى عليه دين فقضانى وزادنى[(٣)].

٦ – أتى رجل إلى النبى ﷺ يتقضاه ، فأغلظ ، فهمّ به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، ثم قال : أعطوه سناً مثل سنه (أى جملاً سنه مثل الذى له) قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال : اعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء[(٤)].

حضه ﷺ على الأمانة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ – « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »[(٥)] (أخرجه أبو داود والترمذى) .

---

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٧١٢ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٠٢ .

(٣) مسند أحمد ٣١٩/٣ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٢ .

(٥) سنن أبى داود ـــ كتاب البيوع ٨٠٥/٣ رقم ٣٥٣٥ والترمذى فى البيوع حديث رقم ١٢٦٤

٢ — « من انتهب فليس منا »[١].

٣ — « من ظلم قيد شبر من الأرض طُوقه من سبع أرضين »[٢].

٤ — « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أمه وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »[٣].

٥ — ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[٧](خ)

٦ — « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[٥].

خلـق الصـبر

قضى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفت صوتها ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون فى هذه الدعوة تسفيهاً لعقولهم ولآلهتهم ، وتقويضا لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها ، فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصرارا عليها ، وكلما أمعنوا فى إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله فى ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له فى الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرضعون مناره ، ويفدونه بأغلى ما يُفتدى به عزيز .

١ — لقد صبر الرسول ﷺ على جراح الألسنة ، وإنها لأيمة فى مجتمع يحرص على الثناء وحسن الأحدوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام فى المجتمع المعاصر ، حتى كان بعض السَّراة يغدق على الشعراء استدراراً لمدائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله ﷺ فى مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلى أن يسمعوا قومه ، ليرفعهم من

---

(١) سنن الترمذى — كتاب السير ٤/١٥٤ رقم ١٦٠١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٩ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٩٩ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الاستقراض ٣/١٤٤ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٧ .

الضلالة إلى الهدى ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلى أن يعمدوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول ﷺ بأنه حالم يهذى بما تراءى له فى المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء . وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه فى شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة فى التأثير والاستهواء ثم يتمادون فى السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء .

٢ - وكثيراً ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة يريدون أن يصدوه عن سبيل الله ، ويريدون أن يوئسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذى يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذى يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان الصبر العظيم دليلاً على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطلب ملكاً ، ولا يبتغى جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات وجعلوا يتحملون أذى المشركين فى شجاعة وثبات وهم يودون أن يفتدوا رسول الله ﷺ مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء .

(أ) قال ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى ، فقال : أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبى وهو ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبى لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً ، ولم يزل الرسول ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة — رضى الله عنها — بنت النبى ﷺ فرمت القذر بعيدا عنه(١) .

(ب) انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة — وكانت للرسول مصدر حنان وخير معين — ووفاة عمه أبى طالب — وكان له عضداً ونصيراً — وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمعنت فى الأذى وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى فاعترضه سفيه من قريش ، فحثا على رأسه تراباً ، فدخل الرسول ﷺ على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وتبكى ، وهو يقول لها ، لا تبك يا بُنيه فإن الله مانع أباك »(٢)

(جـ) لما مات أبو طالب واشتدت قريش فى إيذاء النبى خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : أنزع أستار الكعبة وأرميها إن

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٢ .
(٢) سيرة هشام ٥٨/٢ .

كان الله قد أرسلك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك فقام الرسول من عندهم يائساً من ثقيف ، وقال لهم : أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، لأنه خشى أن يعلم قومه بما حدث له فيزدادو جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان فاستظل بكرمة فيه

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ،ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل سخطك ، لك العتبى ولا حول ولا قوة إلا بك[1].

٣ — ثم هاجر النبى من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابعت محاربتهم له ، وكثيراً ما جمعوا جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالى بالمدينة .

ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرضوهم على حربه تارة .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ولقد انتصر النبى ﷺ فى بدر والخندق وغيرهما ولكنه فقد كثيراً من خلصائه وأحبابه فصبر

٤ — وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده وأغلى ثمره وبضعاً من نفسه ، فإنه فقد قبل البعثة طفليه القاسم وعبد الله — الملقب بالطاهر والطيب — ثم فقد بعد البعثة كريماته زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن .

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضا عمن فقد ، وأمّل أن يبقيه الله ، ليسعد به فى شيخوخته ، وليكون له عقبا وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر حتى مرض . فلما كان فى الاحتضار أخبر النبى ﷺ فاعتمد على عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم فى حجر أمه ، وهو يصعد آخر أنفاسه ، فوضعه فى حجره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا ، ثم صمت وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك أشد من هذا .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٣٥/٦ .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال النبى ﷺ : العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1].

حضه على الصبر ﷺ

لقد علم النبى ﷺ المسلمين الصبر عملاً ، وعلمهم الصبر إرشاداً وقولاً فحضهم على الصبر ، وحببه إليهم ، ونفرهم من الجزع ، وبغضه لهم وله فى هذا أحاديث كثيرة منها :

١ - « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أؤجرنى فى مصيبتى ، وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك »[2].

٢ - « ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ عنه خطاياه كما يحات ورق الشجر[3].

٣ - « أتى بعض المسلمين رسول الله وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمّراً الوجه ثم قال : إن من قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له فى الأرض حفيرة[4] ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه »

٤ - « إن الله تعالى قال » إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه — يريد عينيه — فصبر عوضته منهما الجنة[5].

٥ - « الصبر نصف الايمان »[6].

٦ - « الصبر ضياء »

٧ - ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »[7]

٨ - « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[8].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٣٢ .

(٢) مسند أحمد ٣٠٩/٦ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الطب ١٤٩/٧ .

(٤) مسند أحمد ٣٩٥/٦ .

(٥) مسند أحمد ١٤٤/٣ .

(٦) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٥ .

(٨) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤ رقم ٢٩٩٩ ومسند أحمد ٣٣٢/٤ .

خُلق الحِلم

كان الرسول ﷺ المثل الأعلى فى الحلم لأن الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : ﴿ **خذ العفو * وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله * إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا * فإذا هم مبصرون** ﴾[1] وبقوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[2].

ففى الآية الأولى أمر بالحلم وبالاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام وفى الآية الثانية مساواة بين كظم الغيظ والبذل فى سبيل الله والعفو عن الناس . فإذا علمنا أن كظم الغيظِ أقل شأنا من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ...

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة فى سعة الصدر وسماحة النفس التى تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى **والعقلاء** ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدال الا اللجاج والعناد ، والحلم فى كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التى لا تغنى قوة غناءها .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التى جذبت إليه النفوس وألّفت حوله القلوب ، وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[3].

– جاءه أعرابى يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبى : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابى : نعم .

فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى : إن هذا الأعرابى قال ما قال **فزدناه** ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

---

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال الرسول : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها من بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها[1].

أرأيت إلى رسول الله ﷺ ـــ كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه ؟ أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعاءه ؟

طلب منه أصحابه فى موقعة أحد أن يدعو على المشركين الذين شجوا وجهه ، وكسروا رباعيته حتى سال الدم على وجهه الشريف ، فقال : « إنى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . (اللؤلؤ والمرجان)[2].

حدث أنس قال : كان رسول الله يمشى يوماً وأنا معه ، فأدركه أعرابى فجذبه جذباً شديداً ، وكان على النبى برد نجرانى غليظ الحاشية فنظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جذبه .

وقال الأعرابى : يا محمد ، احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبى ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى ؟

قال الأعرابى . لا قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابى : لأنك لاتكافىء السيئة بالسيئة ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم أمر أن يحمل للأعرابى على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

غضب الحليم

لكن من الأحداث مالا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ، فلابد من غضب غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول ﷺ صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامى حقيقة ، فمن حقه أن يحلم على ما يصيبه هو فى سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾[3].

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١٥٩/٣ رقم ٢٤٧٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٠ .

(٣) سورة التوبة الآية : ٧٣ .

هنا كان رسول الله ﷺ يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب لأن غضبه لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق ، وكما قالت السيدة عائشة ، ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها[١] يكن غضب الرسول ﷺ لائق برسالته وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

حضه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله ﷺ التى تحض على الحلم مظهراً قولياً من حلمه العملى . مثال ﷺ :

١ - « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله »[٢].

« ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له الولد ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم »[٣](خ).

٣ - « قال رجل لرسول الله يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل : قال : لا تغضب ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب »[٤](خ).

٤ - قال لأصحابه : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٥].

٥ - « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »[٦] (الجامع الصغير) .

خلـق الرحمـة

تعددت مظاهر رحمته ﷺ وتنوعت ، فوسعت المسلمين ، وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الاحرار والأرقاء ، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسى والحيوان .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٥٠٢ .
(٢) مسند أحمد ١٢٨/٢ .
(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٣١/٧ .
(٤) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٣٥/٧ .
(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٦ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى رقم ٨٩٩٧ .

قدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال ما جئتك حتى أبكيت والديَّ فقال ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما[١].

جاء آخر إليه ليستشيره فى الجهاد ، فقال : ألك والده ؟ قال : نعم قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجليها[٢].

شكا إليه رجل أنه يتأخر عند صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس فغضب رسول الله ﷺ وقال إن منكم منفرين فأيكم صلى بالناس فليتجوز ــ فليخفف ــ فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة[٣].

وقال ﷺ إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز ــ أخفف ــ فى صلاتى ، كراهية أن أشق على أمه[٤].

ولما فتح مكة ﷺ قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[٥].

وكان ﷺ يداعب الأطفال ، ويجلسهم فى حجره ، وكان يصُفُّ عبدالله وعبيدالله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق إلىَّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعدون على صدره ، فيقبلهم ، ويلتزمهم[٦].

أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال رسول الله ﷺ أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لايَرحم لا يُرحم[٧].

أكل يوماً رطباً فى يمينه ، فحفظ النوى فى يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ وانصرفت الشاة .

رأى حماراً قد وسِم فى وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان فى وجهه ، وعن ضربه على وجهه[٨] (تيسير الوصول) .

سافر مع بعض أصحابه ، فرأوا حُمّرة معها فرخان لها ، فأخذوهما فجاءت تفرش ، فلما رآها رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها (والحمرة نوع من الطير كالعصفور)[٩].

(١) سنن النسائى ــ كتاب البيعة ١٤٣/٧ .
(٢) سنن النسائى ــ كتاب الجهاد ١١/٦ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٦٧ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٧١ .
(٥) سيرة ابن هشام ــ فتح مك ــ ٥٥/٤ .
(٦) مسند أحمد ٢١٤/١ .
(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٧ .
(٨) صحيح مسلم ــ كتاب اللباس والزينة حديث رقم ٢١١٧ وسنن أبى داود ــ كتاب الجهاد حديث رقم ٢٥٦٤ .
(٩) سنن أبى داود ــ كتاب الجهاد ١٢٥/٣ رقم ٢٦٧٥ .

حضه على الرحمة

كثيراً ما أمر رسول الله ﷺ بالرحمة ، وكثيراً ما نهى عن القسوة ، وهو فى أمره وفى نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

قال ﷺ :

١ – من لا يرحم لا يرحم[١] (خ).

٢ – من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا[٢].

٣ – « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » (خ)[٣]

٤ – من أحب أن ينسأ له فى أثره ، ويوسع عليه فى رزقه فليصل رحمه[٤]

٥ – « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ... »[٥].

تجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول ﷺ أنه برسالته الخالدة ، وبأدبه الإلهى ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان الكامل والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزره فى أعلى صورها ، فى سلمه وحربه ، وفى بيته وبين صحبه ، وفى رضاه وغضبه ، وفى سره وجهره ، وفى وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ، ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء وفى كل شأن من شؤونه جل أو صغر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن به على نبى من أنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[٦]

(١) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٩/٨ .

(٢) سنن أبى داود ٢٣٢/٥ رقم ٤٩٤٣ .

(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ١٤/٧ .

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٦/٧ .

(٥) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٧/٨ .

(٦) سورة القلم الآية : ٤ .

قال تعالى :

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

معانى المفردات

﴿ **ودوا لو تدهن** ﴾ : أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم . ﴿ **فيدهنون** ﴾ : فهم يلاينونك ويصانعونك . ﴿ **حلاف** ﴾ : كثير الحلف فى الحق والباطل . ﴿ **مهين** ﴾ : حقير فى الرأى والتمييز . ﴿ **هماز** ﴾ عيّاب أو مغتاب للناس . ﴿ **مشاء بنميم** ﴾ : بالسعاية والإفساد بين الناس . ﴿ **عتل** ﴾ : فاحش لئيم ، أو غليظ جاف . ﴿ **زنيم** ﴾ : دعيٌّ ملصق بقومه أو الشرير . ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ : أباطيلهم المسطرة فى كتبهم . ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ : سنلحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الأنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه مقالة المشركين فى الرسول ــ أردفه بما يقوى قلبه ويدعو إلى التشديد مع قومه ، مع قلة العدد وكثرة الكفار فنهاه عن طاعتهم عامة ، ثم أعاد النهى عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التى ذكرت فى هذه الآيات خاصة ، دلالة على قبح سيرتهم ، وضعة نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾.

قوله تعالى : ﴿ فَلَاتُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك القرآن العظيم ، والشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال ابن عباس : ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك . وقال مجاهد : المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيما لئونك . وقال الحسن : ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم . قال القرطبى كل هذه الأقوال صحيحة : ـ أن شاء الله تعالى ـ على مقتض اللغة والمعنى ، فإن الأدهان اللين والمصانعة . وقيل : مجاملة العدو مما يلته ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَاتَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوافتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1] . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَه وإِذاًلَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْتَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَاتُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بنميم . مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بعد ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ .

أى : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق والباطل ، والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على الله ـ ضـ ـه ومهانته أمام الحق ، وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله .

والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف من جعله المولى فاتحة المثالب ، وأس المعايب .

والمهين : الضعيف القلب ، قال مجاهد ، وقال ابن عباس : الكذاب . وقيل معناه : الحقير عند الله تعالى . وقال الرُّمانى : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة . وهى هنا القلة فى الرأى والتمييز .

وقوله تعالى ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن زيد : الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم . واللماز باللسان قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ وقال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

وقوله تعالى : ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ويحرش بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الحالقة للدين وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث . فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة نمام »[4] . (رواه مسلم) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال :

---

(١) سورة هود الآية : ١١٣

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان غلظ تحريم النميمة » فقد ورد الحديث بلفظه رقم ١٠٥/١٦٨ من رواية لحذيفة .

« إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة »[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن : أن الرسول ﷺ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى - عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير . ﴿ معتد ﴾ فى تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد لمشروع ، ﴿ أثيم ﴾ أى : ذى إثم ، أى : يتناول المحرمات .

وقوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال القرطبى رحمه الله : العتل الجافى الشديد فى كفره ، وقال الفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : إنه الذى يَعتل الناس فيجرهّم إلى حبس أو عذاب . مأخوذ من العَتل وهو الجرّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿خذوه فاعتلوه ﴾[٣] . والعتل : الغليظ الجافى وقال معمر : هو الفاحش اللئيم .

وفى صحيح مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبى - ﷺ - قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف متضعَّف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر » والجواظ : قيل هو الجموع المنوع . وقيل : الكثير اللحم المختال فى مشيته .

وأما (الزنيم) فقال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (عتل بعد ذلك زنيم) قال : « رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاه »[٤] ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها .

وإنما الزنيم فى لغة العرب هو الدعى من القوم قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة .

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم الدعى ، ويقال : الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها ، ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى ، قال محمد بن اسحاق : نزلت فى الأخنس بن شريق ، لأنه حليف ملحق فى بنى زهرة ، فلذلك سمى زنيماً . وقال ابن عباس : فى هذه الآية نُعت ، فلم يعرف حتى قتل فعرف ، وكان له زنمة فى عنقه معلقة يعرف بها .

وقوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل - وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ

---

(١) انظر صحيح البخارى : جـ٢ ص ١٢٤ باب عذاب القبر من الغيبة والبول فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع تقديم وتأخير وزيادة .

(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٦ ص ٤٥٩ فقد ورد الحديث من رواية لأسماء بنت يزيد بن السكن .

(٣) سورة الدخان من الآية : ٤٧

(٤) انظر صحيح البخارى جـ٦ ص١٩٨ تفسير (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

مأخوذ من أساطير الأولين كقوله تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال ابن عباس : معنى (سنسمه) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذى نزلت فيه يوم بدر بالسيف : فلم يزل مخطوما إلى أن مات .

وقال أبو العالية ومجاهد : (سنسمه على الخرطوم) أى : على أنفه ، ونسود وجهه فى الآخرة فيعرف بسوء وجهه . والخرطوم الأنف من الإنسان .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : وهذا كله نزل فى الوليد بن المغيرة ولانعلم أن الله ـ تعالى ـ بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فألحق به عاراً لا يفارقه فى الدنيا والآخرة ، كالسم على الخرطوم .

قصة أصحاب الجنة

قال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(١) سورة المدثر الآيات : ١١ ـ ٣٠

معانى المفردات

﴿ بلوناهم ﴾ امتحناهم بألوان من البلاء والآفات .

﴿ الجنة ﴾ : البستان .

﴿ ليصرمنها ﴾ أى : ليقطعن ثمار نخليها .

﴿ مصبحين ﴾ : أى : وقت الصباح .

﴿ ولا يستثنون ﴾ : أى : يستثنون عما هموا به من منع المساكين .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أى : طرقها طارق من عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها .

﴿ كالصريم ﴾ أى : كالليل البهيم فى السواد بعد أن احترقت .

﴿ فتنادوا ﴾ أى : نادى بعضهم بعضا .

﴿ أن اغدوا ﴾ أى : اخرجوا غدوة مبكرين .

﴿ حرثكم ﴾ أى : بستانكم .

﴿ صارمين ﴾ أى : قاصدين الصرم وقطع الثمار .

﴿ يتخافتون ﴾ أى : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمناجاة حتى لا يسمعهم أحد .

﴿ على حرد ﴾ أى : على منع .

﴿ الضالون ﴾ أى : قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه هى .

﴿ محرومون ﴾ أى : حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا .

﴿ أوسطهم ﴾ أى : أرجحهم رأياً .

﴿ تسبحون ﴾ أى : تذكرون الله وتشكرونه على ما أنعم به عليكم .

﴿ يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين .

﴿ طاغين ﴾ أى : متجاوزين حدود الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرد لما آتاه الله من النعم ـ أردف هذا ببيان أن ما أوتيه إنما كان ابتلاء وامتحاناً ليرى أيصرف ذلك فى طاعة الله وشكره ، أم يكفر بها ؟ كما أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصى دمر الله جنتهم ، فما بالك بمن حاد الله ورسوله ، وأصر على الكفر والمعصية .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنَّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى اليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهمْ من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد - ﷺ - اليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ أى : أختبرناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إذا أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشىء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله فى أيمانهم فقال تعالى : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أى : كالليل الأسود وقال السدى : مثل الزرع إذا حصد أى هشيما يبساً . ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أى : القطع . ﴿ أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى : تريدون الصرام . ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله - سبحانه - وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ **فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾ **أى : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى** : ﴿ **وغدوا على حرد قادرين** ﴾ قال مجاهد : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أى : جد ، وقال عكرمة : على غيظ ، ﴿ قادرين ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرمون . ﴿ فلما رأواها قالوا إنا لضالون ﴾ أى : فلما وصلوا اليها وأشرفوا عليها وهى الحالة التى قال الله - عز وجل - قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمه لا ينتفع بشىء منها ، فاعتقدوا انهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا الضالون ﴾ أى : قد سلكنا اليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فيه . وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : بل هى هذه ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب ﴿ قال أوسطهم ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أى أعد لهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ ؟ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجح ولهذا قالوا : ﴿ إنا كنا ظالمين . **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى : اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون** ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة والله أعلم .

وقال ابن كثير : ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، **قال سعيد بن جبير** : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال ، والربح ، والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله - تعالى - ﴿ **كذلك العذاب** ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير ، وذوى الحاجات وبدل نعمة الله كفراً ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق وأبقى ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وثابوا إلى رشدهم .

وفى هذا نعى عليهم بالغفلة ، وأنهم ليسوا من أرباب النُهى والمعرفة .

قصة حذوان شعراً (للشيخ الصاوى شعلان) :

الحرص قد يجعل الأحرار عبدانا
وقد يصوغ من الأموال أوثانا !

إذا رأيت قلوبا بالندى بخلت
فاصنع بها فى أثاث البيت جدرانا !

كم قصة فى كتاب الله ناطقة
يعيدها الناس فى دنياهم الآنا !

أصحاب جنة ضروان وقصتها
قد أنزل الله فيها الوحى قرآنا !

قد كان صاحبها فى الفضل ذا شيم
أندى من الروض أزهاراً وأفنانا !

فما بكى حوله الأيتام من سغب
ولا شكا عنده المضعوف حرمانا !

لا يكتفى بزكاة الزرع يبذلها
حتى يضيف إلى الاحسان إحسانا !

وأشرق الصبح فياض الندى عبقاً
يختال نوراً وأنداء وريحانا !!

وأقبل الشيخ يمشى فى مهابته
متوجاً بوقار الشيب جذلانا !!

يحدو خطاه إلى البستان راعشة
وما يزال شباب القلب ريانا !!

رأى عجائب صنع الله قد رسمت
ما يسحر اللُب أطيافاً وألوانا !!

والورد فى الحلل الخضراء تحسبه
زمرداً ضم ياقوتاً ومرجاناً !!

ترى الفواكه مما يشتهون بها
طلعاً وطلحاً وأعناباً ورماناً !!

والطير ترسل فى تسبيح خالقها
ما يعجز الفصحاء اللسن تبيانا !!

ما صور الله لا يرقى له بشر
سبحانه فى علاه ألف سبحانا !!

وكان للشيخ أبناء قد أزدهروا
وأورقوا فى ربيع العمر عتيانا !!

وحين شارف قرباً من بهاتيه
وإن يوماً وشيك البين قد حانا !!

أوصى بنيه بأن تبقى مكارمه
إرثا يقيم لهم فى المجد تبينا !!

لا تنبتوا الشح بعدى فى مزارعكم
لا تجعلوا جنتى بالحرث نيرانا !!

فما احتجزت عن الأهلين ثروتها
يوم الحصاد ولا أهملت جيرانا !!

لا يستر الخز فى بدء ولا حضر
من كان من حلية المعروف عريانا !!

النمل تبنى قراها فى تماسكها
والنحل تجنى رحيق الشهد أعوانا !!

والنهر يسقى العطاشى من مناهله
رياً ورزقاً ويبقى النهر ملآنا !!

وفارق الشيخ دنيا لا يدوم بها
غير الثناء لأهل الفضل عنوانا !!

فبدل الاخوة الأبناء سنته
وارتد إيمانهم بالعهد كفرانا !!

وأضمروا خطة نكراء غادرة
كانت عواقبها ويلاً وخذلانا !!

وأقسموا أن يهبوا مصبحين إلى
جمع الثمار ولا يألون كتمانا !!

كى لا يراعوا بمسكين يطالعهم
فى طمرة لاهث الأنفاس جوعانا !!

فأرسل الملك الجبار نقمته
جزاء ما أضمروا بغياً وعدوانا !!
ألقت بأشجارهم صرعى فما تركت
حتى لأغصانها الأوراق أكفانا !!
غدوا على حرثهم صبحاً فما وجدوا
فى الحقل نبتاً ولا فى الأرض بستانا !!
ضل الطريق بهم بل ضل مذهبهم
وصار مبصرهم فى النور حيرانا !!
وقال أوسطهم إنى نصحت لكم
فلم أجد بينكم للنصح آذانا !!
الله يعلم ما تخفى الصدور وما
يكون سراً يراه الله اعلانا !!
ماذا ظننتم بعلام الغيوب إذن
أكان جهلاً بكم أم كان نسيانا !!
خزائن الله ملأى لانفاد لها
سبحانه قال : « كن » فالأمر قد كانا !!
إن الألى حرموا المسكين قد رجعوا
أذلّ مسكنة منه وحرمانا !!
وقد مضى قدر لم يمحه ندم
مكر البخيل يحيل الربح خسرانا !!
إن رمت جنة رضوان فكن حذراً
ولا تكن واحداً من أهل ضروانا !!

الصراع بين النفس والمال

عندما نطالع آيات الله ، ونصافح كلماته فى كتابه ، ونتعبد بتلاوته ، نطالع دروساً ونفوساً . نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس ، واستخلص العواقب ، واستنتج العبر ، انه الكلام الوحيد الذى نلتمس فيه الحكمة البالغة ، والعبرة النافذة ، التى لا نجد لها تفسيراً أعظم من كلام رسول الله - ﷺ - فاستمع اليه - ﷺ - وهو يقول فى هذا المجال الذى نحن بصدده : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وأمامنا فى هذا المجال ستة مواقف فى القرآن الكريم نتبين منها عبرة الحياة ، ونستخلص فيها نتائج الدنيا إذا اخترقت مجال اليدين إلى مجال القلب وتربعت فيه ، هنا تكون الهاوية وما أدراك ما هى نار حامية .

الدرس الأول

ما ذكره القرآن الكريم عن هذا الحبر الكبير الذى عرف فى بنى اسرائيل بعلمه الغزير ، والذى قضى أيامه ولياليه بجوار كليم الله موسى حتى جاء اليوم الذى أرسله فيه نبى الله موسى مبعوثاً ليبلغ أمر الله إلى أهل مدين ، وذهب اليهم بقلب نقى تقى ، ووعظهم واستمعوا اليه بآذانهم ولسان قلوبهم يقول : سمعنا وعصينا ، بدلا من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وواصل الحبر مواعظه وإرشاداته وواصلواهم خداعه وإغراءه بالمادة ، وعرض زينة الحياة الدنيا عليه ، حتى سألوه يوماً : كم يعطيك موسى لقاء ما تبذل من جهد فى تبليغ هذه الرسالة قال لهم : إنما أقصد الأجر من الله . قالوا : فإن أموالنا كثيرة ولن نبخل بها عنك فى سبيل ألا نسمع منك شيئا حتى لا تفسد علينا بيعنا وشراءنا ، وفكر العالم كثيراً وتردى فى صراع عنيف حتى وصل مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه : موسى أم المال ؟ الله أم الشيطان ؟ الدنيا أم الآخرة ؟ وأخيراً هداه هواه إلى اختيار المال والشيطان والدنيا ، فزلت قدمه بعد ثبوتها ، وأصبح فى الأرض حيران استهوته الشياطين فهوى بعد أن اتبع الهوى ، تمرغ فى طين الأرض بعد ما تربع على قبة الفلك إن هذا العالم هو « بلعام بن باعوراء » عالم بنى اسرائيل الذى قص الله علينا قصته فى سورة الأعراف حيث قال الله تعالى : **﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾**[1] .

فتأمل معى ما احتوى هذا المشهد القرآنى من أسرار وعجائب ، إنه نبأ ولا يستعمل القرآن لفظ النبأ الا إذا كان المقام خطيراً ، والخبر عظيما جليلا ، فما بالك برجل آتاه الله آياته وآيات الله يكفيها شرفاً أنها نسبت إلى الله وأضيفت اليه ـ سبحانه ـ تذهب النفس كل مذهب فى تفسيرها وتفصيلها وبيانها ، فقد اشتملت على الحكم الالهية ، والمواعظ والارشادات والتوجيهات الربانية ، فماذا حدث هل تركها ؟ هل ابتعد عنها ؟ كلا . لو كان الأمر كذلك لجاز أن يعود اليها بعد زمان طال أو قصر ، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن العود بالنسبة اليه محال قال تعالى : ﴿ فانسلخ منها ﴾ فما معنى الانسلاخ ؟ إن السلخ فى الأصل كشط الجلد من اللحم وهو يعطينا أنه لا عودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا ، عودته إلى آيات الله أمر محال ، لقد كانت الآيات بالنسبة اليه وقاية وعناية له من غضب الله ، كما أن الجلد وقاية وعناية باللحم فلما أنسلخ من الآيات أصبح عرضة لغضب الله . لقد كانت الآيات تزينه وتجمله ، فلما أنسلخ منها أصبح مشوهاً دميم المنظر قميئاً فماذا كانت النهاية ؟ كانت النهاية **﴿ فكان من الغاوين ﴾** .

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ ـ ١٧٧

لماذا لم يكن من المغويين انما كان من الغاوين لأنه أصبح أستاذاً فى الغواية دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان أى : إنه أصبح بعد الضلال والانسلاخ من الآيات متبوعاً فصار الشيطان له تابعاً .

وهذا يذكرنا بقول القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى
بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ثم ماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** ﴾ إنما عبر القرآن بلفظ أخلد لأنه يعطينا معنيين : الميل والاطمئنان إلى ما مال إليه فهو عندما أخلد إلى الأرض مال إليها مطمئناً بها وبدلاً من أن يقول القرآن أخلد إلى الدنيا قال : أخلد إلى الأرض وهذا هو قدر الدنيا وقدر من مال اليها ، هو فى الهاوية وفى الحضيض فما الدنيا إلا أرض تدمر من مال اليها مطمئناً بها قلبه إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك دفعت له علامات فلما علا مات نعم إنه اتبع هواه وما الهوى إلا نوازع النفس إلى مسالك الشر . ما شأن هؤلاء وما صفاتهم ، وما حالهم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم ما حالهم فى الدنيا ؟ إنهم فى تعب دائم وعذاب نفس مستمر قال تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث** ﴾ إن تشبيه لحالهم بالكلب فى أخس حالاته ، لا فى أمانته وحراسته ، إنما فى تعبه وشقائه ، فهو دائما يلهث أى يخرج لسانه ، ويتنفس بصعوبة فى كل حالاته ، سواء زجرته وقسوت عليه ، أم ارحته وعطفت عليه ، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى أخلدوا إلى الأرض إذا لم تعطهم الدنيا طلبوها ، وإذا اعطتهم طلبوا المزيد منها ، ولو كان لأحدهم واديان من مال لا تبغى ثالثا ، ولا يملأ جوفه الا التراب .

وهذا مثل ضربه الله لكل من كذب بآيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وأمرنا الله أن نقصه على الناس ليتفكروا ويتذكروا ويعملوا ثم يعقب الله بعد ذلك قائلا : ﴿ **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ .

أى : أن حال هؤلاء القوم بئس الحال ، ومثلهم بئس المثل ، وما ظلمهم الله لأن الله بين وأرشد فكان منه الإيجاد والإمداد والإرشاد ، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والعتو والنفور ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾[١] .

الدرس الثانى

ومن دروس القرآن الكريم مع النفوس الشاردة يحدثنا الكتاب العزيز عن شخصية أخرى أخلد صاحبها إلى الأرض واتبع هواه بعدما اقتحمت الدنيا قلبه فأظلم وأدلهم ومال وانتكس وفى أوحال الحياة

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٨ ـ ٩

ارتكس إنه « ثعلبة بن حاطب » الذى قال الله فيه وأمثاله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾(١) .

يقول العلامة ابن كثير : يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قاله ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - عز وجل - يوم القيامة ، عياذاً بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة ثعلبه ابن حاطب الأنصارى ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبى حاتم من حديث أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الانصارى أنه قال لرسول الله - ﷺ - : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : ثم قال مرة أخرى فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت . قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أرزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات الا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله - ﷺ - : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة وأنزل الله - جل ثناؤه : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾(٢) ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم ، وكتب لهم كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقرآه كتاب رسول الله - ﷺ - فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقاً حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال : بلى خذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له . فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أريانى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية ، إنطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى أتيا النبى - ﷺ - فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فأنزل الله - عز وجل - (**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن - الآيات**) قال : وعند رسول الله - ﷺ رجل من أقارب

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ -

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٣

ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى - ﷺ - فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله - ﷺ - هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى ، فلما أبى رسول الله - ﷺ - أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله - ﷺ - ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر - رضى الله عنه - حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله - ﷺ - وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتى ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله - ﷺ - وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولى عمر - رضى الله- أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أقبل صدقتى ، فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض عمر ولم يقبلها ، فلما ولى عثمان - رضى الله عنه - أتاه فقال أقبل صدقتى فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك . فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان .

قال رسول الله - ﷺ - « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله . فيرجع اثنان : ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله »[1] متفق عليه .

الدرس الثالث

من هذه الدروس مع النفوس التى جرفها المال فانحرفت ما جاء فى سورة الكهف فى قوله تعالى :

﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه ابداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقباً ﴾[2]

المعنى : واضرب للفريقين الكافر والمؤمن مثلا : رجلين أحدهما كافر مغرور بدنياه ، والثانى موحد بالله جعلنا لأحدهما وهو الكافر بستانين من الأعناب المتنوعة ، وجعلنا النخل محيطة بهما ، وجعلنا وسطها زروعاً حتى يجمعا بين القوت والفاكهة ، وهما بهذا الوضع لهما الشكل الأنيق والموضع السليم .

كلتا الجنتين آتت أكلها كاملاً غير منقوص شيئاً ، وقد فجر الله وسط كل حديقة نهراً على حدة

(١) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق جايت رقم ٥/٢٩٦٠ فقد أورده من رواية لآنس بن مالك

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٤

ليسقيها بلا تعب ومشقة ، ويزيدهما بهاء وروعة ، وكان لهذا الكافر ثمر ومال من غيرهما إذ كان من الأثرياء الكبار .

فقال يوماً لصاحبه : وهو يحاوره ويجادله شأن كل غنى مغرور مع مؤمن فقير صالح ، وقد روى انهما أخوان ورثا مالاً ، أما الكافر فاستغله فى أرض ودار وزوجة وخدم وحشم ، وأما المؤمن فأنفق نصيبه فى سبيل الله .

قال الكافر : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً وأكثر خدماً وولداً ، ودخل مع صاحبه جنته الواسعة العريضة ، دخلهاوهو ظالم لنفسه معجب بما أوتى ، مفتخر به كافر النعمة ، معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش أنواع الظلم .

وماذا قال :

قال لطول أمله وشدة حرصه وكثرة غروره بها (قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وما أظن الساعة قائمة فيما سيأتى وأقسم لئن رجعت إلى ربى على سبيل الفرض ، أو كما يزعم صاحبنا المؤمن لأجدن جنة خيراً من هذه الجنة مرجعا وعافية . وما علم هذا المغرور أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة والا لما سقى الكافر منها جرعة ماء ، وإن الإنسان قد يعطى استدراكاً . قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾[1] .

ماذا قال المؤمن ؟

قال وهو يحاوره : يا أيها الإنسان . أكفرت بالذى خلق أباك الأول من تراب ثم خلقك أنت من نطفة ثم سواك فعدلك رجلاً سوياً ؟ !

أبعد هذا تقول : ما أظن الساعة قائمة ، لكن هو الله ربى وحده لا شريك له ، له الحكم واليه ترجعون .

يا أخى : هلا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، الأمر ما شاء الله لا غير .

إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فى هذه الدنيا الفانية فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك وأبقى يوم القيامة .

وأما جنتك فيرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح أرضاً قاحلة ملساء لا شىء فيها أو يصبح ماؤها غائرا لا تدركه الأيدى بأى شكل ولا تستطيع له طلباً فضلا عن إدراكه ، وقد كان فأحيط بثمرة وهلك كل ماله فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ويعض بنان الندم على ما فرط منه ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة تنصره من دون الله إذ هو القادر وحده على دفع العذاب ، وما كان هو فى حد ذاته منتصراً بنفسه .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٤٤ ـ ٤٥

هناك : وفى هذه الحال التى يؤمن فيها البر والعاجز النصرة من الله وحده ، والسلطان لله وحده ، هو الحق تبارك وتعالى خير ثواباً وخير عقبى للعباد المتقين .

الدرس الرابع

من دروس المال والنفوس يتمثل أمامنا فى صورة رجل طغى وبغى عندما كثر ماله فماذا فعل وكيف كانت عاقبته ؟ اليك ما قاله القرآن الكريم : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرون من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾(١) .

هذه قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلها بعد قصة التملك والسلطان وكيف كانت نهايتها ؟

كان قارون من قوم موسى ، وكان ذا مال وفير ، والمقصود المهم من القصة هو ما يأتى :

اذكر وقت أن قال له قومه على جهة الوعظ والإرشاد :

لا تفرح ـ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ـ ولا تنس نصيبك من الدنيا ـ وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض .

وهذه خمسة أصول مهمة ، ومن تمسك بها وعمل بمقتضاها نجا من الدنيا وما فيها .

وانظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصح ـ لأنه غير موفق ـ بل زاد عليه بقوله إنما أوتيته على علم عندى !! والمعنى : أنه أوتيه على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة وإنماء المال ، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمى وتمام مجهودى وتجاربى ، فليس لأحد حق له فى هذا المال . وكأنه ينكر انعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حر التصرف فيها .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الدراسات القرآنية الاستنباطية أن نذكر ما قاله نبى الله سليمان عندما وجد عرش بلقيس أمامه لم يقل إنما أوتيته على علم عندى . إنما تذكر نعمة الله وكبرياءه وجلاله فقال

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ ـ ٨٣

﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾[١] .

ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث قال : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ .

أى : أو لم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدناً وأكثر مالاً . ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أى : لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالم بكل بشىء .

هذا حال قارون مع ماله ، ومواقفه عن وعظه وغروره بنفسه ، واستمع إلى الناس ، وقد أنقسموا إلى فريقين .

أما الفريق الأول فيقول : وقد خرج قارون فى أكمل زينته وتمام أبهته : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، وإنه لذو حظ عظيم ، نظر هؤلاء إلى من فوقهم فتمنوا أن يكونوا مثل قارون فى غناه وأبهته ، ونسوا أن الله فى خلقه شئوناً ، وأن السعادة والخير ليس فى المال الكثير ، والجاه العريض ، وإنما الخير والسعادة شىء وراء ذلك كله ، ما دام العبد موصولاً بربه ، راضيا مرضيا ، ولقد عالج القرآن الكريم هذا الداء علاجاً حاسماً لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعلم خطره إذ من يمد عينيه إلى مال غيره ويتمناه ، يعود وقد امتلأ قلبه حسداً وحقداً ، وناهيك بهذه الأخطار التى ينشأ عنها معظم الجرائم : اقرأ معى قوله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾[٢] .

أما الفريق الثانى فيقول ناصحا لأصحابه : ويلكم (هذه كلمة زجر) ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا فالسعادة فيه ، ولا يلقاها الا الصابرون ، أى : ولا يلقى هذه الحقائق ويعمل بها الا الصابرون ، ولا شك أن هذه الحقائق هى الايمان والعمل الصالح . وإدراك ما يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

نهاية محتومة

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب اليه العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخسف الله بقارون وبداره وماله وبمجموعه الأرض . ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ .

﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن** ﴾ . وى هى كلمة تفيد التعجب . ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ نعم الله وحده هو الذى يعطى ويمنع ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فلم يعط انساناً لعقله وعلمه ، ولم يحرم آخر لجهله وسوء رأيه ، بل الأمر كله لله .

---

(١) سورة النمل من الآية : ٤٠

(٢) سورة طه من الآية : ٣

وقالوا : ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ . ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ حقيقة وما هم فيه فى الدنيا فهو استدراج لهم ، وفتنة لغيرهم ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم مقيم دائم لا تعب ولا مشقة معه يجعلها ربك ﴿ للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقول الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

الدرس الخامس

ننتقل بالقارىء الكريم إلى الدرس الخامس من الدروس المستفادة التى سبق أن قدمنا أربعة منها وقد بين الله هذا الدرس فى سورة ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فانظر ياأخى نظرة المتأمل مدى الخطر المترتب على نطق اللسان بالسوء ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ وكيف تجاوب اللسان مع النية ؟ ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : صمموا وعزموا دون أن ينطقوا بالمشيئة المهيمنة أو يستثنوا نصيب الفقراء ، وكيف قطعوا على أنفسهم عهداً أن يقوموا فى الصباح قبل أن تبرز الغزالة من خدرها ، وقبل أن يتنفس الصباح ويسفر الفجر فعاملهم الله بالعقاب من حيث لم يحتسبوا ، وكانوا وقتها نائمين والعقاب يقظ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ثم انظر وقد عزموا على أن يقطعوها هم ، فأحرقتها النار فأصبحت كالصريم ، وكيف قاموا من سباتهم ﴿ فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ هوكيف أسروا النجوى فى أنفسهم وأقبل بعضهم على بعض ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ وغدوا فى زعمهم قادرين على المنع فماذا كانت المفاجأة كانت رهيبة ومهيبة تنخلع من هولها الأفئدة ، لقد ضلوا عن طريق جنتهم فى زعمهم لأنها أصبحت أثراً بعد عين ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ ثم تابوا إلى رشدهم﴿ بل نحن محرومون ﴾ ثم قال أعقلهم : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فقالوا بعد فوات الأوان : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا طاغين ﴾ قالوا والندم يكوى النفوس ويسيل النفس مرارة ولوعة : ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أى : لعل الله يعطينا بدلاً هو خير منها ، بتوبتنا من زلاتنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ، إنا راجون عفوه ، طالبون الخير منه ، ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : وهكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : أن عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات ، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وتابوا إلى رشدهم .

الدرس السادس

يقول فيه مولانا تبارك وتعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآيتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ● إن هذا إلا قول البشر ● سأصليه سقر ● وما أدراك ما سقر ● لا تبقى ولا تذر ● لواحة للبشر عليها تسعة عشر ﴾ .

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً . وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ أى : خل بينى وبين من أخرجته من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

وفى هذا وعيد شديد على تمرده وعظيم عناده واستكباره لما أوتيه من بسطة المال والجاه ، والمراد بهذا الذى يقص الله علينا شأنه هو الوليد بن المغيرة وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير ولا لأبى نظير ، وقد تهكم الله به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى ذمه وعيبه ، فجعله وحيداً فى الشر والخبث .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أى : ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده وفى هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان فقد جاء فى الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[1] ﴿ كلا ﴾ أى : لا أفعل ولا أزيد قال مقاتل مازال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أى : أنه كان معانداً لآيات المنعم ، آيات القرآن التى نزل بها الوحى على لسان رسوله - ﷺ - ومن ثم قال فيها ما قال ومعاندة الحق جديرة بزوال النعم .

روى أن النبى - ﷺ - قام فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ فلما فطن النبى - ﷺ - إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال الوليد : ما لى أراك حزيناً يا ابن أخى ؟

---

(١) انظر مسند الأمام أحمد جـ ٥ ص١١٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

فقال : وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبي كبشه وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم اتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعموان أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر وما يقوله سحر بأثره عن مسليمة وأهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه ، فنزلت هذه الآيات

أحكام إلهية عادلة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

﴿ **تدرسون** ﴾ أى : تقرءون .

﴿ **تخيرون** ﴾ أى : تختارون

﴿ **أيمان** ﴾ عهود .

﴿ **بالغة** ﴾ أى : متناهية فى التوكيد موثقة

﴿ **أيهم بذلك زعيم** ﴾ أى : أيهم بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها

﴿ **فذرنى** ﴾ بقول ذرنى وإياه : أى : كِلْهُ إلَىَّ فإنى أكفيكه .

﴿ **سنستدرجهم** ﴾ يقال : أستدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه .

﴿ **وأملى لهم** ﴾ أى : أمهلهم وأطيل لهم المدة

﴿ **المغرم** ﴾ المغرم : الغرامة المالية

﴿ **مثقلون** ﴾ أى : مكلفون أحمالاً ثقالاً فهم بسببها يعرضون عنك .

﴿ **الغيب** ﴾ هو ما كتب فى اللوح المحفوظ واستأثر الله بعلمه .

﴿ **يكتبون** ﴾ أى : يحكمون على الله بما شاءوا .

﴿ **حكم ربك** ﴾ هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم

﴿ **صاحب الحوت** ﴾ هو سيدنا يونس عليه السلام .

﴿ **مكظوم** ﴾ أى : مملوء غيظاً

﴿ **فاجتباه** ﴾ أى : اصطفاه

﴿ **يزلقونك** ﴾ أى : يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلَىَّ نظرة كاد يصرعنى

﴿ **والذكر** ﴾ القرآن الكريم

﴿ **ذكر** ﴾ أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ـ حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوه وخالفوا أمره ، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التى لا تبيد ولا تغنى فى الدار الآخرة ، ثم رد على من قال من الكفار : إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا فلابد أن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين ، ثم خوف الكفار من هول يوم القيامة وخوفهم مما فى قدرته من القهر فقال لرسوله : خلِّ بينى وبين من يكذب بهذا القرآن ، إنا سندنيهم من العذاب درجة فدرجة ، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعيم ، ونرزقهم من الصحة والعافية ، فتزداد معاطيهم من حيث لا يشعرون .

ثم قال لرسوله : ماذا ينقمون منك ؟ أأنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ؟ أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ كلا لا هذا ولا ذاك ، إذاً فالقوم معاندون ، فلم يبق إلاأن تصبر لحكم ربك

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس ـ عليه السلام ـ حين غضب على قومه ففارقهم ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ثم أخبر رسوله بأن الكافرين يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة ويقولون : إنه لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته ، وما القرآن إلا ذكر للعالمين .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون . أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون . سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين** ﴾ .

لما ذكر سبحانه وتعالى ـ حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا ربهم ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، التى لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ ؟ أى : كيف تظنون ذلك قال تعالى ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾[1]

---

(١) السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٠ .

ثم قال تعالى : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول تعالى : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمنا حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ وقوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ثم قال تعالى : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

وقصارى هذا الحجاج - نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، فنبه أولاً إلى نفى الدليل العقلى بقوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ثم إلى نفى الدليل النقلى بقوله : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ ثم إلى نفى الوعد بذلك - ووعد الكريم دين عليه - بقوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ ثم إلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ . قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

قال البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت النبى - ﷺ - يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً »(١)

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة إذا تجلى الرب - عز وجل - فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقا واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود كما كانوا فى الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ .

هذا تهديد شديد لهم أى : دعنى وإياه منى ومنه وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده فى غيه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أى : وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو فى نفس الأمر إهانة كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(٢) وكما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ؟ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(٣) ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وأملى لهم إن كيدى

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٦ ص١٩٨ تفسير صورة (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .
(٢) المؤمنون الآيتان : ٥٥ - ٥٦
(٣) الأنعام آيتان : ٤٤ - ٤٥ .

متين ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدى ومكرى بهم ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كيدى متين ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى وكذب رسلى وأجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن الله ـ تعالى ـ ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[١] ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ . أى : أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيوياً ؟ فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه ، فتحاموا لذلك قبول النصيحة والمعنى أن أمرهم العجيب فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر نأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً . ﴿ أم عندهم الغيب . فهم يكتبون ﴾ أى : عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائن ، فهم يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم .

ولما بالغ فى تزييف طريق الكافرين ، وزجرهم عما هم عليه ، أمر رسوله بالصبر على أذاهم فقال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أى : فاصبر يامحمد على قومك فإن الله ـ سبحانه ـ سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾[٣]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ يعنى ذا النون وهو يونس ـ عليه السلام ـ حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٤] وقال ههنا : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال ابن عباس وهو مغموم وقال عطاء الخراسانى مكروب .

وقوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ وقد قال الأمام أحمد بسنده عن عبد الله قال :

---

(١) البخارى : جـ٦ ص٩٣ ، ٩٤ تفسير سورة « هود » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .

(٢) هود الآية : ١٠٢ .

(٣) طه الآية : ١٣٠ .

(٤) الأنبياء الآيتان : ٨٧ ـ ٨٨ .

قال رسول الله - ﷺ - « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[١] وهذا الحديث فى الصحيحين عن أبى هريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ ليزلقونك ﴾ لينفذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أى : يعيبونك بأبصارهم يعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم .

• قال ابن كثير وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله - عز وجل - كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق كثيرة متعددة قال مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : العين حق ولو كان شىء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا »[٢] وقال ابن ما جه بسنده عن أبى أمامة أن سعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعه بسهل من حنيف وهو يغتسل فقال لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة فما لبث أن لبط به فأتى به رسوله الله - ﷺ - فقبل له أدرك سهلاً صريعاً قال : « من تتهمون به » قالوا : عامر بن ربيعه قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ « إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة » ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره وأمره أن يصب عليه[٣] وقد رواه النسائى ومالك ابن انس كلاهما عن الزهرى بهِ .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - اشتكى فأتاه جبريل فقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك من حسد كل حاسد وعين بسم الله يشفيك »[٤]

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون : إنه لمجنون أى : لمجيئه بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وماهو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : يقولون ما قالوا : وما هو إلا تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، أفيكون من أنزل عليه مثل هذا وهو مطلع على أسراره ، محيط بجميع حقائقه خيراً ، ممن ينطبق عليه مثل هذا الوصف الذى قالوه ، أم يكون مثل هذا من أدل الدلائل على كمال الفضل والعقل ؟

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه وسلم - .

---

(١) سند الامام أحمد جـ ١ ص٢٤٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم جـ ٤ ص١٧١٩ باب الطب والمرض والرقى فى حديث رقم ٤٢ / ٢١٨٨ من رواية لابن عباس .

(٣) ابن ماجه جـ ٢ ص ١١٦٠ باب العين حديث رقم ٣٥٠٩ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمامة ابن سهل بن ضيف .

(٤) مسند الامام أحمد جـ ٥ ص٣٢٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبادة وهى إحدى رواياته .

تفسير سورة الحاقة

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها : مائتان وخمس وخمسون ، وحروفها : ألف وأربعمائة وثمانون .

مجموع فواصل آياتها (نم له) على اللام منها آية واحدة (بعض الأقاويل) ولها اسمان : سورة الحاقة ، لمفتتحها ، وسورة السلسلة ، لقوله تعالى : ﴿ **فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا** ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الإخبار عن صعوبة القيامة ، والإشارة بإهلاك القرون الماضية ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السموات ، وحال السعداء والأشقياء وفق قراءة الكتب وذل الكفار مقهورين فى أيدى الزبانية ، ووصف الكفار القرآن بأنه للكفار كهانة وشعر ، وبيان أن القرآن تذكرة للمؤمن وحسرة للكافر ، والأمر بتسبيح الركوع فى قوله تعالى ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ بالفاء ، وبعده (وأما) بالواو ، لأنه الأول متصل بأحوال القيامة وأهوالها فاقتضى الفاء للتعقيب ، والثانى متصل بالأول ، فأدخل الواو ، لأنه للجمع .

قوله : ﴿ **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون** ﴾ خص ذكر الشعر بقوله : ﴿ **ما تؤمنون** ﴾ لأن من قال القرآن شعر ، ومحمد - ﷺ - شاعر - بعدما علم اختلاف آيات القرآن فى الطول والقصر ، واختلاف حروف مقاطعه فلكفره وقلة إيمانه ، فإن الشعر كلام موزون مقفى وخص ذكر الكهانة بقول : ﴿ **ما تذكرون** ﴾ لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة ، وأن محمداً - ﷺ - كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان ، فإنه أسجاع لا معانى تحتها ، وأوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون فى كلامهم ذكر الله تعالى .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ - أنه وقع فى ن ذكر يوم القيامة مجملاً ، وهنا فصّل نبأه وذكر شأنه العظيم .

٢ - إنه ذكر فيا قبلها من كذب بالقرآن وما توعده به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له - ﷺ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

معانى المفردات

﴿ **الحاقة** ﴾ من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب : أي : الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، وهى يوم القيامة .

﴿ **ما الحاقة** ﴾ أي : أيَّ شيء هى ؟ تفخيماً لشأنها ، وتعظيما لهولها .

﴿ **وما أدراك ما الحاقة** ﴾ أي : أي شيء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بحقيقتها إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين

﴿ **بالقارعة** ﴾ هى الحاقة التى تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال

﴿ **بالطاغية** ﴾ هى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة والقوة والمراد بها الصاعقة .

﴿ **صرصر** ﴾ الصرصر : الشديد الصوت التى لها صرصرة .

﴿ **عاتية** ﴾ أى : بالغة منتهى القوة والشدة

﴿ **سخرها عليهم** ﴾ أى : سلطها عليهم

﴿ **حسوماً** ﴾ أى : متتابعة وأحدها حاسم .

﴿ **صرعى** ﴾ واحدهم صريع أى : ميت .

﴿ أعجاز ﴾ واحدها عجز ، وهو الأصل .
﴿ خاوية ﴾ أى : خالية الأجواف لا شىء فيها .
﴿ باقية ﴾ والباقية : البقاء .
﴿ المؤتفكات ﴾ أى : المنقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .
﴿ الخاطئة ﴾ الخطأ .
﴿ رابية ﴾ من ربا الشىء إذا زاد أى : الزائدة فى الشدة .
﴿ طغى الماء ﴾ تجاوز حده وارتفع .
﴿ حملناكم ﴾ أى : حملنا آباءكم وانتم فى أصلابهم .
﴿ الجارية ﴾ السفينة التى تجرى فى الماء .
﴿ تعيها ﴾ أى : تحفظها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة** ﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ولهذا عظم الله أمرها فقال : ﴿ **وما أدراك ما الحاقة** ﴾ ثم ذكر ـ تعالى ـ إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال ـ تعالى ـ : ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ ذكر ـ سبحانه ـ من كذب بالقيامة ، والقارعة القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها وثمود قوم صالح ، وكانت منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز قال محمد بن إسحاق : وهو وادى القرى ، وكانوا عرباً .

(وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف : الرمل بين عمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوى خلق وبسطة .

وقوله تعالى : ﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** ﴾ **وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أبادتهم كما قال ـ تعالى** : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ أى : بريح باردة تحرق ببردها كإحراق النار ، مأخوذ من الصر وهو البرد وقيل : إنها الشديدة الصوت وقال مجاهد : الشديده السموم وقوله : ﴿ **عاتية** ﴾ أى : عتت على خُزانها فلم تطعهم ، ولم يطيقوها من شدة هبوبها غضبت لغضب الجبار .

---

(١) سورة فصلت الآية : ١٧ .

قوله ـ تعالى : ﴿ سخرها عليهم ﴾ أى : أرسلها وسلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أى : متتابعة لا تفتر ولا تنقطع وقوله : ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أى : فى تلك الليالى والأيام ﴿ صرعى ﴾ جمع سريع ، يعنى موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى : كأنهم أصول نخل بالية كما قال ـ تعالى : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ قوله تعالى ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى : هل تحس من أحد من بقاياهم أو مما ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً كما قال ـ تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾[١]

قوله تعالى ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ . أى : وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التى أئتفكت بأهلها ، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بين هذه الخطيئة بقوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى : فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذن واعية ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ طغا الماء كثر وذلك بسبب دعوته نوح ـ عليه السلام ـ على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ﴿ والجارية ﴾ هى السفينة الجارية والمحمول فى الجارية نوح وأولاده ، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك .

وقوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ يعنى سفينة نوح ـ عليه السلام ـ جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم .

وقيل لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم كما فى قوله ـ تعالى ـ فى ختام « قصة » نوح فى سورة هود ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٢]

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى : تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله .

قال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله ـ تعالى ـ وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ـ عز وجل ـ كقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[٣]

---

(١) سورة مريم آية : ٩٨ .

(٢) سورة هود آية : ٤٩ .

(٣) سورة ق آية : ٣٧ .

مقدمات القيامة ومشاهدها

قال ـ تعالى :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)

معانى المفردات

﴿ **نفخة واحدة** ﴾ هى النفخة الأولى .
﴿ **حملت الأرض والجبال** ﴾ أى : رفعت من أماكنها
﴿ **فدكتا دكة واحدة** ﴾ أى : ضرب بعضها ببعض حتى أندفعت وصارت كثيبا مهيلا .

﴿ **الواقعة** ﴾ النازلة وهى يوم القيامة
﴿ **انشقت السماء** ﴾ أى : فتحت أبوابها
﴿ **واهية** ﴾أى : مسترخية ضعيفة القوة

﴿ **أرجائها** ﴾ أى : جوانبها
﴿ **ثمانية** ﴾ أى : ثمانية أشخاص
﴿ **خافية** ﴾ أى : سريرة .

﴿ **هاؤم** ﴾ أى : خذوه
﴿ **ظننت** ﴾ أى : علمت
﴿ **ملاق** ﴾ أى : معاين

﴿ **راضية** ﴾ أى : يرضى بها صاحبها
﴿ **عالية** ﴾ أى : مرتفعة المكان
﴿ **والقطوف** ﴾ ما يجتنى من التمر واحدها قطع (بكسر القاف وسكون الطاء) .

﴿ **دانية** ﴾ أى : قريبة
﴿ **هنيئاً** ﴾ أى : بلا تنغيص ولا كدر .
﴿ **أسلفتم** ﴾ أى : قدمتم
﴿ **الخالية** ﴾ الماضية .

﴿ **القاضية** ﴾ أى : القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها .
﴿ **هلك** ﴾ بطل .
﴿ **سلطانية** ﴾ طجتى أو تسلطى وقوتى .

﴿ **فغلوه** ﴾ أجعلوا الغل فى يديه وعنقه .
﴿ **الجحيم صلوه** ﴾ أدخلوه أو أحرقوه فيها .
﴿ **فاسلكوه** ﴾ فادخلوه فيها .

﴿ لا يخفى ﴾ لا يحث ولا يحرض .
﴿ حميم ﴾ أى : قريب مشفق يحميه من العذاب .
﴿ غسلين ﴾ صديد أهل النار .
﴿ الخاطئون ﴾ الكافرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن قصّ - سبحانه - قصص الهالكين ، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة - شرع يذكر تفاصيل أحوال اليوم وما يكون فيه من أهوال ، ثم بعد ذلك فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

التفسير

قوله - تعالى : **﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾** .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبراً عن أهوال يوم القيامة - وأول ذلك نفخة الفزع ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهى هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد .

وقوله - تعالى - **﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾** أى : بسطتا بسطة واحدة . ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره ، كقوله - تعالى : **﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾**(١)

وقوله **﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾** أى : قامت القيامة كما قال - تعالى - **﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسًّا . فكانت هباء منبثًّا ﴾**(٢)

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٤٨ .

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١ - ٦ .

قوله ـ تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ أى : انصدعت وتفطرت كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقيل : تنشق لنزول ما فيها من الملائكة ودليله قوله ـ تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا ﴾[1]

وقوله ـ تعالى : ﴿ فهى يومئذ واهية ﴾ أى : ضعيفة قال القرطبى : قيل إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف فى الوهى : ويكون ذلك لنزول الملائكة وقيل : الهول يوم القيامة قال ـ تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك يعنى الملائكة ، اسم للجنس . ومعنى على أرجائها أى : على اطرافها حين تنشق لأن السماء مكانهم .

وقوله ـ تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك . وعن الحسن . الله أعلم كم هم . ثمانية أم ثمانية آلاف .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أذن لى أن أحدثكم عن ملك حملة العرش بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » قال ابن كثير وهذا اسناد جيد رجاله كلهم ثقات ورواه أبو داود بلفظ « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ـ تعالى ـ من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عنقه مسيرة سبعمائة عام .

وقوله ـ تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ، كما قال ـ تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[2] قال القرطبى : وليس ذلك عرضاً يعلم به مالم يكن عالماً به ، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة .

قال الأمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أحق عليكم فى الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٨ .

ونحو الآية قوله - تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[١] وكقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة . شرا يره ﴾[٢]

قوله - تعالى - ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابية . إنى ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ أى : خذوا اقرءوا كتابية ، لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات .

وفى الصحيح عن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول « يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله - تعالى - إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »[٣]

وقوله - تعالى - ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابية ﴾ أى : قد كنت موقناً فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال - تعالى - ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ .

قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل .

وقوله - تعالى - ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : مرضية كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾[٤]

وفى الصحيح عن النبى -ﷺ - « إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبون فلا يهرمون أبداً »[٥] .

وقوله - تعالى : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها نعيمة دورها ، دائم حبورها ، وقد ثبت فى الصحيح « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »[٦] .

وقوله تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ أى : قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل - حديث ٢٧٦٨/٥٢ من رواية لابن عمر .

(٤) سورة الكهف الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى دوام نعيم أهل الجنة فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة برقم ٢٨٣٧/٢٢ .

(٦) البخارى جـ ٤ ص ١٩ كتب فضل الجهاد باب درجات المجاهدين فى سبيل الله فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وقوله - تعالى - ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ أى : يقال لهم ذلك تفضلا عليهم وامتنانا وإنعاما وإحسانا ﴿ هنيئاً ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم ﴾ قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فى الأيام الخالية ﴾ أى : فى الدنيا كما قال - تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[١]

قوله - تعالى - : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العرضات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾ أى : فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتنى لم أعط كتابى . قال المفسرون : وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله قال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ ولم أدر ما حسابيه) أى : ولم أعلم أى شىء حسابى الذى أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

وقوله : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾أى : ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب كقوله - تعالى - : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما أغنى عنى ماليه ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى الذى كنت أملكه فى الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئا كما فى قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٣) سورة النبأ من الآية : ٤٠ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

وقوله ﴿ هلك عنى سلطانية ﴾قال ابن زيد : يعنى سلطانية فى الدنيا الذى هو الملك . أى : ذهب ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أى : فيقال لزبانية جهنم خذوه فضعوا الغل فى عنقه ، ثم أدخلوه فى النار الموقدة لقاء كفره بالله واقترافه عظيم الآثام .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾أى : ثم أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انقلابا .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذرة جبل لذاب كما يذوب الرصاص .

وقوله ﴿ فاسلكوه ﴾ قال سفيان : بلغنا أنها تدخل عنقه فيها ثم يُجر فيها .

ونحو الآيات قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[١] .

ثم بين سبحانه سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أى : افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾أى : ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة ، فضلا عن بذل المال لهم .

وقوله : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾أى : فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله ـ تعالى ـ كما جاء فى سورة أخرى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى : وليس له طعام إلا ما يسيل من لحوم أهل النار من الدم والصديد الذى لا يأكله إلا من مرن على اجتراح السيئات ودسى نفسه وأحاطت به الخطايا .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ ـ ١٠١ .

قسم صادق

قال - تعالى - :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

﴿ ما تبصرون ﴾ : هى المشاهدات ، ﴿ وما لا تبصرون ﴾ : هى المغيبات .

﴿ تقول ﴾ التقول : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلف ، والأقاويل : الأقوال المفتراه واحدها قول على غير قياس .

﴿ لأخذنا منه ﴾ أى : لأمسكناه ، ﴿ باليمين ﴾ أى : بيمينه .

﴿ الوتين ﴾ عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس .

﴿ حاجزين ﴾ أى : مانعين .

﴿ حق اليقين ﴾ أى : عين اليقين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الدليل - سبحانه - على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء - أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن ، وأكد هذا بأن محمدا لا يستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عقابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لا ريب فيه . ثم أمر رسوله بأن يقدس ربه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعيم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون** ﴾ قال قتادة المعنى : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ أى : إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد - ﷺ - .

﴿ **وما هو بقول شاعر** ﴾ لأن محمدا لا يحسن قول الشعر ﴿ **قليلا ما تؤمنون** ﴾ أى : تؤمنون بذلك القرآن إيمانا قليلا ، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لا يأتينا . وقد يكون المراد بالقلة أنهم قد يؤمنون فى قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون** ﴾أى : وليس بقول كاهن كما تزعمون لأنه سب الشياطين وشتمهم ، فلا يمكن أن يكون بإلهامهم ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه - قلتم : أنه من كلام الكهان .

ثم أكد ما تقدم بقوله :

﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾أى : بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله - ﷺ - .

قال العلامة ابن القيم عن هذه الآيات المباركات : هذا أعم قسم وقع فى القرآن ، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ويدخل فى ذلك الملائكة كلهم والجن والانس والعرش والكرسى ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو - سبحانه - يصرف الأقسام كما يصرف الآيات : ففى ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ولا كاهن .

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته فى مجارى الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾[1] أى : إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما فى الحديث « أنه لحق مثل ما أنك ههنا » فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهدونه من أحواله ظاهراً وباطنا ، ففى ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، وما لم يباشر قبله ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه .

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه فقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد - ﷺ - وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم

---

(١) سورة الذاريات آية : ٢٣ .

بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكى فى سورة التكوير .

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه - تعالى إلى غيره ، وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال : ﴿ **إن هذا إلا قول البشر** ﴾ فمن زعم أنه قول البشر فقد كفروسيصليه الله سقر .

ثم أخبر - سبحانه - أنه تنزيل من رب العالمين وذلك يتضمن أموراً : ﴿ **أحدها** ﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده . ﴿ **والثانى** ﴾ أنه تكلم به حقيقة لقوله ﴿ **من رب العالمين** ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظيره قوله تعالى ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق** ﴾ . ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ . ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ .

وتأمل كيف أضافه - سبحانه - إلى رسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله ﴿ **حتى يسمع كلام الله** ﴾ فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله ، فيقول قلت : كذا وكذا . والمرسل يقول للرسول : قل لهم : كذا وكذا كما قال تعالى : ﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة** ﴾ ونظائره . فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أى : قاله مبلغا - وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولا يجىء فى شىء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال ليس بكلامى ولا كلام صاحبى . هذا كلام الله .

(الأمر الثالث) ما تضمنه قوله ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ أنه ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، وعذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به - تعالى - : ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ .

البرهان القاطع على صدق الرسول محمد - ﷺ -

قوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ .

يقول ابن القيم : ثم أقام - سبحانه - البرهان القاطع على صدق رسوله . وأنه لم يتقول عليه فيما قاله : وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالاهلاك ، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه ، وافترى عليه وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق : يسفك دماهم ،

ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلا : إن الله أمرنى : بذلك وأباحه لى ؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه بإقراره ، وبالآيات المسلتزمة لصدقه التى دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها ، فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذى هو شر الخلق على الاطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من غفل ، وحكمة ، وحجى ، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله .

وقوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ يقول سبحانه : لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه .

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة . فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه .

﴿ **ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ والوتين : نياط القلب ، وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ أى : لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور** ﴾[1] .

وفى معنى هذه الآية للناس قولان : أحدهما قول مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثانى قول قتادة : إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه .

(أحدها) أن هذا خرج جوابا لهم وتكذيباً لقولهم : إن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى ـ قادر لا يعجزه شىء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشىء منه ، بل يصير القلب كالشىء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه ، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه ، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله

(١) سورة الشورى آية : ٣٤ .

فالبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتى به ولا ببعضه ، فلولا أنى أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشىء منه . فأين هذا المعنى إلى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ، وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

(الوجه الثانى) أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر .

(الثالث) أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله : ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر كقوله : ﴿ **وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى .

(الرابع) أنه ـ سبحانه ـ حيث يحكى أقوالهم (أنه افتراه) لا يجيبهم عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئا ، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه .

(الخامس) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن من أبلغ التفاسير .

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لتذكرة للمتقين** ﴾ .

أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقى ، فيبصر ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب وصفاته وأفعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه ، وآياته فى أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزكيها ويطهرها ويعليها ، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

ثم قال ـ سبحانه ـ ﴿ **وإنا لنعلم أن منكم مكذبين** ﴾ أى : لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وإنه لحسرة على الكافرين** ﴾ أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان**

خذولا ﴾[١] وكقوله **﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾**[٢] .

وقوله تعالى : **﴿ وإنه لحق اليقين ﴾** ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . أى : الحق اليقين وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الله - سبحانه - فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة :

حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال - تعالى - : **﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾** فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة فقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلاً ، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى **﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾** وبين هذه المرتبة والتى قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع . وعين اليقين للبصر ، وفى المسند للامام أحمد مرفوعاً « ليس الخبر كالمعاينة » وهذه المرتبة هى التى سألها ابراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين . فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين ، وهى مباشرة الشىء بالاحساس به . كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين ، وإذا أدخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال **﴿ وإنه لحق اليقين ﴾** فإن القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها ، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذا أعلى مراتب الايمان وهى الصديقين التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

ثم ختم السورة الكريمة بقوله - تعالى - : **﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾** وهى جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله . وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته - تعالى - فى ارسال رسوله ، وإنزال كتابه ، وأنه - تعالى - أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو - سبحانه - مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيرا .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد .

---

(١) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٥٦ .

تفسير سورة المعارج

مقدمة :

يقول صاحب البصائر : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى

السورة : مكية .

آياتها : أربع وأربعون آية .

كلماتها : مائتان وثلاث عشرة .

وحروفها : سبعمائة وسبع وخمسون .

فواصل آياتها : (جعلناهم) .

أسماء السور :

للسورة ثلاثة أسماء : الأول سأل ، لمفتتحها . والثانى الواقع ، لقوله (بعذاب واقع) الثالث (ذى المعارج) .

مقصود السورة :

بيان جرأة الكافر فى استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق فى ذلك اليوم المهيب ، واختلاف حال الناس فى الخير والشر ومحافظة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار فى غير مطمع ، وذل الكافرين فى يوم القيامة فى قوله ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **إلا المصلين** ﴾ عد عقيب ذكرهم الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين ، وزاد فيها ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ لأنه وقع عقيب قوله ﴿ **لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ وإقامة الشهادة أمانة ، يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها ، لاحياء حق ، فهى إذا من جملة الأمانة وقد ذكرت الأمانة فى سورة المؤمنين ، وخصت هذه السورة بزيادة بيانها ، كما خصت بإعادة ذكر الصلاة حيث قال ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ بعد قوله ﴿ **الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها : السورة نزلت بعد سورة الحاقة ، وهى كالتتمة لها فى وصف القيامة وعذاب النار .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿ **سأل سائل** ﴾ : دعا داع .

﴿ **ليس له دافع** ﴾ : أى : أنه واقع لا محالة .

﴿ **المعارج** ﴾ : واحدها مِعْرج ، وهو المِصعد . (بكسر الميم) .

﴿ **والروح**) : هو جبريل ـ عليه السلام ـ أمين الوحى .

﴿ **كالمهل** ﴾ المهل : وردىء الزيت وهو ما يكون فى قعر الاناء منه .

﴿ **كالعهن** ﴾ العهن : الصوف المصبوغ ألواناً .

﴿ **حميم**) الحميم : القريب .

﴿ **يبصرونهم** ﴾ : أى : يبصر الأحماد الأحماء ويرونهم .

﴿ **يود** ﴾أى : يتمنى ، ﴿ **المجرم** ﴾ المذنب ، ﴿ **وصاحبته** ﴾زوجته ، ﴿ **وفصيلته** ﴾ هى عشيرته ، ﴿ **تؤويه** ﴾ : أى تضمه ويأوى إليها ﴿ **كلا** ﴾ هى كلمة تفيد الزجر عما يطلب ، ﴿ **لظى** ﴾هى النار ﴿ **للشوى** ﴾الشوى واحدها شواه ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، ﴿ **تدعو** ﴾ أى : تجذب وتحضر ، ﴿ **تولى** ﴾ أى : أعرض عن الطاعة ، ﴿ **جمع فأوعى** ﴾ أى : جمع المال فجعله فى وعاء .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .** ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ قال ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم كقوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **واقع . للكافرين** ﴾ أى : مرصد معد للكافرين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ليس له دافع** ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ولهذا قال تعالى : ﴿ **من الله ذى المعارج** ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ذى المعارج يعنى العلو والفواضل .

وقال مجاهد : ذى المعارج معارج السماء . وقالت قتادة : ذو الفواضل والنعم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ قال عبد الرازق عن معمر عن قتادة تعرج تصعد والروح قيل : هو جبريل عليه السلام ـ وذكر من باب عطف الخاص على العام وقيل : ﴿ الروح ﴾ اسم جنس لأرواح بنى آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسين ألف سنة . وقوله تعالى فى ﴿ آلم تنزيل ﴾ فى ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة . وقيل : هو يوم القيامة قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار . (رواه ابن أبى حاتم) .

قال القرطبى : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية ـ إن شاء الله ، بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤ .

يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا »[١] . واستدل النحاس على صحة هذا القول بما زواه سُهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين الناس »[٢] .

قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **فاصبر صبراً جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً** ﴾ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك . والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنهم يرونه قريبا** ﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيدا ، أى غير كائن . ﴿ **ونراه قريباً** ﴾ لأن ما هو آت فهو قريب .

قوله تعالى : ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً** ﴾ .

أى : إن العذاب واقع بالكافرين ، يوم تكون السماء كالمهل ، كأنها عكر الزيت . والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة كما قال تعالى : ﴿ **فهى يومئذ واهية** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ أى : وتكون الجبال هشة غير متلاحمة فكأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح . كقوله تعالى : ﴿ **القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يسأل حميم حميما** ﴾ أى : ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله ، ولا يكلمه لابتلاء كل منهما بما يشغله كما قال تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[٥] وكقوله : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ **يبصرونهم** ﴾ أى : يتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض من بعد ذلك . قال القرطبى : وليس فى القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والانس . فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقال ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ ٣ ص ٧٥ فقد أورد الحديث عن رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر الترغب والترهيب للمنذرى جـ ١ ص ٥٣٧ كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة . . . الخ فقد أورد الحديث رقم ٢ من رواية للنسائى .

(٣) سورة المزمل الآية : ١٠ .

(٤) سورة القارعة الآيات : ١ - ٥ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ١٠١ .

(٦) سورة عبس الآيات : ٢٤ - ٢٧ .

وقيل : يبصر المظلوم ظالمه ، والمقتول قاتله .

وقوله تعالى : **﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾** .

أى : يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فدية لينجيه من ذلك العذاب ، فيود لو كان أبناؤه ، أو زوجته ، أو أخوه ، أو عشيرته التى تضمه إليه ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب . هيهات .

قوله تعالى : **﴿ كلا ﴾** أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهبا ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجته وعشيرته . كما قال تعالى : **﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾**[1] وكقوله : **﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾**[2] .

وقوله تعالى : **﴿ إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾** أى : أنها النار الشديدة الحرارة التى تنزع جلدة الرأس وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر أنهم فى الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل المحشر فدرسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواه .

وقوله : **﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾** أى : تدعو لظى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الايمان ودعاؤها أن تقول : إلىَّ يا مشرك إلىّ يا كافر ، وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إلىَّ يا كافر ، إلىّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب .

وقوله : **﴿ وجمع فأوعى ﴾** أى : جمع المال فجعله فى وعائه ومنع منه حق الله ـ تعالى ـ .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٩١ .
(٢) سورة الرعد من الآية : ١٨ .

من طبائع النفس الانسانية
وذكر أصحاب الجنة

قال تعالى :

* إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

معانى المفردات

﴿ هلوعا ﴾ الهلع : سرعة الحزن عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير . وسأل محمد ابن طاهر ثعلبا عن الهلع فقال : قد فسره الله ولا يكون تفسيرا أبين من تفسيره ـ سبحانه ـ يعنى قوله : (إذا مسه) الآية .

﴿ جزوعا ﴾ الجزع : حزن يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه .

﴿ الخير ﴾ : المال والغنى .

﴿ حق معلوم ﴾ : نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على المحتاجين .

﴿ المحروم ﴾ : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى .

﴿ يصدقون بيوم الدين ﴾ : أى : يصدقون به تصديقا يكون له الأثر فى نفوسهم .

﴿ مشفقون ﴾ أى : خائفون .

﴿ حافظون ﴾ أى : كافّون لها عن الحرام .

﴿ راعون ﴾ أى : لا يخلون بشىء من حقوقها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبغها على عباده ـ أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب ، وتبعد عن ظلمة المادة التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنتزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التى تقيده بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألفها وركن إليها وهى ترجع إلى شيئن : الحرص ، والجزع .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

أى : أن الانسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا اقتصر أو مرض أخذ فى الشكاة والجزع ، وإذا صار غنيا أو سليما معافى منع معروفه وشح بماله ، وما زال إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة . كقوله تعالى : ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾[1] .

وقد استثنى ـ سبحانه ـ من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

---

(١) سورة فصلت الآيات : ٤٩ ـ ٥١ .

﴿ **إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال النخعى : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر وقوله : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ أى : على مواقيتها . وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . والدائم الساكن كما وصفهم فى صدر سورة « المؤمنون » ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع .

وقال القرطبى : مداومتهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخلُّون بها . ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل .

وقوله : ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم** ﴾ ، أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات وهو الزكاة ﴿ **للسائل والمحروم** ﴾أى : للفقير الذى يسأل ويتكفف الناس ، والمحروم الذى يتعفف عن السؤال فيظن أنه غنى فيحرم ، كقوله تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ **والذين يصدقون بيوم الدين** ﴾أى : يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، ويصدقون بمجيئه تصديقا جازما لا يشوبه شك أو ارتياب ، فيستعدون له بالأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ **والذين هم من عذاب ربهم مشفقون** ﴾ أى : خائفون وجلون كما وصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ (٢) ووصفهم بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٣) .

وبقوله : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾(٤) .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله ـ تبارك وتعالى ـ : .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال تعالى : ﴿ **الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾أى : يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقيقات المملوكات .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٧٣ .
(٢) سورة الزمر من الآية : ٩ .
(٣) سورة السجدة الآية : ١٦ .
(٤) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ - ٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ **فإنهم غير ملومين** ﴾ أى : فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات حلال يؤجر عليه الانسان ، لما فيه من تكثير النسل والذرية .

وقوله تعالى : ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ أى : فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات ، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله .

قال الطبْرى : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلوا ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملومون .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ أى : يؤدون الأمانات ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذاعاهدوا لم يغدروا وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى : ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾[(١)] ـ الآية .

وكما قال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط** ﴾ . . الآية[(٢)] . وقال سبحانه : ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾[(٣)] .

فالمؤمن التقى يشهد بالحق على القريب والبعيد ، ولا يكتم الشهادة ولا يغيرها بل يؤديها على وجهها الكامل ، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم وخص سبحانه الشهادة بالذكر مع إندراجها فى الأمانات ، تنبيهاً على فضلها وخطرها لأن فى إقامتها إحياء للحقوق ، وفى تركها تضييع للحقوق .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم ، أى : يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صورية لا يجنى العبد ثمرتها ، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم كما قال تعالى : ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾[(٤)] وكما قال ـ سبحانه ـ ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٣٥ .

(٢) سورة المائدة من الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٤) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ .

قال ابن كثير افتتح - سبحانه - الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها كما تقدم فى أول سورة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ سواء ولهذا قال هناك : ﴿ **أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ وقال عنهما : ﴿ **أولئك فى جنات مكرمون** ﴾ أى : أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة ، والمناقب الرفيعة مستقرون فى جنات النعيم ، التى أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات ، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتهيات ، لا تصافهم بمكارم الأخلاق .

وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس : على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسه ، وأدى الأمانة » قيل : يا رسول الله ، وما أداء الأمانة ؟ قال : « الغسل من الجنابة ، إن الله لم يأمن ابن آدم على شىء من دينة غيرها »[(١)] رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « الجهاد فى سبيل الله » قال : حدثنى بهن رسول الله - ﷺ - ولو استزدته لزادنى »[(٢)] . (متفق عليه)

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وخط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه . يقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة »[(٣)] . رواه البخارى .

« فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عنك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك ، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك ، فإن قدر الإسلام فى قلبك كقدر الصلاة فى قلبك ، وقد جاء فى الحديث عن النبى - ﷺ - أنه قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »[(٤)] ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ، فكذلك الصلاة من الإسلام فانظروا - رحمكم الله - واعقلوا وأحكموا الصلاة واتقوا الله فيها ، وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض فإن الله تعالى - قد أمركم أن : تعاونوا على البر والتقوى ، والصلاة أفضل البر . وقد جاء فى الحديث : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم أى : لا نصيب لهم من الدين ولا من الخير والصلاح .

---

(١) انظر مجمع الزوائد جـ ١ ص ٤٧ باب فيما بنى عليه الاسلام فقد ورد الحديث من رواية أبى الدرداء . وقال رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده جيد .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ صـ ٩٠ كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال حديث رقم ١٣٩/٨٥ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٣) البخارى انظر صحيح البخارى جـ ١ صـ ١٦٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) أنظر البخارى فى التاريخ جـ ٧ صـ ٤٢٦ فقد ورد الحديث برقم ١٨٦٨ باب مبارك من رواية لمعاذ بن جبل .

وجاء فى الحديث : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته فإن تقبلت منه صلاته ، تقبل منه سائر عمله ، وإن ردت عليه صلاته رد سائر عمله » .

« فصلاتنا آخر ديننا وهى أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا . . فتمكسوا رحمكم الله - بآخر دينكم » . (رسالة الصلاة لأحمد بن حنبل) .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - « من سره أن يلقى غداً مسلماً ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتهم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف »[٢] رواه مسلم .

من أحوال المعاندين

قال تعالى :

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

---

(٢) صحيح مسلم جـ١ صـ٤٥٣ كتاب المساجد باب صلاة الجماعة من سنن الهدى فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله .

معانى المفردات

﴿ قبلك ﴾ : أى : الجهة التى تليك .

﴿ مهطعين ﴾ أى : مسرعين نحوك ، مادى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هزوا .

﴿ عزين ﴾ أى : فرقاً شتى خلقاً خلقاً .

﴿ بمسبوقين ﴾ أى : بمغلوبين .

﴿ الأجداث ﴾ القبور واحدها جدث .

﴿ سراعاً ﴾ السراع واحدهم سريع .

﴿ والنصب ﴾ (بضمتين) كل شىء منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، وهو المراد هنا .

﴿ يوفضون ﴾ أى : يسرعون .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أى : ذليلة .

﴿ ترهقهم ﴾ أى : تغشاهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وعد الله المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال ـ أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول ـ ﷺ ـ : وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان ـ وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها ـ وهم فى هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة وترهق وجوههم قترة ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ : فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حواليك ، عن يمينك وعن شمالك جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ما تلقيه عليهم من رحمة الله وهديه ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

قال القرطبى : نزلت فى جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه - ﷺ - ولا يؤمنون به .
ونحو الآية : قوله تعالى : ﴿ **فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أو يؤتى صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا** ﴾ . أى : أيطمع هؤلاء وهم نافرون من الرسول - ﷺ - معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتى كما يدخلها المؤمنون المخبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ؟ كلا ! لا مطمع لهم فى ذلك مع ما هم فيه .

قال القرطبى : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبى - ﷺ - ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت ﴿ أيطمع . . ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ أى : إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى . .

روى أن مطرف بن عبد الله رأى المهلب ، ابن أبى صُفرة يتبختر فى مُطرِف خزٍّ وجبة خز فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المشية التى يبغضها الله ؟ فقال له : أتعرفنى ؟ قال نعم ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته . نظم الكلام محمود الوراق فقال :

عجبت من معجب بصورته ... وكان فى الأصل نطفة مذرة
وهو غدا بعد حسن صورته ... يصير فى اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقال آخر :
هل فى ابن آدم غير الرأس مكرمة ... وهو بخمس من الأوساخ مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك ... والعين مُرمصة والثغر ملهوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... قصّر فإنك مأكول ومشروب

---

(١) سورة المدثر الآيتان : ٤٩ - ٥٣ .

والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه ، ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ **إنا لقادرون ، على أن نبدِّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين** ﴾ أى : لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيراً منهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً** ﴾[(١)] .

وقوله ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه ، ولهذا عُدِّىَ بعلى دون إلى ، كما فى قوله ﴿ **وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم** ﴾ فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عدَّاه بعلى ، بخلاف سبقه إليه . فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه . فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه ، والثانى بمعنى وصلت إليه قبله .

قوله تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ ، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم الحجة فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأس الله ، ولا صدقوا رسالته فى خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور فقال ـ تعالى ـ : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون** ﴾ أى : يسرعون والنسب : العلم والغاية التى تنصب ، فيؤمونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعى ، يؤمون الصوت ، لا يعرضون عنه يمنة ولا يسرة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾[(٢)] أى : يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه . قال الزجاج : المعنى لا عوج لهم عن دعائه ، أى : لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده .

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار ، وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم وقريب من هذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾[(٣)] ونظيره قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[(٤)] ، وضد هذا قوله تعالى ﴿ **ولقاهم نضرة وسروراً** ﴾[(٥)] فالنضرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله ومنه قوله ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ [(٦)] فجمع هؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن .

---

(١) سورة النساء : الآية : ١٣٣ .
(٢) سورة طه من الآية : ١٠٨ .
(٣) سورة القيامة الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة يونس من الآية : ٢٧ .
(٥) سورة الإنسان من الآية : ١١ .
(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦ والآية ١٠٧ .

قوله تعالى : **فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين** ﴾ .

أى : أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثل منهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، ولن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

• **قال العلامة ابن القيم** : أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب ، وهى إما مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع وثنى فى موضع ، فقال تعالى : ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ فقيل : هما مشرق الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ، فجاء فى سورة الرحمن ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس والقمر ، والنجوم والشجر ، والسماء والأرض ، والحب والثمر ، والجن والإنس ، ومادة أبى البشر وأبى الجن ، والبحرين ، والجنة والنار ، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما ، وأخبر أن فى كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين .

وأما سورة ﴿ **سأل سائل** ﴾ **فإنه** أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم . فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتى المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته ـ تعالى ـ على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب بها فى مغرب .

وأما فى سورة ﴿ **المزمل** ﴾ فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده ، فليس للمشرق والمغرب رب سواه ـ فكذلك ينبغى أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ ؟ فقال : ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ .

وفى ربوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسموات وما حوته من الشمس والقمر

ثم ذكر سبحانه أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أنذروا به ولم يأتهم بغتة فقال : ﴿ **ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى : ذلك اليوم وما فيه من أهوال كانوا قد أنذروا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب .

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

تفســـــير سورة نوح

مقدمـــــة

السورة مكِّية .

عدد آياتها : ثمان وعشرون آية .

وكلماتها : مائتان وأربع وعشرون .

وحروفها : تسعمائة وتسع وخمسون .

فواصل آياتها : (منا) على الميم آية أليم .

سميت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : أمر نوح بالدعوة ، وشكاية نوح من قومه ، والاستغفار لسعة النعمة ، وتحويل حال الخلق من حال إلى حال ، وإظهار العجائب على سقف السماء ، وظهور دلائل القدرة على بسيط الأرض ، وغرق قوم نوح ، ودعاؤه عليهم بالهلاك ، وللمؤمنين بالرحمة ، وللظالمين بالتبار والخسارة فى قوله : ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾ .

المتشابهات :

(قال نوح) بغير واو ، ثم قال (وقال نوح) بزيادة الواو ، لأن الأول ابتداء دعاء ، والثانى عطف عليه .

قوله ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ وبعده ﴿ **إلا تبارا** ﴾ ، لأن الأول وقع بعد قوله : ﴿ **وقد أضلوا كثيراً** ﴾ ، والثانى بعد قوله : ﴿ لا تذر على الأرض ﴾ فذكر فى كل مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

مناسبة السورة لما قبلها . .

(١) أنه قال فى السورة السابقة : ﴿ **إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم** ﴾ .

وذكر هنا قصة بقوم نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبدالهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعود به الكفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

﴿ **إن أجل الله** ﴾ وقت مجىء عذابه إن لم تؤمنوا .
﴿ **فراراً** ﴾ تباعداً ونفاراً عن الإيمان .
﴿ **استغشوا ثيابهم** ﴾ بالغوا فى التغطى بها كراهة لى .

﴿ **أصروا** ﴾ تشددوا وانهمكوا فى الكفر .
﴿ **يرسل السماء** ﴾ المطر الذى فى السحاب .
﴿ **مدراراً** ﴾ غزيراً متتابعاً . .
﴿ **لا ترجون لله وقاراً** ﴾ لا تعتقدون أو لاتخافون عظمة الله .
﴿ **خلقكم أطواراً** ﴾ مدرجاً لكم فى حالات مختلفة .
﴿ **سموات طباقاً** ﴾ كل سماء مقبية على الأخرى .
﴿ **الشمس سراجاً** ﴾ مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام .
﴿ **أنبتكم من الأرض** ﴾ أنشأكم من طينتها .
﴿ **الأرض بساطا** ﴾ فراشاً مبوسطاً للاستقرار عليها .
﴿ **سبلاً فجاجاً** ﴾ طرقاً واسعات .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ مخبراً عن نوح ـ عليه السلام ـ : أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين** ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضحه . ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه . (وأطيعون) فيما أمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أى : إذا فعلتم ماأمركم به وصدقتم ماأرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم .

قال ابن جرير من هنا بمعنى عن والتقدير : يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبعيض أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام والله أعلم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم .

قال ابن كثير : وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها فى العمر حقيقة كما ورد به الحديث « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة فإنه إذا أمر - تعالى - بكون ذلك لا يرد ولا يمانع فإنه العظيم الذى قد قهر كل شىء ، والعزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

قوله - تعالى - : ﴿ **قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ .

يخبر - تعالى - عن عبده ورسوله نوح - عليه السلام - أنه اشتكى إلى ربه - عز وجل - ما لقى من قومه ، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة ، التى هى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ **رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً** ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل أو نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء طاعتك ﴿ **فلم يزدهم دعائى إلا فراراً** ﴾ أى : كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه . ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم** ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا مايقول ﴿ **وأصروا** ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم ﴿ **واستكبروا استكباراً** ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

قوله - تعالى - : ﴿ **ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ أى : ثم إنى يا رب دعوتهم إلى عبادتك مرة بعد أخرى بأساليب مختلفة : فحيناً أدعوهم جهراً فى مجتمعاتهم ، وحيناً أنفرد ببعضهم سراً .

قوله - تعالى - : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ .

أى : قلت لهم : سلوا الله المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان ﴿ **إنه كان غفاراً** ﴾ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات وهذا منه ترغيب فى التوبة ، وقد روى حذيفة بن اليمان عن النبى - ﷺ - أنه قال : « الاستغفار ممحاة للذنوب » وقال الفضيل : يقول العبد أستغفر الله ، وتفسيرها : أقلنى .

وقوله : ﴿ **يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾ أى : يرسل ماء السماء عليكم (مدراراً) ذا غيث كثير .

قال مقاتل : لما كذبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نساءهم أربعين سنة ، فهلكت مواشيهم وزروعهم ، فصاروا إلى نوح - عليه السلام - واستغاثوا به فقال : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ أى : لم يزل كذلك لمن أناب إليه . ثم قال ترغيباً فى الإيمان ﴿ **يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ قال قتادة : علم نبى الله - ﷺ - إنهم أهل حرص على الدنيا فقال : « هلموا إلى طاعة الله فإن فى طاعة الله درك الدنيا والآخرة » .

ونحو هذه الآية قول النبى هود لقومه : ﴿ **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** ﴾ .

قال القرطبى : - فى هذه الآية والتى فى « هود » دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار . **قال الشعبى** : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا :

ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التى يستنزل بها المطر ثم قرأ : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ .

وقال ابن صبيح : شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله . وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله ، وشكا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال له : استغفر الله . فقلنا له فى ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندى شيئاً ، إن الله تعالى يقول فى سورة نوح : **﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾** .

قوله ـ تعالى ـ : **﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾** .

قوله ـ تعالى ـ : **﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾** .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أى : ما لكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة . وقيل : ما لكم لا توحدون الله ، لأن من عظمة فقد وحده . ثم دلهم على ذلك فقال :

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أى : جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده قال ابن عباس : **﴿ أطواراً ﴾** يعنى نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، أى : طوراً بعد طور إلى تمام الخلق كما قال تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾**[1] وكما قال جل فى علاه **﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾**[2] .

ألا إننا كلنا بائد ** وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ** وكل إلى ربه عائد
فواعجبا كيف يعصى الإله ** أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية ** تدل على أنه واحد

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) سورة الحج الآيات : ٥ ـ ٧ .

ثم تابع نوح مخاطبة قومه لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله فوقهم ، فقد خلق الكواكب السيارة ، وجعل القمر يسير فى مدراتها لينير لهم الأرض ليلاً ، وجعل الشمس سراج النهار فقال : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً** ﴾ ذكر لهم دليلاً آخر ، أى : ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا ! فهو الذى يجب أن يعبد ، ومعنى (طباقا) بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ، قاله ابن عباس والسدى .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ أى : وجعل القمر بروجاً ومنازل وفاوت فى نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستتر ليدل ذلك على مضى الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ أى : والله أنبت أباكم آدم من الأرض ، وقد يكون المعنى : أنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه سبحانه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالد من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات ، وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتى يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف ، تشبه ما فى الشجر ، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو والمر والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات فلكل أمرىء خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله : ﴿ **ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً** ﴾ أى : ثم يعيدكم فى الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشراً . كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[2] .

ثم أخذ يعدد النعم التى أعدها للإنسان فى الأرض وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما فى بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المتنوعة فقال :

﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطاً** ﴾ أى : والله بسط لكم الأرض ومهدها ، وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم يبين حكمة هذا فقال :

﴿ **لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً** ﴾ أى : لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطاها المختلفة .

وقصارى ما سلف ـ أن نوحاً ـ عليه السلام ـ أمر قومه بالنظر فى علوم الأنفس ، والآفاق من معدن ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وسماء ، وأرض وشموس ، وأقمار .

---

(١) سورة يونس الآية : ٥ .

(٢) سورة طه الآية : ٥٥ .

موقف قوم نوح - عليه السلام - منه

قال تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) ﴾

معانى المفردات

﴿ **خساراً** ﴾ الخسار الخسران .

﴿ **كباراً** ﴾ أى : كبيراً عظيماً .

﴿ **لا تذرن** ﴾ أى : لا تتركن .

﴿ **ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا** ﴾ أسماء أصنام كانوا يعبدونها .

﴿ **مما خطيئاتهم** ﴾ أى : من أجل ذنوبهم وآثامهم .

﴿ **أغرقوا** ﴾ أى : بالطوفان .

﴿ **ناراً** ﴾ أى : عذاباً فى القبر .

﴿ **دياراً** ﴾ أى : أحداً .

﴿ **تباراً** ﴾ أى : هلاكاً .

المناسبة وإجمال المعنى

أخبر ـ سبحانه ـ عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة ، المشتملة على الترغيب طوراً ، والترهيب طوراً آخر ، كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومتع بمال وولد وقالوا : لا نترك آلهتنا التى عبدناها نحن وآباؤنا من قبل ، ونتبع بشراً مثلنا .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ مقالة نوح وشكواه إليه ـ أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبار والهلاك .

التفســـــير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً** ﴾ .

لم تؤثر كلمات نوح فى نفوس القوم ولم يستجيبوا لنصيحته ، ولم يأبهوا لإنذار الله لهم ، وأنكروا عليه أن يكون نبياً لعدة أسباب منها :

أنه إنسان مثلهم يأكل ويشرب ، فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم ، فالنبى ـ فى نظرهم ـ يجب أن يكون ملكاً لا بشراً .

وأن الذين اتبعوه هم المستضعفون ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين وأصحاب المهن الوضيعة ، وهؤلاء ـ فى نظرهم ـ قد اتبعوا دون روية ولا تفكير ، وهم ليسوا من ذوى الفضل .

واتهام نوح ومن آمن معه بالكذب ، ولم يكونوا متأكدين من اتهامهم هذا بل كانوا يبنونه على الظن . .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ .

ويصور القرآن الكريم فى آية أخرى مدى استعلاء القوم ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح ووصمهم له بالضلال ، كما يصور نوحاً الصابر الملاطف الذى يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم فيقول لهم : يا قوم ليس بى ضلالة كما تزعمون ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم ما أرسلنى به من الوصايا والأحكام التى تصلح بها أمركم ، وأنى ناصح لكم بما فيه سعادتكم ومحذركم مما فيه شقاؤكم ، وقد علمنى الله مالا تعلمون .

قال تعالى : ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٦٠ ـ ٦٣ .

تهديد نوح

لم تترك دعوة نوح فى قومه إلا أثرا ضئيلا كما صرح القرآن فقال تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾[(١)] .

أما الأكثرون فقد تبرموا من دعوته وكذبوه ، ووصموه بالجنون وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى . قال تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** ﴾[(٢)] .

كما هددوه بالرجم ﴿ **قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾[(٣)] .

وبعد أن بذل نوح غاية جهده فى سبيل هداية قومه ، وبعد أن ضاقت فى وجهه كل السبل لإصلاحهم ، عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه :

﴿ **قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾ .

أى : قال نوح : رب إنهم عصونى فيما أمرتهم به ، وأنكروا مادعوتهم إليه ، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغتروا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة فى خسرانهم وخروجا عن محجة الصواب ، وبعدا عن رحمة الله .

﴿ **ومكروا مكراً كبارا** ﴾ أى : مكرا كبيرا ، فاحتالوا فى الدين ، وصدوا عن سبيل الله بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح - عليه السلام - .

﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدو رب نوح ، ولاسيما هذه الأصنام التى هى أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردوية عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال : صارت هذه الأوثان فى العرب بعد فكان :

ود : لكلب .
سواع : لهذيل .
يغوث : لقطيف بالجرف عند سبأ .
يعوق : لهمدان .
نسر : لحمير آل ذى الكلاع .

---

(١) سورة هود من الآية : ٤٠ .
(٢) سورة القمر الآية : ٩ .
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٦ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

اللات : لثقيف بالطائف .

العزى : لسليم وغطفان وجشم .

مناه : لخزاعة بقديد

أساف : لأهل مكة .

نائلة : لأهل مكة

هبل : لأهل مكة وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .[(١)] .

وقال ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس قال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم ـ الذين كانوا يقتدون بهم ـ لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

قال القرطبى : وبهذا المعنى فسر ماجاء فى صحيح مسلم من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ **وقد أضلوا كثيرا** ﴾ أى : وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التى استحدثت على صور هؤلاء النفر كثير من الناس فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعائه ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾[(٣)] .

ثم دعا نوح على قومه لتمردهم وعنادهم فقال : ﴿ **ولاتزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ أى ولاتزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالا وطبعا على قلوبهم ، وقصارى القول بان دعا عليهم بالخذلان ، وإن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **رب انصرنى بما كذبون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ ﴿ **مما خطيئاتهم** ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ **أغرقوا فأدخلوا نارا** ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار الى حرارة النار ﴿ **فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولامجير ينقذهم من عذاب الله كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ﴾[(٤)] .

(١) البخارى جـ٦ صـ١٩٩ كتاب التفسير تفسير سورة إنا أرسلنا فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم حـ١ صـ٣٧٥ ، ٣٧٦ كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور .. الخ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة

(٣) سورة ابراهيم من الآيتين : ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) سورة هود من الآية : ٤٣ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ أى : يارب لاتترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا .

قال السدى : الديار الذى يسكن الدار فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل أبيه ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾[1] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال ـ رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة »[2] قال ابن كثير : وهذا حديث غريب رجاله ثقات .

وقوله ـ تعالى : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : إنك يارب إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك . أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولايلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : فاجرا فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك .

وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين . قال الكلبى : كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون وكذا قال ابن عباس . وقوله : ﴿ ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾ أى : مسجدى ومصلاى مصلياً مصدقا بالله . وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة . وهذا قول ابن عباس : « بيتى » مسجدى ، وعن ابن عباس ـ أيضا ـ أى : ولمن دخل دينى ، فالبيت بمعنى الدين ، ورواية ثالثة عنه ـ أيضا ـ : يعنى صديقى الداخل الى منزلى . ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ عامة إلى يوم القيامة كدعوة النبى ابراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[3] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أى : الكافرين (إلا تبارا) إلا هلاكا فهى عامة فى كل كافر ومشرك . قال مجاهد (إلا تبارا) إلا خسارا أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

---

(١) سورة هود من الآية : ٤٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير حـ١ صـ٢٦٤ تفسير سورة نوح ط/الشعب فقد أورد الحديث عن ابن عباس ، عن رواية لابن ابى حاتم ، وقال : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

(٣) سورة ابراهيم الاية : ٤١ .

وبعد فراغنا من تفسير سورة نوح - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - رأينا أن نسوق هذا الموضوع القيم والذى يتعلق بأهمية الدعوة والتبليغ ، ومامن شك من أنها أعظم وأشرف عمل يقوم به المسلم فى رسالة الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه . يقول الشيخ عبدالله ناصح علوان فى كتابه . . . .

« وجوب تبليغ الدعوة »

فضل الدعوة والداعية

إذا كان هذا - أخى الداعية - هو حال البشرية اليوم من الفساد والانحلال والشقاء حيث لم تنج بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادىء الكفر والضلال ، إذا علمت هذا فعليك أن تعلم - أيضا - ماهى أبعاد مسئوليتك فى الإصلاح والتغيير ، وماهو عظم واجبك فى التبليغ والدعوة ؟

أعلم - رحمك الله - أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت فى هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب الى أمة الاسلام : شيبا وشبابا ، رجالا ونساء ، صغارا وكبارا ، حكاما ومحكومين خاصة وعامة . . كل يقوم بهذه المهمة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحسسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل فى هذه الوظيفة الدعوة العامة قوله - تبارك وتعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾(١)

والقاعدة فى هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله تبارك اسمه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(٢) .

وعبارة ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ فى الآية تشمل المسلمين جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ **أخرجت للناس** ﴾ فى الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير الى اليد الخالقة المدبرة التى أخرجت أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجا ، ودفعتها الى الظهور واثبات الذات دفعا ، لتبليغ دعوة الله فى العالمين .

ولاشك أن هناك نصوصا كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة تدل دلالة قطعية على حتمية التبليغ ، وفريضة الدعوة نقتطف باقة منها وبالله التوفيق .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

فمن نصوص القرآن الكريم :

أ ـ قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(١) .

فاللام فى قوله : ﴿ ولتكن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضى الوجوب ﴿ وأمة ﴾ فى الآية يقصد منها ـ كما يدل عليه السياق ـ طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأى العام فى كل بقعة من المجتمع الاسلامى ، وإن كان ذلك واجبا ـ فى الأصل ـ على كل فرد من الأمة ، كل على حسب طاقته واستعداده وإيمانه . . يقول « ابن كثير » ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله هنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وفى رواية : « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »(٢) .

فالذى تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأى العام . . واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة ، وإن كان ذلك واجبا فى الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب ـ قال تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(٣) .

أقسم الله ـ سبحانه ـ فى هذه السورة بالعصر الذى بعث الله فيه نبيه لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكد : إن جنس الإنسان لفى ضياع وخسران إلا من تحقق :

بالايمان بالله .

والعمل الصالح .

والتواصى بالحق .

والتواصى بالصبر .

فالذى تدل عليه السورة : أن أى إنسان فى هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنا بالله الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرا على المحنة والبلاء ، راضيا بما قدر الله عليه ، فإنه يكون لامحالة خاسرا ضالا ضائعا !!

فالدعوة الى الله إذن من أوجب الواجبات فى نظر الإسلام ، بل هى واجبة على كل إنسان بحسبه .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ صـ٦٩ كتاب الايمان باب كون النهى عن المنكر من الايمان ـ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٣) سورة العصر .

ـ قال الله تعالى : ﴿ **والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[١] **الآية** . . وقال ـ سبحانه وتعالى ـ فى السورة نفسها : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف** ﴾[٢] .

ومما يستفاد من النصين أن الله ـ سبحانه ـ ميز بين المؤمنين والمنافقين فى مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال القرطبى فى تفسيره : « فجعل الله ـ تعالى ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على ان أخص أوصاف المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام » .

ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر !!

فهذا التميز بين المؤمنين والمنافقين فى مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر !

كما يبدو من الآيات ـ دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالايمان والخيرية والتبليغ . . فاذا تخلت عن سمتها وخصيصتها فإنها تتسم بصفات المنافقين وتنحدر الى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ الله هذه الأمة منهم .

د ـ وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[٣] .

وقد سرد الإمام الغزالى هذه الآيات وعقب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » وقد نزلت هذه الآية ـ كما ذكر ابن كثير ـ فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبدالله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم وأصبح معنى الآية : لايستوى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذم والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب الله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين .

هـ ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون** ﴾[٤] .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٧١ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧ .
(١) سورة آل عمران الآيتان : ١١٣ ـ ١١٤ .
(٤) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩ .

يخبر - تعالى - فى هاتين الآيتين أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله ، وإعتدائهم على خلقه ، وكانوا أيضا لاينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصى ، ويجلسون معهم ويرضون بمنكرهم !!

وهذا مابينه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى الحديث الذى رواه الامام أحمد : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ،. فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم »[١] .

ومما يدل عليه هذا النص القرآنى أن أمة الاسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأى العام ، ولم تنصح الناس الى مافيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة الله - عز وجل - ولم تأمر بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر فإن الله - سبحانه - يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبسبب تساهلها فى حق دعوة الله - سبحانه - ، وحراسة الرأى العام المسلم .

- وقال - تعالى - : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[٢] .

يؤكد - سبحانه - فى هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك فى اتباع هواه ، وإعزاز دينه ، والجهاد فى سبيله ، وهؤلاء الذين ينصرون الله - عز وجل - ، لهم فى الحياة الدنيا مهمة ، وفى مجال العمل التبليغى رسالة ، فمهمتهم الأولى حين يمكن الله لهم فى الأرض أن يعبدوا الله ويوحدوه ، ورسالتهم فى إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هى مهمتهم ، وتلك هى رسالتهم فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ويتخلوا عنها حتى يستأهلوا نصر الله - عز وجل - ، وحتى يزيدهم الله فى الأرض عزة وقوة وتمكينا ، وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة فإن الله - سبحانه - يجعل بأسهم بينهم شديدا ، ويسلط عليهم عدوهم ، فيستنفذ بعض مافى أيديهم ، ويزيدهم فى الحياة ذلة ووهنا وتمزيقا .

ومما يوجه اليه هذا النص القرآنى : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسئوليتها فى التزام منهج الله - عز وجل - وإذا لم تؤد رسالتها فى التبليغ والدعوة ، فان الله - سبحانه - يعرض عنها ويتخلى عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرها ، ويبدلها من بعد أمن خوفا ، ومن بعد عزة ذلا ، وسوف تبقى على هذه الحالة المتردية حتى تعود إلى هدى ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن الله من ينصره إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التى تدل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

- **ومن نصوص السنة الشريفة**

أ - روى الشيخان عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : « بايعنا رسول الله - ﷺ - على

---

(١) أنظر الامام أحمد حـ١ صـ٣٩١ فقد ورد الحديث من رواية لعبدالله .

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ .

السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم »[١] .

ماذا تعنى كلمة : (بايعنا) ؟ وماذا تعنى عبارة « أن نقول الحق أينما كنا » أليست تعنى أن كل من انتمى الى جماعة المسلمين أن يعطى البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع فى العسر واليسر ، وان لا ينشق عن أمير الجماعة إلا اذا أمر بالمعصية ، أو دعا الى كفر بواح وأن يقول الحق أيما كان ، وان لا يخاف فى الله لومة لائم .

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين وجوب النصح العام ، وحتمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلت ووجدت ؟

ب - روى البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا (اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم ومأأرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[٢] .

مثل النبى -ﷺ- فى هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت فى سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تعبث بأمن السفينة وركابها ، فكل من فى السفينة إذا تركوا هذه الطائفة العابثة تفعل ماتشاء هلك كل من فى السفينة ، واذا منعوها وأخذوا على يديها نجا كل من فى السفينة !

أليس يدل هذا التمثيل النبوى ، على أن كل مسلم فى هذا الوجود له وظيفة اجتماعية فى الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف فى وجه المارقين الظالمين . . حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وانها اذا تساهلت فى ذلك أصابها الله بالذل والهوان والتمزق . ؟

ج - روى أبو داود والترمذى عن عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مادخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ماتصنع به فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد (وهو على حاله) (أى من المنكر) فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل . . الآية** ﴾ . ثم قال - عليه الصلاة والسلام : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه (أى لتجبرنه) على الحق أطراً ولتجبرنه على الحق قصرا »[٣]

هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل فرد فى الأمة .

---

(١) انظر صحيح البخارى حـ٩ صـ٩٦ . . كتاب الأحكام « باب كيف يبايع الامام الناس فقد ورد الحديث من رواية لعبادة بن الصامت مع اختلاف يسير .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ٣ صـ١٨٣ كتاب فى المظالم والغصب باب هل يقرع فى القسمة والاستفهام فيه فقد ورد الحديث عن رواية النعمان بن بشير .

(٣) انظر سنن ابى داود حـ٤ صـ٥٠٨ باب الأمر والنهى فقد ورد الحديث برقم ٤٣٣٦ .

ووجه الاستدلال

استحقاق الأمة جميعا لعنة الله اذا تقاعست فى واجب التغيير والتبليغ والدعوة .

صيغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب فى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ « كلا والله لتأمرن بالمعروف ...... » .

فهذه الصيغ كلها ـ كما هو معلوم ـ تدل على الوجوب .

تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلى عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

د ـ روى الشيخان عن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ ان النبى ـ ﷺ ـ دخل عليها فزعا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بين أصبعيه : الابهام والتى تليها ، فقلت : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »[1] مما يدل عليه هذا الحديث ، أن الأمة بأسرها صلحاؤها وفجارها يعمها الدمار والهلاك لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ومسئولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فالصالحون منها يشملهم الهلاك لكونهم سكتوا عن استشراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذل والمهانة !!

هـ ـ روى مسلم والترمذى وابن ماجة .. عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »[2] .

« فمن » فى قوله عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكرا » ـ لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان منكرا من العامة أو الخاصة ، إذا فقهوا الخطر الذى يترتب عليه تفشى المنكر فى المجتمع الاسلامى .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فان لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب ، وذلك أضعف الايمان .

وتغيير المنكر بالقلب معناه ان ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ، وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم وتمعّر وجهه من أفعالهم .

أ ـ ووجه الاستدلال الذى يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولا ، ثم اللسان ثانيا ،

(١) انظر صحيح البخارى حـ٩ صـ٦٠ ط/الشعب كتاب الفتن باب قول النبى ـ ﷺ ـ « ويل للعرب من شر قد اقترب مقدور والحديث عن رواية عن زينب ابنة جحش .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ ص٦٩ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٤٩/٧١ .

ثم القلب ثالثا : فاذا لم يتم التغيير بأى مرحلة من هذه المراحل الثلاثة . . فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدل عليه الرواية الثانية التى رواها مسلم : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[١] . الى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التى تدلل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

الدليل من عمل الأمة

انطلاقا من خصيصة الإسلام الأولى : تكون الدعوة إنسانية عالمية . واستشعارا بمسئولية المسلمين فى حمل رسالة الاسلام الى الدنيا وإيمانا باعتقاد المؤمنين جميعا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد أنهم على احدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . .

بناء على هذا كله انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان فى مجاهل الأرض ، يمدون الأمم ، ويكرمون الانسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون فى العالمين صرح الحضارة ، وينبتون الأرض خيرا وعسلا ولبنا ، ويطبعون فى ضمير الزمان مبادىء التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة .

انطلقوا يعلنون للدنيا انهم دعاة حق ، ومصابيح هدى ، وحملة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح .

واليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

ـ أرسل سعيد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ جماعة من الأشراف دعاة إلى « يزدجرد » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرارة . . . فلما وصلوا اليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ماجاء بكم ودعاكم الى غزونا ، والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم النعمان بن مقرن . فقال :

« إن الله رحمنا ، فأرسل لنا رسولا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر ان نبتدىء بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العدواوة والضيق . ثم أمر أن نبتدىء بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبح القبيح ، فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فان أبيتم فالمناجزة (أى القتال) .

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ١ صـ٦٩ ، ٧٠ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٨٠/٥٠ .

فإن أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء (أى دفعتم الجزية) قبلنا منكم ومنعناكم (أى : دفعنا عنكم) وإلا قاتلناكم . . . » .

ـ ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرض القادسية أرسل الى سعيد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أن ابعث إلينا رجلا نكلمه فأرسل اليه ربعى بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق (السجاد) والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل ربعى على فرسه ، وسيفه فى خرقه ، ورمحه مشدود بعصب ، فلما انتهى الى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما خطوة حتى أفسد مامر عليه من البسط ـ ثم دنا من رستم ـ وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لانقعد على زينتكم . . فقال رستم : ماجاء بكم ؟

قال ربعى : « الله جاء بنا ، وهو ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى تقضى الى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربعى : « نعم ، وإن مما سن لنا رسول الله ـ ﷺ ـ ألا تمكن الاعداء اكثر من ثلاث ، فنحن ممتنعون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

الاسلام وندعك وأرضك .

او الجزاء (أى : الجزية) فنقبل منك ، ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

أو المنابذة (أى القتال) فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا (أى بقتال وأنا كفيل على أصحابى » .

هذا غيض من فيض مما ذكره التاريخ من مواقفهم الدعوية المشرفة ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم باحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا فى سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ، حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الاسلام إنتشاره .

فماهو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول ـ ﷺ ـ حتى قامت للمسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين دولة عتيدة وسلطان ، وامتدا لهم فى رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين : فارس والروم ، وامتد ظلهم الى بلاد السند شرقا ، والى بلاد الخزر ، وأرمينية ، وبلاد الروس شمالا ، ودخلت فى عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية إفريقية ، وذلك كله فى خمس وثلاثين سنة .

وفى عهد بنى أمية استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقا ، ودخلوا بلاد الأندلس بأوروبة غربا . . . .

ومما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التى تقول :

« مالايتحقق الواجب إلا به فهو واجب » .

إن بلاد الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما هو معلوم - يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمى معاهد ، وماعداهم من مرتدين ، أو ملحدين ، أو شيوعيين ، أو مستعمرين ، أو صهيونين .... فلايصح أن يقر لهم فى بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لايتحققون بصفة العزة الإسلامية فى دار الاسلام ، وأرض المسلمين ، إلا أن يقوموا قومة رجل واحد فى التوعية ، وتبليغ الدعوة والالتفاف تحت راية واحدة والارتباط بالجماعة المسلمة ، حتى اذا كونوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهيئين لخوض معارك الجهاد ، طهروا أرض الإسلام من كل مرتد أفاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعى مجرم ، أو يهودى آثم .. عندئذ يعلم أعداء الاسلام فى كل مكان أنهم لاحياة لهم فى أرض الاسلام إلا بإسلام أو ذمة !!

أما أن يكون فى أرض الاسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالة تدعى الاسلام زورا وتقية كالقرامطة ، والقاديانية ، والاسماعيلية وغيرهم ممن على شاكلتهم .

أما أن يكون فى بلاد الاسلام أحزاب كافرة ، ودعاة الى مبادىء هدامة كالشيوعية والوجودية ، والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهى إظهار العزة على الكافرين التى من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا .

ومن يوم مافقدت الشخصية الاسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ، تفكك المجتمع الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة (الماسونية) فى بلاد الاسلام أن يقوضوا عرش الخلافة الاسلامية ، وأن ينكسوا الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا فى أرض الاسلام الفساد ، واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الاسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستطاع الشيوعيون ان يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وان يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار .. واستطاع اللادينيون أن يتحكموا فى أقطار ينتسب أهلها الى الاسلام ، وأن يبعدوا الاسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ، واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع فى بلاد الاسلام وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ، واستطاع اليهود أن يقيموا دولة فى فلسطين ، وأن يغتصبوا المسجد الاقصى وأن يفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير والكثير !!

وفى الحقيقة لاتحل مشاكل المسلمين فى هذا العصر إلا اذا وجد الجيل المؤمن الواعى الداعية المجاهد الذى يحقق بإيمان وشجاعة العزة للمؤمنين والحاكمية للاسلام فى كل مجتمع يؤمن أهله بـ لا إله إلا الله محمدا رسول الله .

وهذا فى الواقع لايتأتى إلا أن يستشعر الجيل المسلم فى العصر الحديث معنى الواجب الذى كلفهم

الشرع به ، ومعنى المسئولية التى حملهم الاسلام إياها . فإقامة حكم الله فى الأرض هو من أعظم المسئوليات وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسئوليته وواجبه لأنه كما ذكر علماء الأصول : « مالايتحقق الواجب إلا به فهو واجب » وإلا فإن الحساب عند الله عسير ، وإن المسئولية يوم القيامة كبيرة .

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والاكراه ؟

إذا كان الاسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ، وماهو الهدف ؟

إن للجهاد فى الاسلام أهدافا محددة تبلغ من صميم الواقع وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق نلخصها فى النقاط التالية :

(١) رد الظلم والعدوان عن أرض الاسلام :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين** ﴾[١] .

(٢) الإخلال بالعهود والمواثيق :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾[٢] .

(٣) إزالة العقبات التى تعترض الدعوة :

لقوله سبحانه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾[٣] .

وبناء على هذا النص يجب قتال من يعترض طريق الدعوة الاسلامية ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام الى الشعوب بل النص فى جملته يأمر المسلمين أن يزيحوا عن طريق الدعوة ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب أو حاكم متأله يحول بين قومه وبين الهداية ، حتى تصل دعوة الإسلام الى الأمم والشعوب نقية صافية واضحة ، ثم بالتالى الشعوب هى التى تقرر مصيرها : إن شاءت أن تدخل فى الإسلام عن طواعية واختيار ، وإن شاءت أن تبقى على دينها وتدفع الجزية الى الدولة الاسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد فى الإسلام : أن الاسلام لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، وإنه لم

(١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٢ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٩ .

ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الاسلام وإنما شرع الجهاد ـ كما سبق ذكره ـ من أجل إزاحة الطواغيت والمتألهين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون وصول الاسلام الى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الاسلام لم يكره أحدا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص : قال تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[١] .

لو كان الاسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول الله ـ ﷺ ـ من صاحب « أيلة » ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد ان انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم فى تبوك ، فإن طبيعة النصر تدفع المرء الى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ أبى أن يحارب أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾[٢] .

والجزية التى دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم وإنما هى عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة فى سبيل حمايتهم .

وهذا التخيير الذى فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه فى الدين .

فضل الدعوة والداعية

إن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

(١) أنها خاتمة (٢) إنها عالمية (٣) أنها ذات خصائص .

أما أنها خاتمة :

فلكونها ، جمعت فى طياتها دعوة الرسل جميعا ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدى المتجدد على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية :

فلكونها ذات صبغة إنسانية عامة فى تشريعها ومبادئها ، فهى رحمة للعالمين ، وهى هداية للناس كافة وهى منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص :

فلكونها تختص بالمزايا التالية :

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٦١ .

أ ـ الربانية : لأنها نزلت من حكيم حميد .
ب ـ الشمول : لأنها تنزلت بمنهج الحياة .
ج ـ التجدد : لكونها تحمل فى طبيعتها عوامل نموها وامتدادها الى يوم الدين .
د ـ التوازن : لكونها وفقت بين المادة والروح ، وحققت مصلحة الفرد والجماعة وأعطيت لكل ذى حق حقه فى الحياة .
هـ ـ اليسر : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الانسان وتنسجم مع مسئولياته .
و ـ البساطة : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستحب لها كل ذى عقل ، وينشرح لها كل ذى فطرة .
ز ـ الخلود : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لايتطرق اليها قصور ، ولايعتريها تحريف .

وإن دعوة تحمل فى طياتها مزايا الربانية ، والعالمية ، والشمول ، وتحمل فى مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل فى طبيعتها ظواهر التوازن ، والاصالة والاستمرار ، فهى دعوة تستحق البقاء وتستأهل الخلود ، وتفى بحاجات الزمن .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فضل الداعية إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ

لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة فى تكريمها للدعاة وفى الرفع من منزلتهم ، وفى الإشادة بفضلهم .. لوجدناها أكثر من أن تحصى :

١ ـ الدعاة هم خير الناس .

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ **الآية** .

٢ ـ الدعاة هم الشهداء على الناس :

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾(١)

فأمة الاسلام هى الأمة الداعية الوسط التى تشهد يوم القيامة على أنها بلغت رسالة الاسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصورات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة فى كل مايتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفى كل مايرتبط بهداية الأمم والشعوب والانسانية .

٣ ـ الدعاة هم المفلحون فى الدنيا والآخرة

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويؤمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك المفلحون** ﴾ .

---

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٣ .

هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر ، هى الأمة المفلحة الفائزة فى الدنيا والآخرة ، المفلحة فى الدنيا لكونها نفذت منهج الله عز وجل - فى الدعوة والجهاد ، والعمل فى سبيل الاسلام ، فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم .

والمفلحة فى الآخرة لكونها بلغت الدنيا الرسالة وأدت الأمانة ، ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده ، فاستأهلت النعيم الخالد المقيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

فهنيئا للدعاة الهداية ماأعد الله لهم من منزلة رفيعة ومقام كريم فى الدنيا والآخرة .

٤ - الدعاة أحسن الناس حديثا :

لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾(٢)

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام ، وليسيروا فى طريق الدعوة إلى اللهوليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية ، فإنهم فى المقام الأرفع والمنزل الأكرم .

٥ - الدعاة ورثة الأنبياء :

لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم أن رسول الله - ﷺ - قال : « العلماء ورثة الأنبياء »(٣)

وهل هناك شرف أعظم ممن يدانى الأنبياء فى المنزلة والكرامة ؟ وما العلماء والدعاة إلى الله - عز وجل - إلا ممن اقتفوا أثر رسول الله - ﷺ - فى دعوة الأمم إلى الخير ، وهداية البشرية إلى الصراط السوى ، فهم ورثة الأنبياء ، وهم الواقفون على ثغرة الإسلام وهم المجاهدون لإعلاء دين الله ، وهم يحيون بكتاب الله الموتى ، ويفتحون بالإسلام قلوبا غلفا ، وأعينا عمياً ، وآذاناً صما ، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الاسلام عن الشهود والوجود .

فهل أدرك الدعاة إلى الله فضلهم ، وعرفوا فى هذه الحياة منزلتهم ؟

٦ - أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة :

لما روى الترمذى عن أبى امامة مرفوعاً . . أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير »(٣).

والصلاة - كما هو معلوم - من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء . وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا من تصدى للدعوة وسار فى طريق الهداية والإصلاح والتبليغ .

ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا فى هذا الوجود منزلتهم ؟ فهنيئا لهم ، ولمن يسير على دربهم كم ينالوا من شرف ؟ وكم يسطر لهم فى صحفائهم من أجر ومثوبة ؟ . . . . . أهـ .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ١ ص٢٧ كتاب العلم ، انظر ابن ماجة حـ١ ص٨١ حديث رقم ٢٢٣ .

(٣) انظر سنن الترمذى المجلد الرابع ط/دار الفكر صـ١٥٤ حديث رقم ٢٨٢٦ فقد أورد الحديث عن أبى أمامة وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

سورة الجن

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية . آياتها ثمان وعشرون عند الكل إلا مكة فإنها فى عدّهم سبع عدّوا (لن يجيرنى من الله أحد) وأسقطوا (ملتحدا) فى غير رواية البزى

وفى رواية البزى : لم يعدَّ (لن يجيرنى من الله أحد) ولم يعد (ملتحدا) فصار فى روايته سبعاً وعشرين . وفى الرواية الأخرى : ثمانيا وعشرين . وكلماتها مائتان وخمس وثمانون . وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون . فواصل آياتها على الألف . سميت سورة الجن لاشتمالها على الجن فى قوله : ﴿ **يعوذون برجال من الجن** ﴾ وقوله : ﴿ **نفر من الجن** ﴾ معظم مقصود السورة : عجائب علوم القرآن وعظمة سلطان الملك **الديان** وتعدّى الجن على الإنسان ومنعهم عن الوصول إلى السماء بالطيران والرشد والصلاح لأهل الإيمان وتهديد الكفار بالجحيم والنيران وعلم الله تعالى **بالاسرار** والإعلان وكيفية تبليغ الوحى من الملائكة إلى الأنبياء بالإتقان وحصر المعلومات فى علم خالق الخلق فى قوله : ﴿ **وأحصى كل شىء عدداً** ﴾ .
السورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

المتشابه

قوله : ﴿ **وأنه** ﴾ : (كرر مرات أن وأنه) واختلف القراء فى اثنتى عشرة منها وهى من قوله : (وأنه تعالى) إلى قوله : ﴿ **وأنا منا المسلمون** ﴾ : ففتحها بعضهم عطفا على ﴿ **أوحى إلى انه** ﴾ وكسرها بعضهم عطفا على قوله : ﴿ **فقالوا إنا سمعنا** ﴾ وبعضهم فتح (أنه) عطفا على (أنه) وكسر (إنا) عطفا على (إنا) وهو شاذ .

فضل السورة

عن أبى : من قرأها أعطى بعدد كل جن وشيطان صدق بمحمد وكذب به عتق رقبة وعن على : يا على من قرأها لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة وله بكل آية قرأها ثواب الزاهدين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ أوحى ﴾ الوحى هو ما يلقى إلى الأنبياء من عند الله وفيه معنى الخفاء والسرعة ، والإيحاء أن تلقى إلى غيرك ما تريده عن طريق الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة أو الإلهام ﴿ **نفر** ﴾ النفر العدد القليل هو من الثلاثة إلى العشرة ﴿ **استمع** ﴾ أصغى ﴿ **عجباً** ﴾ المراد يثير العجب ويدعو للغرابة والدهشة ﴿ **جد ربنا** ﴾ يقال : جد هذا فى عينى أى عظم فالمراد تعالى جلال ربنا وعظمته وقيل : الجد الملك والسلطان ﴿ **يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ السفيه من عنده خفة وطيش تنشأ عن حق وجهل والقول الشطط الذى تخطى صاحبه فيه حد العدل والحق ﴿ **يعوذون** ﴾ يطلبون النجاة والعون ﴿ **رهقا** ﴾ طغيانا وإثماً أو ذلة وخوفا لا يطاق ﴿ **لمسنا السماء** ﴾ طلبنا بلوغها واستماع أخبارها ﴿ **حرسا** ﴾ لفظ يدل على الجمع والمراد عليها حراس من الملائكة شداد ﴿ **شهبا** ﴾ جمع شهاب وهو شعلة من نار ساطعة ﴿ **رصدا** ﴾ يرصده ويرقبه لينقض عليه ﴿ **رشدا** ﴾ المراد خيرا

ورحمة ﴿ **نعجز الله** ﴾ لن نفوته ونفلت من قدرته ﴿ **بخساً** ﴾ أى إنتقاصا من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له ﴿ **ولا رهقا** ﴾ لايخاف ظلما غير محتمل ﴿ **تحروا رشدا** ﴾ أى : طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين ﴿ **القاسطون** ﴾ قسط : ظلم وجار ، وأقسط : أزال الظلم والجور

أضواء كاشفة

لقد ثبت فى الصحاح أن الجن استمعوا للنبى ﷺ وهو يصلى بأصحابه ويقرأ القرآن بصوت أمال الجن فصرفهم إليه فلما استمعوا وفهموا حقائق من كلام الله انطلقوا إلى أهليهم يبشرونهم ويحملون إليهم ما عرفوه ولقد أوحى الله إلى النبى بهذا ليطمئن خاطره وتستمر نفسه كما هى قوية شديدة فى دعوتها فإن أعرض عنها المشركون فهاهم أولاء الجن يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان بها نزلت هذه الآية مرة بالإجمال فى سورة الأحقاف قال تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب إليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين** ﴾[1].

ومرة بالتفصيل كما هنا نزلت فيها نزلت تبكيتا لقريش والعرب حيث تباطؤوا عن الإيمان وكانت الجن أسرع منهم فى قبول الدعوة مع أنهم من غير جنس البشر ، أما القرشيون والعرب فقد كذبوا حسداً من عند أنفسهم وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، قل لهم يامحمد : لقد أوحى الله إلىّ أنه استمع نفر من الجن إلى القرآن فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم : إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن بديعاً يدعوا إلى العجب لأنه مخالف لكلام البشر بل ولكل الكتب السابقة فى نظامه وأسلوبه وأغراضه ومعانيه وهو كتاب يهدى إلى الرشد وإلى الخير والحق وإلى الصراط المستقيم فنشأ عن ذلك أننا آمنا به وبمن أنزل عليه بعد ما آمنا بالقوى القادر الذى أنزله على عبده محمد ولن نشرك بعد هذا بربنا أحداً من خلقه أيا كان ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا** ﴾ أى : وصدقنا أن الحال والشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا أى : عظمته وتعالى سلطانه فهو صاحب الملك والسلطان تبارك اسمه وتعالى سره مااتخذ صاحبة ولا اتخذ ولدا ، وكأن الجن حينما سمعوا القرن نبهم ذلك الى خطأ كان يعتقده الكفرة من الجن حيث شبهوا الله بالحادث المحتاج الى الصاحبة والزوجة والذى يجوز عليه الانفصال ويحتاج إلى الأولاد كيف يكون ذلك مع أنه المتعالى الغنى عن كل شىء .

آمنا بالله وصدقنا بأن ما كان يقوله سفيهنا فى حقد سبحانه وتعالى **كان** شططا وخروجا عن حد العقول لفرط بعده عن الحق إذ كان ينسب الصاحبة والولد إليه - عز وجل -

وهاهم يعتذرون عن تقليدهم لسفيههم وقائدهم فى الشر فيقولون : آمنا بالله وصدقنا بخطئنا فى

---

(١) سورة الأحقاف الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

ظننا الذى لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا فى نسبة ما لا يليق بالله لأننا كنا نظن أن من المستحيل أن يقول واحد من الإنس والجن على الله قولا كاذبا فيه كنسبة الصاحبة والولد له – جل شأنه .

كان الرجل من العرب إذا أمسى فى واد مقفر وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادى – يريد رئيس الجن فيه – أعوذ بك من سفهاء قومك **فلما** سمع الجن ذلك أستكبروا وزادهم هذا إرهاقا وتعنقا وعتواً ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ بمعنى آمنا بالله، وآمنا بأنه كان رجال من الإنس يلجئون إلى الجن يستعيذون بهم فكان الجن يزدادون بذلك عتوا واستكبارا وقيل : إن معنى الآية : وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال منهم وهم الكهان والمنجمون والعرافون يستجيرون بهم من أذى الجن فيزداد الكهان والعرافون عتواً واستكبارا وهذا علاج جاء على لسان إخواننا الجن لرد البشر إلى الصواب فى اعتقادهم فى الجن وعلى ذلك فكاذب من يقول : إن بعض الناس يستخدم الجن أو إن للجن عملا نافعا أو ضارا فى حياتنا يقول **الالوسى**: ولعل تعلق الإيمان بهذا باعتبار ما يشعر به من كون ذلك ضلالا موجبا لزيادة الرهق

وآمنا بأن الإنس ظنوا خطأ كما ظننتم أن الله لن يبعث أحداً من الرسل إلى أحد من العباد وقيل : المعنى أوحى إلىّ أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة أن الله لن يبعث أحداً من خلقه بعد موته

ونخبركم بأننا طلبنا بلوغ السماء لنسمع كلام أصحابها كما كنا فوجدناها قد ملئت حرساً قويا من الملائكة أعد لطرد من يسترق السمع وملئت شهباً رصدت لمن يريد السمع فتحرقه

ونخبركم كذلك بأننا كنا نقعد منها مقاعد كثيرة لا ستراق السمع قبل بعثة النبى ﷺ فمن يستمع الآن يجد **له** شهابا خاصاً به رصد لأجله لايخطئه وهذه الشهب لا يمنع وجودها الآن وقبل الآن وكونها ظاهرة طبيعية لا يمنع أنها أعدت بعد البعثة لذلك مع صفتها الأصلية وكثرت لهذا الغرض ويفيد ذلك قوله : ﴿ **ملئت** ﴾ وآمنا بأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض بحراسة السماء أم أراد بهم رشدا وخيراً وآمنا بأنا منا الصالحون أى فى أنفسهم الطيبون فى المعاملات مع غيرهم المائلون للخير بطبعهم ومنا غير ذلك وهم كثير كنا طرائق مختلفة حيث وكلنا إلى أنفسنا

وآمنا بأنا لن نعجز الله ولن نفلت منه أبدا أينما كنا فى الأرض ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء فالكل فى قبضته وتحت تصرفه

وآمنا بأنا كما سمعنا الهدى أى : القرآن آمنا به من غير تلعثم وتردد فمن يؤمن بربه وبما أنزله – عز وجل – فلا يخاف نقصا ولا يخاف ظلماً إذ لا يظلم ربك مثقال ذرة وفى الواقع أن ربك لايظلم **أحدا بل الكل يأخذ جزاء ولكن نصت الآية على أن المؤمن لاينقص من حسناته ولا يبخس شىء من عمله** .

وبعد سماع القرآن آمنا بأنا منا المسلمون ومنا القاسطون الجائرون على طريق الهدى ، فأما المسلمون المهديون فأولئك قوم توخوا العدل والحق وقصدوه واتبعوه وآمنوا وعملوا به وأما القاسطون الجائرون عن سنة الحق والعدل والكرامة التى هى سنن الإسلام فأولئك قوم مأواهم جهنم بل كانوا لها حطباً ووقوداً .

تلك حقائق إسلامية أوردها القرآن على لسان الجن فكانت دواء لكثير من أمراضنا وتصحيحا لكثير من أفهامنا وهى تتلخص فيما يأتى :

١ - أن الجن سمعوا قرآنا يدعو إلى العجب فآمنوا به ولن يشركوا بالله أحداً .

٢ - أنه تعالى جده وعظمت عظمته لا يمكن أن يتخذ صاحبة ولا ولداً .

٣ - أنه كان يقول بذلك بعض سفهائنا وهو قول خارج عن كل الحدود

٤ وأنا كنا نظن أنه لا يعقل أن يقول أحد من الخلق على الله كذبا ولكن تبين لنا ذلك فنعتذر

٥ - وأنه مما يدعو إلى العجب أن رجالا من الإنس كانوا يستجيرون برجال من الجن فإزدادوا منا وفجورا لذلك ، أو أنه كان رجال من الإنس يستجبرون بإخوانهم من الإنس ليمنعوا عنهم ضرر الجن فإزدادوا ظلما وفحشا مع أن الجن لا حول لهم ولا طول فليطمئن الإنس ولايستعيذون إلا بالله من الإنس والجن .

٦ - أن الخلق كانت تظن خطأ أن الله لن يبعث أحدا من رسله ولا أحدا بعد موته

٧ - وأنا طلبنا بلوغ السماء لنعرف خبرا فمنعنا فليطمئن الإنس فليس الجن يعرف أى خبر عن السماء .

٨ - وأنا كنا نقعدقبل ذلك فى بعض الأماكن نسترق السمع أما الآن فلن يكون ذلك .

٩ - وانا أجهل الخلق بالغيب فلسنا نعرف أشر أريد بالناس أم أريد بهم خير ؟!.

١٠ - وأنا منا الصالحون ومنا غير ذلك .

١١ - وأنا عرفنا أن الله قادر على كل شيء فلن نعجزه فى الأرض ولا فى السماء

١٢ - وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن فسيأخذ حقه كاملا غير منقوص .

١٣ - وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون فى الخير وإلى الخير صائرون وأما القاسطون فأولئك فى ضلال وإلى جهنم صائرون .

مبحث فى عالم الجن والشياطين

قال الشيخ (عمر سليمان الأشقر) فى كتابه تحت هذا العنوان (عالم الجن والشياطين)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له **ومن** يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد

فقد يظن بعض الناس أن الكتابة فى هذا الموضوع من قبيل الترف العلمى ويحبذ هؤلاء أن يمر الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل وهؤلاء يظنون أن القائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة وأن الجهل به لا يضير

وأنا لن أذهب بعيدا فعالم البشر اليوم يبذلون من المال ما يبنى المدن ويشيد الدول ويقضى على الفقر فى بقاع شاسعة من العالم تضم ألوف الملايين فى البحث عن إمكانية الحياة والأحياء فى الكواكب القريبة منا وقد قام العلماء فى هذا السبيل بجهود جبارة كلفتهم من الوقت والمال الكثير فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء يعيشون معنا فى أرضنا ويخالطوننا فى مساكننا ويأكلون ويشربون معنا وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا وقد يدفعوننا إلى أن نحطم أنفسنا بأنفسنا وأن يسفك بعضنا دم بعض وقد يعبدوننا لأنفسهم أو لأى مخلوق كى يجلبوا لنا غضب ربنا فيحل بنا سخطه ويترك بنا غضبه ثم تكون **عاقبة** الشاردين عن ربهم ناراً تلظى

إن المعلومات التى جاءتنا بها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الموثقة فى هذا الجانب لا تقدر بمال .

فهى تكشف لنا أسرار هذا العالم : عالم الجن وتمدنا بفيض من المعلومات تكشف تفاصيل حياتهم كما تخبرنا عما يكنه بعض هؤلاء من عداء تجاه الإنسانية وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا وحسبك دليلاً ينبيك عن أهمية الأمر أن تتبع الآيات التى تحدثت عن الجن والشياطين لتعلم عظم المساحة التى **شغلتها هذه النصوص من كتاب الله** .

ومن يطالع هذه النصوص يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان ، الشيطان يريد أن يقضى عليه بأن يوبقه ويهلكه والإنسان الذى أمده الله بنوره يجاهد كى يستقيم على صراط ربه ويقيم غيره على هذا الصراط وفى سبيل ذلك لابد له من أن يصارع هذا العدد فى حنايا نفسه وخطرات

قلبه وآماله وأحلامه وتطلعاته لابد له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار كي يتبين مدى قربه وبعده من ربه ومدى تخلصه من عدوه الذى يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود الزارع حماره .

ولقد جمعت النصوص التى تحدثت عن هذا العالم وكلام الأئمة الأعلام عليها وتأملت فى ذلك كله فجاء هذا الكتاب فى ستة فصول .

الفصل الأول تعريف وبيان بهذا العالم : أصلهم وخلقهم وأسمائهم وأصنافهم وطعامهم وشرابهم وزواجهم ومساكنهم ودوابهم وقدراتهم التى وهبهم الله إياها وستجد فى غضون هذا الفصل الأدلة التى تثبت وجودهم وترد على المنكرين

والفصل الثانى بيان الغاية التى خلقوا من أجلها وطريقة تبليغهم التعاليم الربانية وعموم رسالة محمد ﷺ

أما الفصل الثالث فهو صلب هذه الرسالة وفيه عدة مباحث :

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشيطان والتدليل على قوته وعمقه وتحذير الله لنا من هذا العدو .

الثانى : الأهداف القريبة والبعيدة للشيطان .

الثالث : أساليب الشيطان فى إضلال الإنسان .

الرابع : قيادته للمعركة وجنده فيها .

الخامس : مصائد الشيطان التى يكيد بها الإنسان .

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشيطان التى هى سلاحه فى إفساد النفوس وزرع الفساد فى القلوب .

والفصل الرابع تعرضت فيه لعدة قضايا تضلّ بها الشياطين العباد :

الأولى : تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد وما ترتب على ذلك من الفساد

الثانية : تحضير الأرواح ومدى صحة ذلك وعلاقة هذا بالشياطين

الثالثة : مدى معرفة الجن بعالم الغيب وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من فساد

الرابعة : الجن والأطباق الطائرة

وفى الفصل الخامس تحديد للأسلحة التى لابد للمسلم أن يتسلح بها وهو يخوض المعركة مع الشيطان .

وفى الفصل السادس والأخير : تحدثت عن الحكمة من خلق الشيطان

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤلف كاتبه وناشره وقارئه وأن يجزل للجميع المثوبة وأن يعيذنا من الشيطان وأن يتولانا بعونه ورعايته إنه نعم المولى والنصير وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الأول

تعريف وبيان الجن :

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر ويخالفون الإنسان فى أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان

وسموا جناً لاجتنانهم ، أى : استتارهم عن العيون ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم** ﴾[1]

أصلهـم :

أخبرنا الله – جل وعلا – أن الجن قد خلقوا من النار فى قوله : ﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾[2] وفى سورة الرحمن ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾[3] وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد فى قوله : (مارج من نار) طرف اللهب وفى رواية من خالصه وأحسنه وقال النووى فى شرحه على مسلم : (المارج اللهب المختلط بسواد النار)

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن عائشة عن النبى ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[4] متى خلقوا ؟

لاشك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾[5] **فقد نص فى الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفى عام وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا من سنة .**

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٧

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٥ .

(٤) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق – باب فى أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦

(٥) سورة الحجر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

أسماء الجن فى لغة العرب :

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب :

١ - فإذا ذكروا الجن خالصا قالوا : جنى

٢ - فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس قالوا : عامر والجمع عمار

٣ - فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا : أرواح

٤ - فإن خبث وتعرض قالوا : شيطان

٥ - فإن زاد أمره على ذلك وقوى أمره قالوا : عفريت .

أصناف الجن :

يقول الرسول ﷺ فى هذا : (الجن ثلاثة أصناف : فصنف يطير فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون)[1]

لا مجال للتكذيب بعالم الجن :

أنكرت قلة من الناس وجود الجن إنكاراً كلياً وزعم بعض المشركين : أن المراد بالجن أرواح الكواكب .

وزعمت طائفة من الفلاسفة : أن المراد بالجن **نوازع** الشر فى النفس الإنسانية وقواها الخبيثة كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم .

وزعم فريق من المحدثين (بفتح الدال المخففه) : أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التى كشف عنها العلم الحديث .

وقد ذهب الدكتور محمد البهى (فى تفسير سورة الجن) : أن المراد بالجن الملائكة فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما ومما استدل به : أن الملائكة مستترون عن الناس إلا أنه أدخل فى الجن من يتخفى من عالم الإنسان فى إيمانه وكفره وخيره وشره (تفسير سورة الجن ص ٨)

عدم العلم ليس دليلا :

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم وعدم العلم ليس دليلاً ، وقبيح بالعاقل أن ينفى الشيء لعدم علمه بوجوده وهذا مما نعاه الله على الكفرة : (**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**) سورة يونس ٣٩ .

---

(١) المستدرك للحاكم - كتاب التفسير ٤٥٦/٢ .

وهذه المخترعات الحديثة التى لا يستطيع أحد أن يكابر فيها أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟

وهل عدم سماعنا للأصوات التى يعج بها الكون فى كل مكان دليل عدم وجودها حتى إذا إخترعنا (الراديو) واستطاع التقاط ما لا نسمع صدقنا بذلك ؟!

والصحيح :

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير عالم الملائكة والبشر وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ليسوا بأعراض ولا جراثيم وأنهم مكلفون مأمورون منهيون .

الأدلة :

١ - التواتر :

يقول ابن تيمية « مجموع الفتاوى ١٩/١٠ » : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين فى وجود الجن ولا فى أن الله أرسل محمداً - ﷺ - إليهم وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين وإن وجد فيهم من ينكر ذلك وكما يوجد فى المسلمين من ينكر ذلك **كالجهيمة** والمعتزلة وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة بل مأمورون منهيون ليسوا صفات وأعراضا قائمة بالإنسان أو غيره ، كما يزعمه بعض الملاحدة فلما كان أمر الجن مقواتسماً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم .

وقال فى ص ١٣ « جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركى العرب وغيرها من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن »

٢ - النصوص القرآنية والحديثية :

كقوله تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ سورة الجن ١
وقوله : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ سورة الجن ٦

وهى نصوص كثيرة سيأتى ذكر غالبها فى ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله .

٣ - المشاهدة والرؤية :

كثير من الناس فى عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك وإن كان كثير من الذين يشاهدون ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جن ، إذ يزعمون أنهم أرواح ، أو رجال الغيب أو رجال الفضاء .

وقد حدثنا الثقاة فى **القديم** والحديث عن مشاهداتهم فهذا عالم جليل يدعى الأعمش يقول : تروح إلينا حنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أزى اللقم ترفع ولا أرى أحدا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قالوا : شرنا .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذه القصة : عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى ، فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش . ثم قال : وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال : سمعت بعض الجن وأنا فى منزل لى بالليل ينشد :

قلوب براهـا الحب حتى تعلقت ... مذاهبهـا فى كل غـرب وشارق

تهيـم بحب الله والله ربهـا ... معلقـة بالله دون الخلائـق

ا.هـ كلام ابن كثير .

القول : وقد حدثنى كثير من الثقات عن مخاطبتهم للجن ورؤيتهم لهم . وسيأتى ذكر شيء من ذلك عند حديثنا عن قدرتهم على التشكل لعبور مختلفة ، إن شاء الله تعالى .

٤ - أصلهم الذى خلقوا منه :

أخبر الرسول - ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار ففرق بين الأصليين وهذا يرد على الذين لا يفرقون بين الجن والملائكة .

رؤية الحمار والكلب للجن

إذا كنا لا نرى الجن فإن بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب ففى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن جابر مرفوعاً : « إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوذوا بالله من الشيطان فإنهن يرون مالا ترون »(١)

(١) مسند أحمد ٣٠٦/٣ وسنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما جاء فى الديك والبهائم ٣٣٢/٥ رقم ٥١٠٣

وهذا ليس غريباً فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية مالا نراه فالنمل يرى الأشعة فوق البنفسجية ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم والبومة ترى الفأر فى ظلمة الليل البهيم .

الشـيطان والجـان

الشيطان الذى حدثنا الله عنه كثيرا فى القرآن من عالم الجن ، كان يعبد الله فى بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ثم عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم استكباراً وعلواً وحسداً ، فطرده الله من رحمته .

والشيطان فى لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوه وتمرده على ربه

وأطلق عليه لفظ (الطاغوت) ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت * فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ (سورة النساء ٧٦) وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما يذكر العقاد فى كتابه (إبليس) وإنما سمى طاغوتاً لتجاوزه حده وتمرده على ربه وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد .

وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله ولذا أسماه الله (بإبليس) والبلس فى لغة العرب من لا خير عنده وأبلس يئس وتحير .

ويذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل **أن** يعصى (عزازيل) والله أعلم بمدى صحة ذلك .

الشيطان مخلوق :

الذى يطالع ما جاء فى القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك و ... ليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون : « أنه روح الشر متمثلة فى غرائز الإنسان الحيوانية التى تصدفه ، إذا تمكنت من قلبه عن المثل الروحية العليا » (دائرة المعارف الحديثة ص ٣٥٧) .

أصـــله :

سبق القول بأن الشيطان من الجن وقد نازع فى هذه المسألة بعض المتقدمين والمتأخرين وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ سورة البقرة ٣٤ وأمثال هذه الآية التى يستثنى فيها إبليس من الملائكة ، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة .

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال جملة من العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا وأنه كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة .. إلى آخر الأقوال ، قال ابن كثير فى تفسير (٣٢٩٧/٤)

(وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا وفى القرآن غنية عن كل ماعداه من الأخبار المتقدمة لأنها لاتكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروا وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس فيه » وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلاً قاطعاً لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً ، بل هو كذلك حقاً للنص على أنه من الجن فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم * فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ سورة الكهف ٥٠ .

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس فقد أخبر المصطفى ﷺ : ﴿ **أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم خلق من طين** ﴾ والحديث فى صحيح مسلم(١)

قال الحسن البصرى : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين (البداية والنهاية ٧٩/١) والذى حققه ابن تيمية : أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله) (مجموع الفتاوى ٣٤٦/٤) .

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن أو واحد منهم وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله تعالى : ﴿ **إلا إبليس كان من الجن** ﴾ سورة الكهف ٥٠

وابن تيمية يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . (راجع مجموع الفتاوى ٢٣٥/٤ ، ٣٤٦) .

---

(٢) صحيح مسلم – كتاب الزهد الرقائق – باب فى أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦ .

طعام الجن وشرابهم :

الجن والشيطان منهم ، يأكلون ويشربون ، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له : « ولا تأتينى بعظم ولا بروثة » ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سر نهيه عن العظم والروثه ، قال : « هما من طعام الجن وإنه أتانى وفد **نصيبين** - ونعم الجن - فسألونى الزاد فدعوت الله لهم : أن لايمروا بعظم ولا روثة إلا وصبروا عليها طعاماً »[١] وفى سنن الترمذى بإسناد صحيح « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن »[٢] صحيح الجامع (٢/١٥٤) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أتانى **داعى** الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحمها وكل **بعرة** علف لدوابكم ، فقال النبى ﷺ - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم »[٣].

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان يأكل بشماله وأمرنا بمخالفته فى ذلك ما روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمنه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »[٤].

وفى المسند أيضاً « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال : أدَركتم المبيت وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » وأخرجه مسلم أيضاً[٥]، ففى هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب .

وكما أن الإنس منهيون عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه من اللحوم فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول - ﷺ - طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه فلم يبح لهم متروك التسمية ويبقى متروك التسمية لكفرة الجن : الشياطين فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشيطان لأنه لم يذكر اسم الله عليها .

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى : ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان**﴾ سورة المائدة ٩٠) أن المسكر شراب الشيطان فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره وشاركهم فى عمله فيشاركهم فى شربه وإثمه وعقوبته .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب مناقب الأنصار - باب ذكر الجن ٥/٥٨ .
(٢) سنن الترمذى - كتاب الطهارة - باب ما جاء فى كراهية ما يستنجى به ١/٢٩ رقم ١٨ .
(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ١/٣٣٢ رقم ٤٥٠
(٤) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ٣/١٥٩٨ رقم ٢٠٢٠
(٥) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ٣/١٥٩٨ رقم ٢٠١٨ ومسند أحمد ٣/٣٤٦ .

هل يتزاوج الجن ويتكاثرون :

الذى يظهر أن الجن يقع فيهم النكاح وقد استدل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى فى أزواج أهل الجنة : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان** ﴾ سورة الرحمن ٥٦ وذكر صاحب (لوامع الأنوار البهية) حديثاً تحتاج إلى نظر فى إسناده ، يقول : (إن الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً)[1] رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة وسواء أصح هذا الحديث أم لم يصح فإن الآية صريحة فى أن الجن يتأتى منهم الطمث وحسنا هذا دليلاً .

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وهذا القول تبطله الأدلة من الكتاب والسنة التى سقناها .

وبعض العلماء ذكر أن الجن أنواع منهم من يأكل ويشرب ومنهم من ليس كذلك ، يقول وهب بن منبه « الجن أجناس : فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ويتناكحون ويموتون ، قال : **وهذه هى السحالى والغول** وأشباه ذلك » أخرجه ابن جرير .

وهذا الذى ذكره وهب يحتاج إلى دليل ولا دليل وقد حاول بعض العلماء الخوض فى الكيفية التى **يأكلون** منها هل هو مضغ وبلع أو تشمم واسترواح والبحث فى ذلك خطأ لا يجوز لأننا لا نعلم بالكيفية ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ .

زواج الإنس من الجن :

لازلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنيه أو أن إمرأة من الإنس خطبها حتى وقد ذكر السيوطى آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن يقول ابن تيمية : « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف » .

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحكم وإسحق والإمام مالك – رحمه الله – لايجد دليلاً ينهى عن مناكحة الجن ، غير أنه لم يستحبه وعلل ذلك بقوله : « ولكنى أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد » .

وذهب قوم إلى المنع من ذلك واستدلوا على مذهبهم بأن الله امتن على عباده من الإنس بأنه جعل لهم أزواجاً من جنسهم : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً * لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ سورة الروم ٢١ فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس فتصبح الحكمة من الزواج لاغية إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما فى الآية الكريمة .

وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها فى الحاضر والماضى فإذا حدثت فهى شذوذ — قلما — يسأل فاعلها عن حكم الشرع فيها وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لايمكنه أن يتخلص من ذلك .

ومما يدل علىٰ إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن أن حور الجنة قال الله فيهن ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[١] فدلت الآية على صلاحيتهن للإنس والجن على حد سواء .

هل تموت الشياطين :

لاشك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون ، إذ هم داخلون فى قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ سورة الرحمن ٢٦ — ٢٨ .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت والجن والإنس يموتون »[٢] أما مقدار أعمارهم فلا نعملها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين أنه سيبقى حياً إلى أن تقوم الساعة : « قال : فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ سورة الأعراف ١٤ — ١٥ .

أما غيره فلا تدرى مقدار أعمارهم إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس . ومما يدل على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزة (الشجرة التى كانت تعبدها العرب) وأن صحابياً قتل الجن الذى تمثل بأفعى .

مساكن الجن وأماكنهم وأوقات تواجدهم :

الجن يسكنون هذه الأرض التى تعيش فوقها ويكثر تواجدهم فى الخراب **والفلوات** ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر ولذلك — كما يقول ابن تيمية : يأوى إلى كثير من هذه الأماكن التى هى مأوى الشياطين : الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وقد جاءت الأحاديث التى تنهى عن الصلاة فى الحمام لأجل ما فيها من نجاسة ولأنها مأوى الشياطين وفى المقبرة لأنها ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر قد تكون مأوى للشياطين .

ويكثر تواجدهم فى الأماكن التى يستطيعون أن يفسروا فيها كالأسواق فقد أوصى الرسول ﷺ أحد أصحابه قائلا : (**لاتكونن** إن إستطعت أول من **يدخل** السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته) رواه مسلم فى صحيحه[٣] .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الذكر والدعاء حديث رقم ١٧٣٦

(٣) صحيح مسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل أم سلمة ١٩٠٦/٤ رقم ٢٤٥١

والشياطين تبيت فى البيوت التى يسكنها الناس وتطردها التسمية وذكر الله وقراءة القرآن خاصة سورة البقرة.وآية الكرسى منها وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر وتكثر بحلول الظلام ولذا أمرنا أن نكف صبياننا فى هذه الفترة وهو حديث متفق عليه[1].

والشياطين تهرب من الأذان ولاتطيق سماع صوته وفى رمضان **تصفد الشياطين** .

من مجالس الشياطين :

تحب الشياطين الجلوس بين الظل والشمس ولذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس بينهما وهو حديث صحيح مروى فى السنن وغيرها .

دواب الجن[2].

فى حديث ابن مسعود فى صحيح مسلم أن الجن سألوا الرسول ﷺ : الزاد ، فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحماً وكل بعرة علف لدوابكم)[3]

فأخبر أن لهم دواب وأن علف دوابهم بعردواب الإنس .

حيوانات تصاحبها الشياطين :

من هذه الحيوانات الإبل ، يقول الرسول ﷺ : (الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً) رواه سعيد بن منصور فى سننه بإسناد مرسل حسن ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فى مبارك الإبل ، ففى مسند أحمد ، وسنن أبى داود أن الرسول ﷺ قال : (لاتصلوا فى مبارك الإبل فإنها من الشياطين وصلوا فى مرابض الغنم فإنها بركة ..)[4] وفى سنن ابن ماجة بإسناد صحيح : (ولاتصلوا فى أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الشياطين)[5]

وهذه الأحاديث ترد على من قال بأن علة النهى عن الصلاة فى مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٢) مسند أحمد ٤١٤/٣ ، ومسند أبى داود – كتاب الأدب – باب فى الجلوس بين الظل والشمس ١٠٦٤/٥ رقم ٤٨٢١

(٣) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب الجهد بالقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٤) مسند أحمد ٣٥٢/٤ وسنن أبى داود – كتاب الصلاة – باب النهى عن الطلاة فى مبارك الإبل ٣٣١/١ رقم ٤٩٣

(٥) سنن ابن ماجه – كتاب المساجد والجماعات – باب الصلاة فى أعطان الإبل ومراح الغنم ٢٥٣/١ رقم ٧٦٩

قبح صورة الشيطان :

الشيطان قبيح الصورة وهذا مستقر فى الأذهان وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التى تثبت فى أصل الجحيم برؤوس لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ﴿ **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾[١]

وقد كان النصارى فى القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذى لحية مدببة وحواجب مرفوعة وفم ينفث لهباً وقرون وأظلاف وذيل (دائرة المعارف الحديثة ٣٧٥ .

الشيطان له قرنان :

ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها نطلع بين قرنى شيطان »[٣] وفى البخارى ومسلم عنه : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تَتَحَيَّنُوا بصلاتكم طلوع الشمس ، ولا غروبها ، فإنَّها تطلع بين قرنى شيطان »[٢]

والمعنى أن طوائف من المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها عند طلوعها وعند غروبها ، فعند ذلك ينتصب الشيطان فى الجهة التى تكون فيها الشمس حتى تكون عبادتهم له .

وقد نهينا عن الصلاة فى هذين الوقتين ، والصحيح أن الصلاة فى هذين الوقتين جائزة إذا كان لها سبب كتحية المسجد ، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ، لقوله ﷺ (لاتَحسَّنُوا) أى لاتتقصدوا ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخارى عن ابن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المارق ، فقال : « ها إن الفتن ههنا ، إن الفتن ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » . والمراد بقوله « حيث يطلع قرن الشيطان » أى جهة الشرق[٣]

قـدراتـهم :

أعطى الله الجنَّ قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم ، فمن ذلك سرعة الحركة والانتقال :

فقد تعهد عفريت من الجن لنبى الله سليمان بإحضار عرش ملكة **اليمن** إلى بيت المقدس فى مدة لاتتجاوز قيام الرجل من جلوسه ، فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين – باب الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ٥٦٧/١ رقم ٨٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٤٧٦

(٣) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده ١٥٠/٤ طبقة الشعب

طرفك (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوي أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى** ... ﴾ سورة النمل ٣٩ - ٤٠ .

سبقهم الإنسان فى مجالات الفضاء :

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة فى السماء ، فيسترقون أخبار السماء ، ليعلموا بالحدث قبل أن يكون ، فلما بعث الرسول ﷺ زيدت الحراسة فى السماء : ﴿ **وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ، وأنَّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً** ﴾ سورة الجن ٨ - ٩ .

... وقد وضح الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع ، فعن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كالسلسة على صفوان ، قال عليٌّ وقال غيره : ينفذهم ذلك ، فإذا **فزع** عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الذى قاله الحق ، وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومستمعو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه ، إلى الذى هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكذا وكذا ، **فوجدناه** حقاً نلتى سمعت من السماء » رواه البخارى فى صحيحه[1].

خـرافـة جاهليـة :

وهذا العلم عن السبب الذى من أجله يرمى بشهب السماء قضى على خرافة يتناقلها أهل الجاهلية ، فعن **عبدالله** بن عباس قال : أخبرنى رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار ، **أنهم** بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله : « ماذا كنتم تقولون فى الجاهلية إذا رمى بمثل هذا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكنَّ ربنا ــ تبارك وتعالى ــ اسمه ــ إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذي يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، ثمَّ قال الذي يلون جملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال **فيستخبر** بعض أهل السموات بعضا » ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء

(١) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الحجر ١٠٠/٦ .

الدنيا . فتخطف الجنُّ السمع ، فيقذفون إلى **أوليائهم** ، ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرفون فيه ويزيدون » رواه مسلم فى صحيحه[1].

علمهم بالأعمار والتصنيع :

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبِّيه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات ، ﴿ **ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه * ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له مايشاء من محاريب * وتماثيل * وجفان كالجواب * وقدور راسيات** ﴾ سورة سبأ ١٣ .

ولعلهم قد توصلوا منذ القدم إلى إكتشاف مثل (الراديو والتلفزيون) . فقد ذكر ابن تيمية — (مجموع الفتاوى ٣٠٩/١١) أن بعض الشيوخ الذي كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له : « إن الجن يرونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به ، قال فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بى من أصحابى ، فأجيبه فيوصلون جوابى إليه » .

قدرتــهم على التشــكل :

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان ، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك ، ووعد المشركين بالنصر ، وفيه أنزل : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم * وقال لاغالب لكم اليوم من الناس * وإنى جار لكم** ﴾ سورة الأنفال آية ٤٨

ولكن عندما التقى الجيشان وعاين الملائكة تتنزل من السماء ولى هاربا : ﴿ **فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه * وقال : إنى برىء منكم * إنى أرى مالا ترون * إنى أخاف الله** ﴾ سورة الانفال ٤٨ . وقد جرى مع أبى هريرة قصة طريفة رواها البخارى وغيره ، قال أبو هريرة : وكلنى رسول الله بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : إنى محتاج ، وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبى ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ، قال : قلت ، يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله قال أما إنه كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : الأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، ثمّ تعودَ ! قال : دعنى أعلمك كلمات **ينفعك** الله بها ، قلت ماهو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى • **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾

---

(١) صحيح مسلم — كتاب السلام - باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم ١٧٥٠/٤ رقم ٢٢٢٩

حتى تختم الآية ، فأنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى **كلمات ينفعنى الله بها فخليب سبيله ، قال : ماهى ؟ قلت قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شىء على الخير ، قال النبى : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ياأبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان ، فقد تشكل هذا الشيطان فى صورة إنسان**[1] .

وقد يتشكل فى صورة حيوان : جمل ، أو حمار ، أو بقرة ، أو كلب ، أو قط . خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر الرسول ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة ، وعلل ذلك بأن (الكلب الأسود شيطان) يقول ابن تيمية : « الكلب الأسود شيطان الكلاب ، والجن تتصور بصورته كثيرا » ، وكذلك بصورة القط الأسود ، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة .

حيـات البيـوت :

تتشكل الجان بشكل الحيات وتظهر للناس ، ولذا نهى الرسول ﷺ عن قتل حيات البيوت ، خشية أن يكون هذا المقتول جنيا قد أسلم ، ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ بالمدينة نفراً من الجنَّ قد أسلموا فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثا ، فإن بدا له بعد فليقتله ، فإنه شيطان »[2].

وقد قتل أحد الصحابة حَية من حيات البيوت ، فكان فى ذلك هلاكه ، روى مسلم فى صحيحه : أن أبا السائب دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته ، فوجده يصلى ، قال : فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكاً فى عراجين فى ناحية البيت ، فالتفت ، فإذا حّية ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ قلت : نعم . قال : كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإنى أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثمّ رجع ، فإذا إمرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيره ،

---

(١) صحيح البخارى - كتاب الوكالة - باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا ١٣٣/٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ٢٢٣٦ .

فقالت له : اكفف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتا : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، وقلنا ادع الله يحييه لنا ، فقال : « استغفروا لصاحبكم » ، ثم قال : « إن بالمدينة جنّا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدالكم بعد ذلك فأقتلوه ، فإنما هو شيطان »[1].

تنبيهـــات :

١ – هذا الحكم ، وهو النهى عن قتل هذه الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها .

٢ – وليس كل الحيات ، بل الحيات التى نراها فى البيوت دون غيرها ، أما التى نشاهد خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها .

٣ – إذا رأيت حيات البيوت فنؤذنها أى نأمرها بالخروج ، كأن نقول : أقسمت عليك بالله أن تخرجى من هذا المنزل ، وأن تبعدى عنا شرّك وإلا قتلناك فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .

٤ – والسبب فى قتلها بعد ثلاثة أيام أننا نكون قد تأكدنا أنها ليست جنا مسلماً ، لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل ، فإن كانت أفعى حقيقية فهى تستحق القتل ، وإن كانت جناً كافراً متمردا فهو يستحق القتل ، لأذاه وإخافته أهل المنزل .

٥ – يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ، ففى صحيح البخارى عن أبى لبابة أن الرسول ــ ﷺ ــ قال : (لا تقتلوا الجنان ، إلا كلَّ أبترذى طفيتين ، فإنه يسقط الولد ، ويذهب البصر فاقتلوه)[2]

وهل كل الحيات من الجنّ أم بعضها ؟ يقول الرسول ﷺ إن الحيات مسيخ الجنّ كما مسخت القردة والخنازير من بنى إسرائيل » رواه الطبرنى[3] وأبو الشيخ فى العظمه بإسناد صحيح ، راجع الأحاديث الصحيحة ١٠٤/٣ .

الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق :

ففى صحيح البخارى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى اندم »[4] وفى الصحيحين عن صفية بنت حيي زوج النبى ﷺ قالت : « كان رسول

(١) صحيح مسلم – كتاب السلام – باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ١٤١ .

(٢) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب قوله تعالى : **وبث فيها من كل دابة** ١٥٦/٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤١/١١ رقم ١١٨٤٦

(٤) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة الشيطان ١٥٠/٤ .

الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثمَّ قمت لأنقلب ، فقام معى ليقلبنى (يرونى) ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، قال النبى ﷺ : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله !! قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً ، أو قال : شيئاً »[1].

ضعفهم وعجزهم :

الجن والشياطين فيهم جوانب قوة ، وجوانب ضعف ، قال تعالى : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ سورة النساء ٧٦ ، وسنعرض لبعض هذه الجوانب التى عرفنا الله ورسوله بها .

لاسلطان لهم على عباد الله الصالحين :

لم يعط الرب سبحانه الشيطان ـــ القدرة على إجبار الناس ، وإكراههم على الضلال والكفر ، ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا** ﴾ سورة الإسراء ٦٥ . ﴿ **وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو فى شك** ﴾ سورة سبأ ٢١ . ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة ، والشيطان يدرك هذه الحقيقية ، قال : ﴿ **رب بما أغويتنى لأزيننَّ لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ .

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره ، ويتابعوه عن رضا وطواعيه : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ سورة الحجر ٤٢ . وفى يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم : ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ .

وفى الآية الأخرى : ﴿ **إنّما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون** ﴾ سورة النحل ١٠٠ . والسلطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، ولايدعهم يتركونه كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً** ﴾ سورة مريم ٨٣ ، ومعنى تؤزهم تحركهم وتهيجهم .

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس له فيه حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم ، واستأسروا له سُلِّط عليهم عقوبةً لهم . فالله لا يجعل للشيطان

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٠٤ .

على العبد سلطانا ، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً .

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم :

ففى الحديث « إن الله تعالى مع القاضى مالم يجر ، فإذا جار تبرأ منه ، وألزمه الشيطان » رواه الحاكم ، والبيهقى بإسناد حسن (أنظر صحيح الجامع ١٣٠/٢) .

ويروى لنا أبو الفرج ابن الجوزى — رحمه الله — عن الحسن البصرى — رحمه الله — قصة طريفة ، وبغض النظر عن مدى صحتها إلا أنها تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله ، **وكيف** يصرع الشيطان الإنسان ؟ إذا ضل وزاغ ، يقول الحسن : (كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليه رجل ، فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله **فلقيه إبليس فى** صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله ، قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها ، فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك ؟ لاتقطعها ، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن أين لى ذلك ؟ قال أنا لك . فرجع ، فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ، ثم أصبح بعد ذلك ، فلم يجد شيئاً . فقام غضبا ليقطعها ، فتمثل له الشيطان فى صورته ، وقال : ما تريد ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى . قال : كذبت ، مالك إلى ذلك من سبيل ، فذهب ليقطعها فضرب به الأرض ، خنقه حتى كاد يقتله ، قال : أتدرى من أنا ، أنا الشيطان ، جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لى عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين ، فتركتها ، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك) (تلبيس إبليس ٤٣) .

وقد حدثنا الله فى كتابه عن شخص آتاه الله آياته ، فعلمها ، وعرفها ، ثم إنه ترك ذلك كله ، فسلط الله عليه الشيطان ، فأغواه ، وأضله ، وأصبح عبرة تروى ، وقصة تتناقل ، ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا * فانسلخ منها * فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها * ولكنَّه أخلد إلى الأرض * واتبع هواه * فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث * أو تتركه يلهث * ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا * فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ (سورة الأعراف ١٧٥ — ١٧٦) . وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه ، ثم هم يكفرون به .

---

(١) المستدرك للحاكم – كتاب الأحكام ٩٣/٤ والسنن الكبرى للبيهقى – كتاب آداب القاضى – باب فضل من ابتلى بشىء من الأعمال ٨٨/١٠ .

أما هذا الذى عناه الله هنا ، فقال بعضهم : هو بلعام بن باعورا ، كان صالحاً ثم كفر ، وقيل : هو أميه بن أبى الصلت من المتألهين فى الجاهلية ، أدرك الرسول — ﷺ — ولم يؤمن به جسداً ، وكان يرجو أن يكون هو النبى المبعوث ، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد . وهذا الصنف (الذى يؤتى الآيات ثم يكفر) صنف خطر به شَبَه من الشيطان ، لأنَّ الشيطان كفر بعد معرفته الحق ، ولقد تخوف الرسول ﷺ هذا النوع من أمته ، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رأيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك) قال : قلت يا رسول الله : أيهما أولى بالسيف : الرامى أم المرمى ؟ قال (بل الرامي) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد (انظر تفسير ابن كثير ٢٥٢/٣)[١]

خوف الشيطان وهربه من بعض عباد الله :

إذا تمكن العبد فى الإسلام ، ورسخ الإيمان فى قلبه ، وكان وقَّافاً عند حدود الله فإنَّ الشيطان يفرق منه ، ويفرُّ منه ، كما قال الرسول ﷺ : لعمر بن الخطاب : (إن الشيطان ليفرق منك يا عمر) ، رواه أحمد ، وابن حبان بإسناد صحيح[٢] (صحيح الجامع ٧٤/٢) . وقال فيه أيضا : « إنى لأنظر شياطين الجن والإنس فروا من عمر » رواه الترمذى بإسناد صحيح[٣] (صحيح الجامع ٣٢٩/٢) : وليس ذلك خاصاً بعمر ، فإن من قوى إيمانه يقهر شيطانه . ويذله ، كما فى الحديث : (إن المؤمن لينفى شياطينه كما ينحنى أحدكم بغيره فى السفر) ، رواه أحمد[٤] قال ابن كثير فى (البداية ٧٣/١) بعد سوقه لهذا الحديث : (ومعنى لينص شيطانه : ليأخذ بناحيته فيغلبه ، ويقهر ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه) .

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم على قرينه الملازم له فيسلم ، أخرج الأمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ، ولكن الله أعانى عليه فلا يأمرنى إلا بخير) وفى رواية إبن عباس عن الإمام أحمد بإسناد على شرط الصبح : (ولكن الله أعاننى عليه فأسلم) وفى رواية عائشة عن مسلم (ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم)[٥]

---

(١) تفسير ابن كثير – طبعة الشعب ٥٠٩/٣

(٢) مسند أحمد ٣٥٣/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – كتاب المناقب ٢٠/٩ رقم ٦٨٥٣

(٣) سنن الترمذى – كتاب المناقب – باب مناقب عمر ٦٢٢/٥ رقم ٣٦٩١

(٤) مسند أحمد ٣٨٠/٢ .

(٥) مسند أحمد ٣٨٥/١ وصحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين – باب تحرين الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ .

تسخير الجن لسليمان :

سخر الله لنبيه سليمان فى جملة ما سخر الجن ، والشياطين يعملون له ما يشاء ، ويعذب ويسجن العصاة منهم : ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب * والشياطين كل بناءٍ وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ سورة ص ٣٦ – ٣٨ وقال فى سورة سبأ : ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه * ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ سورة سبأ ١٢ – ١٣ .

وهذا التسخير على هذا النحو إستجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه وقال : ﴿ **وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾ سورة ص ٣٥ . وهذه الدعوة هى التى **منعت** نبينا محمد ﷺ من ربط الجن الذى جاء بشهاب من نار ، يريد أن يرميه فى وجهه ، ففى صحيح مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ، ثم قال : (ألعنك بلعنة الله ثلاثاً) ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا ، لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت . يدُك ، فقال : (إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى **وجهى** ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله المقاله ، فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة) وقد تكرر هذا أكثر من مرة ففى صحيح مسلم أيضاً عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : (إن عفريتا من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع علىَّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه ، فذعتُّه ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ، أو كلكم ، ثم ذكرت قول أخى سليمان رب اغفر لى ، وهب لى ملكا **لاينبغى لأحد من بعدى فرده الله خاسئاً)**

كذب اليهود على سليمان :

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبى الله سليمان كان يستخدم الجن بها وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر وجعلتهما تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يستخدم الجن بهذه ، فقال بعضهم : لولا أن هذا حصد جائر لما فعله سليمان ، فأنزل الله قوله : ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون** ﴾ سورة البقرة ١٠١ . ثم بين أنهم أتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان **وبرأ** سليمان من السحر والكفر :

---

(١) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان أثناء الصلاة ٣٨٤/١ رقم ٥٤١

﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ سورة البقرة ١٠٢ .

عجزهم عن الإتيان بالمعجزات :

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به .

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى : **﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾** سورة الشعراء ٢١٠ - ٢١٢ .

وتحدى الله بالقرآن الإنس والجن : **﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن * لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾** سورة الإسراء ٨٨ .

لايتمثلون بالرسول ﷺ فى الرؤيا :

والشياطين **تعجز** عن التمثيل فى صورة الرسول ﷺ فى الرؤيا ففى الحديث الذى يرويه الترمذى فى سننه بإسناد صحيح : **(من رآنى فإنى أنا هو * فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بى)**[١]

وهو فى الصحيحين بلفظ : **(من رآنى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتزيا بى)**[٢]، **(الجامع الصحيح ٣٩٣/٥)** .

والظاهر من الأحاديث آن الشيطان لايتزيا بى بصورة الرسول ﷺ الحقيقية ولا يمنعه هذا من التمثيل فى غير صورة الرسول ﷺ والزعم بأنه رسول الله :

ولذلك فلا يجوز أن يتيح بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول ﷺ فى المنام أن رآه حقا ، وإلا إذا كانت صفته هى الصفة التى روتها لنا كتب الحديث ، وإلا فكثير من الناس يزعم أنه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية فى كتب الثقات .

لايستطيعون أن يتجاوزوا حدوداً معينة فى أجواز الفضاء :

قال تعالى : **﴿ يا معشر الجن والإنس * إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس * فلا تنتصران ﴾** سورة الرحمن ٣٣ - ٣٥ .

---

(١) سنن الترمذى - كتاب الرؤيا - باب فى تأويل الرؤيا ٥٣٧/٤ رقم ٢٢٨٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٦١

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم مجالات لايستطيعون أن يتعدوها ، وإلا فإنهم هالكون .

لايستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

أخبر بذلك الرسول ﷺ حيث يقول : (أجيفوا الأبواب ، وأذكروا اسم الله عليها فإن الشيطان لا يفتح باباً أجيف عليه) رواه أبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم بإسناد صحيح[1] والجامع الصحيح ٢٢٩/١ .

وفى الحديث المتفق عليه : (فإن الشيطان لايفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله وخمروا آنيتكم ، وأوكوا **أسقيتكم**، وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يكشف غطاءً ، ولا يحلُّ وكاءً)[3].

الغاية من خلقهم

خلق الجن للغاية نفسها التى خلق الإنس من أجلها : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ سورة الذاريات الآية ٥٦ .

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهى ، فمن أطاع رضى الله عنه وأدخله الجنة ، ومن عصى وتمرد فله النار ، يدل على ذلك نصوص كثيرة .

ففى يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس**موبخاً** مبكتاً : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا * وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ سورة الأنعام الآية ١٣٠

ففى هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن ، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم . والدليل على أنهم سيعذبون فى النار قوله تعالى : ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قدخلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار** ﴾ سورة الأعراف الآية ٣٨ .

وقال : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾ سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

وقال : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ سورة السجدة الآية ١٣ .

---

(١) سنن أبى داود – كتاب الأشربة ١١٧/٤ رقم ٣٧٣١ ومسند أحمد ٣٠٦/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – كتاب الطهارة ٢٨٤/٢ رقم ١٢٦٩ والحاكم فى المستدرك – كتاب الأدب ٢٨٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٣) مسند أحمد ٣٠١/٣

والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ سورة الرحمن الآية ٤٦ - ٤٧ .

وفى الآية السابقة امتنان من الله على مؤمن الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما أمتن عليهم به . يقول ابن مفلح فى كتابه الفروع : (الجن مكلفون فى الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النار إجماعاً ، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقاً لمالك والشافعى ـــ رضى الله عنهما ـــ لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم ، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبى حنيفة ، والليث بن سعد ومن وافقهما . قال : وظاهر الأول أنهم فى الجنة **كغيرهم** بقدر ثوابهم خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهداً أو أنهم فى ربض الجنة ، أى حول الجنة (كعمر بن عبد العزيز) ، قال ابن حامد فى كتابه : (الجن كالإنس فى التكليف والعبادات) (لوامع الأنوار ٢/٢٢٢ - ٢٢٣) .

تكليفهم بحسبهم :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤/٢٣٣) ، (الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلين للإنس فى الحدّ والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس فى الحدّ ، لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين) .

شبهه والرد عليها :

يورد بعض الناس شبهة فيقولون : أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار ، ثمّ تقولون إن كافرهم يعذب فى نار جهنم ، ومسترق السمع يقذف بشهب من نار ، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

والجواب أن الأصل الذى خلقوا منه النار ، أمّا بعد خلقهم فليسوا كذلك ، إذا أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار ، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب ، ثم بعد إيجاده أصبح مخالفاً للتراب ، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين فقد تقتله ولو رميته بالتراب لآذاه ، ولو دفنته فيه فإنه يختنق ، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه ، فكذلك الجن .

لا نسب بين الجن ورب العزة :

هذا الذى ذكرناه مع أن الجن خلق من خلق الله ، وعباد من جملة عباده خلقهم لطاعته ، وكلفهم بشرعته ، يقضى على الخرافات التى تنشأ عن الإنحراف فى القصور ، وعن ضمور العلم وكثرة

الجهل ، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركي العرب ، من أن الله تعالى وتقدس خطب من سروات الجن وتزوج منهم ؟ وكان الملائكة ثمرة هذا الزواج ، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً * ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين** ﴾ سورة الصافات الآية ١٥٨ - ١٦٠ .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : (قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله ــ تعالى عما يقولون ــ فقال أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ فمن أمهاتهنَّ ؟ قالوا بنات سروات الجن ، وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد ... وقال العوفي عن ابن عباس : « زعم أعداء الله أنه ــ تبارك وتعالى ــ هو وإبليس أخوان ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

كيف يبلّغون وحي الله إليهم ؟

بما أنهم مكلفون فلابد أن يبلغهم الله وحيه ويقيم عليهم الحجة ، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم كما للبشر رسل منهم ، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟

إن قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ...؟** ﴾ (سورة الأنعام الآية ١٣٠) يدل على أن الله أرسل إليهم رسلاً . ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجن أم من الإنس ، لأن قوله (منكم) يحتمل كلا الأمرين ، فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم ، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهم الإنس وقد اختلف العلماء من ذلك على قولين :

الأول : أن للجن رسلا منهم ، وممن قال بهذا القول الضحاك ، وقال ابن الجوزي : وهو ظاهر الكلام . وقال ابن حزم لم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتّة قبل محمد ــ ﷺ .

الثاني : أن رسل الجن من الإنس قال السيوطي في (لقط المرجان) : (جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولانبي كذا روى عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد) . (لوامع الأنوار ٢/٢٢٣ - ٢٢٤)

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن : ﴿ **إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى** ﴾ سورة الأحقاف ٣٠ ولكنه ليس نصاً من المسألة وذه المسألة لايبنى عليها عمل ، وليس فيها نص قاطع ، ولذلك لا ينبغي أن نطيل فيها أكثر من ذلك .

عموم رسالة محمد ﷺ الإنس والجن :

محمد ﷺ مرسل إلى الجن والإنس ، يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩/٩) (وهذا أصل

متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وسائر طوائف المسلمين : أهل السنة والجماعة ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين) بدل على ذلك تحدى القرآن .

الجن والإنس : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله * ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ سورة الإسراء ٨٨ . وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن : ﴿ **قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن * فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً يُهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ..** ﴾ سورة الجن ١-٢ .

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون فى سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن * فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا : يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ سورة الأحقاف ٢٩ – ٣٢ . استمعوا للقرآن وآمنوا به ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان ويبشرونهم وينذرونهم .

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ﷺ يرويها البخارى ومسلم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن — قالوا : استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، وأنزل الله على نبيه ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ سورة الجن ١ . وإنما أوحى إليه قول الجن[١] .

وفـود الجـن :

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٥٩ ومسند أحمد ٢٥٢/١

فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة . ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته وعلمهم مما علمه الله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم خبر السماء ... وكان ذلك فى مكة قبل الهجرة ، روى مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان وجه الصبح ـــ أو قال ـــ فى السحر إذا نحن به يجىء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم[1] وفى رواية عن الطبرى عن ابن مسعود : « بتُّ اليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون » . ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن ، يقول ﷺ : « لقد قرأتها **يعنى** سورة الرحمن » على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟** ﴾ قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه البزار والحاكم وابن جرير بإسناد صحيح[2] (الجامع الصحيح ٣٠/١) ولم تكن تلك الليلة هى الليلة الوحيدة بل تكرر لقاؤه ـــ ﷺ بالجن بعد ذلك ، وقد ساق ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف ـــ الأحاديث التى وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن وفى بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ﷺ فى إحدى تلك الليالى ، وقد ورد فى بعض الروايات فى صحيح البخارى أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحى اليمن من مكان يسمى « نصيبين » ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أتانى وفد نصيبين ـــ ونعم الجن ـــ فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا **روثه** إلا وجدوا عليها طعاماً »[3].

دعـوتهم للانـس :

وفى بعض الأحاديث الصحاح أن بعض الجن كان له دور فى هداية الإنس ، ففى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً كان كاهنا فى الجاهلية عن أعجب ماجاءته به جنيته قال : « بينما أنا يوماً فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت » :

ألـم تـر الجـن وإبلاسهـا   وبأسهـا بعـد إنكاسهـا
ولحقـوهـا بالقـلاص وأحلاسـها

(١) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار – كتاب التفسير – سورة الرحمن ٧٤/٣ رقم ٢٢٦٩ والمستدرك للحاكم – كتاب التفسير – تفسير سورة الرحمن ٤٧٣/٢ ، وتفسير الطبرى – سورة الرحمن آية رقم ١٦ – ٧٢/٢٧ .

(٣) صحيح البخارى – كتاب المناقب الأنصار – باب ذكر الجن ٥٨/٥

قال : عمر رضى الله عنه ـ صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل ، فذبحه ، **فصرخ** به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله ، قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم علم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا أن قيل هذا بنى » . قال ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث : « هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال : مظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر ـ رضى الله عنه ـ بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى **ذبح** ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر ـ رضى الله عنه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله أعلم ثم قال : وهذا الرجل (الكاهن) هو سواد بن قارب »[١].

أمرهم بالخير وشهادتهم للمسلم :

أخبر الرسول ﷺ بأن قرينه من الجن أسلم فلا يأمره إلا بخير . وقد قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه لأبى صعصعة الأنصارى : « إنى أراك تحب البادية والغنم ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ (رواه البخارى) فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذان »[٢].

مراتبهم فى الصلاح والفساد :

وهم فى هذا طوائف : فمنهم الكامل فى الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم البله المغفلون ، ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه فى حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا** ﴾ سورة الجن ١١ ، أى : منهم الكاملون فى الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو حال البشر .

ويقول الله عنهم : ﴿ **وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون * فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾ سورة الجن ١٤ – ١٥ . أى : أن منهم المسلمين والظالمين أنفسهم بالكفر فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

---

(١) صحيح البخارى – باب السلام عمر بن الخطاب ٦١/٥ وانظر ابن كثير طبعة الشعب ٢٨١/٧

(٢) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ١٥٤/٤٠ .

طبيعـة الشيطـان :

أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر . فلما تحول إلى الكفر ورضى به أصبح محباً للشر طالباً له ، يتلذذ بفعله والدعوة إليه ، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه وإن كان موجباً لعذابه . (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)[1] وهذا يكون فى الإنسان ، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهى ما يضره ويلتذ به بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله ، وحسبك أن تتأمل فى حال شارب الخمر والدخان ، فإن هذين **تقتلان** شاربيهما ويفتكان بهما ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس .

هـل يسـلم الشـيطان ؟

يظهر من حديث رسول الله ﷺ الذى يخبر فيه أن الله أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير أن الشيطان يمكن أن يسلم بدليل أن شيطان الرسول ﷺ أسلم إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك ويقول الشيطان لا يكون مؤمناً ، منهم شارح الطحاوية (٤٣٩) ووجه قوله : (فأسلم) أى **فانقاد** واستسلم .

وبعض العلماء يرى أن الرواية (فأسلمُ) برفع الميم ، أى فأنا أسلم منه ومع أن شارح الطحاوية يرى أن رواية الرفع تحريف للفظ إلا أن فى شرح النووى على مسلم قال : « هما روايتان مشهورتان » وعزى إلى الخطابى أنه رجع رواية الضم . وممن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان قال معلقاً على الحديث : (فى هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى أنه لم يكن يأمره إلا بخير إلا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً) .

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أن الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر ، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح ، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جداً ، والحديث حجة عليه .

ما أسباب العداء بين الإنسان والشيطان ؟

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور يعود تاريخه إلى اليوم الذى شكل الله فيه آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، **فأخذ** الشيطان يطيف به ، ويقول : لئن سلطت عليك أهلكنك ففى صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لما صوَّر الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه

---

(١) سورة ص الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ .

فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر مما هو ، فلما رآه أجوف عرف أن خلق خلقاً لايتمالك »[١].

فلما نفخ الله فى آدم الروح ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر ، ولكنه تعاظم فى نفسه واستكبر ، وأبى السجود لآدم : (قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين)[٢]. لقد فتح أبونا آدم عينيه ، فإذا به يجد أعظم تكريم ، يجد الملائكة ساجدين له ، ولكنه يجد عدوا رهيباً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال .

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره ، وحصل على وعد من الله بإبقائه حياً إلى يوم القيامة : ﴿ **قال فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين** ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ . وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بنى آدم والكيد لهم : ﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ سورة الأعراف ١٦ - ١٧ . وقوله هذا يصور مدى الجهد الذى يبذله لإضلال ابن آدم ، فهو يأتيه من كل طريق ممكن ، عن اليمين والشمال ، ومن الأمام ، ومن الخلف أى من جميع الجهات قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : (ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم ، وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه) كقوله : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك * وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ . سورة الإسراء ٦٤ .

تحذير الله لنا من الشيطان :

وقد أطال القرآن فى تحذيرنا من الشيطان لعظيم فتنته ، ومهارته فى الإضلال ودأبه وحرصه على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان ..** ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . وقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾سورة فاطر ٦ . وقال : ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾ سورة النساء ١١٩ . وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول لأنه يرى أن طرده ولعنه واخراجه من الجنة كان بسبب أبينا آدم ، فلابد أن ينتقم من آدم وذريته من بعده : ﴿ **قال : أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ سورة الإسراء ٦٢ .وأرباب السلوك وعلماء الأخلاق اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفاتها وقصَّروا فى التعرف على عدوهم اللدود ، مع أن الله حذرنا منه كثيراً ، وأمرنا بالاستعاذة منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس فى موضع واحد ، وإنما جاءت الإستعاذة من شرها فى خطبة النكاح فى قوله ﷺ : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا »[٣].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب خلق الإنسان خلقا لايتمالك ٢٠١٦/٤ رقم ٢٦١١

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٢ .

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح ٦١٠/١ رقم ١٨٩٣

ما أهداف الشيطان ؟

الهدف البعيد :

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه فى نهاية الأمر ، هو أن يلقى الإنسان فى الجحيم ويحرمه من الجنة ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ سورة فاطر ٦ .

الأهداف القريبة :

١ - إيقاع العباد فى الشرك والكفر :

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله والكفر بالله وشريعته : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر * فلما كفر * قال إنى برىء منك** ﴾ سورة الحشر ١٦ . وروى مسلم فى صحيحة عن عياض بن حمار أن النبى ﷺ خطب ذات يوم ، فقال فى خطبة : (يا أيها الناس إن الله تعالى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علّمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبدا حلال ، وإنى خلقت عبادى **حنفاء** كلهم ، **فأتتهم** الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً)[١]

٢ - إذا لم يستطع تكفيرهم فيوقعهم فى الذنوب :

فإذا لم يستطع إيقاعهم فى الشرك والكفر ، فإنه لا ييئس ، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم فى الذنوب والمعاصى ، وغرس العداوة والبغضاء فى صفوفهم ، ففى سنن الترمذى وابن ماجه بإسناد حسن (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فى بعض ما تحقرون من أعمالكم ، فيرضى بها)[٢]. وفى صحيح مسلم وغيره : (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم)[٣] أى : بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم وإغراء بعضهم ببعض ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟** ﴾ . سورة المائدة ٩١ . وهو يأمر بكل شر ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء * وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ . سورة البقرة ١٦٩ .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نصيحها - باب الصفات التى يعرف بها الدنيا ٢١٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥

(٢) سنن ابن ماجة - كتاب المناسك - باب الخطبة يوم الغر ١٠١٥/٢ رقم ٣٠٥٥ وسنن الترمذى كتاب الفتن - باب ما جاء فى تحريم الدماء والأموال ٣١٢/٣ رقم ٢٢٤٨

(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحرين الشيطان ٢١٦٦/٤ رقم ٢٨١٢ وسنن الترمذى - كتاب البرو الصلة - باب ماجاء فى التباغض ٢٢١/٣ رقم ٢٠٠٢

وخلاصة الأمر فكل عبادة محبوبة لله فهى بغيضة إلى الشيطان ، وكل معصية مكروهة للرحمن فهى محبوبة للشيطان .

٣ - صدّه العباد عن طاعة الله :

وهو لا يكتفى بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصى بل يصدهم عن فعل الخير ، فلا يترك سبيلاً من سبل الخير يسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فيه ، يصدهم ويميل بهم ، ففى الحديث : (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم ونذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : (تهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول ، الطول الحبل الطويل ، يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره ، والطرف الآخر فى يد الفرس ليدور فيه ، ويرعى ولا يذهب لوجهه) . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : (تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة)[٣]. رواه أحمد والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٧٢/٢) ومصداق ذلك فى كتاب الله ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال لرب العزة : ﴿ **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم * ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ . وقوله : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك** ﴾ : أى على صراطك ، فهو منصوب بنزع الخانض أو هو منصوب بفعل مضمر ، أى لألزمنَّ صراطك ، أو لارصدَنّه ، أو لأعوجنه . وعبارات السلف فى تفسير الصراط متقاربة ، فقد فسره ابن عباس بأنه الدين الواضح ، وابن مسعود بأنه كتاب الله ، وقال جابر : هو الإسلام ، وقال مجاهد : هو الحق . فالشيطان لا يدع سبيلا من سبل الخير إلا قعد فيه يصد الناس عنه .

٤ - إفســاد الطاعــات :

إذا لم يستطع الشيطان أن يصدهم عن **الطاعات**، فإنه يجتهد فى إفساد العبادة والطاعة ، كى يحرمهم الأجر والثواب ، فقد جاء أحد الصحابة إلى الرسول ﷺ يقول له : إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى ، يلبسها علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : « ذلك شيطان يقال له : خَنْزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه : **واتفل** على يسارك ثلاثا » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عنى رواه

---

(١) مسند أحمد ٤٨٣/٣ وسنن النسائى - كتاب الجهاد - باب مالمن أسلم وهاجر وجاهد ٢١/٦ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الجهاد ٥٧/٧ رقم ٤٥٧٤ .

مسلم فى صحيحه[1] فإذا دخل العبد فى صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له ويشغله عن طاعة الله ويذكره بأمور الدنيا ، ففى صحيح مسلم ــ أن الرسول ــ ﷺ ــ قال : « إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ، أحال له ضراط ، حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس » رواه مسلم[2].

وفى رواية : « فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى » رواه البخارى ومسلم[3].

كل مخالفة للشيطان فهى طاعة لله :

يقول تعالى : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثاً * وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً** ﴾ . سورة النساء ١١٧ - ١١٨ . فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن أو شمس وقمر أو هوى أو إنسان أو مبدأ فهو عابد للشيطان ، رضى أم أبى ، لأن الشيطان هو الآمر بذلك والمرغب فيه ، ولذلك فإن عباد الملائكة يعبدون الشيطان فى الحقيقة ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً * ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك * أنت ولينا من دونهم * بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ سورة سبأ ٤٠ - ٤١ يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

الخلاصـــة :

والشيء الذى نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شيء ، ويحث عليه ، وينهى عن كل خير ، ويخوف منه ، كى يرتكب الأول ، ويترك الثانى . كما قال تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** ﴾ سورة البقرة ٢٦٨ . وتخويفه إيانا الفقر بأن يقول : إن أنفقتم أموالكم أفتقرتم ، والفحشاء التى يأمرنا بها : هى كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك

---

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة ١٧٢٨/٤ رقم ٢٢٠٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩١/١ رقم ٣٨٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١٦

٥ - الإيذاء البدنى والنفسى :

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب ، فإنه يهدف إلى إيذاء المسلم فى بدنه ونفسه ، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء .

(أ) مهاجمة الرســول ﷺ :

أخبر الرسول ﷺ بمهاجمة الشيطان له ومجىء الشيطان بشهاب من نار ليرميه فى وجه الرسول ﷺ .

(ب) الحلم من الشيطان :

للشيطان القدرة أن يرى الإنسان فى منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه بهدف إحزانه وإيلامه . فقد أخبر الرسول ﷺ أن الرؤى التى يراها المرء فى منامه ثلاثة : رؤيا من الرحمن ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث نفسى (صحيح الجامع ١٨٤/٣ ، ١٨٥) وفى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هى من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره »[١].

(حـ) إحراق المنازل بالنار :

وذلك بواسطة بعض الحيوانات التى يغريها بذلك ففى سنن أبى داود وصحيح ابن حبان بإسناد حسن أن الرسول ﷺ قال : « إذا نمتم فأطفئوا سُرُجكم ، فإن الشيطان يدلُّ مثل هذه (الفأرة) على هذا (السراج) فيحرقكم »[٢]

(د) تخبط الشيطان للإنسان عند الموت :

وقد كان الرسول ﷺ يستعيذ من ذلك فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من التردى ، والهدم ، والغرق ، والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك

---

(١) صحيح البخارى - كتاب التعبير - باب رؤيا الصالحين ٣٩/٩

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب فى إطفاء النار بالليل ٤٠٨/٥ رقم ٥٢٤٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - باب آداب النوم ٤٢١/٧ رقم ٥٤٩٤

مدبراً وأعوذ بك من الموت لديغاً » رواه النسائى والحاكم بإسناد صحيح ، (صحيح الجامع ٤٠٥/١)[١].

(هـ) إيذاؤه الوليد حين يولد :

يقول الرسول ﷺ : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » رواه مسلم[٢] (صحيح الجامع ١٧١/٤) . وفى صحيح البخارى : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن فى الحجاب »[٣] . وفى البخارى أيضا : « ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد **فيستهل** صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها »[٤]. والسبب فى حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها : ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ سورة آل عمران ٣٦ . فلما كانت صادقة فى طلبها استجاب الله لها فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم ، وممن أجاره الله أيضاً بن ياسر ، ففى صحيح البخارى أن أبا الدرداء قال : « أفيكم الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه ، قال المغيرة : الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه يعنى عمار »[٥].

(و) مرض الطاعون من الجن :

أخبر الرسول ﷺ أن « فناء أمته بالطعن والطاعون ، وخز أعدائكم من الجنِّ وفى كل شهادة » ، رواه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح[٦] (صحيح الجامع ٩٠/٤) ، وفى مستدرك الحاكم « الطاعون وخز أعداكم من الجن ، وهو لكم شهادة » . ولعل ما أصاب بنى الله أيوب كان بسبب الجن كما قال : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب** ﴾ . سورة ص ٤١ .

---

(١) سنن النسائى – كتاب الاستعاذة – باب الاستعاذة من التردى والهرم ٢٨٣/٨ والمستدرك للحاكم – كتاب الفضائل – باب فضل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب فضائل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧

(٣) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده ١٥١/٤

(٤) صحيح البخارى – كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل غمران ٤٢/٦

(٥) سحيح البخارى – كتاب مناقب المهاجرين – باب مناقب عمار ٣١/٥

(٦) مسند أحمد ٣٩٥/٤ ومجمع الزوائد – كتاب الجنائز – باب فى الطاعون ٣١١/٢ المستدرك للحاكم – كتاب الإيمان ٥٠/١ .

(ز) بعض الأمراض الأخرى :

قال ﷺ للمرأة المستحاضة : « إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان » ، رواه الأربعة بإسناد حسن[1] (صحيح الجامع ١٩٦/٣) .

(ى) مشاركته لبنى آدم فى طعامهم وشرابهم ومساكنهم :

ومن الأذى الذى يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدى على طعامه وشرابه فيشركه فيهما ، ويشركه فى المبيت فى منزله ، يكون ذلك منه إذا خالف العبد هدى الرحمن ، أو غفل عن ذكره ، أما إذا كان ملتزماً بالهدى الذى هدانا الله إليه ، لا يغفل عن ذكر الله ، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا وبيوتنا . فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد دون أن يسمى ، فإذا ذكر اسم الله عليه ، فإنه يحرم على الشيطان ، روى مسلم فى صحيحه عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبى ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإنا حضرنا معه مرة طعاماً . فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها فى الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابى كأنما يدفع فأخذ بيده . فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ، أن لا يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الاعرابى ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده إن يده فى يدى مع يدها »[2]. وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق الأبواب ، وتخمير الآنية وذكر اسم الله فإن ذلك حرز لها من الشيطان يقول ﷺ : « أغلقوا الأبواب ، واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله ، وخمروا آنيتكم ، وأذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، واطفئوا مصابيحكم » رواه مسلم[3]. ويأكل الشيطان ويشرب مع الإنسان إذا أكل وشرب بشماله ، وكذلك إذا شرب واقفاً ، ففى مسند أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان »[4]. وفى المسند أيضاً عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً ، فقال له : « قه » ، قال : لم ؟ قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ » قال : لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شرٌّ منه الشيطان » ، وكى تطرد الشيطان من المنزل لا تنسى أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل[5]، وقد

---

(١) سنن الترمذى – كتاب الطهارة ٨٣/١ رقم ١٢٨ وقال : حديث حسن صحيح وسنن أبى داود كتاب الطهارة ١٩٩/١ رقم ٢٨٧ ومسند أحمد ٤٣٩/٦ ، ٤٦٤ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٧/٣ رقم ٢٠١٧

(٣) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب الأمر تبغطية الإناء ١٥٩٥/٣ رقم ٩٧

(٤) مسند أحمد ٧٧/٦

(٥) مسند أحمد ٣٠١/٢

أرشدنا الرسول ﷺ لذلك ، حيث يقول : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء هنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : « أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء »[1].

(ط) مس الشيطان للإنسان « الصراع » :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٢٧٦/٢٤) : « دخول الجن فى بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ، قال الله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ . سورة البقرة ٢٧٥ وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[2]. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : « قلت لأبى : إن أقواماً يقولون : إن الجن لا يدخل فى بدن المصروع فقال : ابن تيمية : « هذا الذى قاله مشهور ، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويُضْرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ، ولا بالكلام الذى يقوله ، وقد يجُرُّ المصروع ، وغير المصروع ، ويجر البساط الذى يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجرى غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً ، بأن الناطق على لسان الإنس ، والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان . » ويقول رحمه الله : « وليس فى أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن فى بدن المصروع وغيره ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك ، فقد كذب على الشرع وليس فى الأدلة الشرعية ما ينفى ذلك » : وذكر فى (جـ ١٢/١٩) أن ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة كالجبائى وأبى بكر الرازى .

قائد المعركة

إبليس هو الذى يخطط للمعركة مع بنى الإنسان ويقودها ، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا فى الاتجاهات المختلفة ، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعته ويثنى على الذين أحسنوا وأجادوا فى الإضلال وفتنة الناس . روى الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدنيه

---

(١) مسند أحمد ٣٤٦/٣

(٢) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس ١٥٠/٤

ويقول : نعم أنت »[١]. وفى مسند الإمام أحمد قال الرسول ﷺ لابن صائد (وكان يشك ﷺ أنه الدجال) : « ماترى ؟ » قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ذاك عرش إبليس »[٢]. والشيطان له خبرة طويلة مديدة فى مجال الاضلال ، ولذلك فإنه يجيد وضع خططه ، ونصب مصايده وأحابيله ، فهو لم يزل حياً يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة : ﴿**قال : رب ، فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ سورة الحجر ٣٦ - ٣٨ . وهو دؤوب على القيام بالشر الذى نذر نفسه له ، لايكل ولا يمل ، ففى الحديث : « إن الشيطان قال : وعزتك وجلالك لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن (صحيح الجامع ٢/٧٢) .

الجنـــود :

وله فريقان من الجنود : فريق من الجان ، وفريق من بنى الإنسان .

جنـوده مـن الجـن :

الشيطان له جنود وأعوان من الجن ، ففى القرآن ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك * وأجلب عليهم بخيلك ورَجلك** ... ﴾ سورة الاسراء ٦٤ . فله جنود يهاجمون راكبين راجلين يرسلهم على العباد يحركونهم إلى الشر تحريكاً ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً** ﴾ سورة مريم ٨٢ .

لكل إنسان قرين :

كل إنسان يلازمه شيطان لا يفارقه كما فى حديث عائشة عند مسلم قالت : « خرج النبى ﷺ من عندى ليلاً ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة : أغرت ؟ قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله ، أو معى شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان شيطان ؟ قال : نعم ، قلت ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم »[٤]. وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين – باب تحرين الشيطان ٤/٢١٦٧ رقم ٦٧ ، ٦٨
(٢) مسند أحمد ٣/٦٦
(٣) مسند أحمد ٣/٢٩ والمستدرك للحاكم – كتاب التوبة والإنابة ٤/٢٦١
(٤) صحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين – باب تحرين الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٤/٢١٦٨ رقم ٢٨١٥ ومسند أحمد ٦/١١٥

« ما منكم من **أحد** إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى لكن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير »[١]

وفى القرآن ﴿ **ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾ سورة الزخرف ٣٦ . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء * فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ سورة فصلت ٢٥ .

أولياؤه من الإنس :

الشيطان عدو الإنسان الأول الذى يسعى فى إهلاكه ، ومع ذلك فإن غالبية البشر اتخذوه ولياً ، يسيرون على خطاه ، ويرضون بفكره ، وما أقبح هذا بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه وليا ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو * بئس للظالمين بدلا** ﴾ سورة الكهف ٥٠ . ولقد خسروا باتخاذه ولياً خسراناً مبيناً : ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾ سورة النساء ١١٩ . خسروا لأن الشيطان سيدسّى نفوسهم ويفسدها ، ويحرمهم من نعمة الهداية ، ويرمى بهم فى الضلالات والشبهات ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ سورة البقرة ٢٥٧ . وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار فى يوم القيامة ، ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ سورة فاطر ٦ . وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً ينفذ بهم مخططاته وأهدافه .

كيده وخذلانه لأوليائه :

يتولى كثير من الناس الشيطان ، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التى فيها هلاكهم وعطبهم ، ويتخلى عنهم ويسلمهم ويقف يشمت بهم ، ويضحك منهم ، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا ويدل عليهم ويفضحهم ، فعل ذلك بالمشركين فى معركة بدر عندما جاءهم فى صورة سراقة بن مالك ووعدهم بالنصر والغلب ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ سورة الأنفال ٤٨ . فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين ، ولى هارباً وأسلمهم ، كما قال حسان بن ثابت :

دَلاهــم بُغرُورٍ ثــمَّ أســلمهــم ‏ ‏ ‏ ‏ إن الخبيــث لمــن والاه غــرّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها ، وأمره بالزنا ثم يقتلها ، ثمّ دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فرّ عنه وتركه ، وفى يوم القيامة يقول لأوليائه بعد

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين – باب تحرين الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ ومسلم أحمد ٣٨٥/١

دخوله ودخولهم النار : ﴿ **إنى كفرت بما أشركتمون من قبل** ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ فأوردهم شر الموارد ثم تبرأ منهم كل البراءة .

الشيطان يجند أولياءه لخدمته ومحاربة المؤمنين :

الناس فريقان : أولياء للرحمن ، وأولياء للشيطان ، وأولياء الشيطان هم الكفرة على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . والشيطان يسخِّر هؤلاء لتضليل المؤمنين بما يلقونه من الشبه والشكوك ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ سورة الأنعام ١٢٧ . وما هذه الشبهات التى يقوم بها المستشرقون والصليبيون واليهود والملحدون إلا من هذا القبيل . ويدفعهم لإيذاء المؤمنين نفسياً ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا** ﴾ سورة المجادلة ١٠ . فقد كان يدفع المشركين للتناجى حين وجود المسلمين على مقربة منهم فيظن المسلم أنهم يتآمرون عليه ... بل يدفعهم إلى حرب المسلمين وقتالهم ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ سورة النساء ٧٦ . وهو دائما يخوف المؤمنين أولياءه : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة آل عمران ١٧٥ . وأولياؤه جمع كبير ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين** ﴾ سورة سبأ ٢٠ .

أساليب الشيطان فى إضلال الإنسان :

لا يأتى الشيطان إلى الإنسان ويقول له : اترك هذه الأمور الخيرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ، كى تشقى فى دنياك وأخراك ، لأنه لو فعل فلن يطيعه أحد ، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة يغرر بها بعباد الله .

١ - تزيين الباطل :

هذا هو السبيل الذى كان الشيطان ولا يزال يسلكه لإضلال العباد ، فهو يظهر الباطل فى صورة الحق ، والحق فى صورة الباطل ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل ، ويكرهه بالحق ، حتى يندفع إلى فعل المنكرات ويعرض عن الحق ، كما قال اللعين لرب العزة : ﴿ **رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ . يقول ابن القيم فى هذا الصدد : « ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه أنفع الأشياء ، وينفر من الفعل الذى هو أنفع

الأشياء له ، حتى يخيل إليه أنه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روج من الزغل على العارفين ! فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك فى مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك فى أعظم صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ سورة المائدة ١٠٥ . والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ فى قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس (اغاثة اللهفان ١/١٣٠) ، وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين لآدم – عليه السلام – إذ زين له الأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فمازال به يزعم له أن هذه هى شجرة الخلد وأن الأكل منها يجعله خالداً فى الجنة أو ملكاً من الملائكة حتى أطاعه ، فخرج من الجنة . وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل فى إضلال العباد . فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .. يزعمون أنها هى المذاهب التى تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع .. وهذه الدعوات التى تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذى تداس فيه الأعراض والأخلاق وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن . وتلك الأفكار المسمومة التى تدعو إلى ايداع المال فى البنوك بالربا لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير ، وتلك الدعوات التى تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر ، والتى تسم دعاة الاسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب .. الخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذى كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكريه الناس به ، ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ (سورة النحل ٦٣) .

وهو والله سبيل خطر لأن الإنسان إذا زين له الباطل حتى رآه حسناً فإنه يندفع بكل قواه لتحقيق مايراه حقاً وإن كان فيه هلاكه ﴿ **قل هل نبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ (سورة الكهف ١٠٣ – ١٠٤) . وهؤلاء يندفعون لصد الناس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم يظنون أنفسهم على الحق والهدى ، ﴿ **وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ (سورة الزخرف ٣٧) وهذا هو السبب الذى من أجله اثر الكفار الدنيا وأعرضوا عن الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين**

أيديهم وما خلفهم ﴾(سورة فصلت ٢٥) . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى **التكذيب** بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنة والنار .

١ - تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمى الأمور المحرمة التى هى معصية لله بأسماء محببة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمى الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كى يزين لآدم الأكل منها ﴿ **قال يا آدم * هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[1]. يقول ابن القيم : « ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح وسموا أخاها بلقمه الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية .. » واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل والتماثيل فناً .

٢ - الإفـراط والتفـريـط :

يقول ابن القيم فى هذه المسألة : « وما أمر الله - عز وجل - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلو ، فلا يبالى بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنه يأتى إلى قلب العبد فيشاقّ ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة ، فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتوانى والفتور ، وفتح له **باب** التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجدّا ، وتشجيراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسوّل له أن **هذا** لايكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغى لك أن تزيد على العاملين ، وأن لاترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ، فاغسل أنت سبعاً ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدى ، فيحمله على الغلوّ والمجاوزة ، وتعدى الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وألا يقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجى من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان » (الوابل الصيب ص ١٩) .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٠

٣ - تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل :

وله فى ذلك أساليب وطرق ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » القافية : مؤخر الرأس » إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[١].

وفى البخارى ومسلم : (إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستنثر ثلاثا ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه)[٢]. وسئل الرسول ﷺ عن رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » رواه البخارى[٣]. وهذا الذى ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله ، وقد تثبط الإنسان بالوسوسة وسبيله فى ذلك أن يحبب للإنسان الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزى فى هذا ، « كم قد خطر على قلب يهودى ونصرانى حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لاتعجل وتمهل فى النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصى بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهى وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدّ سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد فى الليل يصلى ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يحبب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل . فينبغى للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسويف ، والإعراض عن الأمل ، فإنَّ المخوف لا يؤمن ، والفوات لايبعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شرّ طول الأمل ، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير ، إلا أنه بعد نفسه بذلك ، ولا ريب أن من أمَّل أن يمشى بالنهار سار سيراً فاترا . ومن أمَّل أن يصبح عمل فى الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جدَّ ... ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) فإنها من أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثل قوم فى سفر فدخلوا قرية ، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهبا للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل فى الحال ، فاغتبط المحترز (المتوفى الحازم) وتحير الأسف المفرط ، فهذا مثل الناس فى الدنيا منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة ، فإذا كان فى الطبع حب التوانى وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى مافى الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه فى صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ، فإن فتر فى الظاهر بطَّن له مكيدة وأقام له كميناً » (تلبيس إبليس ٤٥٨) .

٤ - الوعـد والتمنيــة :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ويعللهم بالأمانى المعسولة ، كى يوقعهم فى وهدة الضلال : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ (سورة النساء ١٢٠) يعد الكفرة فى قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثم يتخلى عنهم ويولى هارباً : ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ۞ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم**﴾ (سورة الأنفال ٤٨) . ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال فى الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : ﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً** ﴾ (سورة الكهف ٣٦) ، فيدمر الله جنته فى الدنيا فيعلم أنه كان مغروراً مخدوعاً . ويشغل الإنسان بالأمانى المعسولة التى لا وجود لها فى واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمنى وهو لا يفعل شيئاً .

٥ - إظهـار النصـح للإنسـان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ (سورة الأعراف ٢١) وقد روى **وهب بن منبه هذه** القصة الطريفة عن أهل الكتاب (هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لاتصدق ولاتكذب ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ - « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »[1]) . نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى إضلاله العباد ، وكى نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه . يقول وهب : « إن عابداً كان فى بنى اسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها ، قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة فى أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى . قال : فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا

---

(١) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحديث عن بنى إسرائيل ٤/٦٩ رقم ٣٦٦٢

فتركوها ، فمكثت فى جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها ، **فتأخذ** ما وضع لها **من** طعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى نضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً . قال فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر وحضه عليه ، وقال لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه فى بيتها ، فلبث على ذلك زماناً . ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها **فتأنس** بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل **به** حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس **بعد** ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها . فلبثا زماناً يتحدثان . ثم جاءه إبليس فرغبه فى الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من بيتها فحدثتها كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زماناً على ذلك . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو **دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت** فجعل يحدثها نهارها كله ، فإذا **مضى** النهار صعد صومعته . ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها . فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه **ويسول له** حتى وقع عليها ، فأحبلها فولدت له غلاماً . فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفرة مع ابنها ، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاؤوا فسألوا عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها . وقال : كانت خير إمرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر ، فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ، ثم انصرفوا إلى أهاليهم ، فلما جنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاهما فى حفرة احتفرها خلف باب البيت الذى

كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعا .

وأتى الأوسط فى منامه فقال مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى . فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشىء فأمضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم : والله لا أمضى حتى آتى إلى هذا المكان فأنظروا فيه . قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفرة كما قيل لهم فسألوا عنها العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه وهذه القصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ (سورة الحشر ١٦) . ويذكروا أن المعنى الإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

٦ – التدرج فى الضلال :

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى الإضلال وهو أن يسير بالإنسان خطوة لا يكل ولا يمل كلما روضه على معصية ما قاده إلى معصية أكبر منها حتى يوصله إلى المعصية الكبرى فيوثقه ويهلكه. وتلك سنة الله فى عباده أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان وأزاغ قلوبهم ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ (سورة الصف ٥)

٧ – إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم فمازال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً** ﴾[1] وقال صاحب موسى لموسى : ﴿ **فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ (سورة الكهف ٦٣) .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه فى المجالس التى يستهزأ فيها بآيات الله ولكن الشيطان قد ينس الإنسان مراد ربه منه فيجالس هؤلاء المستهزئين ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى**

---

(١) سورة طه الآية : ١١٥

آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (سورة الانعام ٦٨) .

وطلب نبى الله يوسف إلى السجين الذى ظن بأنه **سينجو** من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبى الله يوسف فيمكث يوسف فى السجن بضع سنين ﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين** ﴾ سورة يوسف ٤٢ .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكنا كليا فإنه ينسيه الله بالكلية ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (سورة المجادلة ١٩) ، والمراد بهؤلاء المنافقون ، كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ (سورة الكهف ٢٤) .

٨ - تخويـف المؤمـنين أوليـاءه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يخافونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان وقد أخذنا سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (سورة آل عمران ١٧٥) .

والمعنى : يخوفوكم بأوليائه قال قتادة : « يعظمهم فى صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم » .

٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذى تحبه وتهواه :

يقول ابن القيم فى هذا الموضوع (إغاثة اللهفان ١٣٢/١) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ومن رام **الدخول** من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مصدود » .

ومن هنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : ﴿ **وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ (سورة الأعراف ٢٠) يقول ابن القيم « فسام عدو الله الأبوين فأحس منهما إنياساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا

يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .

١٠ – إلقـاء الشبهـات :

ومن أساليبه فى إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التى يلقيها ففى حديث البخارى ومسلم : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ ومن خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »[١] ولم يسلم الصحابة – رضوان الله عليهم من شبهاته وشكوكه وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ **يشكون مايعانونه من شكوكه ووساوسه ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله « إلى النبى فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا مايتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوقدو صبرتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان »**[٢] .

ومراد الرسول ﷺ بقوله : « ذلك صريح الإيمان » أى دفع وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها .

وانظر إلى شدة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه . روى أبو داود فى سننه عن ابن عباس : أن النبى ﷺ جاءه رجل فقال : « إنى أحدث نفسى بالشىء لأن أكون حممه أحب إلىّ من أتكلم به فقال : الحمد الله الذى رد أمره إلى الوسوسة »[٣] ومن جملة ما يلقيه فى النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه فى قوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** ﴾[٤] .

والمراد بالتمنى هنا حديث النفس والمراد أن النبى ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون أو يتمنى إيمان الناس جميعاً فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوسواسه فى أمنية النبى ﷺ وذلك تنبيه إلى الحق وتوجيه إلى مراد

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٢

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان الوسوسة فى الإيمان ١١٩/١ رقم ١٣٢

(٣) سنن أبى داود – كتاب الأدب – باب فى رد الوسوسة ٣٣٦/٥ رقم ٥١١٢

(٤) سورة الحج الآيات : ٥٢ حتى ٥٤

الله .. وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل فى القرآن ما ليس منه ففيه بعد ويرده أن الرسول ﷺ معصوم فى التبليغ .

يقول شقيق (أحد العلماء الأعلام) : مبينا لبعض الشبهات التى يقذفها الشيطان فى نفس الإنسان : « ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربع مراصد : من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فإقرأ : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ (سورة طه ٨٢) . وأما من خلفى فيخوفنى الضيقة علىٰ من أخلقه ، فإقرأ : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ (سورة هود ٦) . ومن قبل يمينى يأتينى من قبل النساء فاقرأ : • **والعاقبة للمتقين** ﴾ (سورة الأعراف ١٢٨) .

ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات ، فاقرأ : ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ (سورة سبأ ١٠٤) .

١ - ٤ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ (سورة المائدة ٩٠ - ٩١) . والخمر كل ما يسكر والميسر القمار والأنصاب كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر أو شجر أو وثن أو قبر أو علم .

والأزلام : القداح كانوا يستقسمون بها الأمور أى يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وهذه قد تكون أقداماً أو سهاماً أو حصيات أو غير ذلك ، يكون مكتوباً على واحد منها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى فإذا شاء أحدهم زواجا أو سفراً أو نحو ذلك أدخل يده فى الشيء الذى فيه هذه القداح أو السهام فإن خرج الذى فيه الأمر بالفعل فعل وإن خرج الآخر ترك .

فالشيطان يمضي الناس على هذه الأربع لأنها ضلال فى نفسها وتؤدى إلى نتائج وخيمة وآثار سيئة فالخمر تفقد شاربها عقله فإذا فقد عقله فعل الموبقات وارتكب المحرمات وترك الطاعات وآذى عباد الله ذكر ابن كثير فى تفسيره عن عثمان بن عفان قال : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجلاً فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس **فعلقته** إمرأة غويّة فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى إمرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت : إنى والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع علىّ أو تقتل هذا الغلام أو **تشرب** هذا الخمر فسقته كأساً فقال : **زيدونى** فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع

هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . رواه البيهقى وصحح ابن كثير إسناده[١].

وروى أصحاب السنن أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة ثم سقاهم خمراً قبل أن ينزل تحريمها فلما سكروا تفاخروا فتعاركوا وأصاب سعد بن أبى وقاص من هذا العراك أذى ، فقد ضربه أحدهم بلحى بعير فأصاب أنفه فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته وتقدم أحد الصحابة يصلى بالناس وهو سكران قبل نزول تحريم الخمر فقرأ[٢]: (قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فأنزل الله ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ (سورة النساء ٤٣) وقد رأينا الرجل الذى بلغ من الكبر عتياً عندما يشرب الخمر سيتصرف تصرفات المجانين ويضحك منه الكبار والصغار ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها .

والميسر مرض خطير كالخمر إذا تأصل فى نفس الإنسان صعب الشفاء منه ، وهو سبيل لضياع الوقت والمال والميسر ينشىء الأحقاد ويدفع إلى الحرام .

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كى تتخذ بعد ذلك آلهة تعبد من دون الله وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديما وحديثا والشياطين تلازم هذه الأصنام وتخاطب عبادها فى بعض الأحيان وتريهم بعض الأمور التى يجعل عابديها يثقون بها فيقصدونها بالحاجات ويدعونها فى الكربات ويستنصرون بها من الحروب ويقومون لها الذبائح والهدايا ويرقصون حولها ويطربون ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات وقد أضل بهذا الكثير كما قال إبراهيم داعياً ربه : ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس** ﴾ (سورة إبراهيم ٣٥ - ٣٦) . ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين يقصدونها بالدعاء والألطاف والذبائح وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بنى الإنسان - تلك هى نصب الجندى المجهول يزعمون أنه رمز الجندى المقاتل ويكرمونه بالهدايا والورود والتعظيم وكلما زار البلاد زعيم جاء هذا النصب وقدم له هدية وكل هذا من عبادة الأنصاب التى هى من عمل الشيطان .

الاستقسام بالأزلام :

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور .

وأبطل الاستقسام بالأزلام فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه فاستشارتها خلل فى

---

(١) سنن البيهقى - كتاب الأشربة - باب ما جاء فى تحريم الخمر ٨/٢٨٧

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر ٤/٨٠ رقم ٣٦٧١ وسنن الترمذى - كتاب التفسير - باب سورة النساء ٤/٣٠٥ رقم ٥٠١٦

العقل وقصور فى العلم ومثل ذلك زجر الطير كان من يريد سفراً إذا خرج من بيته ومر بطائر زجره فإن تيامن كان سفراً ميموناً وإن مرّ عن شماله كان سفراً مشئوماً .. وكل ذلك من الضلال .

٥ - السحر :

ومما تضل به الشياطين أبناء آدم السحر فهم يعلمونهم هذا العلم الذى لا يضر ولا ينفع ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه والتفريق بين الزوجين يعتبره الشيطان من أعظم الأعمال التى يقوم بها جنوده .

قال تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ (سورة البقرة ١٠٢) .

هل للسحر حقيقة :

اختلف العلماء فى ذلك فمن قائل : إنه تخييل لا حقيقة له ، ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ (سورة طه ٦٦) ومن قائل أن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة والصحيح أنه نوعان : نوع هو تخييل يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ونوع له حقيقة يفرق به بين المرء وزوجه ويؤذى به .

سحر اليهود للرسول ﷺ :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ يهودىّ من يهود بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ تخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله . حتى إذا كان ذات يوم دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا أى دعا ربه مرات ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما **استفتيته** فيه ؟ (أى أجابنى فيما طلبت) .

جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى أو الذى عند رجلى للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب (أى مسحور) .

قال : من طبّه ؟

قال : لبيد بن الأعصم .
قال : فى أى شىء .
قال : فى مشط ومشاطة - أى شعر سقط عند التسريح - وجف طلعة ذكر (أى غشاء الطلع)
قال : فأين هو ؟
قال : فى بئر ذى أروان
قالت : فأتاها رسول الله ﷺ فى أناس من أصحابه ثم
قال : يا عائشة والله لكأن ماءها فقاعة **الحناء** ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .
فقلت : يا رسول الله أفلا أحرقته ؟
قال : « لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت أن أثير على الناس شرّاً ، فأمرت بها فدفنت » رواه البخارى ومسلم[1]

ولايقال : إن السحر فيه ﷺ يوجب لبساً فى النبوة والرسالة لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر الجسم الشريف فلم يصل إلى القلب والعقل فهو كسائر الأمراض التى قد تعرض له والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ سورة الحجر ٩

٦ - ضعف الإنسان :

فى الإنسان نقاط ضعف كثيرة هى فى الحقيقة أمراض والشيطان يعمق هذه الأمراض فى نفس الإنسان بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية ومن هذه الأمراض : الضعف واليأس والقنوط والبطر والفرح والعجب والفخر والظلم والبغى والجحود والكنود والعجلة والطيش والسفه والبخل والشح والحرص والجدل والمراء والشك والريبة والجهل والغفلة واللدد فى الخصومة والغرور والإدعاء الكاذب والهلع والجزع والمنع والتمرد والطغيان وتجاوز الحدود وحب المال والافتنان بالدنيا ،.. فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس والتخلص من أمراضها وهذا يحتاج إلى جهد يبذل ويحتاج إلى صبر على مشقات الطريق أما إتباع الهوى وما تمليه النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل ومثل الثانى كمن يدحرج صخرة من أعلى الجبل إلى أسفله ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة ووجد دعاة الحق صعوبة وأى صعوبة فى الدعوة إلى الله تعالى :

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف فى الإنسان :

- حكى المعتمد بن سليمان عن أبيه أنه قال : « ذكر لى أن الشيطان الوسواس ينبعث فى قلب ابن آدم عند الحزن والفرح فإذا ذكر الله خنس » .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤١٢

وقال وهب بن منبه : « قال راهب للشيطان وقد بدا له : أى أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم ؟ قال : الحدة (صفة تعترى الإنسان كالغضب) إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة » ويذكر ابن الجوزى أيضاً عن ابن عمر أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التى يهلك بها الناس فقال : « الحسد والحرص » وليس بعيداً عنا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيهم وقد قال يوسف : **﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ سورة يوسف ١٠٠ .**

٧ - النســاء وحــب الدنيــا :

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين وأمر الرجال بغض أبصارهم ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى رجل بإمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان)[1].

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج غالب النساء كما وصفهن الرسول ﷺ كاسيات عاريات وقامت مؤسسات فى الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية والقصة الخليعة والأفلام التى تحكى الفاحشة وتدعو لها .

أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض وعصبت الأموال وقطعت الأرحام ... إلا لأجل حيازة الدنيا والصراع على طعامها الفانى وحرصاً على متعها الزائلة .

٨ - الغنــاء والموســيقى :

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب ويخرب النفوس يقول ابن القيم : (ومن مكايد عدو الله ومصايده التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذى يصد القلوب بها عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقبة اللواط والزنى ، كادبة الشيطان النفوس المبطلة ، وحسنه لها مكراً وغروراً وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه فقلبت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً ..) إغاثة اللهفان ٢٤٢/٨ . ومن عجب أن بعض الناس الذين يدّعون التعبد يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد ويتركون السماع الرحمانى ويذهبون إلى السماع الشيطانى وقد عدَّ ابن القيم فى (الإغاثة ٢٥٦/١) لهذا السماع بضعة عشر اسماً : اللهو واللغو والباطل والزور

---

(١) سنن أبى داود - أبواب الرضاع ٣١٩/٢ رقم ١١٨٣

والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق فى القلب والصوت الأحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود .

٩ - تهاون المسلمين فى تحقيق ما أمروا به :

إذا إلتزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به فإذا تهاون وتكاسل فى بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصة قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ (سورة البقرة ٢٠٨) . فالدخول فى الإسلام فى كل الأمور هو الذى يخلف من الشيطان فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين فإذا تركت فرج بين الصفوف فإن الشياطين تتراقص كأنها أولاد الحذف قيل يا رسول الله : وما أولاد الحذف ؟ قيل جُرْد « بأرض اليمن » رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح[1] (صحيح الجامع ٣٨٤/١) وفى الحديث الآخر « أقيموا صفوفكم وتراصوا فوالذى نفسى بيده إنى لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عفر » رواه أبو داود الطيالسى بإسناد صحيح[2]. (صحيح الجامع ٣٨٤/١)

كيف يصل الشيطان إلى نفس الإنسان :

الوســوسة :

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها يساعده على ذلك طبيعته التى خلق عليها وهذا الذى نسميه بالوسوسة وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه ﴿ **الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ سورة الناس ٤ - ٥ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس .

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[3].

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان * قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى** ﴾ (سورة طه ١٢٠) .

وقد تتمثل الشياطين فى صورة بشر وقد يحدثون الإنسان ويسمعونه ويأمرونه وينهونه بمرادهم .

---

(١) مسند أحمد ٢٩٦/٤ والمستدرك للحاكم - كتاب فضائل القرآن ٥٧٣/١

(٢) مسند أبى داود الطيالس ٢٨٢/٩ رقم ٢١٠٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

الفصـــل الرابــع
تمثـل الشـــياطين

أحياناً تأتى الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة بل تتراءى له فى صورة إنسان وقد يسمع الصوت ولا يرى الجسم وقد تتشكل بصور غريبة .

وهى أحياناً تأتى الناس وتعرفهم بأنها من الجن وفى بعض الأحيان تكذب فى قولها فتزعم أنها من الملائكة وأحياناً تسمى نفسها برجال الغيب أو تدعى أنها من عالم الأرواح .

وهى فى كل ذلك تحدث بعض الناس **وتخبرهم** بالكلام المباشر أو بواسطة شخص منهم يسمى الوسيط تتلبس وتتحدث على لسانه وقد تكون الإجابة بواسطة الكتابة .

وقد تقوم بأكثر من ذلك فتحمل الإنسان وتطير به فى الهواء وتنقله من مكان إلى مكان وقد تأتى له بأشياء ويطلبها ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين الذين يكفرون بالله رب الأرض والسموات أو يفعلون المنكرات والموبقات . وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى ولكنهم فى حقيقة أمرهم من أضل الناس وأفسقهم وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً لا مجال لتكذيبه والطعن فيه لبلوغه مبلغ التواتر فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال : (وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحياناً كانوا معه (بعض أتباعه) على جبل أبى قبيس فطلبوا منه حلاوة فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوى باليمن حمله شيطان تلك البقعة) .

قال : « ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطانى ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا مثل شخص هو الآن (فى زمن ابن تيمية) بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ونجىء بالليل إلى باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة التى كانت يومئذ) فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة فى أطراف الشام) من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه وكان شيطان يحمله وكان يقطع الطريق .

وأكثرهم شيوخ الشر يقال لأحدهم (البوشى أبى المجيب) ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة **ويصنعون** خبزاً على سبيل القربان فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ثم يصعد ذلك البوشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به .

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ويأمرهم بأن يقربوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها فإذا فعلوا قضى حاجتهم !!.

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن « شيخ أخبره نفسه أنه كان يزنى بالنساء ويتلوط الصبيان وكان يقول : يأتينى كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوأن ، فيقول لى : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به . ... ا قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر » .

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال : « وكنت إذا طلب فى تغيير مثل (اللاذن) (صمغ يستعمل عطراً ودواءً) أقول حتى أغيب عن عقلى وإذا باللاذن فى يدى أوفى فمى وأنا لا أدرى من وضعه .

قال : وكنت أمشى وبين يدى عمود أسود عليه نور .

قال : فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلى ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتى بلاذن ولا غيره .

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس فيأتى أهل ذلك المصروع ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس حتى أن بعض الناس كان له تين فى كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرون له فيطلب أصحاب لكوارة التين فوجدوه قد ذهب .

ويذكر عن آخر أنه كان مشتغلاً بالعلم فجاءته الشياطين وأغوته وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التى أكلها ذلك **المفتون** بالشيطان » (جامع الرسائل لابن تيمية فى ١٩٤/١٠٩) وبين بعض طرق الشيطان فى الإغواء فقال فى (مجموع الفتاوى ٣٠٠/١١) .

« أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذى دخل فيها وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك يا ولى الله فيقرأ آية الكرسى فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول خذنى حتى يأكلنى الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل فى الإنسان ويخاطبه بذلك ومنهم من يكون فى البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس وكذلك فى أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسى مرة بعد مرة ذهب ذلك كله » .

ويقول رحمه الله : « وأعرف من يخاطبه فخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ويعد بأنه المهدى الذى بشربه الرسول ﷺ ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف فى الطير**الجراد فى الهواء فإذا** خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً ذهب حيث أراد وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشى أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه فى الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتى به وتأتيه بأشخاص فى صور جميلة وتقول له هؤلاء الملائكة **المقربون** جاءوا لزيارتك فيقول فى نفسه : كيف تصوروا بصور المرذان ؟ فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له : علامة أنك المهدى أنك تنبت فى جسدك شامة فتثبت ويراها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان » .

وبين رحمه الله (٤١/١٩) « أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم **زهد** وعبادة على غير الوجه الشرعى ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات **يأوون** كثيراً إلى مواضع الشياطين التى نهى عن الصلاة فيها لأن الشياطين تتنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل فى الأصنام وتكلم عابدى الأصنام وتعينهم فى بعض المطالب كما تعين السحرة وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التى يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضى بعض حوائجهم » .

الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصى :

هؤلاء الذين يزعمون الولاية والحقيقة أن الشياطين تخدمهم – لابد أن يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك كى يقضوا بعض أغراضه ويذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى) أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة وقد يقلبون حروف كلام الله – عز وجل – إما حروف الفاتحة وإما حروف قل هو الله أحد وإما غيرهما – ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان أو يتكلمون بذلك . فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم إما تغوير ماء من المياه وإما أن يحمل فى الهواء إلى بعض الأمكنة وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتى به وإما غير ذلك .

دجـال الغيـب :

يذكر شارح الطحاوية « أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب وأن بعض الناس يخاطبون وتحصل لهؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله ، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين ويقول : إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين عصوا» .

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً : « هؤلاء فى الحقيقة إخوان المشركين وذكر أن الناس من أهل العلم فى رجال الغيب ثلاثة أحزاب :

١ - حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بمالأوه وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

٢ - وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم فى الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

٣ - وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليًا خارجا عن دائرة الرسول ، فقالوا : يكون الرسول هو محمداً للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه .

ثم قال مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم : والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ (سورة الجن ٦) . وإلا فالإنس يؤنسون أى يشهدون ويرون وإنما يحتجب الإنس أحياناً لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس ومن ظنهم من الإنس فمن غلطه وجهله .

ثم بين السبب فى الاختلاف فيهم وفى افتراق هذه الأحزاب الثلاثة : هو عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن وبين أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة فماوافقهما كان صالحاً وما خالفهما كان غالطاً ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله - وإن طار فى الهواء ومشى على الماء مالم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة (شرح العقيدة الطحاوية ٥٧٢/٥٧١) فلابد أن يكون عند العبد الميزان الذى يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والصالحين والطالحين وإلا ضل وزاغ وظن أعداء الله أولياءه . هذا الميزان هو الكتاب والسنة فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم وإلا فإنه ليس على شيء ولو رأيناه يحيى الأموات ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة .

يقول ابن تيمية : (ومن لم يميز بين الأموال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ومن لم ينوّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن لم يعرف طريق المحق من المبطل واللابس عليه الأمرالحال كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذابين فى زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون) جامع الرسائل ص ١٩٧ .

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً إذا عرفته تبين لك الفارق الكبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان وقد أسماه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

حكم استخدام الجن :

الذى يظهر أن الله استجاب لسليمان ووهب له ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير وإنما برضى الجن وهل يجوز ذلك ؟ يقول ابن تيمية فى (مجموع الفتاوى ١١/٣٠٧) :

الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى وهو فى ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن فى أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس فى أمور مباحة له وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم فى مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله فغايته أن يكون فى عموم أولياء الله مثل النبى الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما فى الشرك وإمّا فى قتل معصوم الدم أو فى العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم وإما فى فاحشة كجلب لا من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصى فهو عاصى : إما فاسق وإما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج أو يطيروا به عند السماع البدعى أو أن يحملون إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعى الذى أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به » .

تحضير الأرواح

إنتشر فى عصرنا القول بتحضير الأرواح وصدق بهذه الفرية كثير من الذين يعدهم الناس عقلاء وعلماء .

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً فمنه ماهو كذب **صراح** يستعمل فيه الإيحاء النفسى والمؤثرات المختلفة والحيل العلمية ومنه ماهو استخدام للجن والشياطين .

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه (الروحية الحديثة) كثيراً من ضراع هؤلاء وتزويرهم للحقيقة فمنهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا فى ضوء أحمر خافت هو أقرب إلى الظلام وظواهر التجسيد المباشر ونقل الأجسام وتحريكها تجرى فى الظلام الدامى ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين ولا مصدر الصوت ولا يستطيع كذلك أن يميز من تفاصيل المكان كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه .

وتكلم الدكتور محمد عن (الخباء) وهو حجرة جانبية معزولة عن الحاضرين أو جزء من الحجرة التى يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف وهذا المكان المنفصل معد لجلوس الوسيط الذى تجرى على يديه ظواهر التجسد المزعوم ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخرج الأرواح المزعومة متجسدة وإليه تعود بعد قليل ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح .

ويرى الدكتور أن الروحيين **لا يعدمون** فى مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم .

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة يضل بها شياطين الإنس عباد الله يطلبون الوجاهة عند الناس كما يطلبون مالهم فقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١١/٤٥٨) عن فرقة فى عصره كانت تسمى (البطائحية) . أنهم كانوا يدعون علم الغيب والمكاشفة كما يدعون أنهم يَرَوْن ويُرُوْن الناس رجال الغيب ثم يكشف شيئاً عن دجلهم فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة ثم يكاشفون صاحب البيت بما علموه زاعمين أن هذا من الأمور التى اختصوا بالاطلاع عليها ووعدوا رجلاً — كانوا يمنونه بالملك — أن يروه رجال الغيب فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشى كهيئة الذى يلعب بأكر الزجاج فجعلوا يمشون على جبل المزة وذلك المخدوع ينظر من بعيد فيرى قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم . ودلسوا على آخر كان يدعى (قفجق) إذ أدخلوا رجلاً فى القبر يتكلم وأوهموا أن الموتى تتكلم وأتوابه إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا أنه طلب منه جملة من المال فقال

(قفجق) : الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائنى ليس فيها هذا كله وتقرب قفجق وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى الصقوه على جلده من جلد الماعز . وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط وهو شخص يزعم الروحيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجرى عن طريقها التواصل - غالباً ما يكون دجالاً كبيراً **وغشاشا** مدلساً وبين كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين بل إن الروحانيين لا يشترطون فى الوسيط شيئاً من ذلك وقد ذكر حادثة جرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه فى الموضوع أن الوسيط كان دجالاً كاذباً .

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين وكيف يحترس فى إنتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات وكيف يعللون فشلهم إذا وجد فى الحضور بعض الأذكياء النبهاء .

استخدام الجن والشياطين :

أفاض الدكتور محمد محمد حسين فى الكشف عن الطريق الأول الذى يزعم الروحانيون أنهم يحضرون به الأرواح وهو طريق الدجل والكذب واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية .

وأشار مجرد إشارة إلى الطريق الثانى وهو استخدام الجن والشياطين وأرى أن غالبية الدعوات التى يزعم فيها تحضير الأرواح هى من هذا القبيل .

تحضير الأرواح دعوة قديمة :

وبناء على ذلك فهذه الدعوى ليست جديدة بل هى قديمة وقديمة جداً وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن بل حفظت لنا كتب ثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت ، يقول ابن تيمية « ومن هؤلاء (أى أهل الحال الشيطانى من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجىء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ورد ودائعه ويوصيهم بوصايا فإنهم تأتيهم تلك الصورة التى كانت فى الحياة وهو شيطان تمثل فى صورته فيظنونه إياه » (جامع الرسائل ص ١٩٤/١٩٥) .

تجربة معاصرة :

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانونى ذكرها فى كتاب الإيمان بالملائكة حرصت على نقلها بنصها يقول فى هذا الموضوع .

لقد شغل « استحضار الأرواح » المزعوم أفكار الناس فى الشرق والغرب فكتبت فيه مقالات

بلغات مختلفات نشرت فى مجالات عربية وغير عربية وألفت فيه مؤلفات وبحث فيه باحثون وجربه **مجربون** اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وبهتان ودعوة إلى كفر وطغيان . إن استحضار الأرواح الذى يزعمه الزاعمون كذب ودجل وخداع وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالإنسان وتخادعه .

وليس فى استطاعة أحد أن يستحضر روح أحد فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد تصير إلى عالم البرزخ .

ثم هى إما فى نعيم أو فى عذاب وهى فى شغل شاغل عما يدّعيه مستحضر الأرواح .

وقد دُعيت أنا إلى ذلك من قبل هذه الأرواح وجربته بنفس تجربة طويلة وظهر لى أنه كذب ودجل وخداع على أيدى شياطين تتلاغب **غرمتهم** من ذلك تضليل الناس وخداعهم وموالاة من يواليهم .

بـدء التجـربـة :

عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً رجلاً يزعم أنه يستخدم الجن فى أمور صالحة فى خدمة الإنسان وذلك بواسطة وسيط من البشر . ويزعم أنه توصل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة قضى فيها زمناً طويلاً وله عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم ! جاءنى الوسيط ذات يوم يبلغنى دعوة فلان وفلانة من الجن لحديث هام لى فيه شأن عظيم .

فذهبت فى الموعد المحدد متوكلاً على الله تعالى فرحاً بذلك لأطّلع فى هذه التجربة على جديد .

كيف بدأت المخادعة ؟

. من أول أساليب الخداع التى سُلكت معى أن طريقة الاستحضار ، استغفار وتهليل وأذكار مما يجعل الإنسان لأول وهلة يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة .

دخلت بيت الوسيط وخلونا معاً فى غرفة وجلس هو على فراش وبدأنا بدلالته **طبعاً** نستغفر ونهلل – حتى أخذته إغفاءة فاضجعته أنا على فراشه وسجيّته بغطاء كما علمنى أن أفعل ، وإذا بصوت خافت ، يسلم صاحبه علىّ ويظهر حفاوته بى وحبه ويعرفنى أنه مخلوق يزعم أنه ليس من الملائكة ولا من الجن ولكنه خلق آخر من نوع آخر وُجد بقوله تعالى « كن » فكان .

وهذا على زعمه أن الجن لا يصدرون إلا عن أمره وأن بينه وبين الله تعالى فى تلقى الأوامر أربعة وسائط فقط خامسهم جبريل – عليه السلام – وأخذ يثنى علىّ ويقول : إنهم سيقطعون كل علاقة لهم

بالبشر وسيكتفون بلقائى لأنى على زعمهم الخصوصية فى هذا العصر وموضع العناية من الله تعالى وأن الله تعالى هو الذى اختارنى لذلك . ووعدنى بوعود رائعة فيها العجب العجاب

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة والدعوة الخادعة متوكلاً على الله عز وجل سائلاً الله تعالى أن يعصمنى من الزلل وأن يهدينى إلى الحق المبين مستضيئاً بنور العلم سالكاً سبيل الاستقامة والحمد لله تعالى ولما انقضى اللقاء الأول دعانى إلى لقاء آخر فى موعد آخر **ثم دلنى** هو نفسه على تلاوة خاصة لإيقاظ الوسيط من غيبته .

وكان ذلك وجلس الوسيط **وعرك** عينيه كأنه انتبه من نوم عميق ولا علم له بشىء مما جرى ورجعت فى الموعد المحدد أيضاً وتم بيننا لقاء بعد لقاء مدة طويلة وفى كل لقاء تتجدد الوعود الحسنة ويوصف لى المستقبل الرائع الذى ينتظرنى والنفع الذى تلقاه الأمة على يدى .

تطـور الموضـوع :

وتطور الأمر فأخذ كثير من الأرواح يزورنى فى كل لقاء بمقدمات من الأذكار وبغير مقدمات فقد أكون مع الوسيط على طعام أو على تناول كأس من الشاى فتأخذه الإغفاءة المعهودة فيميل رأسه إلى الأمام وتلتصق ذقنه بصدره ويحدثنى الزائر الذى يزعم أنه من الملائكة أو من الجن أو من الصحابة أو من الأولياء حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والإجلال والتبرك بزيارتى وتبشيرى بالمستقبل الزاهر المبارك ثم ينصرف ويجىء غيره وغيره .

مـن هـم الزائـرون :

زارنى فيما زعموا أفراد من الملائكة وأفراد من الجن وأبو هريرة – رضى الله عنه – من الصحابة وطائفة من الأولياء أمثال أبى الحسن الشاذلى – رضى الله عنه – وطائفة من أهل العلم والفضل المشهود لهم بالعلم والولاية أمثال الشيخ أحمد الترماتينى – رحمه الله تعالى . وبعض من **أدركتهم** من أهل العلم والفضل ثم درجتهم الوفاة ومنهم والدى – رحمه الله تعالى – وبشرونى بزيارة والدى إياى فى وقت عينوه وانتظرت الموعد بلهف ولما كان الموعد المنتظر كلفونى أن أقرأ سورة « الواقعة » جهراً فقرأتها ولما فرغت من قراءتها قالوا : سيحضر والدك بعد لحظات فاسمع ما يقول ولا تسأله عن شىء !!

بـدء انتبـاهى :

وبعد دقائق جاءنى يزعم أنه أبى فسلم علىّ وأظهر سروره بلقائى وفرحه بى على صلتى بهذه الأرواح وأوصانى أن أعتنى بالوسيط وأهله وأن أرعاه رعاية عطف وإحسان إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق .

وختم حديثه بالصلوات الابراهيمية وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى كان شديد الولع بالصلاة على النبى ﷺ ولاسيما الإبراهيمية وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة لحدٍ ما بلهجة الوالد . ثم سلم وانصرف .

وأخذت أتساءل فى نفسى : لم أوصونى أن لا أسأله عن شيء ؟ فى الأمر سر ولا شك !

السر الخفى الذى انكشف لى آنذاك أنه ليس بوالدى ولكنه قرينه من الجن الذى صحبه مدة حياته فجاءنى يمثل لى صوته وتشبه بخصوصية من خصوصياته أوصونى أن لا أسأله عن شيء لأن القرين من الجن مهما عرف من شأن والدى وحفظ من أحواله فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه فحذرونى أن أسأله عن شيء حق ذلك فلا يجبنى فيفتضح الأمر ثم سلكوا معى فى لقائى مع الآخرين أن لا يعرّفونى بأسمائهم إلا عند إنصرافهم فيقول أحدهم : أنا فلان ويسلم وينصرف على الفور .

وفى ذلك من السر ما ذكرت : فلو أخبرنى واحد منهم عن نفسه وهو مشهود له بالعلم فيحدث معه فى اشكال علمى يعجز عن الجواب وانكشف الأمر .

وقد أتانى آت مرة يناقشنى فى إباحة كشف وجه المرأة وأنه ليس بعورة فرددت عليه وردَّ علىَّ رداً ليس فيه رائحة العلم واحتدم الجدال بيننا .

فقلت له : وبماذا تجيب عن أقوال الفقهاء الذين قالوا : إن وجه المرأة عورة أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وإنتهى الجدال إلى غير جدوى ثم أخبرنى أنه هو الشيخ أحمد الترماتينى وانصرف فانكشف لى أنه الكذب لاشك فيه لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية والسادة الشافعية يقولون : المرأة كلها عورة ولو عجوزاً شمطاء .

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور وانكشف له من العلم جديد وهو فى عالم البرزخ لأخبرنى بذلك وأرشدنى إلى دليله . ولكنه الكذب والخداع وإرادة التضليل وأبى الله تعالى – والحمد لله – إلا هداى وثباتى على الحق والهدى فكشف المرأة وجهها ولاسيما فى هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض أمر لا يقره ذو عقل ودين .

انكشـاف الحقيقـة :

ولم تزل تنكشف الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة وفى تجربة بعد تجربة حتى تحقق عندى أن الأمر كله كذب وبهتان ودجل وطغيان لا أساس له من تقوى ولا قائمة له على دين :

فالوسيط الذى يعتنون بشأنه ويوصون بحسن رعايته وإكرامه تارك صلاة ولا يأمرونه بها — وهو يحلق لحيته ولا يأمرونه بإطلاقها ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل وبالوعود الخادعة ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث .

جاءنى رجل بعد ما عرف صلتى بهذا الوسيط يشكو إلىّ أنه خدعه فأخذ منه ثلاثمئة ليرة سورية وهو فقير وفى أشد الحاجة إليها .

فألزمت الوسيط بردها إليه فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتى بهم .

والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب فى أكثر شؤونهم .

الخاتمــة :

وقد حاولت هذه الأرواح بعدما إنكشف لى أمرها أن تسلك معى مسلك التهديد فلم يزلزل ذلك من قلبى شيئاً والحمد لله تعالى . وقد كنت كتبت فى هذه المدة الطويلة مما حدثونى به ما ملأ دفترين كبيرين جمعت فيهما أكثر ما حدثونى به . ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل قطعت الصلة بهم وحكمت عليهم بما حكمت وأحرقت الدفترين اللذين امتلآ بالكذب والخداع . فهذه الأرواح التى تدعى أنها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين كلها شياطين لا ينبغى لمؤمن عاقل أن ينخدع بها وجميع الصور التى اعتادها مستحضر الأرواح كذب وباطل .

سواء فى ذلك طريقة الوسيط التى ذكرتها وجربتها وطريقة المنضدة والفناجين التى ذكرها لى بعض من جربها ووصل إلى النتيجة التى وصلت إليها . ومن عجيب الأمر أنى قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفة فى هذا الموضوع فإذا بالمجدبين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه وحكموا على تلك الأرواح أنها قرناء بنى آدم من الجن كما هدانى الله تعالى إلى ذلك من قبل والحمد لله .

وقد أديت بكلمتى هذه النصح الواجب والله الهادى إلى سواء السبيل .

خطر هذه الدعوات :

هذه الدعوات التى تزعم أن بمكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لإفساد الدين فهذه الأرواح التى تحضر وهى فى الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه وتقر مبادىء ومثل ومناهج جديدة تعارض الحق كل المعارضة ففى واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح (الشيطان) على لسان الوسيطة أن جبريل قد حضر هذه الجلسة ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت : (ألا تعرفون جبريل الذى كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ إنه يبارك هذا الاجتماع وينقل

الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة (عالم الروح) من مقال لها بعنوان (حديث الروح الكبير هوايت هوك) مايأتى :

« يجب أن نتخد فى هذه الحركة . فى هذا الدين الجديد . يجب أن تسودنا المحبة . ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم » . رسالتى (الروح المتحدث هنا أى الشيطان) أن أواسى المحروم وأساعد الإنسان على تحرره فى نفسه من الله تعالى : (وصدق فهذه رسالته أى يجعله يكفر بالله) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض (هكذا ينضج فى الإنسان ويكذب عليه ليضله) وهو لن يدرك مافى مقدوره هو مالم يحس بجزئه الملائكى الإلهى الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله) . وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التى أسست لهذه الغاية لأن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحى طريقة جديدة للحياة ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته ، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان (هكذا) ... إن العضوية فى هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسى .

وتزعم الأرواح أنها رسل مرسلة من عند الله فالدكتور يذكر أن محمد فريد وجدى نقل عن هذه الأرواح (أى الشياطين) قولها « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم فإلهنا هو إلههم إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل فى صفات البشرية وأكثر صفات إلهية .. لا تخضع لأى عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل » .

وهم يزعمون أن الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة وأن المعجزات التى جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التى تحدث فى حجرة تحضير الأرواح ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا أحداث كل ما نسب للمسيح من أرواح وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة زعمت أن أحد محضرى الأرواح فى أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح فهو يعيد البصر إلى الأعمى والنطق إلى الأبكم والحركة للمشلول بقى أن تعلم أن هذا الطبيب المزعوم طفل فى العاشرة من عمره يدعى (ميشيل) وعندما يأتيه المريض يضع أنامله عليه ويتمتم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة . ويقولون : إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده وهو لا يتقاضى من المال عما يقوم به عن أعمال (راجع ملحق جريدة القبس الكويتيه ١٩٧٧/١٠/١٧) . ووراثة هذا الطفل لهذه الأعمال من أبيه تذكرنا لقصة تروى فى بعض نواحى فلسطين يقول الرواة إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى كان يفعل عجباً فقد كان - فى ذلك الوقت الذى لم تظهر فيه الطائرة والسيارة - ينطلق إلى الحج فى ليلة عرفة فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم ويعود فى الليلة

الأخرى وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير رغم أنه ما كان يقوم بمناسك الحج ولا يمكث فى منى المدة المقررة ولا يرمى **الجمرات** ثم شاء الله أن يكشف باطله ويظهر أمره للناس فعندما جاءه الموت استدعى ابنه الأكبر وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة ويحمله إلى عرفات فى كل عام ولما جاء الجمل وركبه الابن وسار مسافة وقف وتحدث إلى الأبن وأخبره أنه شيطان وأن أباه كان يعبده ويسجد له وفى مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات ولما رفض الابن السجود له واستعاذ بالله منه تركه فى الصحراء وقدر الله له الرجوع وكشف حقيقة أبيه الكافر .

وقد أشار إلى هذه القصة البيانونى فى كتابه الملائكة بأخصر مما أثبتناها هنا .

هل يمكن استحضار الأرواح :

لقد وضعت مجلة (سنيتفيك أمريكان) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولاتزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد رغم انتشار الروحيين ونفوذهم وبراعتهم فى **أمريكا** وقد ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الامريكى رننجر نفسه ولم يظفر بها أحد أيضاً .

ولكن ما موقف الإسلام من إمكان إحضار روح المتوفى ؟ إن التأمل فى النصوص التى وردت فى هذا تجعل الباحث يعتقد جازماً أن ذلك مستحيل فقد أخبرنا الله تعالى أن الروح من عالم الغيب الذى لا سبيل إلى إدراكه ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ سورة الإسراء ٨٥ .

وأخبر أنه يتوفى الأنفس وأنه يمسك النفوس عند الموت ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ سورة الزمر ٤٢ . وقد وكل الله الأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة وينعمونها إن كانت صالحة تقية وقد بين لنا الرسول ﷺ كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك .

والأرواح إذ كانت مُمسكة عند ربها موكل بها حفَظَة أقوياء مهرة ، فلا يمكن أن تنفلت منهم وتهرب لتأتى إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد . وبعض هؤلاء يزعم أنه حضر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء ، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير المظلمة فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ سورة آل عمران ١٦٩ . وقد بين الرسول ﷺ (أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى رياض الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها وتأوى إلى قناديل معلقة فى سقف عرش الرحمن)[1]. فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ (كبرت

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً)(٢).

شبهة وجوابها :

يقولون فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذى تزعم أنها كانت تسكنه ؟

قلنا هذا الذى يزعم أنه روح شيطان ولعل هذا الشيطان هو القرين الذى كان يلازم الإنسان وقد ذكرنا النصوص التى تدل على أن لكل إنسان شيطاناً فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته ويعرف أقاربه وأصدقاءه .

فعندما يختبر ما أسهل أن يجيب لأنه على علم ودراية فإن قيل : كيف تفسرون الإجابات العلمية التى قد يحصل عليها من الأرواح نقول : سبق أن بينّا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التى تمكنهم من الإجابة والإفادة .

ولكنها إفادة تحمل فى طياتها الإضلال العظيم فهم لا يفيدوننا إلا بمقدار كى نثق بهم ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة التى توبقنا فى ديننا وأخرانا .

تخلى الشياطين عن أتباعها :

هؤلاء الذين يدُعون (الروحانيون) ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون وما هذه الأرواح إلا شياطين وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتذلهم وتخذلهم . نشرت جريدة القبس الكويتية فى ملحقها بتاريخ ٧٨/٦/١٢ مقالاً جاء فيه : بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحانى (بيتر غودونى) الذى كان يتمتع بمواهب (روحانية) خارقة يستطيع بواسطتها أن يشفى المرضى من الأمراض المستعصية ويكشف الأشياء المفقودة ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان .

وكان بيتر غودوين يتمتع بمقدرة فريدة يستطيع بواسطتها التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد فقد كان يشاهده أصدقاؤه فى لندن مثلاً ، ويشاهده آخرون فى نفس اللحظة فى ليفربول وآخرون فى مانشستر بينما يؤكد فريق رابع أنه لم يكن فى هذا المكان ولا ذاك وإنما كان يجلس فى منزله بين زوجته وأولاده .

وأحياناً كانت أجساده الايثرية المختلفة تجتمع فى مكان واحد فيكون جالساً بين أصدقائه مثلاً ، وفجأة .. تدخل عليهم جميعاً شخصيته الأخرى .. وتشاركهم الجلسة وتأتى شخصيته الثالثة والرابعة والخامسة بعدها ويصبح بيتر غودوين عبارة عن خمس شخصيات تجالس الحضور وتتحدث إليهم أو

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة ١٥٠٢/٣ رقم ١٨٨٧

تتحدث مع بعضها البعض بينما يكون الجميع مبهورين وفجأة خسر بيتر غودوين كل شيء وتحول إلى إنسان عادى ولم يعد بقادر على شفاء المرضى ولا اكتشاف الأشياء المفقودة ولا كشف المستقبل ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس .

وقد بدأت مأساة غودوين عندما حاول استغلال المواهب التى منحها الله له لتحقيق مكاسب مادية وهو قد أصبح ينظر إلى الماضى القريب ويقول : إن ما حدث لى لم يكن فى الحسبان فقد غضبت الأرواح منى وسلبتنى بركاتها .

بدايـــة القصـــة :

والقصة أن بيتر غودوين حاول أن يقيم مراكز للعلاج الروحى فى طول بريطانيا وعرضها وأن ينشىء مركزاً فى كل مدينة كبيرة فى بريطانيا ولذلك نشر إعلاناً فى صحيفة بوتماوت المسائية يطلب فيه من ربين للأبحاث الروحية بدوام كامل أو بنصف دوام ، المشروع يحقق دخلاً يعادل ٤٠ – ٥٠ جنيهاً فى الأسبوع .

وبعد أن نشر بيتر غودوين إعلانه بدأت الطلبات تنهال عليه ومن بين الذين استجابوا للطلب كاتب فى التاسعة والعشرين من عمره اسمه روبين لاسى ، وإمرأة فى الخامسة والستين من عمرها اسمها جين بارتليث ورجل فى الثلاثين اسمه ارتر جفرى ولكن ما أن بدأ بيتر غودوين بإجراء المقابلات حتى بدأت متاعبه يقول روبين لاسى : « فوجئت عندما حضرنا للمقابلة أن بيتر غودوين نفسه غير موجود وأن التى تجرى المقابلة إمرأة خمسينية يساعدها شاب وإمرأة صغيرة السن فاتنة الجمال .. ووزعت علينا أسئلة وطُلب منا الإجابة عليها ومن بين الأسئلة :

هل شاهدت أرواحاً فى حياتك ؟ هل تؤمن بنتائج الأرواح ؟

هل تتناول المخدرات ؟ هل سبق أن زرت مستشفى للأمراض العصبية ؟

وقالت لنا المرأة الخمسينية : أن بيتر غودوين سيقيم مركزاً روحياً فى كل مدينة فى بريطانيا وأنه سيدربنا على العلاج الروحى بحيث نصبح قادرين على العمل فى هذه المراكز ثم يرسل الزبائن إلينا على أن نتقاضى خمسة جنيهات استرلينية عن الجلسة الواحدة ونعالج ما يعادل ٤٠ شخصاً فى الأسبوع .. بشرط أن يقتطع بيتر غودوين لنفسه نصف أول خمسة آلاف جنيه استرلينى والنصف الباق لنا ... وقد أصيب معظمنا بخيبة الأمل من ذلك وتعالت صيحات الاحتجاج ضد ذلك من الأشخاص الذين تقدموا بطلبات وغادر معظمنا الغرفة دون أن يكمل تعبئة الطلبات .

ماذا يقول شهود العيان :

ومع ذلك فقد تم إختيار البعض وسمح لهم بمقابلة بيتر غودوين فى غرفة أخرى وقد دامت مقابلة الشخص الأول ٢٠ دقيقة بدأت تتقلص وعندما جاء دور الشخص الأخير استمرت المقابلة خمس دقائق وفى النهاية اختيار بضعة أشخاص على أن يتولى بيتر غودوين تدريبهم . ومن الأشخاص الذين تم اختيارهم جين بارتليث وهى مهندسة ديكور متقاعدة وزوجها ارثر بارتليث .. تقول جين : « لم أستوعب شيئاً مما علمه بيتر غودوين لى كان دائماً بادى الاضطراب أثناء التدريب وفى الآونة الأخيرة صار يلجأ إلى تسجيل محاضراته على أشرطة تسجيل ويتحدث فيها عن آفاق الإنسان فى الحياة وطلب منامرة أن نصنع تماثيل من الطين تشبه الإنسان وعلمنا قراءة بعض التعاويذ عليها ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً .. وزودنا بيتر غودوين بملاحظات لم نفهم منها شيئاً » .

أما ارثر جفرى وزوجته انجيلا فقد كانا من ضمن الأشخاص الذين تم اختيارهم تقول انجيلا : « فى البداية أحسسنا بأن الجو العلمى هو السائد فى الدروس والمحاضرات ولكن غودوين كان دائم الاضطراب وبدأ يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً وبعد بضعة أيام أصبح مجرد إنسان عادى ، مثلنا لا يتمتع بأية مقدرة خارقة وقد لمسنا ذلك لأنه لم يعد يمارس أعاجيبه أمامنا بل أصبح يسجل محاضراته على شريط تسجيل ونسمعها نحن من الشريط دون أن نراه ولذلك أمتنعنا جميعاً عن حضور المحاضرات وتوقفنا عن دفع المصاريف التى كنا ندفعها له بمعدل عشرة جنيهات استرلينية للدرس الواحد »

ومن مكتبة فى باسنكسشوك فى هانز ، قال بيتر غودوين الرجل الذى خسر ثقة الأرواح به : « كانت خطتى تقضى أن أنمى قوى تلاميذى الروحية ثم أمنحهم شهادة تثبت ذلك لكى يتمكنوا من ممارسة عملهم فيستفيدوا بذلك ويفيدوا وأستفيد وعلى الرغم من أننى تلقيت عدة رسائل روحية بأن لا أستغل المواهب التى منحنى الله إياها للكسب المادى إلا أننى لم استمع فكانت النتيجة أن بدأت مقدرتى تتلاشى إلى أن اختفت تماماً . أما كيف حدث ذلك فإننى لا أعرف حتى الآن » .

تعليقنا على هذه الحادثة :

١ – ما زعمه هذا الرجل من أنه كان يحضر الأرواح لا دليل عليه ومما يدل على أنه كان يحضر الشياطين أنه أمر أتباعه بصنع تماثيل وقراءة تعاويذ معينة وهذا ما يرضى الشيطان ويغضب الرحمن .

٢ – إذا قلنا إن هذه الأرواح شياطين تحل لنا ظاهرة وجود (بيتر) فى أكثر من مكان فى وقت واحد لأن الشياطين لديها القدرة على التشكل بشكل الإنسان .

وهذا كان يحدث فى الماضى ولا يزال يحدث فإبليس جاء المشركين فى غزوة بدر فى صورة سراقة بن مالك ويحكى ابن تيمية من هذا شيئاً كثيراً ، وأنا أسوق شيئاً من كلامه ليتبين للقارىء أن هذا موجود من

قديم يقول ابن تيمية عن نفسه « إن طائفة من أصحابى ذكروا أنهم استغاثوا بى فى شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن والآخر كان خائفاً من التتر فذكر كل منهم أنه لما استغاث بى لاتى فى الهواء وقد دفعت عنه عدوه فأخبرتهم (المخبر ابن تيمية) أنى لم أشعر بهذا ولا دفعت عنكم شيئاً وإنما هذا شيطان تمثل لأحدكم فأغواه لما أشرك بالله تعالى » .

يقول : « وهكذا جرى لأكثر من واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ويقول ذلك الشيخ : إنى أعلم بهذا فيتبين أن ذلك كان شيطاناً » .

ويقول أيضاً : « وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لى أنه استغاث باثنين كان يعتقد هما وأنهما أتيناه فى الهواء ، وقالا له : طيب قلبك نحن نرفع هؤلاء عنك ونفعل ونصنع .

قلت له : فهل كان من ذلك شيء ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان لقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك كما كانت الجن يخبرونه الكهان » .

٣ – إن شياطين بيتر تخلت عنه كما تتخلى الشياطين التى تتصور بصورة الشيوخ عمن وعدتهم الحماية والنصر وكما تخلى الشيطان عن الراهب بعد أن وعده بالنصر وفى ذلك إذلال لهذا الذى كان بالأمس موضع احترام الناس وتقديرهم .

٤ – زعم (بيتر) أن هذه الأرواح تأييد من الله كذب لا دليل عليه .

الجن وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ومردة الجن يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطىء عند البشر وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى عندما قبض روح نبيه سليمان ــ وكان قد سخر له الجن يعملون بين يديه بأمره – وأبقى جسده منتصباً وأستمر الجن يعملون وهم لا يدرون بأمر وفاته حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكىء عليها فسقط فتبين للناس كذبهم فى دعواهم أنهم يعلمون الغيب : ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ، مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ سورة سبأ ١٤ .

وقد سبق القول كيف كانوا يسترقون خبر السماء وكيف زيد فى حراسة السماء بعد بعثة الرسول ﷺ فقلما يستطيع الجن استراحة السمع بعد ذلك .

العرافون والكهان :

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذى يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وخبايات وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم ولقد خاب السائل والمسئول فالغيب علمه عند الله لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً** ﴾ سورة الجن ٢٦ - ٢٨ .

والاعتقاد بأن فلاناً يعلم الغيب إعتقاد آثم ضال يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التى تجعل علم الغيب لله وحده .

أما إذا تعدى الأمر إلى إستفتاء أدعياء الغيب فإن الجرعة تصبح من العظم بمكان ، ففى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »[1].

وتصديق هؤلاء كفر كما فى المسند عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[2].

قال شارح العقيدة الطحاوية : (والمنجم يدخل فى اسم (العراف) عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه - ثم قال - فإذا كانت هذه حال السائل فكيف المسئول ؟) . ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً وإذا كان الذى يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول ﷺ فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

سؤال العرافين والكهنة على وجه الإمتحان :

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة بقصد إمتحان حالهم وإختيار باطنهم يميز صدقهم من كذبهم - جائز واستدل بحديث الصحيحين : « أن النبى ﷺ سأل ابن صياد ، فقال : ما يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . قال : ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، قال : فإنى قد **خبأت لك** خبيئاً ، قال الدخ ، الدخ . قال : **أخسأ** فلن تعدو قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان »[3]. فأنت ترى أن الرسول ﷺ سأل هذا الدعىّ ليكشف أمره ويبين للناس حاله .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب الطيرة والفأل ٤/١٧٥١ رقم ٢٢٣٠

(٢) مسند أحمد ٢/٤٢٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٥١

المنجمون :

وصناعة التنجيم التى مضمونها : الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريج بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ طه ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتو نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾ سورة النساء ٥١ قال عمر بن الخطاب : الجبت السحر . (شرح العقيدة **الطحاوية** ٥٦٨)

شبهـــة :

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً والجواب أن صدقهم فى كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير فإذا حدث الأمر فإنه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قيل .

وصدقهم فى الأمور الجزئية إما أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ وإما أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء . ففى الصحيحين ومسند أحمد **عن** عائشة ، قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال (ليسوا بشىء) . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها **الجنى** فيقرها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »[1]

وإذا كانت القضية التى صدق فيها من الأمور التى حدثت كمعرفته بالسارق أو معرفته باسم الشخص الذى يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه **وأسرته** فهذا قد يكون بحيلة ما كالذى يضع شخصاً ليسأل الناس وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه أو يكون هذا من فعل الشياطين وعلم الشياطين بالأمور التى حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب .

الكهنة رسل الشيطان :

يقول ابن القيم (الإغاثة ١/٢٧١) : « الكهنة رسل الشيطان ، لأن المشركين يدعون إليهم ويفزعون إليهم فى أمورهم العظام ويصدقونهم ويتحاكمون إليهم ويرضون بحكمهم كما يفعل أتباع الرسل بالرسل **فإنهم يعتقدون** أنهم يعلمون الغيب ويخبرون عن المغيبات التى لا يعرفها غيرهم فهم عند

---

(١) صحيح البخارى – كتاب الطب – باب الكهانة ١٧٦/٧ وصحيح مسلم – كتاب السلام – باب تحريم الكهانة واتيان الكهان ١٧٥٠/٤ رقم ٢٢٢٨ ومسند أحمد ٨٧/٦

المشركين بهم بمنزلة الرسل فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم إلى ضربة من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين حتى إستجاب لهم حزبه ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ : « من أتى كاهناً ، فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة وأتباع الرسل فلا يجتمع فى العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن الرسول ﷺ بقدر قربه من الكاهن ويكذّب الرسول بقدر تصديقه للكاهن . أقول : ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسول ولكنهم رسل الشيطان فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة فى أقوالهم يحلون ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأمرون بقطيعة الأرحام وانتهاك الأعراض .

واجب الأمة نحو هؤلاء :

ما يدعيه المنجمون والعرافون والسحرة ضلال كبير ومنكر لا يستهان به وعلى الذين أعطاهم الله دينه وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان وعلى الذين فى يدهم السلطة أن يأخذوا على يد هؤلاء الذين يدَّعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربى الرمل والحصى والناظرين فى اليد (والفنجان) وعليهم أن يمنعوا نشر خزعبلاتهم فى الصحف والمجلات وتعاقب من يتظاهر بصناعته وضلالاته فى الطرقات وقد ذم الله بنى إسرائيل لتركهم التناهى عن المنكر : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون** ﴾ .

وفى السنن عن النبى ﷺ برواية الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمّهم الله بعقاب منه)[1].

الجن والأطباق الطائرة :

كثر الحديث فى هذه الأيام عن الأطباق الطائرة فلا يكاد يمر أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً رأوه فى الجو محلقاً أو على الأرض جاثماً أو رأوا مخلوقات مخالفه لشكل الإنسان يخرج منه ووصل الأمر إلى الإدعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبتها إلى الطبق وأجرت فحوصاً عليه .

---

(١) سنن الترمذى – كتاب الفتن – باب ماجاء فى نزول العذاب وإذا لم يغير المنكر ٤٦٧/٤ رقم ٢١٦٨ وسنن أبى داود – كتاب الملاحم – باب الأمر والنهى ٥٠٩/٤ رقم ٤٣٣٨

ولا يدعى هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب بل يزعم ذلك رجال بارزون أمثال رئيسى الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يعتقد أنه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته فى سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣ .

وهو يبدى إهتماماً خاصاً بالمخلوقات الأخرى التى بدأت تغزو الأرض فقد أمضى الرئيس الأمريكى (كما نشرت الصحف) أمسية يناقش أحد العلماء المقتنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد فى الكون وكان يرافق الرئيس كارتر (فرانك برس) مستشاره للشئون العلمية وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومى أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التى تعيش خارج نطاق الأرض وقام بعرض هذه الأفلام (كارل ساجان) مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة (كورنل) الذى ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية فى الأمور المتعلقة بالمخلوقات التى تعيش خارج نطاق كوكب الأرض . (راجع جريدة السياسة الكويتية العدد ٣٣٩٩ - ٧٧/١٢/٥) .

وينسب ملحق الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصينى الأسبق (ماوتسى تونج) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا فى الكواكب الأخرى .

ويذكر كاتب المقال أن حوالى ٦١٪ من الشعب الأمريكى مقتنعون بذلك وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكى شاهدوا هذه الأطباق وبعض هؤلاء استطاع أن يتصل بهم إتصالاً مباشراً .

وقد قام المخرج السينمائى الأمريكى (ستيفن سبيلبرج) بإخراج فيلم سينمائى بعنوان (مواجهة من النوع الثالث) بلغت تكاليفه اثنان وعشرون مليوناً من الدولارات الأمريكية .

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أو اتصلوا بها :

وقد عرض الفيلم لأول مرة فى البيت الأبيض وأن الرئيس الأمريكى أول مشاهديه وبعد خروج هذا الفيلم إقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث فى هذا المجال وخصصت مليون دولار لأبحاث عام سنة ١٩٧٩ وقد أطلقت على المشروع السرى اسم (سيتى) ويتلخص فى إطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجى للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى .

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتى :

١ - لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان إذ تواترت الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف وقد تابعت ما قيل فى هذا الموضوع فترة طويلة فكنت أحد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص بشىء من هذا .

٢ – أن الناس احتاروا فى تفسير حقيقة هذه الأطباق وحقيقة المخلوقات التى تستخدمها خاصة وأن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أى مركبة اخترعها الإنسان .

٣ – أنا أجزم بأن هذه المخلوقات هى من عالم الجن الذى يسكن أرضنا هذه والذى تحدثنا عنه فيما سبق وبينا ما لديه من قدرات وإمكانيات تفوق قدرة البشر ولقد أعطى سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء كما أعطى القدرة على التشكل وهو يستطيع أن يتراءى للإنسان فى صور وإشكال مختلفة .

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق ، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا كى نوجهها وجهة نافعة .

وقد يتساءل بعضنا عن السر فى ظهور هذه الأطباق فى أيامنا هذه وعدم ظهورها فى العصور الخالية فالجواب أن الجن يلبسون لكل عصر لبوسه وهذا العصر عصر التقدم العلمى ولذلك فإنهم يضللون البشر بالطريقة التى تثير انتباههم وتشد نفوسهم والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شىء عن الفضاء الواسع وعن إمكانية وجود مخلوقات فيه غيرهم .

الفصل الخامس

أسلحة المؤمن فى حربه مع الشياطين

أولاً : الحذر والحيطة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بنى آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله فى الإضلال فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التى يصلنا بها تكون **نجاتنا** منه ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه **يأسره** ويوجهه الوجهة التى يريد . وقد صور ابن الجوزى هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور وللسور أبواب وفيه ثلم « الثلمة فى السور الموضوع المتهدم منه » وساكنه العقل والملائكة تتردد على ذلك الحصن وإلى جانبه رَبَض . « الربض المكان الذى يؤوى إليه » فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ألا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو لا يفتر ، قال رجل للحسن البصرى : أنام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان فى الربضين إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة وكمال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل مغاث وربما أقام لغفلة الحراس وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدرى به وربما جرح الحارس لغفلته وأسروا متخداما وأقيم يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه فى الشر (تلبيس إبليس ٤٩) .

ثانيا : الالتزام بالكتاب والسنة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم والشيطان يجاهد كى يخرجنا من هذا الصراط قال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ سورة الأنعام ١٥٣ .

وقد شرح الرسول ﷺ هذه الآية وبينها فقد « خط ﷺ خطاً بيده ثم قال : (هذا سبيل الله مستقيماً) وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » رواه الأمام أحمد والحاكم وصححه[1] .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد فى حرز من الشيطان ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ سورة البقرة ٢٠٨ . والسلم هو الإسلام وقيل : طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذى يدخل فى الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته والذى يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ولذلك كان تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل الله أو الأكل من المحرمات والخبائث . كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التى نهينا عنها ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ سورة البقرة ١٦٨ .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيظه أعظم إغاظة روى مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قرأ ابن

(١) مسند أحمد ٤٦٥/١ والحاكم فى المستدرك - كتاب التفسير ٣١٨/٢

آدم السجدة فسجد أعتزل الشيطان يبكى ، يقول : ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت **بالسجود** فعصيت فلى النار »[١]

ثالثاً : الالتجاء إلى الله والاحتماء به :

خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان فإنه عليه قادر فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ سورة الأعراف ١٩٩/٢٠٠ .

وقد أمر الله رسوله ﷺ **بالاستعاذة** بالله من همزات الشياطين وحضورهم ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ سورة المؤمنون ٩٧/٩٨ . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا **بالاستعاذة** به من العدو الشيطانى لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير فى تفسيره (٢٨/١) « والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجناية من شر كل ذى شر ..، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى : أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم لا يضرنى فى دينى ودنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به أو يحثنى على فعل مانهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه الأذى وأمر **بالاستعاذة** به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه » .

وقد كان ﷺ يكثر من **الاستعاذة** بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح فى الصلاة « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »[٢] روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهى الخنق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان ٨٧/١ رقم ٨١ وسنن ابن ماجه – كتاب الصلاة – باب سجود القرآن ٣٣٤/١ رقم ١٠٥٢ ومسند أحمد ٤٤٣/٢

(٢) سنن الترمذى – كتاب الصلاة – باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة ١٠/٢ رقم ٢٤٢ وسنن أبى داود – كتاب الصلاة – باب مايستفتح به الصلاة من الدعاء ٤٨٦/١ رقم ٧٦٤ وسنن ابن ماجه – كتاب إقامة الصلاة ٢٦٥/١ رقم ٨٠٧ ومسند أحمد ٤٠٣/١

الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث »[(١)] وفى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذه الحشوش **محتضرة** فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث »[(٢)].

الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبى ﷺ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل إلىّ (إلى راوى الحديث) أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هى يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد[(٣)]

وقد علم الرسول ﷺ أحد أصحابه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت ربَّ كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذى بإسناد صحيح[(٤)] (صحيح الجامع ٥٦/٦) .

الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأتى الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه[(٥)] . وإذا

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١١

(٢) مسند أحمد ٣٦٩/٤ وسنن أبى داود – كتاب الطهارة – باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ١٦/١ رقم ٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٧ وسنن أبى داود – كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب ١٤٠/٥ رقم ٤٧٨١ ومسند أحمد

(٤) سنن الترمذى – كتاب الدعوات – ٥٤٢/٥ رقم ٣٥٢٩

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

نزل المرء وادياً أو منزلاً فعليه أن يستعيذ بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيذون بالجن والشياطين فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادى من سفهاء قومه فكانت العاقبة أن أستكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك فى سورة الجن ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ سورة الجن ٦ . أى : الجن زادت الإنس رهقاً أما المسلم فأنظر إلام أرشده الرسول ﷺ حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شرِّ ما خلق لم يضره فى ذلك المنزل شىء حتى يرتحل منه ، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح[(١)] .

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول ﷺ : « إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبرانى فى معجمه الكبير بإسناد صحيح[(٢)] (راجع صحيح الجانع ٢٨٦/٨) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ سورة النحل ٩٨/٩٩ . وقد بين ابن القيم الحكمة فى الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن (إغاثة اللهفان ١٠٩/١) فقال :

١ – إن القرآن شفاء لما فى الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أمره الشيطان فيها فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلى منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجىء هذا الدواء الشافى إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ – ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير فى القلب كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى فى إفساده وإحراقه فأمر أن يستعين

---

(١) سنن ابن ماجة – كتاب الطب – باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه ١١٧٤/٢ رقم ٣٥٤٧
(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٤٥/٨ رقم ٧٣١٢

بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله أن الاستعاذه فى الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفى الوجه الثانى لأجل بقائها وحفظها .

٣ – ومنها أن الملائكة **تدنو** من قارىء القرآن وتستمع لقراءته كما فى حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصابيح فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشيطان ضد الملك وعدوه[1].

فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

٤ – ومنها أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارىء به فأمر عند المشروع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

٥ – ومنها أن القارىء يناجى الله تعالى بكلامه والله أشد أذنا للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء . فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ – ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى : إذ تلا ألقى الشيطان فى تلاوته .. فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ـــ فكيف بغيرهم ولهذا يغلّوا القارىء تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا وربما جمعها له

٧ – ومنها أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول : هكذا كان أبى إبراهيم ﷺ يعوذ إسماعيل واسحق »[2]

(١) مسند أحمد ٨١/٣

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء ١٧٩/٤ والترمذى فى الطب حديث رقم ٢٠٦١ وابن ماجة فى الطب حديث رقم ٣٥٢٥ باب ما عوذ به النبى ﷺ وأحمد فى مسنده ٢٣٦/١

قال أبو بكر بن الأبنارى : « الهامة واحد الهوام ويقال هى كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » (تلبيس إبليس ٤٧) .

خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ رواه النسائى[1].

فقـه عظـيم :

حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ، قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال هذا يطول ، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو **منعك** من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدى وأرده : هذا أو يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك (تلبيس إبليس ٤٨) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوى الذى يطرد الشيطان ويبعده وهذا ما فعلت أم مريم إذا قالت : ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ سورة آل عمران ٣٦ .

شبهــة :

يقول بعض الناس إننا نستعيذ بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس ويحرضنا على الشر ويشغلنا فى صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف فى يد المقاتل فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه فضلاً وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقى ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإن كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر فى العدو تأثيراً قوياً قال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله : (واعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فمرَّ به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه (طرده) لم يبرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان) (تلبيس إبليس ٤٨) فعلى المسلم الذى يريد النجاة من الشيطان **واحابيله** أن يشتغل بتقوية إيمانه والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) سنن النسائى – كتاب الاستعاذة ٢٥١/٨

رابعا - الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجى العبد من الشيطان وسيأتى ذكر الحديث الذى يأمر فيه نبى الله يحيىَ نبى اسرائيل بخمْس خِصال ومن هذه « وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإنّ مثل ذلك مثل رجل خرج العدوّ فى أثره سراعا حتى إذا أتى إلي حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله »[1] يقول ابن القيم فى (الوابل الصيب ص ٦٠) : فلو لم يكن فى الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله - تعالى - وأن لا يزال لهجاً بذكره فانه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله - تعالى - انخس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع (طائر أصغر من العصفور) وكالذباب ولهذا سمى (الوسواس الخناس) أى : يوسوس فى الصدور فإذا ذكر الله خنس . أى : كف وانقبض وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فاذا ذكر الله - تعالى - خنس .

ويقول ابن القيم (ص ١٤٤) : « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه الا بذكر الله - عز وجل - » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وكنا فى صفة بالمدينة فقام علينا وقال : إنى رأيت البارحة عجباً : رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بُره بوالديه فردَّ ملك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشه الشياطين فجاءه ذكر الله - عز وجل - فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمّتى يلتهب - وفى رواية : يلهث - عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوساً حِلَقاً حِلَقاً كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلاً من أمتى بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجّته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ورأيت رجلاً من أمتى يتقى بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت ستره بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المسلمين ، أنه كان وصولا لرحمه فكلموه ، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد أحتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله فى ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتى جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله - عز وجل - حجاب ، فجاءه حَسنُ خُلُقه ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله - عز وجل -

(١) سنن الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٧/٥ رقم ٤٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله ـ عز وجل ـ فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتى خفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه (جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال) فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه فى الله ـ عز وجل ـ فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى قد أهوى فى النار ، فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله ـ عز وجل ـ فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السَّعفة فى ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله ـ عز وجل ـ فسكَّن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحيانا ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة »[1] رواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب « الترغيب فى الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المروية ، وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب ، عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبله ، وكان شيخ الاسلام ابن تيميه ـ قدس الله روحه ـ يعظمٌ شأن هذا الحديث ، وبلغنى عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه والمقصود منه قوله ﷺ : ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله ـ عز وجل ـ فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعرى ، وقوله فيه : « وآمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا فى طلبه سراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه الا بذكر الله ـ عز وجل ـ وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال ـ يعنى إذا خرج من بيته ـ بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كُفِيتَ وهُديتَ ووُقِيتَ ، وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووقى » ؟ رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن[2] .

وصح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسى »[3] وذكر سفيان عن أبى الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت وإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : حفظت ، فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كفى وهدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصرى : من دخل فى الاسلام ، دخل فى حصن ، ومن دخل المسجد فقد دخل فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى نوادر الأصول .

(٢) سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب ما يقول إذا خرج من بيته ٥/٣٢٧ رقم ٥٠٩٥ ، وسنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب ما يقوله إذا خرج من بيته ٥/٤٩٠ رقم ٣٤٢٦

(٣) مجمع الزوائد ١٠/١٢١

حصنين ، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل فى ثلاثة حصون ، وقد روى الحافظ أبو موسى فى كتابه من حديث أبى عمران الجونى ، عن أنس ، عن النبى - ﷺ - قال : إذا وضع العبد جنبه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أمِنَ من شر الجن والانس ومن كل شىء » ذكره السيوطى فى « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمى . قال الهيثمى فى « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (محقق الوابل الصيب) . وفى « صحيح البخارى » عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - زكاة رمضان أن احتفظ بها ، فأتانى آت ، فجعل يحثو الطعام فأخذته ، فقال : دعنى فإنى لا أعود . . فذكر الحديث ، وقال : فقال فى الثالثة : أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها ، فانه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبى - ﷺ - بقوله ، فقال : « صدقك وهو كذوب »[(1)] وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : أختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعنى النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد موتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »[(2)] .

وفى « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبى الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - « أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً »[(3)] . وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن على قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : **آية الكرسى وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض . . ﴾** الاعراف (٥٤ - ٥٦) ، وعشراً من الصافات (١ - ١٠) ، وثلاث آيات من الرحمن **﴿ يا معشر الجن والانس . . ﴾** (الرحمن : ٣٣ - ٣٤) وخاتمة سورة الحشر : **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾** (الحشر : ٢١ - ٢٤) . وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلى فى المسجد ، إذا هو بشىء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك منى بأس إنما جئتك فى الله تعالى ، ائت عروة فسله : ما الذى يتعوذه ؟ - يعنى من إبليس الأباليس - قال : قُلْ آمنتُ بالله العظيم وحده ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمتُ بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب فضائل القران - باب فضل البقرة ٦/٢٣٢

(٢) مسند أبى يعلى الموصلى - سند جابر ٣/٣٢٦ رقم ١٧٩١ ومجمع الزوائد ١٠/١٢٠ وابن السنى فى عمل اليوم والليلة رقم ١٢ والحاكم فى المستدرك ١/٥٤٨

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجل إلى الجبانه بعد ساعة من الليل ، قال : فسمعتُ حِسًّا - أو صوتا - شديداً ، وجيء بسرير حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت اليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لى بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله - عز وجل - من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه ، قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص اليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحت ، قلت لأهلى : جهزونى ، فأتيتُ المدينة ، فسألت عنه حتى دُلِلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرنى ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدرى ، غير أنى أقول إذا أصبحت : آمنتُ بالله العظيم ، وكفرتُ بالجبْتِ والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التى لا أنفصام لها ، والله سميع عليم . إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات . وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبى ﷺ : إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن »[1] . وقد ثبت فى « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان . قال سهيل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثه ومعى غلام - أو صاحب لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذى معى على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبى ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، لكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصٌ » وفى رواية : « إذا سمع النداء وَلَّى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . » الحديث[2] . وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله - ﷺ - « استكثروا من لا اله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهمُ بالذنوب ، وأهلكونى بقول : لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم ، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »[3] .

وذكر أيضا عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذْ مرَّ برجل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا اليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع فقال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرنى على أى آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم

---

(١) عمل اليوم والليلة لابن السنى رقم ٦٣٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩٧/١ رقم ١٨

(٣) مسند أبى يعلى الموصلى عن أنس بن مالك .

استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمرَ والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك الله رب العالمين ﴾ (الأعراف : ٥٤) وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى فى دارى . . فقيل : يا أبا النضر تحوَّل عن جوارنا ، قال : فاشتد ذلك علىَّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ، وأبى أسامة ، فكتب إلىَّ المحاربى : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها فنزل بهم ركب ، فشكوا ذلك إليهم ، فدعوا بدلو من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام فصبوه فى البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت توراً من ماء ، ثم تكلّمت فيها بهذا الكلام ، ثم تتبعت به زوايا الدار ، فرششته ، فصاحوا بى : أحرقتنا ، نحن نتحول عنك ، وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذى ليس منه شىء ممتنع ، وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الانس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شركل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما أستعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذى وفى ، من شر ما خلق ،ذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغى ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، **بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والصافات صفا ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكرا ، إن الهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾** (الصافات : ١ ـ ١٠) . فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى . وأحب أن أختم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله فى كل أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الامام أحمد تميمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبى ﷺ حماره ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبى ﷺ : « **لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوتى صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب** » قال ابن كثير فى (البداية ٦٥/١) تفرد به أحمد وإسناده جيد[1] .

خامسا ـ لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع فى أحابيل الشيطان أن يعيش فى ديار الاسلام ويختار لنفسه الفئة الصالحة التى تعينه على الحق وتحضه عليه ، وتنهاه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن فى الاتحاد والتجمع قوة وأى قوة ، يقول الرسول ﷺ : « **من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد** » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث

---

(١) مسند أحمد ٥٩/٥

صحيح وله طرق ،[١] والجماعة جماعة المسلمين ، وامام المسلمين ولا قيمة للجماعة فى الاسلام ما لم تلتزم الحق : الكتاب والسنة ، ففى الحديث : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، الا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما أكل الذئب من الغنم القاصية » إسناده حسن . رواه أبو داود والنسائى وغيرهما[٢] وروى أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان أنه قام فقال ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون فى النار ، وواحده فى الجنة وهى الجماعة » . رواه أبو داود بإسناد جيد[٣] .

سادسا - كشف مخططات الشيطان ومصائده :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله فى الإضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول - ﷺ - خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذى أغوى الشيطان به آدم . والرسول - ﷺ - كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقى بالكلمة التى سمع فى أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين لهم ذلك كى لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم فى صلاتهم وعبادتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

سابعا - مخالفة الشيطان :

يأتى الشيطان فى صورة ناصح حريص على الانسان ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك فى النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس : (إذا أتاك الشيطان وأنت تصلى فقال إنك ترائى فزدها طولا) (تلبيس إبليس ٣٨) وهذا فقه منه رحمه الله وإذا علمنا أن امرأ ما يحبه الشيطان ويتصف به فعلينا أن نخالفه ، فمثلا الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول - ﷺ - (ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فان الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطى بشماله ، ويأخذ بشماله) رواه ابن ماجه باسناد صحيح[٤] (صحيح الجامع ٥/٨٧) .

---

(١) سنن الترمذى - كتاب الفتن - باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/٤٦٥ رقم ٢١٦٥

(٢) سنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب التشديد فى ترك الجماعة ١/٣٧٧ رقم ٥٤٧ وسنن النسائى كتاب الصلاة - باب التشديد فى ترك الجماعة ٢/١٠٦ .

(٣) سنن أبى داود - كتاب السنة - باب شرح السنة ٥/٥ رقم ٤٥٩٧

(٤) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الأكل باليمين ٢/١٠٧ رقم ٣٢٦٦

والشيطان يشاركنا فى الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس . ورغبنا الرسول - ﷺ - فى القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقبل (قيلوا فان الشياطين لا تقبل) رواه أبو نعيم فى الطب بإسناد حسن (صحيح الجامع ١٤٧/٤)

وحذرنا القرآن من الاسراف وقد عدّ المبذرين اخوان الشياطين ، وما ذلك الا لأن الشياطين تحب اضاعة المال وانفاقه فى غير وجهه . ومن الاسراف الاكثار من الأثاث والفراش الذى لا لزوم له ، يقول - ﷺ - (فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان) رواه مسلم وأبو داود والنسائى[٢] باسناد صحيح (صحيح الجامع ٨/٤) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول - ﷺ - بإن نميط الأذى عن اللقمة التى تسقط من أحدنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول - ﷺ - « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شىء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا اسقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه ، فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة » رواه مسلم فى صحيحه (صحيح الجامع) ٧٥/٢) .

مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيل والحمير فى القديم ، والسيارات وأمثالها فى الحديث جعلت لمنفعة بنى الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرَّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه ان يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففى الحديث « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشياطين ، فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنيبات معه قد اسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح [٣] .

ولعل بيوت الشياطين المعنية فى الحديث هى هذه السيارات التى يمر أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونهم ، وهذه الخيول والدواب التى يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين ، ويقول الرسول - ﷺ - « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن . فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله فى ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الانسان فالفرس يرتبطها الانسان يلتمس بطنها فهى ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح[٤] (صحيح الجامع) ١٣٧/٣) .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة - باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس ١٦٥١/٣ رقم ٤١ وسنن أبو داود - كتاب اللباس - باب فى الفرش ٣٧٩/٤ رقم ٢١٤٢ وسنن النسائى - كتاب النكاح - باب الفرش ١٣٥/٦

صحيح مسلم - كتاب الاشربة - باب استحباب لعق الأصابع ١٦٠٧/٣ رقم ١٣٥

(٣) سنن أبى داود - كتاب الجهاد - باب فى الجنائب ٦٠/٣ رقم ٢٥٦٨

(٤) مسند أحمد ٦٩/٤

العجلة من الشيطان :

من الصفات التى يحبها الشيطان العجلة لما توقع الانسان به من أخطاء ، يقول الرسول - ﷺ - « التأنى من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقى فى شعب الايمان بإسناد حسن (صحيح الجامع[١] ٥٧/٣) فعلينا أن نخالف الشيطان فى ذلك ونتبع ما يرضى الرحمن ، ولذلك قال الرسول ﷺ لأحد أصحابه « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

التثاؤب :

ومما يحبه الشيطان من الإنسان التثاؤب ولذا أمرنا الرسول - ﷺ : بكظمة ما أستطعنا ، يقول - ﷺ - : « التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ، ضحك منه الشيطان » متفق عليه ، ذلك لأن التثاؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره ، إذ بذلك يقل عمله وبذله الذى يرفعه عند ربه .

ثامنا - التوبة والأستغفار :

ومما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب عباد الله الصالحين ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠١) وقد فسر الطائف أو الهم بالذنب أو اصابة الذنب ، وقوله : ﴿ تذكروا ﴾ أى عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب . ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل الانسان فى عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة وما يغشى به القلب من الشبهات والشكوك . وأخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه (صحيح الجامع ٧٢/٢) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والانابة إلى الله ولهم فى ذلك أسوة فى أبيهم آدم ، فإنه لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (سورة الأعراف : ٢٣) أما أولياء الشيطان فقد قال الله فيهم : ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠٢) والمراد

---

(١) البيهقى فى شعب الايمان وأبويعلى الموصلى من حديث أنس ، والترمذى من حديث سهل رقم ٢٠١٢ كتاب البر والصلة . صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب الأمر بأن الايمان بالله ورسوله وشرائع الدين ٤٨/١ رقم ٢٥
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٨٥

(٢) مسند أحمد ٢٩/٣ والمستدرك للحاكم - كتاب التوبة والانابة ٢٦١/٤

بإخوانهم هنا : إخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (سورة الاسراء : ٢٧) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم فى الغىّ : أى : بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصى بلا كلل ولا ملل . كقوله : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ (سورة مريم : ٨٣) .

تاسعا ـ أزِل اللبس والغموض الذى يدخل الشيطان منه إلى النفوس :

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة فى صدور المسلمين ، ولك أسوة فى رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذا ، روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبى ـ ﷺ ـ قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب ، فقام معى لَيْقلبنى (ليردنى إلى منزلى) وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ـ فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ـ ﷺ ـ أسرعا ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًّا أو قال شيئا »[1] قال الخطابى : « وفى هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى فى هذا عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « خاف النبى ـ ﷺ ـ أن يقع فى قلوبهما شىء من أمر فيكفرا ، وإنما قاله ـ ﷺ ـ شفقة منه عليهما لا على نفسه » (تلبيس إبليس : ٤٦) ومما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين أخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ (سورة الاسراء : ٥٣) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذى يحتمل وجوها عدة بعضها سىء ، وقد يرمى أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها ويناديه بألقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداء محل الوفاق والألفة .

علاج الصرع

إن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

أسباب الصرع :

بين ابن تيمية (المجموع ٣٩/١٩) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٠٤

يتفق للإنس مع الإنس . . ، وقد يكون - وهو الأكثر - عن بغض ومجازاة مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون اذاهم إما ببول على بعضهم ، وإما بصب ماء حار ، وإما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفى الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشر يمثل سفهاء الإنس » .

واجبنا تجاه هؤلاء :

إن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجن الذى يصرع الانسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجن للإنس من الباب الأول (عن شهوة وهوى) فهو من الفواحش التى حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فانه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ، ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذى أرسله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن .

وما كان من الثانى (إيذاء بعض الإنس لهم) فإذا كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك فى داره وملكه عرفوا بان الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا فى ملك الإنس بغير إذنهم ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخراب والفلوات .

ويقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٢/١٩) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ، لأن الله يقول : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ (سورة الاسراء : ١٥) وقال : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ ؟ (سورة الانعام : ١٣٠) .

النهى عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبى - ﷺ - عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثا ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص التى تبين السبب الذى من أجله نهى عن قتل حيات البيوت فقال : (وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم فى كل حال ، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ (سورة المائدة : ٨) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنا فتؤذن ثلاثا ، فإن ذهبت وإلا قتلت فإنها إن كانت حية قتلت ، وان كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس فى صورة حية تفزعهم بذلك ، والعادى هو الصائل الذى يجوز دفعه بما يدفع حذره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز » .

سب الجان وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصّرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجنى بالأمر والنهى والبيان ، فإنه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول - ﷺ - مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه فى وجه الرسول - ﷺ - فقال عليه السلام : « أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله - ثلاثا » .

وذكر أنه قد يحتاج فى إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جداً ، والضرب إنما يقع على الجنى ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئا من ذلك ، ولا يؤثر فى بدنه ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة أو أكثر أو أقل ، بحيث لو كان على الإنس لقتله ، وإنما هو على الجنى ، والجنى يصيح ويصرخ ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة ، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها .

الاستعانة على الجان بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجنى الذى يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن ، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسى ، « فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » كما صح الحديث بذلك وهو فى صحيح البخارى (١) .

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩/ ٥٥) : « ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير فى دفع الشياطين وابطال أحوالهم ما لاينضبط من كثرته وقوته ، فإن لها تأثيرا عظيما فى دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعمن تعينه الشياطين ، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب ، وأرباب سماع المكاء والتصدية ، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التى يخيلها الشيطان ، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطانى ، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هى من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين » .

طرد الرسول - ﷺ - للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول - ﷺ - أكثر من مرة ، ففى مسند أبى داود الطيالسى ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدى ، عن أبيها أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فانطلق معه بابن له مجنون ، أو ابن أخت له - قال جدى : فلما قدمنا على رسول الله - ﷺ - قلت : ان معى ابناً أو ابن أخت لى - مجنون ، أتيتك به تدعو الله له ، قال : (ائتنى به) قال : فانطلقت به اليه وهو

---

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ٤/ ١٤٩

فى الركاب ، فأطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبى - ﷺ - فقال : « أدنه منى ، أجعل ظهره مما يلينى » قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض ابطيه ويقول : « اخرج عدو الله ، أخرج عدو الله » فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله - ﷺ -بين يديه، فدعا له بماء فمسح وجهه فدعا له . فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله - ﷺ - يفضل عليه[1] وفى المسند أيضا عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله - ﷺ - ثلاثا ما رآها أحد قبلى ، ولا يراها أحد بعدى ، لقد خرجت معه فى سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبى لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبى أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ فى اليوم لا أدرى كم مرة ، قال : « ناولينيه » فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرحل ، ثم فغر « فاه » ، فنفث فيه ثلاثا ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثم ناولها إياه ، فقال : « القينا فى الرجعة فى هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها فى ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك » فقالت : والذى بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئا حتى الساعة فاجترر هذه الغنم ، قال « أنزل خذ منها واحدة ورد البقية »[2] .

فقد أخرج الرسول - ﷺ - الجنى بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفى وحدها ، فإن لقوة الايمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير فى هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

الإمام أحمد يأمر الجنى بالخروج فيستجيب :

روى أن الإمام أحمد كان جالساً فى مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن فى بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلنى اليك لتدعو الله لها بالعافية : فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ، وقال : أذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجنى : قال لك أحمد : أيما أحبُّ اليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟ فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية وجلس عند رأسها وقال كما قال له الامام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شىء . ثم خرج من الجارية فهدأت ورزقت أولاداً . فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : أخرج والا ضربتك بهذه النعل . فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

ما ينبغى أن يكون عليه المعالج :

وينبغى للمعالج أن يكون قوى الايمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوى إيمانه وتوكله قوى تأثيره ، فربما كان أقوى من الجنى فأخرجه . وربما كان الجنى أقوى فلا يخرج ،

---

(١) أبو داود الطيالسى ومسند أحمد
(٢) مسند أحمد ١٧٠/٤

وربما كان المخرج للجنى ضعيفاً فتقصد الجن ايذاءه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله ، وقراءة القرآن خاصة آية الكرسى .

الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٧٧) « وأما معالجة المصروع بالرقى والتعويذات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز فى دين الاسلام أن يتكلم به الرجل ، داعيا الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فانه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى - ﷺ - « أنه أذن فى الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل »[1] .

وإن كان فى ذلك كلمات محرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أو كانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وان كان الجنى قد ينصرف عن المصروع بها ، فإن ما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ، وذكر فى موضوع آخر (مجموع الفتاوى ١٩/ ٤٦) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجنى ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجنى الصارع للإنس أو حبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخييلاً وكذباً .

استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجن الذى يصرع الانسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله ، وروى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوى بالحرام ، وهذا خطأ كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء فى شىء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوى بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجنى ، لأن التداوى بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أما التداوى بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء فى تحريمه ، ولا يجوز التداوى به باتفاق .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب استحباب الرقية من العين ٤/ ١٧٢٦ رقم ٦١

حقيقة الصراع

فى ختام هذا الفصل أحب أن أثبت فصلا هاماً من كلام ابن القيم صور فيه رحمه الله حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه (الوابل الصيب ٢١/) : « اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلا للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » ثم يقول ابن القيم ما نصه : « فهو أى الشيطان » يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذى يريد هلاكه ، فأرسل اليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله ـ عز وجل ـ والمحفوظ من حفظه الله ـ تعالى ـ وجعل له مقابل نفسه الأمّارة نفساً مطمئناً ، إذا أمرته النفس الامارة بالسوء ، نهته النفس المطمئنة ، وإذا نهته الامارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم وجه إبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق ان سرت خلف هذا الدليل . فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التى قطعت عليه ، وأخذ فيها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه ، يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه ، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى جصن شئت منها ، ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم ، وقد أرسل اليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدو ، وأطلقت فى دار الكرامة تنقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيسر من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتهت نفسك ، وقرَّت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . فان ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله ـ عز وجل ـ ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٥) وقوله عز وجل : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها** ﴾ (سورة النازعات : ٤٦) وقوله عز وجل : ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم إلا يوما** ﴾ (سورة طه : ١٠٢ ـ ١٠٤) وخطب النبى ـ ﷺ ـ أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه) رواه أحمد فى المسند ، والترمذى فى سننه وقال الترمذى حديث حسن صحيح[1] فليتأمل العاقل للناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أى شى حصل له من هذا ، الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه فى غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئا ، ولو طلب الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه ، كما فى بعض الآثار : ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وان بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته أنتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله ـ عز وجل ـ فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقى عبد أخرجه الله ـ عز وجل ـ من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله ـ تعالى ـ واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيِّعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

والمقصود أن الله ـ عز وجل ـ قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يَفْتَكُّ نفسه إذا أسر . وقد روى الامام أحمد ـ رضى الله عنه ـ والترمذى من حديث الحارس الأشعرى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر يحيى

---

(١) مسند أحمد ١٣٣/٢ وسنن الترمذى ـ كتاب الفتن ٤٨٣/٤ رقم ٢١٩١

بن زكريا - ﷺ - بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال له عيسى - عليه السلام - أن الله - تعالى - أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى وأعذب ، فجمع يحيى الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله - تبارك وتعالى - أمرنى بخمس كلمات أن أعملهن ، وآمركم أن تعملوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التى أمرهم بها الذكر (وآمركم أن تذكروا الله - تعالى - فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله - تعالى -) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح [1] ومما أمرهم به فى الحديث الصلاة : (وآمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت » الالتفات المنهى عنه فى الصلاة قسمان : أحدهما : التفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غير الله - تعالى - والثانى : التفات البصر . وكلاهما منهى عنه . ولا يزال الله مقبلا على عبده مادام العبد مقبلا على صلاته ، فاذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله - تعالى - عنه . وقد سئل رسول الله - ﷺ - عن التفات الرجل فى صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . وفى أثره : يقول الله - تعالى - : « إلى خير منى ، إلى خير منى » ؟ ومثل من يلتفت فى صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو فى خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب فى حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلى لا يستوى والحاضر القلب المقبل على الله تعالى فى صلاته الذى قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان فى الصلاة الواحدة ، وان ما بينهما فى الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله - عز وجل - ، والآخر ساه غافل . فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالا ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك اقبالا وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام فى الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام فى أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان ، وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويمّنيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها ويتركها . فإن عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام فى ذلك المقام ، أقبل عدو الله - تعالى - حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ،

---

(١) مسند أحمد ١٣٠/٤ وسنن الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٢٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

فيذكره فى الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسى الشىء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكرها إياها فى الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله - عز وجل - فيقوم بها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله ، - تعالى - وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه - عز وجل - الحاضر بقلبه فى صلاته ، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه ، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفرْ سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدى الله - تعالى - بقلبه وقالبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحة فى الدنيا ، فلا يزال كأنه فى سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم : « يا بلال أرحنا بالصلاة » ولم يقل : أرحنا منها ، وقال - ﷺ - « جعلت قرة عينى فى الصلاة » فمن جعلت قرة عينه فى الصلاة ، كيف تقر عينه - ﷺ - بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

وقد روى أن العبد إذا قام يصلى قال الله - عز وجل - : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوها ، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها فى صورة المرآة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله - تعالى - وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله - تعالى - وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن التفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه فى الصلاة .

كيف يجعل المصلى قلبه حاضراً فى الصلاة ؟

وإنما يقوى العبد على حضوره فى الصلاة واشتغاله فيها بربه - عز وجل - إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار ؟ والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الايمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من القاء الوساوس إليه ، لأنه قد أتخذه بيتا ووطنا ، وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثانى : قلب قد استنار بنور الايمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال . وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالايمان قد استنار بنور الايمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلنوره فى صدره إشراق ، ولذلك الاشراق ايقاد لو دنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التى حرست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله - تعالى - له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ، ومستقر

الوحى ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والايمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئا الا خطفه ، وقد مثل ذلك بمثال حسن .

وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شىء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيها يسرق ؟

فإن قلت : من البيت الخالى ، كان محالا ، لأن البيت الخالى ليس فيه شىء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ان اليهود تزعم أنها لا توسوس فى صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وان قلت يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزك « يزك ويسك (بالتركية) : بمعنى المنع والخطر والزجر » مالا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذى يشن عليه الغارات . فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فإنها على منواله .

فقلب خلاصة الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقرا ، فأى شىء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه .

وقلب قد امتلأ من جلال الله ـ عز وجل ـ وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأى شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شىء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر فى الأحايين منه بخطفه ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لابد منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال : فى بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تسعنى ، وأى شىء يسعنى والسموات حشو كرسىٍّ ؟ ولكن أنا فى قلب الوارع التارك لكل شىء سواى » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتنى سمواتى ولا أرضى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » وقلب فيه توحيد ـ الله تعالى ـ ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله ـ تعالى ـ وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازلات ووقائع ، ويعطى الله النصر من يشاء « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (سورة آل عمران/ ١٢٦) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد

سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هى الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة ، وهى فى القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم

فنفسك لُمْ ولا تَلُم المطايا ومُت كمدا فليس لك اعتذارُ

الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآلام ، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوى والأخروى ، ورافع الراية فى كل وقت ومكان ، يدعو الناس إلى الكفران ، ومعصية الرحمن فهل فى خلقه من حكمة ؟ وما هذه الحكمة ؟

أجاب عن هذا السؤال ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى كتابه (شفاء العليل ص ٣٢٢) فقال : (فى خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله)

١ - ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية :

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته فى الله ، وإغاظته وإغاظة أوليائه ، والاستعاذة به منه ، واللجوء إليه أن يعيذهم من شره وكيده ، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه . . . والموقوف على الشىء لا يحصل بدونه

٢ - خوف العباد من الذنوب :

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى ، وخضوع آخر ، وخوف آخر ، كما هو حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التى بلغت منه كل مبلغ ، وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

٣ - جعله الله عبرة لمن اعتبر :

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره ، وتكبَّر عن طاعته ، وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبى البشر عبرة لمن ارتكب نهيه ، أو عصى أمره ، ثم تاب وندم ، ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوى الجن والإنس بالذنب ، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر واقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربِّه فلله كم فى ضمن ذلك من الحكم الباهرة ، والآيات الظاهرة .

٤ - جعله فتنة واختباراً لعباده :

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ، ليتبين به خبيثهم من طيبهم ، فإنه سبحانه خلق النوع الإنسانى من الأرض ، وفيها السهل والحزن ، والطيب والخبيث ، فلابد أن يظهر ما كان فى مادتهم ، كما فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك[1] ، فما كان فى المادة الأصلية فهو كائن فى

(١) سنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن - باب من سورة البقرة ٢٠٤/٥ رقم ٢٩٥٥

المخلوق منها ، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره ، فلابد إذاً من سبب يظهر ذلك ، وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز ، قال تعالى : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ (سورة آل عمران/ ١٧٩) فأرسل رسله إلى المكلفين ، وفيهم الطيب والخبيث ، فإنضاف الطيب إلى الطيب ، والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم فى دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم ، وجعل لهؤلاء داراً ولهؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة وقدرة باهرة .

٥ - إظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد :

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته فى خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار ، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث .

٦ - الضد يظهر حسنه الضد :

ومن هذه الحكم أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده ، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى .

٧ - والابتلاء به سبيل إلى تحقيق الشكر :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه ، يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده ، وامتحانهم به من أنواع شكره مالم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو فى الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

٨ - فى خلق إبليس قيام سوق العبودية :

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها - أحب العبودية إلى الله سبحانه ، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله ، وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان فى خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التى لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

٩ - وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن فى خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجود أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كظهور آية الطوفان ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وإلقاء الخليل فى النار ، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته ، وبراهين قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، فلم يكن بُدٌّ من وجود الأسباب التى يترتب عليها ذلك .

١٠ - الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد ، وفيها الإشراق والإضاءة والنور ،

فأخرج منها ـ سبحانه ـ هذا وهذا ، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، والأحمر والأسود والأبيض ، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، وآية داله على أنه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1]

١١ ـ ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامها ، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولابد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

١٢ ـ ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك ، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال ، فلابد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

١٣ ـ وجود إبليس من تمام حكمته تعالى :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم ، والحكمة من صفاته ـ سبحانه ـ وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذى لا يليق به سواه ، فاقتضت خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

١٤ ـ حمده تعالى على منعه وخفضه :

ومنها أن حمده ـ سبحانه ـ تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه ورفعه وانتقامه وإهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه ، فله فى خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كما له عليه الحمد التام ، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

١٥ ـ وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره .

ومنها أنه ـ سبحانه ـ يجب أن يظهر لعباده حلمه ، وصبره ، وآفاته ، وسعة رحمته ، وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ، ويضاده فى حكمه ، ويجتهد فى مخالفته ، ويسعى فى مساخطه ، بل يشبهه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ويعافيه ، ويمكن له من أسباب ما يلتزمه من أصناف النعم ، ويحبب دعاءه ، ويكشف عنه السوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفر وشركه وإساءته فلله كم فى ذلك من حكمة وحمد .

ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته ، كما فى الصحيح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : لا أحد أصبر

على أذى يسمعه من الله ، يجعلون له الولد وهو يرزقهم[1] وفي الصحيح عنه - ﷺ - فيما يروى عن ربه : (شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك ، أمَّا كذبه إياى ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفؤاً أحد ، وأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس بأول الخلق باهون عليه من إعادته[2] ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب له يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ، ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به فى جميع الأحوال ، ويؤهله لارسال رسله ، ويأمرهم أن يلينوا له القول ، ويرفقوا به ، قال الفضيل بن عياض : (ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جل جلاله - من أعظم منى جوداً ، الخلائق لى عاصون ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسىء .

من ذا الذى دعانى فلم ألبه ؟ ومن ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أنا الجواد ، ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أنى أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه مالم يسألنى ، ومن كرمى انى اعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى يهرب الخلق ، وأين عن بابى ينتحى العاصون ؟

وفى أثر إلهى : « إنى والأنس والجن فى نبأ عظيم : اخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى »[3]

وفى أثر حسن : ابن آدم ما أنصفتنى : خيرى إليك نازل ، وشرُّك إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح) وفى الحديث الصحيح (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)[4]

خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها :

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها ، فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله ، بل يكون يحب أمانه وامهاله ، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته .

ولمحبته للجوء والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان ، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجرى على أيديهم أنواع المعاصى والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة والنعم

---

(١) سورة الشورى آية : ١١

(٢) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله ٤/٢١٦٠ رقم ٤٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الإخلاص

(٤) الديلمى فى مسند الفردوس ٣/١٦٦ رقم ٤٤٣٩ والترمذى فى نوادر الأصول

(٥) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب والاستغفار توبة ٤/٢١٠٦ رقم ١١

السابقة الذى وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، ولى فى كل شىء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات .

وبعد : فقد ترتب على خلق هذا اللعين حكم كثيرة وحصلت محبوبات لله وافرة :

فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه ، والحكيم الباهر الحكمة ـ هو الذى يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا إلى حصول ذلك المحبوب . ووجود الملزوم بدون لازمة محال ، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ، ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ، ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته ، وأحبُّ شىء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك قد جعلت خدى أرضاً ... للشامت والحسود حتى ترضى

ومن أثر إلهى (بغيتى ما يتحمل المتحملون من أجلى) فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه ، وفى مرضاته ، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحمدهم لعاقبته ، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به ، ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب

قل للعيون العمى للشمس أعين ... سواك يراها فى مغيب ومطلع

وسامح بؤساً لم يؤهل لحبهم ... فما يحسن التخصيص فى كل موضع

فإن إ أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب ، وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه إذا وجدها فى المفاوت المهلكات ، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو اللعين فقد سرّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه وهذا الرضاء أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب . وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له .

وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله ـ ﷺ ـ من حرمه وبلدته ذلك الخروج ، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله اليها ذلك الدخول .

وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحبابه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألذّ فى قربه وجواره .

وإن أسخطه معاصى عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التى حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصى وفوات هذه المحبوبات .

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله ؟ فهو عقد نظام الخلق والأمر ؟ والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة فى كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده ... فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيما ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته ، وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها ، فإن ذلك يستلزم النقص الذى يناقض كماله وكبريائه وعظمته .

لأنه يحب سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه :

وفى هذا يقول ابن القيم : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطى ويمنح ، فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندى فى ممدوحه .

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ولو قال ذلك فى ربِّه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم فى غير موضع من كتابه ، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم به ، فيالها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره فى أعدائه وخصمائه

وما منها إلا له فيه حكمه يقصر عن إدراكها كل باحث

الحكمة فى بقاء إبليس إلى آخر الدهر :

أجاب ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن ذلك فى (شفاء العليل ص ٣٢٧) ووضحه

امتحان العباد :

فمما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ أنه سبحانه جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه ، ولذا اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه ولو أماته لفات ذلك الغرض ، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار فى الأرض إلى آخر الدهر ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة فى إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبى البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به ، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه ، وينحاز إليه من وافقه ووالاه .

وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق :

ومنها أنه كلمه وحكمته أنه لا نصيب له فى الآخرة وقد سبق له طاعة وعباده جزاه بها فى الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها ، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته فى

الدنيا وفى الآخرة ، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل فى الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شىء كما ثبت هذا المعنى فى الصحيح عن النبى - ﷺ - .

أملى له ليزداد إثماً :

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامه فى حقه ، فإنه لو مات كان خيراً له وأخف لعذابه وأقل لشرِّه ، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغى التسليم لحكمه والقدح فى حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى فى الدنيا وأملى له ليزداد هذا إثما على إثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التى لا تصلح لغيره ، فيكون رأس أهل الشر فى العقوبة كما كان رأسهم فى الشر والكفر . ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ جوزى فى النار مثل فعله ، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثم يسرى منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمه بالغة .

أبقاه ليتولى المجرمين :

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنه قال فى مخاصمته لربه ﴿ **أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا** ﴾ (سورة الإسراء/٦٢) وعلم الله - سبحانه - أن فى الذرية من لا يصلح لمساكنته فى داره ، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له ، وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس فى انتظارهم وكلما مرَّ بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لى ما ملكتك منه فإنى أتولى الصالحين ، وهم الذين يصلحون لى وأنت ولى المجرمين من الذين غنوا عن موالاتى وابتغاء مرضاتى ، قال تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ (سورة النحل/٩٩ - ١٠٠) فأمّا إماتة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوانهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليحيى الرسل بعدهم ، يرى رسولا بعد رسول ، فإماتتهم اصلح لهم وللأمة ، أمّا هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى فى أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء فى الدنيا واللحاق به ، وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم فى حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم فى حياتهم وإن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم ، والله هو الحى الذى لا يموت ، فكم فى إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة ، . هذا وهم بشر ولم يخلق الله البشر فى الدنيا على خلقه قابلة للدوام بل جعلهم خلائف فى الأرض يخلف بعضهم بعضاً فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة فى جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض ، فالموت كمال لكل مؤمن ولولا الموت لما طاب العيش فى الدنيا ولا هناء لأهلها بها ، فالحكمة فى الموت كالحكمة فى الحياة .

إلى أى مدى نجح الشيطان فى إهلاك بنى آدم ؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله من رحمته وجنته وغضب عليه ولعنه ، أخذ على نفسه العهد أمام ربِّ العزة بأن يضلنا ويغوينا ، ويعبدنا لنفسه ﴿ **لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم . . .** ﴾ (سورة النساء/ ١١٨ - ١١٩) .

﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ (سورة الإسراء/٦٢)

فإلى أى مدى حقق الشيطان مراده من بنى الإنسان ؟

إن المسّرح نظره فى تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس وكيف كذبوا الرسل والكتب وكفروا بالله ربهم وأشركوا به مخلوقاته كما قال تعالى : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ (سورة يوسف/١٠٣) ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه ﴿ **ثمَّ أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون** ﴾ (سورة المؤمنون/٤٤) وفى الحاضر حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة ، يرفعون رايته وينادون بمبادئه ، ويعذبون أولياء الله ، ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار ، فلما يستفسر عن مقدار هذا البعث يقول له : تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، وفى رواية تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة .

وبذلك يصدق ظنه فى هذه الذرية التى لم تعتبر بما جرى لأبيها ، ولا بما جرى لأسلافها ، ويبقى هذا اللعين يقودها إلى هلاكها ، بل أحيانا تسابقه إلى الجحيم ، وما أقبح أن يصدق ظن العدو فى عدوه ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين** ﴾ (سورة سبأ/ ٢٠) قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه ظن الشيطان فيطيع هذا العدو ويعصى ربه الرحمن ، ولقد بلغ الأمر حداً لا يوصف ولا يتصور ، فهذه طائفة فى العراق وفى جهات أخرى تطلق على نفسها : عباد الشيطان ، وبعض الكتاب نراهم يحلفون (بحق الشيطان) فما أعجب أمرهم .

لا تفكر بكثرة الهالكين :

حرىٌّ بالعاقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين ، فالكثرة ليس لها اعتبار فى ميزان الله ، إنما الاعتبار بالحق ولو قلّ عدد متبعيه .

فكن من اتباع الحق الذين رضوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، الذين عرفوا الشيطان واتباع الشيطان فحاربوهم بالبغض القلبى ، وبالكلمة من اللسان ، وبالكتابة باليد ، وبالعمل بالحق وبمحاربتهم بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن والتمسك بدينه .

﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** » (سورة البقرة/٢٠٨ ـ ٢٠٩) نسأل الله أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا فى السلم دخولاً كلياً وصلى وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفســــير

يقول تعالى آمراً رسوله ـ ﷺ ـ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد** ﴾ أى يهدى إلى السداد والنجاح ﴿ **فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ وهذا المقام شبيه لقوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **جد ربنا** ﴾ أى فعله وأمره وقدرته ، وقال الضحاك عن ابن عباس : جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا ، وقال قتاده : تعالى جلاله وعظمته وأمره وقال السدى : تعالى أمر ربنا ، وعن أبى الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج : تعالى ذكره ، وقال سعيد بن جيد : (تعالى جد ربنا) أى : تعالى ربنا ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن زيد الكوفى حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال : الجد أب ولو علمت الجن أن فى الإنس جداً ما قالوا تعالى جد ربنا فهذا إسناد جيد وقوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد أى قالت الجن تنزه الرب ـ جل جلاله ـ حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد ثم قالوا : ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ قال مجاهد وعكرمه وقتاده والسدى : ﴿ **سفيهنا** ﴾ يعنون إبليس ﴿ **شططاً** ﴾ قال السدى عن أبى مالك : ﴿ **شططاً** ﴾ أى : جوراً وقال ابن زيد : أى ظلماً كبيرا ويحتمل أن يكون المراد لقولهم سفيهنا اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً ولهذا قالوا : ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ أى قبل إسلامه ﴿ **على الله شططا** ﴾ أى : باطلاً وزورا ولهذا قالوا : ﴿ **وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا** ﴾ أى ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤ ن على الكذب على الله تعالى فى نسبة الصاحبة والولد إليه فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك وقوله تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشىء يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة واكثرَ تعوذا بهم كما قال قتاده : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : إثما وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : إزدادت الجن عليهم جرأة وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى قال قتاده : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمه قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادى فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون وذلك قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وأنه كان رجال**

من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ أى إثما : وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : ﴿ رهقا ﴾ أى خوفاً وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ فزادوهم رهقا ﴾ أى إثماً وكذا قال قتاده : وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن المغراء الكندى ، حدثنا القاسم ابن مالك - يعنى المزنى - عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كروم بن أبى السائب الأنصارى ، قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله - ﷺ - بمكة فآوانا المبيت إلى راعى غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعى فقال ياعامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يقول ياسرحان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمه وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبى العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنيا حتى يرهب الأنس ويخاف منه ثم رده عليه لما أستجار به ليضله ويهيئة ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً . قال الكلبى وابن جرير .

ويخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً -ﷺ- وأنزل على القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق وهذا من لطف الله - تعالى - بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصدا له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ أى : ما ندرى هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وهذا من أدبهم فى العبادة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله - عز وجل - وقد ورد فى الصحيح « والشر ليس إليك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان كما فى حديث العباس بينما نحن جلوس مع رسول الله - ﷺ - إذ رمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون فى هذا ؟ فقلنا كنا نقول يولد عظيم يموت فقال « ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء وذكر تمام الحديث[1] وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب فى ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله - ﷺ - يقرأ بأصحابه فى الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فآمن من آمن منهم وتمرد فى طغيانه من بقى . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدى لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض بنى أودية لله ظاهر فكانت الشياطين قبل محمد - ﷺ -

(١) مسند أحمد ١/ ٢١٨

قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - وقد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - نبياً رسولاً رجموا ليلة من الليالى ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعنفون أرقاءهم ويسبون مواشيهم فقال لهم عن يالى بن عمرو بن عمير .

ويحكم يامعشر أهل الطائف أمسكوا عن مالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن ابى كبشة يعنى محمداً - ﷺ - وان نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم وفزعت الشياطين فى تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم فقال أئتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبى الله ﷺ قائما يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله - ﷺ .

ويقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك** ﴾ أى : غير ذلك ﴿ **كنا طرائق قدداً** ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ **كنا طرائق قدداً** ﴾ أى : منا المؤمن ومنا الكافر وقال أحمد بن سليمان النجار فى أماليه : حدثنا الحسن بن أسلم بن سهل تحل ، حدثنا على بن الحذاء بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمى شيخ مسلم حدثنا أبو معاوية قال : سمعت الأعمش يقول تزوج إلينا جنى فقلت له ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال الأرز قال فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال نعم ، فقلت فما الرافضة فيكم ؟ قال شرناً ، عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزنى فقال هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال سمعت بعض الجن وأنا فى منزل لى بالليل ينشد :

قلوب يراها الحب حتى تعلقت مذاهبها فى كل غرب وشارق
تهيم بحب الله والله ربها معلقة بالله دون الخلائق(١)

وقوله تعالى : ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً** ﴾ أى تعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه فى الأرض ولو أمعنا فى الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا : ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به** ﴾ يفتخرون بذلك وهو فخر لهم وشرف رفيع وصفه حسنه وقولهم : ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ قال ابن عباس وقتاده وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته ،

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢٢٤/٧

(٢) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٦٩/٨

أي : يحمل غير سيئاته كما قال تعالى : ﴿ **فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾ ﴿ **وأنا منّا المسلمون ومنا القاسطون** ﴾ أي : منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل .

﴿ **فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً** ﴾ أي : طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ أي وقود تسربهم .

توجيهات إلهية للرسول - ﷺ -

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

معانى المفردات :

على الطريقة : على ملة الإسلام

غدقاً : كثيرا نافعاً

لنفتنهم : لنختبرهم فيه

يسلكه : يدخله

صعدا : يعلو العذب فيه وقيل شاقاً .

المساجد : أماكن السجود والمراد المواضع المعدة للعبادة والصلاة

لبدا : جمع لبدة مأخوذ من تلبد القوم إذا تجمعوا وعلية قولهم لبدة الأسد للشعر المتراكم حول عنقه .

يجيرنى : ينفعنى ويدفع عنى

ملتحداً : أى ملتجأ ألتجىء إليه أوحرزاً ومعدلا .

أمدا : زمناً بعيدا

يسلك : المراد يقيم ويبث

رصداً : حراسا وحفظه

أضواء كاشفة :

قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن وأوحى إلىَّ أن الحال والشأن لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام التى هى الطريقة المحكمة التى فيها خير الدنيا والآخرة أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء كثيراً ومباركاً فيه **﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾**(١)

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾(٢)

لو استقام الخلق لأتتهم الدنيا وكثرت أرزاقهم ثم أتت مرحلة أخرى هى مرحلة الأختبار والابتلاء ليظهر أهم من الشاكرين أم من الذين يكفرون بالنعم ؟ وهذا معنى قوله تعالى : لنفتننهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه ولا يقبل على عبادته فإنه يدخله عذاباً يعلوه فيكون هو فيه ، عذاب والعياذ بالله شديد وبئس هذا المصير .

وأوحى إلىَّ أن المساجد لله وحده لا تعبدوا فيها أحدا من خلقه وانظر إلى نظرية القرآن فى الخلق وإلى علاجه المحكم لأمراض قد تظهر فيها بعد انظر إلى قوله إن المساجد لله فقط ليست لمخلوق مهما كان وإياكم ثم إياكم أن تعبدوا فيها أحداً غير الله .. ياسبحان الله !

وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله ورسوله ـ محمد ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى الخير وإلى الهدى والنور ،

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

لما قام يدعوه كادوا أى الإنس والجن يكونون عليه متراكمين متكتلين ليطفئوا نور الله فأبى الله إلا أن ينصره ويظهر دينه ولوكره المشركون وقد كان ذلك كذلك .

قل لهم : يامحمد : مالكم ؟ وماذا فعلت ؟ إنما أدعو ربى وأعبده وحده ولا أشرك به شيئاً فليس هذا بأمر يضركم أو يدعو إلى ما تفعلون :

قل لهم : ما لكم تقفون منى هذا الموقف ؟ إنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعاً والذى يملك ذلك هو الله فلم أكن مقصراً فى حقكم فى شىء .

قل لهم : وماذا أعمل لولم أدعكم إلى الخير فعاقبنى الله بالسوء إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن يدفع عنى العذاب أحد ولن أجد من دونه ملتجأ فأنا مكلف ومأمور بهذا العمل من الله ولو تأخرت لعاقبنى فما لكم تفعلون معى هذا ؟

قل لهم : إنى لا أملك لكم شيئاً إلا أن أبلغ بلاغاً جاءنى من الله لكم ، هذا البلاغ هو القرآن الذى يهدى إلى التى هى أقوم إلا بلاغاً من الله ورسالاته التى هى أوامره ونواهيه الدينية فمن سمع البلاغ ووعاه وامتثل جميع الأوامر والنواهى وتقبل الرسالات الإلهية وتدبرها كانت له الجنة خالداً فيها أبدا .

ومن يعص الله ورسوله فى رسالاته وبلاغه فيعرض عن سماعها وتدبرها والعمل بهما فإن له نار جهنم خالداً فيها جزاء وفاقا لتكذيبه وإعراضه وسوء صنيعه .

لا يزال المشركون سادرين فى ضلالهم مغرورين بأنفسهم وبقوتهم يستهزئون بك وبوعيدك وبمن معك حتى يروا العذاب فإذا رأوه فسيعلمون من هو أضعف ناصراً ومن هو أقل عددا ، وسيعلمون : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا فاحذروا يا آل مكة هكذا .

وكان المشركون حينما يسمعون هذا التهديد بالعذاب يوم القيامة ينكرونه ويستهزئون به فأمر النبى - ﷺ - أن يقول لهم : قل لهم : ما أدرى وقت هذا العذاب أما نفس العذاب فواقع لا محالة غير أنى لست أدرى أقريب هو أم بعيد ؟ قد جعل له ربى زمناً طويلاً .

هو عالم الغيب وحده لا يطلع على غيبه أحداً إلا من إرتضاه من رسول فإنه يطلعه على بعض غيوبه مما يحتاج إليه فى رسالته ويكون من الخير الاضطلاع عليه أما غير ذلك فلا يرقى إلى غيبه مخلوق من إنس أو جن أو ملك وكيف يكون ذلك ؟ « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »

والخلاصة : أن الله عنده علم الغيب ولا يطلع عليه أحداً من خلقه إنسيا كان أو جنياً حكيماً أو كاهناً أو غيرهما إلا من ارتضى من رسله الذين هم أصحاب الشرائع السماوية فإن الله أطلعهم على بعض غيوبه فكانت التوراة والزبور والأنجيل والقرآن وما فيهم . ذلك هو الغيب الذى أطلع الله عليه بعض خلقه بواسطة الوحى به على لسان الأمين جبريل ﴿ **وما هو على الغيب بضنين** ﴾ فالمراد بالغيب القرآن أى ما هو بمتهم عليه حتى يتصور أنه غير أو بدل .

ويريد الله أن يعلمنا أن هذا الغيب وصل إلى الرسول عن طريق محكم جداً وبلغته الرسل بأمانة

ودقة وحكمة لم يكن معه نسيان أو إهمال أو خطأ فى شىء ألا ترى إلى قوله ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ .

فإنه يسلك من بين يدى الرسول ومن خلفه حرساً شداداً يحفظون من الوساوس والاختلاط والذهول والنسيان حتى لا يترك بعض ما أوحى إليه أو يقعد فى تبليغه ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ وهذا ما يسمى فى عرف علماء التوحيد بالامانة والعصمة ٢٣ ـ ٢٧

كل ذلك ليعلم ربك علم ظهور وانكشاف ـ أى يتحقق هذا فى الخارج ويشاهد الجميع ـ أن قد أبلغوا أن الرسل رسالات ربهم أو ليعلم أن قد أبلغ جبريل زعيم الملائكة رسالات ربهم والحال أن الحق تبارك وتعالى أحاط بما لديهم كله إحاطة العليم الخبير الناقد البصير وأحصى كل شىء من هذا الكون حالة كونه معدوداً مميزاً عن غيره فهل يعقل أن يتطرق إلى الرسل شك فى زيادة أو نقص ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ؟[١]

وانظر إلى ختام السورة بإبراز أن الغيب الإلهى محاط بسور لا يقربه إلا المرتضى المختار من الرسل الكرام أما الجن والكهان ومن يدعى علم الغيب أولئك كذبه فجره لا يعرفون أنفسهم .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه** ﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين « أحدهما » وأن لو استقام الفاسقون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ **لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾ أى كثيرا والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[٣] وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ أى : لنختبرهم كما قال مالك عن زيد بن أسلم لنفتنهم لنبتليهم لنعلم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية .

قال العوفى عن ابن عباس : « وأن لو استقاموا على الطريقة » يعنى بالاستقامة الطاعة وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة قال الإسلام وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدى ومحمد بن كعب القرظى : وقال قتاده :ـ ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة** ﴾ يقول لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ٩٦

وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة » أى : طريقة الحق وكذا قال الضحاك وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : « لنفتنهم فيه » أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : نزلت فى كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين ،

والقول الثانى : « وأن لو استقاموا على الطريقة » الضلالة « لأسقيناهم ماء غدقا » أى : لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا كما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(١) وكقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(٢) ؟ وهذا قول أبى مجليز لاحق بن حميد فإنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ أى : طريقة الضلالة رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وحكاه البغوى عن الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم والكلبى وابن كيسان وله اتجاه ويتأيد بقوله لنفتنهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى : عذابا مشقا شديدا موجعا مؤلما . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد : « عذابا صعدا » أى : مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل فى جهنم وعن سعيد بن جبير بئر فيها(٣) .

﴿ وأن المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحدا ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده(٤) . وقال ابن ابى حاتم : ذكر على بن الحسين حدثنا إسماعيل بن بنت السدى أخبرنا رجل سماه عن السدى عن ابن مالك أو أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس(٥) وقال الأعمش : قالت الجن : يارسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات فى مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ يقول صلوا لاتخالطوا الناس(٦) وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران حدثنا سفيان عن اسماعيل بن أبى خالد عن محمود عن سعيد بن جبير ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : قالت الجن للنبى - ﷺ - كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناءون ؟ أى بعيدون عنك وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾(٧) .

وقال سفيان عن خصيف عن عكرمة نزلت فى المساجد كلها(٨) ، وقال سعيد بن جبير نزلت فى

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٤٤
(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٦
(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨
(٤) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩
(٥) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨
(٦) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨
(٧) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩
(٨) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

أعضاء السجود أى هى لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبدالله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة ـ أشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين »[١] وقوله تعالى : ﴿ **وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال العوفى : عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبى ـ ﷺ ـ يتلو القرآن كادوا يركبون من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ **قل أوحى الىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروى عن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ[٢] ، وقال ابن جرير حدثنى محمد بن معمر حدثنا ابن هشام عن أبى عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ **لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا** ﴾ قال لما رأوه يصلى وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال عجبوا من طواعيه أصحابه له قال : فقالوا لقومهم : ﴿ **لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا** ﴾[٣] **وهذا قول ثان** وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا ، وقال الحسن لما قام رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس الى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا[٤] ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ **وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه[٥] .

وهذا قول ثالث وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا** ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ **إنما أدعو ربى** ﴾ أى إنما أعبد ربى وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ **ولا أشرك به أحدا** ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **قل إنى لا ملك لكم ضراً ولا رشدا** ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وعبد من عباد الله ليس الىّ من الأمر شيئا فى هدايتكم ولاغوايتكم بل المرجع فى ذلك كله الى الله عزوجل ، ثم أخبر عن نفسه ايضا أنه لا يجيره من الله أحد أى لوعصيته فإنه لايقدر أحد على إنقاذى من عذابه ﴿ **ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدى : لا ملجأ وقال قتادة أيضا ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ أى لا نصير ولاملجأ وفى رواية لا ولى ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا بلاغا من الله ورسالاته** ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ **قل إنى لا أملك لكم ضرا ولارشدا . . إلا بلاغا** ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ **لن يجيرنى من الله أحد** ﴾ أى : لايجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ كما قال تعالى : ﴿ **ياأيها**

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الصلاة ـ باب السجود على سبعة أعظم ١٩٥/١ ـ ومسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب اعضاء السجود ٣٥٤/١ رقم ٢٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٤/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٥/٢٩

(٥) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٦) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٢٧٢/٨

الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[١] . . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ أى : أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها ابدا أى لامحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ ؟ أى : حتى اذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس مايوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؟ أى : بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددا من جنود الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى : ﴿ قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ﴾ يقول تعالى : آمرا رسوله ـ ﷺ ـ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدرى أقريب وقتها أم بعيد ، وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره فى شىء من الكتب وقد كان ـ ﷺ ـ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل فى صورة اعرابى كان فيما سأله أن قال : يامحمد فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الاعرابى بصوت جهورى فقال : يامحمد متى الساعة ؟ قال : « ويحك إنها كائنة فيما أعددت لها ؟ » قال أما إنى لم اعد لها كثير صلاة ولاصيام ولكن أحب الله ورسوله قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مضاء حدثنا محمد بن جبير حدثنى أبوبكر بن ابى مريم عن عطاء بن أبى رباح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده إنما توعدون لآت » وقد قال أبوداود فى آخر كتاب الملاحم : حدثنا موسى بن سهل حدثنا حجاج بن إبراهيم حدثنا وهب حدثنى معاوية بن صالح عن عبدالرحمن بن جبير عن أبيه عن أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لن تعجز الله هذه الأمة من نصف يوم) انفرد به أبو داود ثم قال ابو داود حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبوالمغيرة حدثنى صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إنى لأرجو أن لاتعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وكم نصف يوم ؟ قال « خمسمائة عام » انفرد به أبوداود[٣].

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى : ﴿ ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾[٤] وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحدا من خلقه على شىء من علمه إلا مما أطلق تعالى عليه ولهذا قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ أى : يخصه بمزيد معقبات من

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧
(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٢٧٢/٨
(٣) سنن أبى داود ـ كتاب الملاحم ٥١٧/٤ رقم ٤٣٥٠
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥

الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساوقونه على مامعه من وحى الله ولهذا قال : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** ﴾ وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله (ليعلم) إلى من يعود ؟ فقيل إنه عائد الى النبى - ﷺ - قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ قال أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل (ليعلم) محمد - ﷺ - ﴿ **أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** ﴾[1] ورواه ابن ابى حاتم من حديث يعقوب القمى به . وهكذا رواه الضحاك والسدى ويزيد بن أبى حبيب[2] .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتاده : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ قال ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله ، وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير ، وقيل غير ذل كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ قال هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى - ﷺ - من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم[3] .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) قال ليعلم من كذب الرسل ان قد أبلغوا رسالات ربهم وفى هذا نظر .

وقال البغوى : قرأ يعقوب (ليعلم) بالضم أى ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا الى الله - عز وجل - وهو قول حكاه ابن الجوزى فى زاد المسير ، ويكون المعنى فى ذلك انه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من اداء رسالاته ويحفظ ماينزله إليهم من الوحى ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ **وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾ أى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لامحالة ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ **وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٧٧

(٢) تفسير ابن كثير- طبعة الشعب ٢٧٤/٨

(٣) تفسير الطبرى ٢٩/٧٧

سورة المزمل

قال صاحب البصائر :

« السورة مكية سوى آية واحدة من آخرها وآياتها ثمان عشرة فى عَدّ الكوفة وتسعة عشر فى البصرة وعشرون فى الباقين ، وكلماتها مائتان وخمس وثمانون وحروفها ثمانمائة وست وثلاثون . والمختلف فيها ثلاث آيات : المزمل ، شيبا ، (إليكم رسولا) . فواصل آياتها على الألف ، إلا الآية الأولى فإنه باللام والأخيرة ، فإنها (بالراء) . مجموعها (رال) ، سميت سورة المزمل لافتتاحها .

معظم مقصود السورة : خطاب الانبساط مع سيد المرسلين والأمر بقيام الليل وبيان حجة التوحيد والأمر بالصبر على جفاء الكفار وتهديد الكافر بعذاب النار وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى والتخويف بتهويل القيامة والتسهيل والمسامحة فى قيام الليل والحث على الصدقة والإحسان والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان فى قوله : ﴿ **واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ست آيات : ثلاث من أول السورة : (إن ربك يعلم) ، (واهجرهم هجرا) ، وقوله : (وذرنى والمكذبين) وقوله : (إن هذه تذكرة) ن آية السيف .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ماتيسر من القرآن** ﴾ ، وبعده : ﴿ **ماتيسر منه** ﴾ ، لأن الأول فى الفرض ، وقيل : فى النافلة ، وقيل : خارج الصلاة ، ثم ذكر سبب التخفيف ، فقال : ﴿ **سيكون منكم مرضى** ﴾ ثم أعاد فقال : ﴿ **ماتيسر منه** ﴾ والأكثرون على أنه فى صلاة المغرب والعشاء .

فضل السورة :

حديث أُبىّ المعلوم ضعفه : من قرأها (دفع عنه العسر فى الدنيا والآخرة وحديث على : ياعلىّ من قرأها) أعطاه الله ثواب العلماء وله بكل آية قرأها سِترٌ من النار .

« إرشادات إلهية لزعيم الدعوة الإسلامية »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

معانى المفردات :

المزمل : المتلفف بثيابه يقال : تزمل وتدثر ثم قلبت التاء زايا فى المزمل، ودالا فى المدثر .
ورتل القرآن : المراد اقرأه بتثبت وتؤدة .
ثقيلا : شاقا
ناشئة : مايحدث فيه ويتجدد مأخوذ من نشأ اذا حدث وتجدد .
أشد وطئا : أصعب وقعا .
وأقوم : أعدل
سبحاً طويلاً : عملا كثيرا سريعا ، وأصل السبح العوم على وجه الماء أو سرعة الجرى ، ثم استعمل فى العمل السريع الكثير .
وتبتل : انقطع إليه إنقطاعا .
وذرنى : اتركنى
النعمة : التنعم والترفه
أنكالا : جمل نكال وهو القيد الثقيل
ذا غصة : ماأعده الله فى تلك الدار من طعام منكر فظيع
ترجف الأرض : تضطرب وتتزلزل
كثيبا : تلاً من رمل متناثر جمعته الريح بعد تفرق .
مهيلا : هو ماإذا حرك أسفله سال من أعلاه وتتابع .
وبيلا : ثقيلا شديدا
منفطر : متصدع ومتشقق
تذكرة : عبرة وعظة .

أعد الله نبيه الكريم لتحمل أكبر رسالة فى الوجود ، الرسالة العامة الى جميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكنه بشر بينه وبين الملك تنافر فى الطبيعة المادية ، لذلك اضطرب ، وخاف عند أول لقاء ، وذهب الى خديجة كأنه محموم ، وقال زملونى زملونى !! وماعلم أن هذا الذى لقيه فى الغار هو جبريل الذى نزل على موسى وعيسى ، وكانت هذه الرسالة الى قوم وثنيين مشركين متعصبين مقلدين ، وكان النبى يعرف عنهم ذلك فكان كأنه يخشاهم ، ويشعر بخطورة هذه الدعوة فى هذا المجتمع ! فناداه الله بهذا النداء وبقوله فى السورة الثانية : ياأيها المدثر من باب الملاطفة والملاينة وتأنيسا له على عادة العرب فى اشتقاق اسم من صفة المخاطب التى هو عليها ، وكانت هاتان السورتان ـ المزمل والمدثر ـ من أوائل القرآن نزولاً ، ويروى أن الوحى لما نزل على النبى للمرة الثانية وحده متزملا فى قطيفة فقال له : ياأيها المزمل قم الليل ، وجاء مرة أخرى وكان متدثرا فقال : ياأيها المدثر قم فأنذر .

أضواء كاشفة :

يأيها المزمل - المتلفف بكساء وقد اضطجع فى ركن داره - قم الليل إلا قليلا منه ، وهو نصفه (هذا إشارة الى أن نصفه بدل من قليلا ، ووصفه بالقلة للإشارة الى أن النصف الذى أحياه بمنزلة الكل)أو انقص منه قليلا بحيث يزيد على الثلث أو زد عليه قليلا قليلا بحيث لايزيد على الثلثين ، فالنبى - عليه السلام - أمر بان يقوم من الليل ساعات تتراوح بين الثلث والثلثين ، وهو التهجد ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً** ﴾ .

يأيها المزمل دع ماأنت فيه وانشط لقيام الليل والصلاة فيه ، ولقراءة القرآن وترتيله وتدبر معناه ، هذا خطاب للنبى ويدخل معه فى ذلك أمته وخاصة أصحاب الدعوات والمبادىء والافكار ، والشارع الأعظم يقصد بهذه الارشادات والتوجيهات التربية الاسلامية الكاملة ، تربية الجسم وتعويده على تحمل المشاق والمكاره ، وتربية النفس بسموها وبعدها عن شوائب المادة وقوتها بحيث تحكم على الجسم ونوازع الشر فيه ، إذ لا شك أن قيام الليل شاق على النفس لكنه يؤدبها ويهذبها ، ويعودها الصبر ، وهو كذلك مما يقوى الأجسام ويساعدها على العمل والثبات فى معترك الحياة .

والنبى - عليه الصلاة والسلام - تنتظره فى دعوته مشاق ومشاق ومتاعب وتكاليف ودرعه الواقى فى ذلك هو تعويد جسمه تحمل المشاق ، وتقوية روحه بالعمل الصالح وتلاوة القرآن .

ياليت قومى يعلمون ذلك فيعملون على تحقيقه ، ويفرحون لإرادة الله ذلك لهم .

يأيها المزمل قم الليل إلا نصفه أو قلل منه قليلا أو زد عليه قليلا ، ورتل القرآن فى تهجدك ترتيلا ، واقرأه بتثبت وتدبر ، وتؤدة وتأن فإن القرآن جلاء للقلوب ، وحياة النفوس . ولقد امتثل النبى أمر ربه ، وتأدب بأدب القرآن ، وسهر الليل وجاهد النفس واقتدى به أصحابه حتى شحبت ألوانهم وضعفت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم حتى كأنهم تخطوا الحدود المرسومة فأنزل الله ﴿ **طه : ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ .

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال مامعناه : يامحمد إنك تحمل أكبر رسالة ، وتدعو الناس الى أضخم دعوة ، دعوة الحق والحرية والكرامة ، وسيكون لك أعداء وسيكون لمن يدعو بعدك بدعوتك أعداء ، لهذا أمرناك باعداد نفسك وجسمك الى تحمل هذه الرسالة ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقعه شديدا وطؤه على الكفار والمشركين ، ولاينفع فى هذا الا تقوية الجسم والروح ، وتدبر القرآن الكريم وتفهم معناه .

وكأن سائلا سأل شاكا فى أن قيام الليل وتدبر القرآن مما يساعد على تحمل مشاق الدعوة فقال : أن مايحدث فى الليل من قيام وصلاة وقراءة قرآن وتدبر له هو أشد وطئا ، وأصعب على النفس الانسانية ، وهذا بلا شك مما يساعدها على تحمل المشاق ويقويها فتصبر على المكروه ، ولاشك أن الليل حيث السكون والصفاء مما يساعد على تدبر القرآن وتفهم معناه .

إن لك فى النهار عملا كثيرا متواصلا سريعا فلم يبق إلا الليل ، فاغتنم جزءا منه يكن لك خير كثير ، وفضل كبير .

وأذكر اسم ربك وتوكل عليه وحده ، وانقطع عما سواه ، فلن ينفعك غيره ، وهكذا المؤمن الكامل لايتوكل إلا عليه ، ولايعتمد على سواه ، ولاينقطع عنه ، كل ذلك لأنه رب المشرق والمغرب ومابينهما ، لاإله غيره ، وكيف يكون غير ذلك ! وكل مافى الكون شرقه وغربه ، شاهد عدل على وحدانية الله ، وأنه لاإله غيره ، ولا معبود سواه ، إذا كان الأمر كذلك فاتخذه وكيلا ، واعتمد عليه وحده فى دعوتك الخلق الى الاسلام .

وسيصادفك ـ وكل من يدعو بدعوتك الى يوم الدين ـ ماتكره من أذى الناس ، العلاج فى ذلك هو الصبر إنه سلاح المؤمن وعدة المسلم ، والهجر الجميل ، وانظر الى علاج القرآن حيث جعل دعامته الصبر والسلوان والهجر الجميل .

أما المكذبون المغرورون أولو النعمة والترف فالله يقول فيهم ذرنى والمكذبين أولى النعمة والترف وأمهلهم قليلا ، فان للكون سنة لاتختلف ، إن عاقبة هؤلاء المكذبين المغرورين سيئة ، والله يمهل قليلا ولايهمل ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فالله يقول : ان لدينا أنكالا وقيوداً أثقالا ، وجحيما أعدت لهم ، وطعاما ذا غصة ، هو طعام الزقوم ، الطعام البشع الكريه التى تغص منه النفوس ، وبعد هذا كله فهناك عذاب أليم لهم للغاية .

أذكر يوم ترجف الأرض وتضطرب ، وتتزلزل الجبال وتتحرك ، وكانت صلدة ثابتة جامدة لايقوى عليها شىء ، ولكنها فى هذا اليوم تكون تلاً من الرمل كثيبا مهيلا ، وليس هذا الاضطراب فى الأرض فقط بل فيها وفى السماء ﴿ **إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت** ﴾[1] . ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾[2] .

ولقد أخذ القرآن يهددهم بما حل بغيرهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فقال : إنا أرسلنا الى فرعون رسولا هو موسى ، فعصى فرعون وقومه رسولهم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وأخذهم ربك أخذ عزيز مقتدر ، أخذا شاقا . . على نفوسهم حيث أغرقهم ونجى موسى ومن معه .

إذا كان الأمر كذلك فكيف تتقون ـ إن دمتم على كفركم ـ يوما شديد الهول ، عظيم الخطر ، يوما يجعل الولدان من شدة أهواله شيباً والسماء فى هذا اليوم تنفطر وتتشقق ، بعد أن كانت آية فى الأحكام والدقة ﴿ **ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾[3] كل ذلك كان وعده مفعولا .

إن هذه الإرشادات والتوجيهات التى سيقت فى تلك الآيات تذكرة وعبرة وعظة ، وهل هناك تذكرة أقوى من هذا ؟ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا هو الإيمان والتمسك بالقرآن ، وتعود الصبر على المكاره والسلوان .

---

(١) سورة التكوير الآيتان : ١ ، ٢

(٢) سورة الانشقاق الآية : ١

(٣) سورة الملك الآية : ٣

التفسير

يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يترك التزمل وهو التغطى فى الليل وينهض الى القيام لربه - عز وجل - كما قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾[1] وكذلك كان - ﷺ - ممتثلا ماأمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه وحده كما قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[2] وههنا بين له مقدار مايقوم فقال تعالى : ﴿ ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك والسدى : ﴿ ياأيها المزمل ﴾ يعنى ياأيها النائم .

وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النخعى : نزلت وهو متزمل بقطيفة ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ ياأيها المزمل ﴾ قال : يامحمد زملت القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلا أو زد عليه ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لاحرج عليك فى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ - صلوات الله وسلامه عليه - : قالت عائشة - رضى الله عنها - كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها .

وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقال كانت مدا ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[3] ، وقال ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها سئلت عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقالت : كان يقطع قراءته آية آية (بسم الله الرحمن الرحيم - الحمدلله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين) رواه أحمد وأبوداود والترمذى[4] .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبدالرحمن عن سفيان عن عاصم عن ذر عن عبدالله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال : « يقال لقارىء القرآن أقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبوداود والترمذى من حديث سفيان الثورى به وقال الترمذى : حسن صحيح[5] .

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٦

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القران باب مد القراءة ٢٤١/٦

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٠٢/٦ وسنن ابى داود - كتاب الحروف ٢٩٤/٤ رقم ٤٠٠١ وتحفة الأحوذى أبواب فضائل القرآن - باب ماجاء كيف كانت قراءة النبى ٢٤٠/٨ رقم ٣٠٩١

(٥) مسند أحمد ١٩٢/٢ وسنن ابى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل ١٥٣/٢ رقم ١٤٦٤ وتحفة الأحوذى - أبواب فضائل القرآن ٢٣٢/٨ رقم ٣٠٨١

وجاء فى الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم[١] - وليس منا من لم يتغن بالقرآن[٢] ، ولقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود[٥] يعنى أبا موسى فقال أبوموسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيرا ، وعن ابن مسعود أنه قال : « لا تنثروه نثر الرمل ولاتهذوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولايكن همّ أحدكم آخر السورة » رواه البغوى ، وقال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت أبا وائل قال : جاء رجل الى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة ، فقال هذًا كهذّ الشعر لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله - ﷺ - يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين فى كل ركعة[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ قال الحسن وقتادة : أى العمل به ، وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أنزل على رسول الله - ﷺ - وفخذه على فخذى فكادت ترض فخذى .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبدالله بن عمرو قال : سألت النبى - ﷺ - وآله وسلم - فقلت : يارسول الله هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض » تفرد به أحمد [٤] .

وفى صحيح البخارى : عن عبدالله بن يوسف عن مالك عن هشام عن ابيه عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - ﷺ - كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول » .

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحى - ﷺ - فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وجبينه ليتفصد عرقا هذا لفظه[٦] .

وقال الامام أحمد : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن كان ليوحى الى رسول الله - ﷺ - وهو على راحلته فتضرب بجرانها[٧] وقال ابن جرير حدثنا ابن عبدالأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه ان النبى - ﷺ -

(١) سنن ابى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل فى القراءة ٢/١٥٥ رقم ٤٦٨ - والثانى - كتاب الافتتاح ٢/١٧٩ وابن ماجه رقم ١٣٤٢

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب حسن الصوت بالقراءة ٦/٢٤١ ومسلم - كتاب الصلاة ١/٥٤٦ رقم ٢٣٦

(٣) صحيح البخارى - كتاب التوحيد ٩/٨٨ أو سنن أبى داود - كتاب الصلاة ٢/١٥٦ رقم ١٤٦٩ ومسند أحمد ١/١٧٢

(٤) صحيح البخارى - كتاب الصلاة باب الجمع بين السورتين فى ركعة ١/١٨٦

(٥) مسند أحمد ٢/٢٢٢

(٦) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحى ١/٤

(٧) مسند أحمد ٦/١١٨

كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع ان تحرك حتى يسرى عنه[١] وهذا مرسل (الجران هو باطن العنق) ، واختار ابن جرير انه ثقيل من الوجهين معا كما قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾ قال أبو اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : نشأ قام بالحبشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وكذا قال مجاهد وغير واحد .

يقال : نشأ إذا قام من الليل وفى رواية عن مجاهد بعد العشاء ، وكذا قال ابو مجلز وقتادة وسالم وأبوحازم ومحمد بن المنكدر والغرض أن ناشئة الليل هى ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهى الانات ، والمقصود ان قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : ﴿ **هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

وقال الحافظ أبويعلى الموصلى : حدثنا ابراهيم ابن سعيد الجوهرى حدثنا ابوأسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا ﴾ فقال له رجل إنما نقرؤها وأقوم قيلا ، فقال له إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد[٣] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبى مسلم : الفراغ والنوم ، وقال أبوالعالية ومجاهد وأبومالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثورى : فراغا طويلا ، وقال قتادة : فراغا وبغية ومتقلبا ، وقال السدى : (سبحا طويلا) تطوعا كثيرا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم ان الله ـ تبارك وتعالى ـ منَّ على عباده فخففها ووضعها وقرأ : ﴿ **قم الليل إلا قليلا** ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه** ـ حتى بلغ ـ **فاقرءوا ماتيسر منه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ وهذا الذى قاله كما قاله . والدليل عليه مارواه الامام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا يحيى حدثنا سعيد هو ابن ابى عروبة عن قتادة عن زرارة بن اوفى عن سعيد ابن هشام انه طلق امرأته ثم ارتحل الى المدينة ليبيع عقارا له بها ويجعله فى الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقى رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال « أليس لكم فىّ أسوة حسنة ؟ » فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها ثم رجع الينا فأخبرنا أنه اتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال ألا انبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : نعم : قال :

---

(١) تفسير الطبرى ٨٠٢/٩
(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢٩
(٣) تفسير ابن كثير- طبعة الشعب ٢٧٨/٨

ائت عائشة فسلها ثم ارجع الىّ فاخبرنى بردها عليك قال فأتيت على حكيم بن أفلج فاستلحقته إليها فقال ما أنا بقاربها إنى نهيتها ان تقول فى هاتين الشبعتين شيئا فكانت فيهما إلا مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معى فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا معك ؟ قال سعيد بن هشام قالت من هشام ؟ قال ابن عامر قال فترحمت عليه وقالت نعم المرء كان عامرا قلت يأم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله - ﷺ - ؟ قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فان خلق رسول الله - ﷺ - كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لى قيام رسول الله - ﷺ - قلت : يأم المؤمنين أنبئينى عن قيام رسول الله - ﷺ وآله وسلم - قالت : ألست تقرأ هذه السورة (يأيها المزمل ؟) قلت بلى قالت فان الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام رسول الله -ﷺ - وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها فى السماء أثنى عشر شهرا ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة ، فهممت أن أقوم ثم بدا لى وتر رسول الله -ﷺ - فقلت : يأم المؤمنين انبئينى عن وتر رسول الله - ﷺ - قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلى ثمان ركعات لايجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض ومايسلم ، ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليما يسمعنا ، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يابنىّ فلما أسن رسول الله -ﷺ - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يابنى ، وكان رسول الله - ﷺ وآله وسلم - اذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان اذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ولاأعلم نبى الله - - قرأ القرآن كله فى ليلة حتى أصبح ولاصام شهراً كاملا غير رمضان - فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهنى مشافهة هكذا . رواه الامام أحمد بتمامه[1] وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بنحوه[2] . « طريق اخرى عن عائشة - رضى الله عنها - فى هذا المعنى » قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب وحدثنا ابن حميد حدثنا مهران قالا جميعا : واللفظ لابن وكيع عن موسى بن عبيده حدثنى محمد بن طحلاء عن ابى سلمة عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أجعل لرسول الله -ﷺ - حصيرا يصلى عليه من الليل فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيما فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل فقال : (أيها الناس اكلفوا من الأعمال ماتطيقون فان الله لايمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ماديم عليه)[2] ونزل القرآن : ﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله مايبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم الى الفريضة وترك قيام الليل[3] .

ورواه ابن ابى حاتم من طريق موسى بن عبيده الزبيدى وهو ضعيف والحديث فى الصحيح[4] بدون

---

(١) مسند أحمد ٥٤/٦

(٢) مسلم - كتاب الصلاة - باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٥١٢/١ رقم ١٣٩

(٣) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٤) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨ ومسند أحمد ٤٠/٦ ، ٦١ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٦٧

زيادة نزول هذه السورة وهذا السياق قد يوهم ان نزول هذه السورة بالمدينة وليس كذلك وإنما هى مكية وقوله فى هذا السياق : ان بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب فقد تقدم فى رواية أحمد ان بينهما سنة .

وقال ابن ابى حاتم أبوسعد الأشج حدثنا ابو أسامة عن مسعر عن سماك الحنفى سمعت ابن عباس يقول : أول مانزل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وهكذا رواه ابن جرير عن ابى كريب عن ابى أسامة به وقال الثورى ومحمد بن بشر العبدى كلاهما عن مسعر عن سماك عن ابن عباس كان بينهما سنة ، وروى ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله[1] .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عن ابى عبدالرحمن قال : لما نزلت ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ **فاقرءوا ماتيسر منه** ﴾ قال : فاستراح الناس وكذا قال الحسن البصرى والسدى[2] . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا عبيدالله ابن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال : فقلت : يعنى لعائشة أخبرينا عن قيام رسول الله - ﷺ - قالت : ألست تقرأ ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ ؟ قلت بلى قالت فانها كان قيام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها فى السماء ستة عشر شهرا ثم نزل ، وقال معمر عن قتادة : (قم الليل إلا قليلا) قاموا حولا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فانزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة .

وقال ابن جرير ، حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد هو ابن جرير قال : لما أنزل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قال : مكث النبى - ﷺ - على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما امره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله - تعالى - عليه بعد عشر سنين ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** - الى قوله تعالى : **وأقيموا الصلاة** ﴾ فخفف الله - تعالى - عنهم بعد عشر سنين[3] ، رواه ابن ابى حاتم عن ابيه عن عمرو بن رافع عن يعقوب القمى به ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا** ﴾ فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله - تعالى - عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله** - إلى قوله تعالى - **وأقيموا الصلاة** ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا** ﴾ أى : أكثر من ذكره وانقطع اليه وتفرغ لعبادته

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٨٠
(٢) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩
(٣) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩
(٤) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩

اذا فرغت من اشغالك ومانحتاج اليه من أمور دنياك كما قال تعالى : ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾[١] أى : إذا فرغت من مهماتك فانصب فى طاعته وعبادته لتكون فارغ البال قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه ، وقال ابن عباس ومجاهد وابوصالح وعطية والضحاك والسدى : ﴿ وتبتل اليه تبتيلا ﴾ أى : اخلص له العبادة ، وقال الحسن : اجتهد وابتل اليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد فتبتل ومنه الحديث المروى نهى عن التبتل يعنى الانقطاع الى العبادة وترك التزوج[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب لا إله إلا هو ، وكما افردته بالعبادة فافرده بالتوكل فاتخذه وكيلا كما قال فى الآية الاخرى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[٣] وكقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وآيات كثيرة فى هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه . وقوله تعالى : ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ يقول تعالى آمرا رسوله - ﷺ - بالصبر على مايقوله من كذبه من سفهاء قومه وان يهجرهم هجرا جميلا وهو الذى لاعتاب معه ثم قال له متهددا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذى لايقوم لغضبه شىء ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق ماليس عند غيرهم ، ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أى : رويدا كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ وهى القيود قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبدالله بن بريدة وأبوعمران الجونى وأبومجلز والضحاك وحماد بن ابى سليمان وقتادة والسدى وابن المبارك والثورى وغير واحد : ﴿ وجحيما ﴾ وهى السعير المضطرمة ﴿ وطعاما ذا غصة ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلايدخل ولايخرج . ﴿ وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أى : تزلزل . ﴿ وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ماكانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلايبقى منها شىء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا أى واديا ولا أمتا أى رابية ومعناه لاشىء فينخفض ولا شىء يرتفع . ثم قال تعالى مخاطبا لكفار قريش : والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم ﴾ أى : بأعمالكم . ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى والثورى : ﴿ أخذا وبيلا ﴾ أى : شديدا ، أى : فاحذروا أنتم ان تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ماأصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن أنتم كذبتم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران ، ويروى عن ابن عباس ومجاهد . وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ يحتمل أن يكون يوماً معمولا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون ايها الناس يوما يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل ان يكون معمولا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثانى كيف

(١) سورة الشرح الآية : ٧
(٢) تفسير الطبرى ٨٣/٢٩
(٣) سورة هود الآية : ١٢٣

يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيبا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله تعالى لآدم : إبعث بعث النار فيقول من كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ : ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثا الى النار ، قال من كم يارب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد » فاشتد ذلك على المسلمين وعرف ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم « إن بنى آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنه لايموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » هذا حديث غريب[1] .

وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال الحسن وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وروى عن ابن عباس ومجاهد : وليس بقوى لأنه لم يجر له ذكر ههنا .

وقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لامحالة وكائنا لامحيد عنه .

يقول تعالى : ﴿ إن هذه ﴾ أى : السورة ﴿ تذكرة ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾ أى : فمن شاء الله ـ تعالى ـ هدايته كما قيد فى السورة الأخرى ﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

طرف من سيرة المزمل ـ ﷺ ـ

الحمدلله وحده ، والصلاة والسلام على خير رسله ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن سلك سبيلهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

وبعد فعلى فترة من الرسول ، ضاعت فيها معالم الحق ، وضل البشر سواء السبيل ، بعث الله رسوله سيدنا محمدا ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق ، ففتح الله به للانسانية فتحا جديدا ، عرفت على أضوائه طريق الرشاد ، ودخلت الحياة من مدخلها الصحيح ، فتحررت من اصار الذل ، وحطمت اغلال العبودية ، وتقدمت باسم الله وعلى بركة الله ، وتحت راية الاسلام ، تنشىء حضارة سامقة ، وتكتب تاريخا عبق بأطيب الشذى .

ومن كان فى ريب من ذلك فليس عليه إلا أن يتجرد من الهوى ، وينمى عوامل الجنوح ، ويقرأ

---

(١) مسند أحمد ٣٨٨/١

تاريخ ماقبل الإسلام ومابعده فى مشرق الأرض ومغربها ، وسيجد بعد الجولات النزيهة ان دعوة الاسلام وليس سواها هى التى فتحت القلوب والآذان ، والعقول والأبصار ، وإن كان كل مانراه اليوم من حركات إصلاحية أو وثبات علمية قامت على قواعد الفكر الاسلامى .

فإذا احتفل المسلمون فى ذكرى مولد الرسول الكريم فليكن احتفالهم عوداً إلى المعين الذى لاينضب ، يجددون العهد أن يكونوا حيث يرضى الله ، وتهدف إليه رسالة الإسلام ، استجابة صادقة واستلهاما أمينا ، يفتح الله بهما الطريق إلى العزة والكرامة ، ويهدى بهما الله إلى الصراط الذى لايضل عليه المسار .

ولنا فى سوابق التجارب عبرة وعظة ، والتجارب الواعظات ينبغى أن تكون موضع تأمل وتدبر الذين يبتغون الرشاد ، ويتطلعون إلى الهدى ، فيلقون السمع ، ويفتحون القلب ، وخير التجارب تلك التجربة الرائدة التى عاشها الرسول - ﷺ - فهى حافلة بالكفاح ، حافلة بالأمل ، حافلة بألوان النصر العزيز .

يارســـول اللـــه

ماتفقدت الانسانية فضيلة نادرة إلا وجدتها نفحة من أدبك ، أو لمحة من خلقك أو ومضة من نورك ، أو خطوة من سلوكك ، أو لفتة من هديك ، أو شعاعا من توجيهك ، أو عبرة من تاريخك ، أو قبسا كنت تبعث به فى الليالى الحالكة ، والسبل الملتوية ، والمعالم المشتبهة ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الكريهة . . .

وسيظل تاريخك خالدا خلود الأبد ، باقياً بقاء الدهر ، مُدوياً دَوِىَّ الأذان ، مضيئاً كالصبح ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الأيام ، ويكافح الزمن ، ويحارب الطغيان ، ويخضع الجبابرة ، ويقضى على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادى بالحب ، ويتعقب الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين فى الأرض بغير الحق . . لا لأنك رسول رب السماء ، والأرض - الذى يحتمى ببطشه ، ويعتز ببأسه ، ويقاتل بسيفه ، وينطق بلسانه ، ويصونه من بغى المتسلِّطين ، وعدوان المفسدين ، الذى لايتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين بلطفه ، المحفوفين برضوانه ، المغمورين برحمته ، ولكن لأنك كنت المثل الأعلى الذى ترتقى اليه البشرية عند نموها ، وتتطلع له فى تقدمها ، وتحاول أن تحتذيه ، كلما ثاب إليها الرشد ، أو عاودها الحلم ، ويتعظ فيها العقل ، وتحركت أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها ربها السداد والتوفيق .

والحديث فيك يارسول الله حبيب إلى النفس ، خفيف على السمع ، لذيذ رجعه كأنه الموسيقى للقلوب الظامئة ، والأفئدة الملتاعة ، والجوانح الحرى ، والأكباد المحترقة ، والأرواح المتشوقة ، لاينتهى له مدى ، ولاينقطع له جرس ، ولاينضب له معين . . ينشده الأديب فيجد فى حديثك الحكمة الغالية ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى ، والتصوير الدقيق ، والألفاظ الفخمة ، والمنطق الحلو ، والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والنمط الذى لايصل إليه أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة

الحديث ، وأساتذة الأدب . . ويتصفحه المصلح الاجتماعى فلايعثر فيه إلا على هدى نافع ، ودستور قويم ، وتهذيب صحيح وتقويم واضح وتوجيه سديد . . وهكذا كل جوانبك ـ يارسول الله شامخة ، وجميع جهاتك عامرة آهلة بالخصوبة ، غنية كل الغنى بالبر والمعروف ، والأمن والسلامة ، والرضا والاطمئنان ، وأنا أجد فى حديثى عنك لذة لنفسى ، ومتعة لخاطرى ، وغذاء لروحى ، وضياء لقلبى ، وشفاء لغليلى ، وإرواء لظمئى ، وإرضاء لضميرى ، فلاأسلك فى الكتابة فيك سبيل التاريخ الجامد ، ولاطريق الحوادث المألوفة ولانهج السيرة المعروفة ، ولاماتعود الناس ان يرددوه عنك ، أو يذكروه لك ، أوينسبوه إليك أو يذيعوه عنك . .

وليس هذا تخيلا يتخيله شاعر ، ولاوهما يدور بخلد فيلسوف لأن الخليقة لم تعرف رجلا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس وحير ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا إلى مافيه من أخلاق نبيلة وسجايا عظيمة ، وخلال طيبة ، وسلوك حميد ، وأدب جم ، قبل أن تعرف أنت ، فتعرف طبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ، ومثلها العليا . . والدراسة التى تناولتك ـ يارسول الله ـ والآداب التى أخذت عنك ، والسلوك الذى رسمته ، والمنهج الذى بينته ، والأخلاق التى رغبت فيها ، وذعوت إليها هى الدستور الذى كانت البشرية بحاجة إليه لينير لها الطريق إلى مستقبل أفضل ، وغاية أكرم ، ومجد أنبل ، وسعادة أعظم ، وأمن أشمل ، وعدالة أكمل ، واصلاح أعمق ، وبخاصة إذا نظرنا إلى تلك البلبلة التى كان عليها العرب ، حينئذ ـ وإلى تلك الجهالة التى كانت تضرب بجرانها فى الجزيرة ، ولاسيما فى المسائل الدينية وقد كانوا فيها أشبه ببحر يموج ، أو بركان يغلى ، لاهدف يصح لهم أن يتجهوا إليه ، ولا غاية يمكن أن يقفوا عندها ، ولكنهم كانوا يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ولا يدينون للحق ، أو يفتحون قلوبهم للهداية ، أو ينظرون بعيونهم نحو النور أو يوجهون أفئدتهم إلى الصواب ، يشتغلون بالخرافة ويتعلقون بالباطل ، ويهتمون الاهتمام كله بالأخذ بالثأر ، والمعاقرة للخمر ، وإشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، وليس لهم من المعارف مايساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم فى صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتقدمة ، المتطلعة إلى العمران والاصلاح ، والانتعاش واليقظة ، والسير إلى الغايات المحمودة . . وفى الحق ! إن للدهر أن يطأطىء رأسه لك ـ يارسول الله ـ إجلالا لما كان من تاريخك ، وإعجاباً بما كان من خلالك ، وإكباراً لما كنت عليه من خلق عظيم ، تجاوز حدود التقدير والاحترام . . ونحن لانشك فى أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادىء ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الاصلاح ـ فى كل زمان ومكان ـ لايصلون إلى غاياتهم ، أو يبلغون أهدافهم ، بنصاعة بيانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة نهجهم ، وخلابة منطقهم ، وروعة بلاغتهم ، بمقدار مايساعدهم على ذلك سلطانهم المرهوب ، وقوتهم المخيفة ، وبأسهم المسلّط ، أو نصرة تقف إلى جانبهم ، من قرابة قريبة ، أو ولاء مسعف ، أو عصبية تدافع ، أو مال يغرى بالإقبال والرغبة ، ويعمل على تمكين النفوذ والجاه ، وإشاعة الإرهاب والخوف ، وأنت لم تنصرك عصبية ، ولم يساعدك مال كان فى يدك ، ولانفوذ أتيح لك ، غير أن سيرتك كانت قرآناً ، وحياتك كانت برهاناً ، وقد استقبلت الإنسانية حديثك الطيب استقبالها للأحداث الهامة ، والأمور الغريبة ، والمعجزات الكبرى ، وآمنت بسبب ماعرفت منك ـ أن لله سرّا يخفى على الفطنة ، ويدق على الفهم ، ويتسامى على المنطق ، ويتجاوز حدود العادات ، ويأبى

أن يخضع للمألوف ، ولايسع الناس أمامه إلا أن يردوه إلى خالق السموات والأرض ، ومدبر الكون الواسع ، والملك الفسيح العريض !!

وفيك ـ يارسول الله ـ تحكم الفقر ، وتمكن اليتم ، واستبد الجوع والحرمان ، الذى جرت به العادة مع الأطفال الذين تحيط بهم تلك الحياة ، وتلعب بهم الأحداث ، وتهز كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع إلى المجد ، والرغبة فى الكمال والتطلع إلى الأهداف البعيدة ، والأغراض النبيلة ، والغايات السامية ، وأنت ـ يارسول الله ـ لم يقل قائل : إن همتك كانت واهنة ، وأن عزيمتك كانت فاترة ، أو أن نهوضك كان كسيحاً أو أن نزوعك كان ضعيفاً ، أو أن طموحك كان ميتاً ، ، أو أن قناتك لانت لغامز ، أو أن نفسك ذلت لجبار ، أو أن عودك انحنى لمتسلط ، أو أن جهادك للإصلاح وقف فى منتصف الطريق أو حولته عن القصد غايات ، أو منعته عن نهايته موانع . .

وفى سلوكك منذ كنت ناعم الأظفار ، غض الإهاب ، صغير السن ، من سمت طيب ـ وخلق قويم ، وعقل بصير ، وفكر ناضج ، ورجولة مبكرة ، وعظمة لاتصنع فيها ولا احتيال ـ مايدل على ان مستقبلا باسما كان ينتظرك ، ومجدا تالدا كان يترقبك وجاها عظيما كان على موعد معك ، وأن الإرهاص الذى يسبق المعجزة يسارع إليك ، ليؤذن بالنهاية الكريمة ، والمصير العزيز ، والختام الحميد ، والتاريخ الذى يرويه الآباء للأبناء !

فلما بلغت مبلغ الرجال وكنت تقْرى الضيف وتحمل الكل ، وتؤازر الحق ، وتنطق بالصدق ، وتعين على المعروف وتنصر المظلوم ، وتخفف ويلات المكروبين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعانى النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الطيبة ، والنوايا الصادقة ، والغرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا المحببة ، هالهم امرك ، وعناهم شأنك ، وظنوا ان الأيام سوف تتمخض فيك ـ لامحالة ـ عن قيصر الروم ، أو كسرى الفرس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد قاهر ممن كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والأخبار ، إلا أنك حين جهرت بدينك الصحيح ، ويقينك السليم ، وإيمانك القوى ، وكشفت بذلك كله ـ عن الحق الصراح ـ والسلوك السوى ، والعدل المحض ، والنهج القويم ، تضاءل فى أنظارهم كبرياء الظالمين ، وغطرسة أولئك المتعالين المتكبرين ، وتهاوت تيجان الملوك والسلاطين . وآمنوا أن هذه الدنيا التى كانت لهؤلاء لاتزيد إلى جانبا ماأعطاك الله إياه جناح بعوضة ، ولاقلامة ظفر ، ولكنها غبار يتطاير ، أو سراب يخدع ، أو وهم لاينطلى إلا على الأغرار البله . . .

والعجيب الغريب أن تكون ـ يارسول الله ـ مع هذه المكانة التى كنت عليها من العظمة والمجد والسؤْدد والشرف ، والجاه والرفعة ، والسيادة والعزة ، والسلطان والنفوذ ، متواضعاً غاية التواضع ، حليماً إلى أقصى نهايات الحلم ، جامعاً للمكارم كلها ، تبذل وتعطى ،وتسخو وتجود ،وتنقذ من يتورط فى شدة ، أو يشرف على هلكه ، أو يعانى جرحاً ، وربما نسيت إساءة المسىء وآثرت غيرك على نفسك ، وقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح والعفو ، واللؤم بالكرم . . وكم أعلنت فى كل مناسبة أنك بشر تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وناديت فى القاصى والدانى بهذا الأدب الرفيع : (إنكم لاتسعون الناس

بأرزاقكم ، وأموالكم فسعوهم باخلاقكم)[١] لتعطيهم الأمثال منك ، والقدوة بك ، والاتباع لك ، وحاشا لخلقك ألا يكون إلا كذلك ، وماعاب أحد لك صنيعا ، أو انتقد لك سلوكك ، ولم تكن جباراً فى الأرض ، ولاقاسياً على الناس ، بل كانت دعايتك بالحسنى وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ، وإرشادك بالحجة وتوجيهك بالمنطق ، ونصحك باللين ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك للحق ، وانحيازك إلى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تعلو كلمة السماء . .

وهكذا تكون العظمة التى لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو ينتهبها أهلوها بسلطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون .

وصلى الله عليك ـ يارسول الله ـ كلما جرى ذكرك على لسانى ، أو خطر طيفك ببال إنسان ، أو ترسَّم أحد خطاك ، أو التمس مسلم هدايتكَ ، وسار على نهجك ، فإنك بحق سيد الناس وخير الخلق على الإطلاق ، ولاينكر عليك ذلك جاحد ولايمارى فيه مكابر ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

محمد صلى الله عليه وسلم

« محمد » إن هذه الكلمة ـ وحدها ـ مجردة عما يقترن بها ، أو يساق معها ، أو يجىء فى إثرها من الأوصاف والنعوت ، والأحداث والجهود ، تشيع فى الجو الذى تسبح فيه ، والفم الذى ينطق بها ، معنى من معانى السحر ، لايمكن لكائن من كان من الناس ، أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته فى فن الموسيقى الخلابة ، ولا البلاغة الأخاذة ، ولا الجاه الذى لايتطاول إليه جاه ، أو يمكن أن يزاحمه كبرياء وجبروت المحكمين ، وغرور المخدوعين ، أو أحلام المتطلعين ، لأن المسلطين الذى يضفى على أبناء آدم أردية المهابة ، وثياب العزة ، ومسوح الإجلال والاحترام ، خلقه هو ، خلق « محمداً » لتذوب أمامه النعوت ، وتتهاوى بين يديه الأوصاف وتقصر عن الإحاطة بكماله الألفاظ ، وتقف موقف العجز عن التنوية به ، أو الكشف عنه ، بلاغة البلغاء ، وأساليب الأدباء ، ومنطق اللسن المقاويل ، ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى أو فؤاد المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارىء فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه ـ ﷺ ـ تأخذه المهابة من جميع جهاته ، وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه إذا وجد نفسه فى حضرة عظيم من العظماء الذين تملأ مجالسهم الهيبة الربانية التى لاتكون مستمدة من غطرسة مصنوعة ، ولا أبهة مكذوبة ، ولامجد مختلق ، أو نفوذ مدعى ، أو جبروت موضوع ، وإنما هى من صنع الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وفى تاريخه ـ ﷺ ـ مايدل على أن تيجان الملوك ، وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت للدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم ، والسلطان بحوزتهم تتساقط بين يديه ، أو يصيبها الشلل ، والجمود أمامه ، فلايجرؤ

---

(١) مسند ابى يعلى الموصلى ـ والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابى هريرة

(٢) سورة القلم الآية : ٤

قوى أن يهدده ، ولايتطاول جبار أن يخيفه ، ولايمكن لشرير مهما كانت شراسته ، وحمقه أن يهز كيانه أو يزلزل بنيانه ، أو يملأ يقينه الذى كان عامراً بخالقه ، ولا أن يحسب حسابه ، أو يخشى بأسه ، أو ترتعد فرائصه منه ، وذلك لأن الذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه قدوة هذه الانسانية فى أخلاقه الكريمة وأدبه الجم وذكائه اللماح وعبقريته الفذة وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم وعطفه الفطرى وحبه للخير وميله إلى البر ، وحبه على الناس وتفانيه فى الإصلاح وارتباطه بربه وتعلقه بالسماء ، وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام ، ولا أسم من أسماء المعانى ولاكلمة من الكلمات فى ضخامة جرسها ودوى صوتها ونباهة شأنها وشهرة دلالتها وإيمان الخليقة بها - بعد لفظ الجلالة - ما بلغته تلك اللفظة « محمد » التى يتيمن بها المسلم ويعتز بها الموحد ويفاخر بها الإنسان ، ويشرف بالانتساب إليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ، وصح عنده دينه وارتقى إدراكه وشعوره ، وسلم بصره وذوقه ، وتردده ألسنة الملايين فى بقاع الأرض وأنحاء هذا الكون ، تلذذاً بذكرها وارتياحاً لنغمتها وسروراً بمرورها على البال وخطورها بالذهن . .

ولقد عاصرت أحداث التاريخ وصيحات المصلحين ودعوات الهداية ، والتقويم على الحجة الواضحة ، والجادة الصحيحة ، فكان منها الشعاع الكاشف والضياء المساعد والنور الذى ترى به البشرية مواضع أقدامها فى طريق الخير وسبيل الحق ودرب السداد والصواب والسلامة والنجاة والرشاد والفلاح والتقدم والعمران والحضارة والنهوض والعلم والعرفان . .

ولايعنينا من هذا العنوان أن نسترسل به مع الحوادث وأن نرجع بك إلى ماعساك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه الرواة والقصاص ، ولا أن ننتهى بك إلى تاريخ أنت تعرفه وتعيه ، وإنما يعنينا أن نستشف ماتعطيه تلك النفس التى لايتسع لها هذا الفضاء المحدود ولاتلك الأرض المرسومة ولا هذه السماء المرفوعة ولا ذلك الكون الفانى ، وهى التى حام الفلاسفة حولها بحثاً ودرساً وتحليلاً وتعليلاً فما وصلوا إلى شىء وراء كونها خلاصة هذه الخلق وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية فى هذا الإنسان الذى أرسله لتقويمها وتهذيبها ، وهدايتها وارشادها وتكريمها وإجلالها وحريتها من ذل الأسر ورق العبودية وضراوة الإقطاع وكابوس الظلم وفوضى النظم والدساتير لتكون له السيادة فى الأرض والقيادة لما فى الدنيا من باغم وناغم : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[1] .

ولعل هذه الجوانب فى حياته - ﷺ - من العظمة الخارقة وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشار العرب من وهدة التردى إلى قمة النهوض والسمو كانت موضع الدهشة عن كثير من المؤلفين القدامى فأضفوا عليه من النعوت والخلال مايتجاوزون حدود البشرية ، وهو الذى كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعلن أن له مالبنى آدم من مزايا وخلال .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٠

وقد كنا نحمد لهؤلاء الذين يكتبون عنه طريقتهم فى الكتابة ، وأساليبهم فى الدراسة ومنهجهم فى البحث لو أنهم كانوا يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث وأن يجعلوا معينهم فى ذلك سيرته مع أصحابه وتواضعه لأهله وحبه لقومه وحبه على البائسين ورفقه بالضعفاء وإيثاره لغيره ومحاولته القضاء على عناصر الفساد فى الأرض .

فإن هذا كله صدى لهمته الكبيرة وشخصيته العظمى وضميره النقى ودخيلته الطاهرة ونحيزته الشريفة ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف والتمويه والكذب والرياء والنفاق ذلك لأنه نمط لا غبار عليه فى البحث إذ هو يجرى على طريقة علم النفس الإنسانى فى تحليل السجايا والطباع وفهم الغرائز والميول ، لو خلا من تلك المبالغات التى يلتجىء إليها بعض أصحاب هذه الدراسات .

وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب هذه العظمة لتأخذ منها نماذج من النبل وشواهد من المكارم وملامح من البر وأساليب من الكمال ومقاييس من الخير لا تجدها الأفكار الواعية ولا العقول الناضجة إلا فى صفحاته الناصعة من تاريخه الخالد أو سيرته التى تفوح بالعطر ، وتنفح بشذى المسك ولا يرى الناس شرفاً كهذا الذى يلتمسونه منه ، ولا قربى تشفع لهم عند الله أحسن من كونهم يجعلونه وسيلتهم إليه .

وحسب « محمد » - ﷺ - أن اسمه مأخوذ من « الحمد » الذى هو نهاية جهد كل إنسان فى سعيه وآخر كدحه فى عمله وقصارى إعلان الشكر لبارئه ، إذا ترادفت عليه نعمه وغمرته آلاؤه وشمله عفوه وأحاطت به وسائل رحمته .

إذ لا يجد سبيلاً إلى الاعتراف بهذا الفضل الذى أثقل كاهله وأسعفته أسبابه وراء قوله : (**الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**)، وليس بعد هذا الشرف الذى حظى به والمكانة التى ارتقى إليها ، واسمه نردده فى السر والنجوى والجهر والعلن مقروناً بالإجلال والاحترام : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾[1] .

وفى هذا كله وسام الشرف وشارة المجد وعنوان الإجلال الذى ليس بعده ولا قبله . .

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جلَّلت وجهه سحابة من الحزن أو غمامة دكناء من الشعور بالمذلة والانكسار ، إن مَرِح زملاؤه أو لعبوا أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا أو جرى فى وجوههم دم الطفولة البريئة أو ماء الصبا الرقراق ، كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير من الزرع ، جف عنه الرى وانقطع عنه الغذاء فسارع إليه الذبول وتخلت عنه الحياة إلا أنه ظل فى مكانه من الحقل يحسبه الناس حياً ويظنونه متهيئاً لمستقبل حافل بالأمانى والأحلام وهو هيكل لا يحس .

إن كنت قد رأيته ففاضت عينك بالدموع وثار قلبك من الجزع وملأت الحسرة نفسك وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة يتخلى عنها المجتمع الظالم ، فلا يمسح عنها العبرات ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك والسلامة من الأذى والبغض للدنيا والنفور من الحياة فذلك هو اليتيم .

وإذا كان للنجاح فى هذا الميدان الصاخب والمعترك المائج والميدان الذى يتصارع فيه على البقاء كل

(١) سورة الأحزاب : ٥٦

كائن حى وسائل من القوة ووشائج من الحيلة فإن إنكسار النفس باليتم وهوانها على الناس لا يجعل هذا النجاح نجاحاً ولا يضفى عليه الثوب الذى يظهر فيه بمظهر البهجة أو الارتياح أو لون اللذة والاغتباط .

وقد رأينا كثيراً من هؤلاء الذين فقدوا العائل وعدموا الراعى كان اليتم هو حجر العثرة فى طريقهم أو العقبة الكأداء فى سبيلها .

فكيف وقد كان « محمد » ـ ﷺ ـ مع اليتم الذى ابتلاه الله به فقيراً من المال محروماً من الغنى على أنه لو لقى مع هذا الشظف الذى كان يقاسيه مجتمعاً مهذباً أو بيئة رحيمة أو إنسانية راقية لكان له منها عزاء أو وجد فى جوارها الدواء .

وقد حدث التاريخ : أن أباه فارق هذه الدنيا بعد حمل أمه به بشهرين أثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد أربع سنوات من وضعه ، وأن أمه لما رأت أن تجرى على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم للمراضع لينشأ الناشىء منهم على الخشونة والنبل والإباء والشرف والنجابة والشمم ، لم تجد له من ترضى بضمه إليها وولت كل امرأة بوجهها عنه بعد أن عرفت أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه إنما تتقرب للأوثان ، أو ترمى بجهدها الذى تبذله فى وجه الشيطان ، لأن لقمة العيش لا تشترى بالمعروف والحياة لا تستقيم إلا لمن يدفع لها الثمن من المال . . ولولا أن « حليمة السعدية » صادفها الجد العاثر والفأل العاطب ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه أو تعود إلى منزلها بصفقة المغبون ، اللهم إلا أن يكون رضاها به لدفع ما عساه أن يوجه إليها من تهمة الخيبة وعار شؤم الرجوع من غير شىء .

وقد ظل الطفل عند أمه « حليمة » وانتهى رضاعة وحبا ومشى وأكل وحده ولبس وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الآباء والأمهات ليجدوا هنالك من رعاية الوالد وحنان الأم ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدوه إلا عندهما ، وتلفت الطفل ليجد هذين فلم يجد ، فبقى فى بيت « حليمة » يمرح مع ابنها ويروح ويغدو إلى أن جاء إليه الملك « جبريل » ليشق صدره الشريف ويخرج منه تلك العلقة السوداء التى يتسرب منها الشيطان إلى النفس ، وينفذ منها إبليس إلى خواطر الناس ، ليلقى فيها ما يريد من هواجس الشر .

وكان مع « محمد » ـ ﷺ ـ فى هذه الحادثة ابن « حليمة » الذى كان فى سنه والذى كان لفرط حبه له وتعلقه به يود ألا يفارقه ، وكانت حليمة لهذه العاطفة التى كان ابنها يكنها لمحمد لا تفكر أن يعود « محمد » إلى أهله ، وبخاصة بعد أن وجدت أن قدمه عليها كانت يمناً وعيشة فى بيتها كان بركة ، وأن المراعى لغنمها قد أخصبت فزاد اللبن وكثر الخير وأن اليوم الذى لا ترى فيه هذا الطفل يملأ بيتها بنور وجهه هو اليوم الذى يكثر فيه شؤمها ويزداد بؤسها .

إلا أنها لم تفسر هذا الحادث الذى حدث لمحمد بشىء سوى أنه نكاية بها أو مؤامرة عليها وهى مشكلة ـ إن وقعت ـ لا تستطيع أن تعتذر منها لأهل هذا الطفل لذلك لم تجد مخلصاً من ذلك الضيق وراء رده لهم وتسليمه إليهم وبراءة ذمتها من أمانة كانت تتحملها . وراح الطفل إلى جده الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه ، يرأمه ويعطف عليه ويوفر له أسباب الهناءة والسعادة ويملأ قلبه بالرضا والارتياح . ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لا يزال يشعر بالفراغ الواسع الذى

تخلف عن فقده لأبيه وأمه . . وعلى الرغم من الانكسار الذى كان يلازمه ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائماً أبداً يشعر أنه يعيش فى دنيا غير دنيا الناس ويحيا فى عالم غير هذا العالم الذى يرفع درجات أهله بالمادة الحقيرة والحطام الفانى والعرض الزائل ، وما رآه راءٍ من زملائه وأقرانه إلا وحمله ترفعه عن السفاسف وبعده عن الدنايا على أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ويطلبون السؤدد .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذى سيقفه من تلك الخرافات وهذه الحرب التى سيعلنها شعواء على تلك الخزعبلات فكان سلوكه الذى يسلكه ومعاملته التى يعامل بها من حوله على طراز من الأدب ومثال من الكمال .

ولقد حدث نفسه : أنه رفع ثوبه عن جسمه ليجمع فيه شيئاً من الحصى والحجارة ـ كما يفعل الأطفال ـ فوجد هاتفاً يزجره فى عنف بالغ وإزعاج مرعب وخوف انخلعت له نفسه فلم يَعُد بعد ذلك إلى مثلها .

وحدث أيضاً : أنه أستأذن أخاه من « حليمة السعدية » أن يترك له الغنم فى المرعى ليذهب هو ـ وحده ـ إلى عرس كان فيه لهو وطرب مما اعتاد الناس حينئذ أن يفعلوه ، فلما ذهب إلى هنالك أخذته سِنة من النوم لم ينتبه منها إلا بعد انقضاء العرس .

وفى هذا كله دليل على حفظ الله له ورعايته إياه وعنايته به .

أما تلك العظمة التى كانت تملأ جوانب نفسه فإنها تظهر كذلك فى كثير من خلاله التى كانت تسيطر عليه والتى كانت لا ترده أبداً موارد الصغار ، أو تنزل به إلى حيز الاسفاف ، ولقد كان لجده « عبد المطلب » بساط لا يجلس عليه غيره ولا يعتقده سواه وهو تقليد كان عند العرب توارثوه عن الآباء والجدود ، فإن تعدى متعد ذلك التقليد ، اعتبروه متمرداً على الأوضاع ، خارجاً على الحدود .

وقد حكوا : أن « محمداً » فى طفولته كان يتمرد على تلك السنة ويتجاوز ذلك التقليد ويسارع إلى المكان قبل أن يحتله جده « عبد المطلب » فإن وبخه أحد أو لامه لائم قال لهم عبد المطلب : دعوه ، فإن دم السيادة يجرى فى عروقه وروح المجد يملأ جوانحه والنزوع إلى الرفعة يدفع به نحو المكان العالى .

وكان الذى يملأ قلب عبد المطلب بهذا اليقين أنه رأى فى منامه رؤ يا فسَّرها له العارفون بتأويل الأحلام : أن رجلاً من صلبه تدين له العرب بالطاعة وتعرف له بالفضل وتذعن له بالشرف وتؤمن له بالسلطان .

وكذلك كان يفعل الطفل مع عمه « أبى طالب » بعد أن انتقلت كفالته إليه بموت « عبد المطلب » وهى روح إن دلت على شىء فهى إنما تدل على أن تلك النفس العالية كانت تسبق الزمن وتستعد للمستقبل وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التى يعيش فيها . وربما خطر ببال إنسان أن يسأل : ولماذا اختارت العناية الإلهية هذا المخلوق الذى طحنته الحوادث وعركته الخطوب ولوَّعته صروف الزمن ونشأ تلك النشأة المليئة بالشدائد والأهوال ؟

وهو سؤ ال يعرف الاجابة عليه من يدرك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يشأ إلا أن يشرب رسوله تلك الكأس المترعة من أول يوم لتنطبع نفسه على الرحمة ويتعوَّد قلبه على العطف وتمتزج روحه باللين ويتسع

صدره لما عساه أن يصادفه بعد ذلك من محن وهكذا يتربى الأبطال وينشأ العظماء ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث وتخضع له الظروف وتطاوعه الأيام والليالى .

على أن الأب والأم والناس جميعاً لم تكن إلا أسباباً ظاهرية للحدب والعطف والرعاية والشفقة والصيانة والحفظ والإرشاد والنصح ولو شاء الله لجعل أسباباً غيرها تؤدى عملها ، وتقوم بوظائفها ، تباركت آلاؤه لا نحصى الثناء عليه ولا ندرك أسراره فى خلقه ولا نفقه من قضائه وقدره إلا ما يكشفه لنا النظر الكليل والفهم المحدود والعقل القاصر وننتهى بعد هذا المطاف إلى الإيمان العميق والتسليم المطلق ، ونعوذ به من شر الوسواس الخناس . .

كان عصـــامياً

من أدبه الذى كان يؤدب به أمته ، وهديه الذى كان يهدى به المسلمين ، ألا يكون الرجل عالة على غيره ، وألا يقعد أحد وغيره يعمل له ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء والمرسلين ! أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

لذلك لم يعرف عنه منذ طفولته أنه استراح إلى صدقة يُتَصَدَّقُ بها عليه ، أو معونة يبذلها باذل له ، وظل حياته كلها ـ قبل البعثة ـ يعمل بالأجرة فى رعى الغنم تارة وفى التجارة تارة أخرى ليأكل من كده ويرزق من كدحه حتى لا يكون عنواناً سيئاً للأفراد الذين يعيشون على حساب غيرهم أو الجماعات التى تُشِيعُ الكسل والنوم فى الأمم .

وكان وهو فى كفالة عمه « أبى طالب » بعد أن أحس من نفسه القدرة على مزاولة البيع والشراء ـ فى التاسعة من عمره ـ يتعلق به ويلح عليه ليأخذه معه ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح وبخاصة بعد أن تبين له إنما يفعل هذا فراراً من التواكل وهرباً من أن ينبت لحمه من غيره .

وأول مرة تعلق به هذا التعلق هى تلك المرة التى استقبله فيها « بحيرا الراهب » فى الطريق إلى الشام وحذره من اليهود ،وأفهمه أنهم سيقتلونه إن ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعته ، وفى شرائعهم تحديد المصير الذى يترقبهم على يديه ، وهم لهذا يجدون فى طلبه ليقطعوا عليه الرسالة وهم بذلك يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه أن ملكه سيزول على يد غلام يولد فى هذا الوادى ، فأمر بقتل كل مولود ذكر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره ، وزال ملكه على يد « موسى » الذى تربى فى بيته ونشأ فى جواره . ولم يزل ـ ﷺ ـ على هذا الخلق يعمل لأصحاب رءوس الأموال بين مكة والشام ، وهو فى هذه الآونة الرجل المحترم والإنسان الكريم على الناس ، يتسابقون إلى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، لأن الأمانة التى تحلَّى بها والصدق الذى غلب عليه والخبرة التى حذقها والبصر الذى كان له والخلال الطيبة التى كانت العامل الأول فى إعجابهم به وحديثهم عنه جعلتهم يعتبرون الظفر به مغنماً من المغانم التى يكون حصولهم عليها عنوان الجد السعيد والحظ الموفور . .

والسيدة « خديجة » لم تكن من دهماء الناس ولا عامة الشعب لأنها من أشراف قريش وأغنياء العرب ، وكثير من وجوه أهل مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ويخطب ودها .

وكانت هى تقابل ذلك بالدفع والامتناع والكبرياء والصلف ، إلا أنها لم تملك أمام هذا الخلق

العظيم والأدب العالى والرأى السديد والفكر الواعى والأمانة النادرة والقلب النقى والرجولة الصحيحة إلا أن تعرض نفسها على هذا الرجل الذى لم تجد له مثيلاً بين أهلها وذويها وقومها وعشيرتها ، وليس ذلك لما بينهما من فارق السن ـ إذ كانت فى الأربعين وكان فى الخامسة والعشرين ـ ولكن لهذه المعانى النبيلة والسجايا الخليلة .

على أنه ـ ﷺ ـ لم يعرف عنه أنه ـ وقد أسلمت إليه « خديجة » هذا القياد وجعلت فى يده هذا المال ـ كان مستغلاً لنفوذه أو مغتصباً لحق سواه بل كانت يده فى هذا المال يد الأمين ونفوذه نفوذ الوكيل وتصرفه تصرف العامل لم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ولم يخطر ـ يوماً ـ فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولاً وفتحت له الدنيا أبوابها فلم يخدعه زخرف من زخارفها ولم يفتنه شىء منها .

وهذه عائشة ـ رضى الله عنها ـ تحكى لنا هذا الخلق وتسجل عليه هذا الطبع وتصف لنا فيه ذلك الزهد إذ تقول : « ما شبع آل محمد ـ ﷺ ـ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض »[1] .

ولعل بعد هذا السرد الذى سردناه من حياته ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث الله به رسولاً إلى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يعيش كَلًّا على أحد ، أو عالة على إنسان وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ممجدين لشأنها معتزين بالإتصاف بها .

وكأنما كانت إرادته سبحانه وتعالى تقضى أن ينشأ يتيماً فقيراً لتكون هذه العصامية أبرز صفاته وأوضح خلاله ، وليكون ذلك امتحاناً لرجولته وتربية له وإعداداً لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره .

وإن الذى يقرأ تاريخه الرائع ومواقفه الخالده وثباته العجيب وبطولته الفذة وجهاده الذى كان مثلا للمجاهدين يؤمن أن ذلك لا يكون .إلا لإنسان عركته الحوادث هذا العراك وامتحنته الخطوب هذا الامتحان ، وهكذا كان العصاميون من عظماء الرجال .

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق محدودة وأسباب العيش غير متنوعة وأبواب الكسب لا تكاد تتجاوز رعى الغنم والإبل وشيئاً من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك باعثاً لقصار الهمم والعزائم أن يحترفوا قطع الطريق أو اغتصاب ما لا يملكونه من متاع سواهم ، ولهذا ظهرت بينهم جماعات السلب والنهب أمثال « عروة بن الورد » و « الشنفرى » وغيرهما ممن يسمون فى الإصطلاح « بالصعاليك » فكان هؤلاء أبغض الناس إليه ، بل كان لا يقل فى بغضه لهم وكراهيته إياهم عن بغضه للذين يستجدون إحسان غيرهم .

وعلى رغم كون دينه حث على التصدق والبذل وزكاة الأموال والزروع ، كان يرى أن هذا الذى يؤخذ من أموال الأغنياء على هذا الأسلوب قذر يتعفف عنه المسلم ، ويترفع عن أخذه كل ذى همة عالية ، وخير للرجل أن يأخذ حبله إلى الجبل فيحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ، ثم يقول :

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى معيشة النبى وأهله ٤/٥٧٩ رقم ٢٣٥٧

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٤/٥٩٠ رقم ٢٣٨٠ وسنن ابن ماجة ـ كتاب الأطعمة ٢/١١١١ رقم ٣٣٤٩

« بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[٢] ، ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه »[١] .
ليعلم المسلم أن الذى يعيش لشهوته لا يساوى فى نظر هذا الدين أحقر الأشياء .

اعتكافه وخلوته

فى كتب السيرة كلها شبه إجماع على أنه - ﷺ - كان قبل مبعثه ميالا إلى الخلوة تواقاً إلى العزلة شديد الشغف بالانقطاع عن الناس لا يحب الصخب ولا يألف الضوضاء ولا يميل إلى الاندماج فى مجتمعات اللهو ، ولا محافل الهذر فلما تكامل وعيه ونضج عقله ودق تفكيره وقوى شعوره بالكون وخالقه والحياة ونظامها والعالم وما فيه من حيوان وإنسان ، وكان قد عرف شيئاً عن ملة أبيه « إبراهيم » - عليه السلام - صارت العبادة همة والانقطاع إلى الله - جل جلاله - شغله الشاغل .

أما حقيقة شريعة « إبراهيم » التى كان يتعبَّد بها ويعبد الله على نسقها فأمر يدخل فى باب الحدس والتخمين والظن والاجتهاد لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها كانت شريعة تضمنت هدياً واعياً وإرشاداً قوياً وأن القرآن تحدث عنها بكونها : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾[٢] واليهود يزعمون : أنها صورة مكررة من التوراة ، والنصارى كذلك يزعمون أنها صورة طبق الأصل من الإنجيل .

وبالغ هؤلاء وهؤلاء فى أن « إبراهيم » كان على تلك الملّة التى هم عليها ترويجاً لدينهم الذى مسخوه بالعبث وغيروه بالهوى وبدلوه بالبهتان وحرفوه بالباطل وأدخلوا فيه ما ليس فيه ، وفضح القرآن دعواهم المزورة وافتراءهم الكاذب حينما قال : ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[٣] .

وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتقويم وهداية ونور ولا يمكن إلا أن تكون علاجاً للبشرية وصلاحاً لحال الإنسانية فى هذا الظلام الدامس الذى كان يخيم على الأفئدة فجعلها الوسيلة بينه وبين الله الذى امتلأ قلبه به ويقينه منه .

وهنالك تحول هربه من الناس وفراره من صخب المحافل وبعده عن ضوضاء الدهماء واعتزاله لكل مكان يضم أهل الشرك أو عُبَّاد الأوثان ، إلى تفكير عميق فى إنقاذ تلك الإنسانية الضالة والبشرية المعذبة فتطلع ببصره إلى السماء أملاً فى قبس ترسله أو ضياء يكشف له معالم الطريق ، وساقته قدماه إلى مكان عال يجعله مع الكواكب فى ارتفاعها والنجوم فى مداراتها فكان فى غار حراء يغذى فكره بالعزلة وينمى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف وطابت له هذه الإقامة ولذّت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحى الذى تفتح له قلبه وانشرح به صدره وطاف فيه خياله لم تكن لتعدله لذة أو تساويه حياة ، ولذلك صار كلما فرغ زاده ذهب إلى أهله فتزود زاداً آخر ليواصل السير ويداوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر « محمد » - ﷺ - إلى جانب كونها رصيداً روحياً ضخماً امتلأ به يقينه مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث وكانت سبباً فى أن تكون صلته بالله خير ما يُمتع به فؤاده ، ولذلك يقول فى بعض أحاديثه : « وجعلت قرة

---

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الاقتصاد فى الأكل ٢/١١١١ رقم ٣٣٤٩
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٦١
(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٧

عينى فى الصلاة »[1] لأنها صلة بينه وبين ربه حيث يناجيه بحاجته ويبثه شوقه ويطلب منه الرضا ولم تكن الصلاة وحدها هى هذه الفرصة التى أرضى الله فيها خواطره وحقق بها أمانيه من ذلك الارتباط الذى يبتغيه والتعلق الذى ينشده ، بل شرع له الصوم الذى هو إمساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة وكفها بالحرمان وتهذيبها بالرياضة وتأديبها بالجوع ، وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة ، وبعد عن الناس واتصال بالله لا يقل عن ذلك الذى يكون بالخلوة وتجىء من طريق التجرد عن الدنيا .

وكانت الشريعة فى جملتها عناية بالروح وتطهيراً للقلب وتزكية للنفس وتربية للجوارح وكانت النية فى العبادات وهى معنى وجدانى بحت شرطاً فى صحتها وعاملاً من عوامل قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواءًا بسواء « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] . بل إن فى هذه الشريعة كثيراً من المعانى التى ترضى نزوعه - ﷺ - إلى الخلوة وميله إلى التأمل فى صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه ، وحث صارخ على النظر فى النجوم والكواكب والصحارى والبحار والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة والحظوظ والأرزاق والصحة والمرض والشقاوة والسعادة ، وهى سياحة طويلة فى ملكوته وسفر مترام فى مدى قدرته ليكون وراء ذلك كله التسليم له بالربوبية والإذعان له بالعبودية والإيمان بأنه وحده « لا شريك له ، له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف فى المساجد . . وفى حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحد هؤلاء السبعة .

الرجل الذى تعلق قلبه بالمساجد فهو لا يغادرها إلا على شوق العودة إليها والاعتكاف فيها ، وكان - ﷺ - إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شمر عن ثيابه واعتزل أهله ، واعتكف فى المسجد .

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول الكريم - غار حراء - الذى كان يتردد عليه ويلتجىء إليه كلما حزبه أمر أو اشتد به هم ، هو الابتداء للفرج الذى أصابه وللخير الذى أغدقه الله عليه ، إذ عليه جاءه جبريل الأمين بالرسالة وبشره بالاختيار ، وبلغه عن ربه قوله : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[3] ثم توالى الغيث واسترسل .

قصة القراءة

جاء فى البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بدىء به - ﷺ - الرؤ يا الصالحة فكان لا يرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى

---

(١) سنن النسائى - كتاب عشرة النساء - باب حب النساء ٦٢/٧ ومسند أحمد ٣٧٣/٦ ، ٤١٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ١٥١٥/٣ رقم ١٥٥

(٣) سورة العلق الآيات : من ١ - ٥

خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم** ، فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به « ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى » ابن عم خديجة ـ وكان امرأ قد تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب ـ وكان شيخاً كبيراً قد عمى ـ فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نَزَّل على موسى ياليتنى فيها جذعاً ، ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى »(١) .

وفى هذه القصة دليل قاطع على أن الطابع التى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام والفقه فى الدين والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة وخيرات سخرها الله للإنسان وذللها للناس ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه ـ ﷺ ـ هو طلب القراءة : « اقرأ » ، ومتى أزال المرء عن نفسه غشاوة الجهل وقبس من نور العلم واهتدى بالمعرفة ، كان من السهل عليه إلى حد بعيد أن يتجه إلى الخير وأن يسلك سبيل الصواب وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله على سنن الحق ومنطق الصدق وشرعة الإنصاف وكأنما العلم فى هذه الدنيا هو الشعاع الهادى والمصباح المنير .

وهنا لفتة جميلة لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو يخطر بها الخطور الخاطف ولكنه يتأملها تأمل الفاحص ويتروى فى أخذ العبرة منها تروِّى العاقل ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو الأخرى ، ليفهمه ـ ﷺ ـ وتفهم أمته معه أن الذى يطلب الأمر العظيم لابد أن يحتال له ، ويجدَّ فيه من غير ملالة ولا سأم ، وألا يكون الإخفاق فيه ، أو عدم الحصول عليه سبيلاً إلى اليأس منه أو قطع الرجاء فيه فمن جد وجد ومن زرع حصد .

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطراً

وكل إنسان يدعو إلى مكرمة أو يحاول تقويم معوج أو ينادى بمبدأ من المبادىء أو يوجه جماعة من الجماعات إلى طريقة مثلى وخطة سليمة أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات وتواجهه المصاعب وتقف فى سبيله العراقيل ، فيوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والاستهانة بالجهد المبذول والتعب الحاصل والشدائد الطارئة التى يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ولقد كان حديث « ورقة بن نوفل » للنبى ـ ﷺ ـ وقوله له : « ليتنى حياً إذ يخرجك قومك . . لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب بدء الوحى ٥/١

به إلا عودى » بمثابة التأويل لهذا الضم الذى حصل من جبريل إلى حد أن بلغ منه الجهد ، فإن التاريخ الذى مر به - ﷺ - والشدائد التى لاقاها والخصومات التى قامت فى وجهه والحروب التى خاض غمارها من أعداء الدعوة كانت تطبيقاً لتلك الصورة التمثيلية الرائعة التى مثَّلها أمين الوحى وتصديقاً - كذلك - لقول « ورقة بن نوفل » : لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلا عودى » . . ولكن محمداً - ﷺ - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل والخوف الذى اعتراه والهلع الذى أصابه وتنبؤ ورقة بإخراج قومه له وعداوتهم إياه لم يثْن ذلك من عزمه أو يفتل طموحه أو يطفىء نار الشوق إلى الغاية التى كان يترقبها وظل بعد ذلك يود أن تتكرر الحادثة وكان بصره دائماً يتطلع إلى السماء وقلبه دائماً مرتبط بغار حراء رجاء أن يتجلى الله عليه وتحفه الرحمة منه فلما فتر عنه الوحى ظلت جوانحه تغلى وفؤاده يخفق وعروقه تتمزق وأخذ اليأس من الدنيا يعاوده والكراهية للحياة تعتريه . . إلا أن كلمات خديجة التى وجهتها إليه فى ساعة الفزع - إذ قال لها لقد خشيت على نفسى - كانت فى أذنه فى كل وقت أشبه بالموسيقى الحلوة والنغم الحبيب يذكرها بينه وبين نفسه : « لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتَقْرى الضيف وتعين على نوائب الحق » ويحاول أن يطمئن إلى أن ربه أكرم من أن يخذله أو يخزيه مع ما هو عليه من خلال وما هو فيه من طاعة .

والبطولة التى تبدت فى موقف خديجة - مع أن الزوجة أجدر بالجزع وأحق من غيرها بالفزع - تدل على أن العزيمة القوية والإيمان الصادق والعقل الراجح والرأى السديد وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجل بلسم جراحه ، وراحة نفسه ، وظل له إذ اشتدت عليه حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفح الحياة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] فإن العاقل يفهم معنى قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » تمام الفهم ، من مثل هذا الموقف الذى وقفته خديجة منه - ﷺ - والرجل تصيبه المتاعب وتعتريه الهموم وتتراكم عليه المصائب فتضيق الدنيا فى وجهه وتلتوى المسالك أمامه ، فلا يشع له بصيص النور إلا فى وجه شريكة حياته التى تمسح دموعه وتداوى آلامه وتحمل همَّه وتجفِّف مصابه ، بما تكنه له من ود ، وتضمره من إخلاص ، وترجوه من خير ، وتحلم به من أمان وآمال .

ما ودّعك ربُّك !!

على الرغم من الخوف الذى اعتراه - ﷺ - والفزع الذى أصابه والهزة العنيفة التى كادت تقصف بقواه ، لولا ما كان من أمر « ورقة » وعزاء « خديجة » فإن شعوره بالشوق الحار إلى معاودة الوحى إياه وملاقاة جبريل له - كانت تُقَضُّ عليه مضجعه ، وتملك عليه تفكيره كله ، فكان دائم الرغبة إلى تكرار ما حدث ورجوع ما كان وبلغ من حنينه إلى الملك وحبه له وظمئه إلى مشاهدته أن كان يزرع الأرض بقدميه صاعداً إلى حراء أو هابطاً منه متلفتاً هاهنا ، علَّ صوتاً يسمعه ، أو نداءً يقرع أذنه أو بشيراً يقابله أو هاتفاً يناجيه أو نوراً يسطع عليه ليطمئن خاطره ، ويذهب قلقه وتتبدد وساوسه وينقض بأسه أو تنقشع

(١) سورة الروم الآية : ٢١

عن تلك السحابة من الحزن الذى كان يلازمه من جراء قالة المرجفين وحديث الشامتين الذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد تركه ربه وبغضه مولاه وانصرف عنه ذلك الملك الذى كان يزعم أنه ينقل له خبر السماء ويبلغه التحيات المباركات عن خالق الكون كله ، ولا يؤلم المرء أو يحز فى نفسه أو يسىء إلى شعوره ويكدر خواطره مثل الشدة بعد الفرج والإحجام بعد الإقدام ، والنقمة بعد النعمة والشر يجىء بعد الخير .

وقد ظل هذا الحرمان الذى ابتُلى به مدة يختلف المؤرخون فى تحديدها على أقوال متضاربة وآراء متباينة من أربعين يوماً إلى ثلاث سنوات إلا أنهم لا يختلفون فى أنها أشد أيام مرت به وأوجع شدائد صادفته وآلم فترات عاشها فى الحياة .

ونحن من جانبنا إنما نتصورها أسلوباً من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية : إنه أحسن الوسائل للتعلق بالمطلوب والتلقى له والحرص عليه ووعيه وعياً لا يخامره شك ، ولا يداخله ريب وقد كانت كل خطوات جبريل معه - ﷺ - تربية وتهزيباً وتعليماً وتوجيهاً وإرشاداً ليكون منها بعد ذلك كله أحسن المواعظ والعبر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .

على أن الوحى بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه وشفى غيظه وأذهب غليله وأرضى خاطره وبدَّدَ همومه وأحزانه بما أسبغه عليه من بر وأضفاه عليه من معروف وأشاعه فيه من أمل ورجاء : ﴿ **والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[1] ومحمد - ﷺ - بإجماع المنصفين من فحول البلاغة لا يدانيه أديب ولا يدرك شأوه فصيح ولا يجرى فى حلبته إنسان وقد وجد فى هذا الخطاب الذى وُجِّه إليه والأسلوب الذى تحدث به الوحى نمطاً من القول ولوناً من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل ، سحره تصويره وخلبه بيانه ، وامتلأت منه نفسه بما له من روعة وما فيه من حسن ارتفع إلى سماء عالية فلم يسعه إلا أن يقف منه موقف الذاهل إعجاباً بتمكنه من التأثير عليه تمكناً أنساه ما كان يعانيه قبل ذلك من حرارة الحرمان ولوعة الفراق .

ولقد رأى - ﷺ - قوله سبحانه : « والضحى والليل - الآيات » خطاباً يلامس وجدانه ويثير أحاسيسه فهو يقسم له بالضحى والليل وبهما يذكر محمد ليل همه وظلام حيرته وضيق صدره وجرح نفسه وتراكم هواجس وكأنما يتخيل باقترانهما ومجىء الضحى آخذاً بتلابيب الليل : أن مع العسر يسراً ، وبعد كل ضيق فرج فيتطامن ويهدأ ويسكن ويسكت .

وفى ذلك العرض الإجمالى لتاريخه : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ تأخذه الدهشة لأنه تصوير ناطق وتعبير صادق لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضراً معه ، فينتقل من تلك الدهشة التى تبعث الرهبة فى نفسه والمهابة فى قلبه إلى قوله : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر** ﴾ فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف ويستريح الراحة كلها

---

(١) سورة الضحى الآيات من ١ - ١١

هذه الوصية الأكيدة التى يوصيه بها ربه لأنه ذاق اليتم ، وعرف مرارة الحرمان التى قد تحمل صاحبها على ذل السؤال وكأنما يناجيه فؤاده بأن شيئاً من ذلك كله لا يكون منه ، ثم يعود إلى ذلك الصوت الذى يهز ضميره : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فيحمد الله على هذا الوعد الحلو والبشارة الصادقة .

وهكذا جو من البهجة والرضا والسعادة والأمل والغبطة والارتياح ينسى بها كل شدة كانت وكل كرب كدَّر صفوه وأتعب خاطره وهو ما بين الاحتفال بشأنه والعناية بأمره والوعد له والرعاية التى تحيط به من كل جانب فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

لكنه - ﷺ - مع ذلك كله كان يقف فى الميدان وحده إلى أن آمنت به زوجته خديجة وصارت تصلى الصلاة التى علَّمه إياها جبريل وتسبقها بالوضوء والطهارة وتقرأ ما يقرأ من القرآن وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف إلى جانبه بما لها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر إليه كزوج إلى مؤمنة مخلصة صادقة ، تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية فترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله به عليه من الهدى والإرشاد وكان إحساسه منها بذلك كله يشد أزره ويقوى ساعده ويبعث فى نفسه الإيمان بأنه منتصر لا محالة طال الأمد أو قصر . .

ثم آمن به من الغلمان « على بن أبى طالب » الذى كان يتربى فى بيته والذى أراد النبى - ﷺ - بصنيعه - معه أن يرد لعمه أبى طالب بعض جميله عليه إذ كفله صغيراً بعد انتهاء كفالة عبد المطلب . . ولم يتدنس على - كذلك - بشىء من دنس الجاهلية - لذلك قيل عنه كرم الله وجهه !!

وآمن به - أيضاً - مولاه « زيد بن حارثة » ، وآمن « أبو بكر » وكان وجيهاً فى قريش يهابونه ويحترمونه ويكبرون رأيه وتفكيره فكان لإيمانه أثر بارز وفائدة عظمى حيث قفى على أثره « عثمان بن عفان » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبى وقاص » وغيرهم ممن قوى بهم ظهر النبى وصار حديث الإسلام يتهامس به العرب فى كل مجلس .

تَبَّتْ يَدَا أبى لهب

كان أبو لهب اللعين عَمًّا للنبى - ﷺ - يجمعه به آصرة الرحم والقرابة ووشيجة الحسب والنسب واللحم والدم والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم وأكثر حمية لأهليهم وذوى قرابتهم ولا يحتملون فيهم أذى ولا يقبلون أن يلحق بهم ضرر أو ينالهم مكروه معظم ما كان يقع بينهم من حروب ، تراق فيها الدماء وتزهق النفوس يرجع سببه الأصيل إلى الحمية للقرابة والدفاع عن العرض أو الانحياز إلى جانب النسب .

والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا الرجل - على ما بينه وبين النبى من القرابة - يحقد عليه هذا الحقد - ويبغضه هذا البغض ويشتغل بعداوته والصد عنه والتنفير منه وإقامة الأشواك والعقبات فى طريقه إلى هذا الحد ؟!

ولقد دفعت الحمية لمحمد - ﷺ - والغيرة عليه والعصبية له « الحمزة بن عبد المطلب » وهو أخ لأبى لهب أن يعلن إيمانه بابن أخيه رداً على ما بلغه عن أبى جهل من تطاوله على محمد وسخريته منه .

فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة والوشيجة غير الوشيجة والدم غير الدم ؟ أم أن الجهل هو الذى يطمس على البصائر ويحول بينها وبين أن ترى الحق وتتبع سبيل الرشاد ؟

ويكفى أن التاريخ الذى لا يظلم أنزل كل إنسان المنزلة التى تليق به والمكانة التى تناسبه وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من نار إلى جانب ذلك التشنيع الذى أصابه والعار الذى لحق به وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد وهو ازدراء وتنكيل لم يكن محمد ليقدر عليه ولا يستطيع أن يلحقه بأبى لهب ، ولو كان أحد من العرب صنع ذلك الصنيع بأبى لهب لزمجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها ، ثم جعل الأرض ترتوى بدم القتلى ، وبخاصة لذلك الازدراء الذى يجعل زوجته من الابتذال والمهانة بتلك المثابة ، وللمرأة عند زوجها تقدير عظيم واحترام بالغ يجعلانه يجود لها بنفسه ويبذل فى سبيلها أغلى ما يملكه ، لكن الذى فعل بأبى لهب ذلك هو جبار السموات والأرض ، لهذا فإن أبا لهب ذهل ودهش ، ولم يملك إلا الحقد الدفين والكيد الخفى والعداوة الكاشمة أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة وذهبت من غيظها بسَلَى جزور ورمت به النبى - ﷺ - وهو ساجد لربه فى إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فتر عنه الوحى وترضاه الله بعودته إليه ، وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من ذوى المكانة فى العرب ، وكانت الدعوة لا تزال فى الخفاء لا يجرأ أحد على إعلانها ، ولا يستطيع إنسان أن يرفع رايتها ، واتخذ المسلمون دار « الأرقم بن أبى الأرقم » مخبأهم الذى يجتمعون فيه ويتدارسون لئلا يتعرضوا للأذى أو يستهدفوا للضرر وظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى نزل عليه الوحى بقوله جل جلاله : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[1] عسى أن يكثر بهم سواده ، أو تتمكن منزلته بينهم أو تقوى آصرته فى جوارهم فلم يسعه إلا أن يمتثل أمر مولاه ، وفى هذه الآونة صعد الصفا ونادى : « يا صباحاه » ! وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة للحرب والنفير للقتال وكانوا يرون تلبيتها والاجتماع بها من أوجب الواجبات وأقدس الأمور فلما سالت عليه شعاب الحى من كل ناحية وغصَّ بهم المكان ، قال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىَّ ؟ » وهنالك قالوا له : « نعم .. ما جربنا عليك كذباً ! » فقال - ﷺ - : « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ! .. إنكم لتموتون كما تنامون ولتبعثون كما تستيقظون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » وإلى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف وسلامة العاقبة وقبول الدعوى أو رفضها ، لأن محمداً - ﷺ - قد أتى البيوت من أبوابها وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد وأخذ منهم صكا على أنفسهم بأنه صادق غير كاذب فلم يكن إصرارهم على الباطل بعد ذلك كله إلا مكابرة وعناداً كان الأليق بهم أن يتحاشوهما ولذلك كان هذا الرد من أبى لهب على الرسول الكريم : « تبا لك : ألهذا جمعتنا ؟ » ومع كونه تصويراً للطيش ودليلاً على الحمق لا يستحق إلا هذا الردع القاسى والرد المؤلم : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله**

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢١٤

وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾[١] وكانت تمشى بالنبى عند قريش لتؤلبهم عليه وكأنها بذلك تحمل الحطب لتشعل به النار ، وكأن فى عنقها حبلاً من ليف لتحزم به ذلك الحطب وهو تصوير - كما ترى - يسمو على كل تصوير .

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض ، وينال من العلية والسفلة والكبار والرؤساء والعظيم والحقير وكان العرب يثورون الثورة العارمة لهذا الهجاء إلا أنه كان فى الكثير الغالب من النوع المبتذل أو الأدب المكشوف ، يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه .

وهذا الهجاء الذى أصاب أبا لهب كان من طراز جديد ، لأنه لم يعد أن أظهره مع ماله وولده فى هيئة الذليل الحقير أمام عقاب الله له يوم القيامة ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وأن امرأته التى هان شأنها وذهبت كرامتها وابتذل عرضها لا تعدو أن تكون فى صورة ﴿ حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ﴾ وأمام هذا التهديد المقلق والهجاء المقذع والتنكيل الشديد بأبى لهب بدأت دعوة محمد - ﷺ - ترفع رأسها وابتدأ وابتدأ المسلمون - كذلك - يسفّهون معبودات المشركين ويعيبون آلهتهم الباطلة ويعلنون أن الإسلام حق لا مرية فيه ، حتى إذا ما بلغ عددهم الثلاثين ، وكان « الحمزة بن عبد المطلب » ، و« عمر بن الخطاب » وهما دعامتان قويتان للمسلمين ، قد أسلما ، نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[٢] وهنالك أخذت الدعوة طوراً آخر تجاوزت به مرحلة الهمس إلى مرحلة الإعلان .

رَجُلانِ

رجلان كانت الدعوة الإسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما إليها ، ووقوفهما إلى جانبها يدافعان عنها ويشدان من أزرها ويجعلان كفتها ترجح على كفة الشرك والمشركين كلاهما بألف رجل أو يزيد لأن بطولته النادرة وشجاعته الفذة وصراحته البالغة من شأنها أن تجعل قريشاً تسكت عن « محمد » - ﷺ - وتخشى بأسه وتحسب لحربه ألف حساب ، أولهما « الحمزة بن عبد المطلب » - سيد الشهداء - وثانيهما « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه .

أما الحمزة هذا فكان سبب إسلامه غيرته على الرسول وحميته له وغضبه لأجله وكراهيته أن تنال منه يد آثمة مهما كان شأنها وقد رووا أن أبا جهل - قبحه الله وأخزاه - تلاقى بالنبى ﷺ عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ثم لطمه على وجهه وسرى ذلك الخبر فى شعاب مكة وقابله الناس بالبشاعة والاستنكار والوجوم والسخط وعدم الرضا والارتياح ، وكان « الحمزة » فى لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالصيد والقنص والرياضة فى الصحراء بعيداً عن العمران فلما رجع من رحلته وحضر من سفره وانتهى إليه هذا الخبر المؤلم لم يستطع الصيد ولم يقدر على الأغفاء ولم يحتمل مع كفره وكونه جندياً من جنود المعارضة لابن أخيه أن يسكت على هذا الضيم الذى أصابه فى أهله فذهب إلى المسجد وأخذ بتلابيب أبى جهل وضربه بالقوس

---

(١) سورة المسد الآيات من : ١ - ٥

(٢) سورة الحجر الآية : ٩٤

على ناصيته ولما شجت رأسه وسال دمه وأراد بعض أصحاب أبي جهل أن يثأروا له أمرهم أن يكفوا ، وقال لهم : أنا الباغي وعلى الباغي تدور الدوائر وأفهمهم أنه تطاول على ابن أخيه ظلماً وعدواناً .

وفى هذا الوقت لم يسع « الحمزة » إلا أن يواصل سعيه لشفاء غليله من أبي جهل وفريق المشركين أجمعين فذهب إلى ابن أخيه وأعلنه أنه منذ هذا اليوم قد صار جندياً من جنود الله فى ميدان الدعوة إلى دينه ، والدفاع عن شريعته ثم ظل إلى جانبه - ﷺ - وكان الرسول يحبه حباً لا مزيد عليه ولأن الذى قتله (وحشى) - عبد جيد بن مطعم - فى غزوة أحد كان لا يحب أن يراه على الرغم من أنه أسلم بعد ذلك - والإسلام يجب ما قبله - ولذلك يحكى هذا القاتل عن نفسه : أنه كان أشد الناس ألماً لما كان من الرسول له وظل ذلك يحز فى قلبه ، وكان يود مخلصاً أن يرضى عنه الرسول ، ﷺ فقيض الله له أن يقتل مسيلمة فى خلافة أبي بكر فاطمأن خاطره ورجا من الله سبحانه وتعالى أن يكون ذلك إرضاءًا للنبى - ﷺ -

وثانى الرجلين « عمر بن الخطاب » الذى لم يجد الزمن بمثله فى تاريخ الاسلام والمسلمين عدالة وإنصافاً وصرامة على الباطل وتمسكاً بالحق ودفاعاً عن الدين ودفعاً لراية القرآن واعتزازاً لكلمة الله ، وإرهاباً للمشركين وإذلالاً للمعاندين وتوطيداً لدولة محمد - ﷺ - وقد كان فى كفره درعاً للشرك وسيفاً للشيطان وقوة لخصوم الدعوة وكان السبب الذى جعله يفيق من غوايته ،يثوب إلى رشده ويشرح الله صدره للإسلام أنه أخذته الحمية لما فعل « الحمزة » بخاله أبي جهل فهام على وجهه وأخذ طريقه إلى « محمد » ليقتله وبينما هو فى الطريق لقيه أحد أصحابه فقال له : إلى أين يا عمر ؟ فأخبره الخبر ، فأنكر عليه القصد وقال له : كان أولى بك أن تعمل ذلك بأهل بيتك لقد صبئت أختك هى وابن عمك زوجها ! وما كان (عمر) يدرى من أمر هذا قليلاً ولا كثيراً فغلى دمه فى عروقه وبدا على وجهه الغيظ وحوّل قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما فى بيتهما وحوّل قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما كالأسد الهصور ولما أشبعهما ضرباً نظر إلى وجه أخته الذى كان يسيل منه الدم فسكن ثائره وهدأت حدته وكانت قد أخفت بعض صحائف من « القرآن » .

فقال لها : ما هذا الذى واريته عنى ؟ قالت له : إنه كلام رب العالمين فطلب منها أن تواصل القراءة ليسمع هو إلى ذلك فظلت تقرأ فى سورة (طه) إلى أن وصلت إلى قوله تباركت أسماؤه : **﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾**[1]

وهنالك تطامن الأمر من (عمر) ، وزال غضبه وتحولت غلظته إلى رقة وكراهيته إلى محبة وجحوده إلى إيمان وأحس كأن الأرض تميد به وأن السماء تنطبق عليه وأن يوم الحساب قد حضر وأنه قذف به فى جهنم فصاح بأعلى صوته أين الطريق إلى محمد ؟ لأقتبس من نوره وأروى الظمأ من رحيقه وأمتع النفس بعذب بيانه وكان المسلمون يترقبون فى كل وقت من « عمر » أن يفتك بهم أو يتطاول عليهم لذلك أخذ كل

---

(١) سورة طه الآيات : من ١٤ - ١٦

منهم يقول : أنا أكفيكم شره وأرد عنكم عدوانه وقال النبى - ﷺ - « بل علىّ به فإنى أقدر عليه منكم » واستقبله النبى بقوله له : « أما آن لك أن تهتدى يا عمر ؟ » .

وكان رد عمر بالاذعان والتسليم والايمان والانقياد واعلان الشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأشاع خبر انضمامه إلى معسكر المسلمين الذعر والهلع فى نفوس المشركين وأخذ المسلمون يطوفون معه على مجالس قريش ومنتدياتها ليوقعوا فى قلوبهم الرعب ولم يرض « عمر » منذ أعلن إسلامه أن يكون المسلمون فى خفية بدينهم وقال للنبى - ﷺ - : « يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ . قال له : نعم يا عمر ، فقال له : علام نرضى الدنية فى ديننا ؟ وهنالك أمر - ﷺ - بالجهر بالدعوة .

وتاريخه - رضى الله عنه - حافل بالأمجاد ، ملىء بالمكارم يعطى الصورة الرائعة عن الحاكم الاسلامى العادل ، والجندى المجهول فى مؤازرة الحق ، ومعاونة الانصاف ، وفى الوقت الذى رغم أنف كثير من المؤمنين على أبى بكر لأن تكون الخلافة له من دونهم كان هو يسانده ويساعده وينصح له ويشير عليه كان « أبو بكر » لا ينسى له ذلك ولا يغمطه بل كان دائماً أبداً كلما أنار له الطريق أو فتح فى وجهه المغلق يقول له أمام الأشهاد : « لقد كنت أولى بها منى يا عمر » ولا يرى أن ذلك يضيع كرامته أو ينزل بقدره ، أو يحمل الناس على أن يتمردوا عليه .

ولعمر فضل التحرر والانطلاق وعدم الجمود فى الشريعة الاسلامية لأنه كان - حتى والوحى ينزل - إذا لم ينقدح فى ذهنه الحكم أو لم تظهر فيه حكمة التشريع يسأل ويستوضح ولا يرضى أن يأخذه قضية مسلمة بل كان هو بنفسه مدرسة للمسلمين تعلموا منها حرية الرأى والعلة تدور مع الحكم وجوداً وعدما وأمثال ذلك من القوانين التى تدل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

والله يا عمىّ . . !!

كان لزاما على « محمد » - ﷺ - وقد أمره ربه بإعلان الدعوة ونشر الرسالة . وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره بعض الكبار أمثال « أبى بكر » « وعمر » « وعثمان » « وحمزة بن عبد المطلب » وهم قوم لهم منازلهم المرموقة ومكانتهم المحترمة ، وبعد أن صار أبو جهل واضرابه من المعاندين يشتغلون ليل نهار فى مناوأته والكيد له والتنفير منه والتشويه لدعوته لذلك أخذ يبرز فى المحافل ويذهب إلى الأسواق فيستجيب له من يستجيب .

وكانت تلك الحال أشبه بحرب باردة قامت بينه وبين قريش فصارت تؤمن إيماناً لا يخامره شىء من الريب أن مجد زعمائها مقضى عليه وجاههم فى سبيله إلى الزوال وسلطانهم آخذ فى التقلص وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد - ﷺ - وإن لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ولا سلطاناً سينازعهم السيادة - إلا أنه يذيب الفوارق ، ويمزج بين الطبقات وينفر من التسلط ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب والثروة المغتصبة والغنى من غير الطريق المشروع ولا يملك للأنانية الجوفاء ولا الأثرة البغيضة .

وقد كانت السدانة على البيت الحرام والرياسة على العرب وحق الفصل فى الخصومة والحكم فى الديات والتقدم فى المجتمعات سمات بارزة تميزهم على غيرهم وإذا استرسل ذلك الداعى فى دعوته فسوف يكونون سوقة بين الناس لا يمتازون عن غيرهم بفضل ولا يتقدمون بجاه ولا يشرفون بحسب ولا نسب لأن « محمدا » يقول : « الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »[١] وهنالك أجمعوا أمرهم على الوقوف فى وجه « محمد » مهما كلفهم ذلك كله من ثمن وشرعوا يتخذون مختلف الأساليب فلما أعيتهم الحيل كلها لم يجدوا إلا الالتجاء إلى « أبى طالب » ظنا منهم أنه هو الذى يحمى ظهره ويقف بجانبه فإذا تخلى عنه صار من السهل عليهم أن يردوه أو يمنعوه من المضى فى سبيله .

وكان الالتجاء إلى « أبى طالب » فى لين وسياسة وترغيب وإغراء حينا أو فى شكل تهديد ووعيد وسخط وغضب حينا آخر فمرة يعرضون عليه أن يتبنى بعض الفتيان الذين فيهم وسامة وحسن ، وقوة وجلد على أن يسلم لهم ابن أخيه ليفعلوا به ما يريدون فيقول لهم أبو طالب :

« بئس الرأى ما ترون » ومرة أخرى يمتزج الوعيد بالوعد والرغبة بالرهبة والأمن بالتخويف والرضا بالغضب ، إذ يقولون له : إن كان ابن أخيك يريد ملكا ملكناه علينا وإن كان يريد المال أعطيناه حتى لا يرجو مزيدا وعليه بعد ذلك أن يكف عن آلهتنا التى ازدراها ومعبوداتنا التى حقرها وإلا فإن لنا معك ومعه حساباً آخر وسلوكا جديداً وأبو طالب أمام هذا القول يقف موقف الحيرة ويظل يفكر فى أهله وقومه كما يفكر فى ابن أخيه الذى لا يصح له أن يسلمه أو يخذله أو يخيب رجاءه فيه وفى تيار هذه الوجدانات المتناقضة والعواطف المضطربة ، يذهب إلى (محمد) - ﷺ - ليأمره أن يكف عن إيلامه لهم وعدوانه عليهم وإحراجه إياهم وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى عرضوه والعدة الطيبة التى وعدوه بها وفهم - ﷺ - من حديث عمه أنه ينوى أن يتخلى عنه ، فلا يقف له دونهم فأغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ويستعين بخالقه ويعوّل على القوى القادر ، ثم قال له فى لهجة المطمئن الواثق : (والله يا عمى ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما رجعت عن هذا الأمر أو أهلك دونه)[٢] فرق قلب « أبى طالب » وقال له يا بن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك ولا أخذلك ولا أسلمك لهم . . !

ومن حق الأديب البارع والفيلسوف الماهر والناقد البصير أن يقف أمام هذه الحملة التى نبعت من فيض ايمان « محمد » بربه وصدرت عن قلب امتلأ بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة ، ولا لدنيا الناس ولا لأكاذيب الجاه أو السلطان .

ترى هل كان يتروى فى نسجها ويتأنق فى صوغها ويفكر قليلاً أو كثيراً فى تأليفها ، لتنطلق انطلاق السهم وتدوى دوى المدفع وتسير مسير الشمس فلا فم إلا وهو مرددها ولا لأس إلا هو واعيها ولا عقل إلا وهو مكبرها ويعجب بها أم أنها صدرت عن طبع وانحدرت عن سجية وحدثت من غير تكلف شأنها

---

(١) الدر المنثور للسيوطى سورة الحجرات ٥٨٠/٧

(٢) تاريخ الطبرى ٣٢٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقى ١٨٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٣٠/١

شأن الشهيق والزفير ، وهى وحدها تطوى ذلك التاريخ طيّا فى ماضيه وحاضره وتبرز لهذه الأمة سيرة المنقذ واضحة لا غموض فيها بسيطة لا تكلف معها .

وفى الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه والايمان الذى أنار بصيرته والثقة التى لا حد لها فى خالق الخلق وبارىء النسم ومصرف الكون تجعله يسخر من كل هذه المظاهر وما الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والسماء والجاه والسلطان والنفوذ والحكم والرياسة والملك أو ما يسوى ذلك وذلك ؟ أليست كلها من خلقه جل جلاله ؟ ونتيجة حتمية لقوله : « كن » ولو شاء لأزالها وسلبها بهجتها على أن الذى امتلأت يداه بأعظم من الشمس والقمر لا يفرح بها ولا يطرب لحيازتها وقد ملأ « محمد - ﷺ - يديه برضا ربه عنه وحب مولاه له وأفعم قلبه الكبير به وهى ثروة - كما يرى - لا يكون القمر والشمس معها إلا هباء منثوراً وما المال والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه إلا كمالا نفسياً يطلبه المرء ليجبر به نقصاً كان به أو يغطى عواراً لحقه « ومحمد » - ﷺ - كما جاء فى سورة الضحى - صنعه خالقه على عينه وأدبه سيده بأدبه وتعهده مولاه بعنايته ، وطهره بارئه من رجس الشيطان فكان قلبه نقياً وفؤاده سليماً وضميره متيقظاً وروحه عالية وهمته بعيدة وعقله رشيداً وإيماناً حمياً . . وكل هذه معان إذا أضفى الله - سبحانه وتعالى - رداءها على إنسان صار بها من الأبرار المقربين لا يف فى غرض ولا ينحرف فى قصد ولا يلتوى فى سنن ولا يقصر فى واجب ولا ينام عن مكرمة ولا يقف دون غاية .

وهذه الكلمة التى قالها (محمد) - ﷺ - إلى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف واحتقار لما كان لديهم من دنيا وازدراء لما كان عندهم من موازين ترسم للمصلح الاجتماعى التصميم الجازم الذى يصير عليه والعزيمة القوية التى يتحلى بها وإلا كان جهده هزيلاً وعناؤه ضائعاً وسعيه خائباً . . وذلك هو المنطق الذى وصل به الرسول الكريم إلى القمة وانتهى به إلى الغاية مع قلة عدده وكثرة خصومه .

عنت ومكابرة . . !!

التجأت قريش مع النبى - ﷺ - إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت فى كل محاولة وخابت فى كل سعى وأخفقت فى كل جهد ظناً منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأغرار فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ولا يكون هذا الرسول فى نظرهم إلا صورة للرجل المحرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذى يقذف بالدعاوى طويلة عريضة من غير دليل يؤيدها أو برهان يصدقها ولم يدر بخلدهم أن زيفهم سينكشف وأن سحابة الصيف لابد أن تنقشع : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾[1] كما لم يدر بخلدهم أن الخصم الذى يلتجىء إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن ضيق عطفه وسفاهة رأيه وطيش عقله وأنه لا يزيد شيئاً - فى ميزان الحق - عن دموع المرأة التى تفزع إليها حينما يدركها الإعياء ويصيبها الهزيمة وهم أهل لدد ، وأرباب بيان ودهاقين منطق وأصحاب بلاغة رائعة وما كان يظن ظان أنهم سينحدرون هذا الانحدار أو يسفون ذلك الاسفاف أو يتهافتون إلى هذا الحد .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

والذى يتبع « القرآن الكريم » ليقف على ما كان منهم من عنت ومكابرة يجد الأعاجيب من أغاليطهم والأكاذيب فى دعاواهم ولعل ذلك كله يبرز بصورة واضحة إذ كانوا يتهمونه فيما يقوله عن ربه وينقله إليهم من وحيه ويزعمون أنه يمليه رومى كان يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من جنس له تشريع ولقومه ثقافة ومعرفة وأن هذا الذى يجىء به - ﷺ - فيه من المنطق وله من سيما التربية والتهذيب وعليه من مسحة الأخلاق والأدب ما يروج لتلك الشبهة المدعاة وتناسوا أن ذلك الكلام الذى يقرؤه « محمد » من معين عربى بحت وبيان لعربى محض ليست عليه سحنة الترجمة ولا فيه طابع النقل وقد كان أولى بهم وهم نقدة الكلام وأصحاب الذوق الأدبى ودهاقين البلاغة أن يلتفتوا إلى البون الواسع بين الجنسين ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[1] لكن ذلك على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذونى » ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ولهذا كانت محاولاتهم مفضوحة حتى بينهم وبين أنفسهم وليس أدل على فضيحتهم من أن « القرآن » لسحر بيانه وعذوبة منطقه وقوة أسره ودقة تصويره كان يستهويهم جماله ويبهرهم نسجه ويأخذهم حسنة فلا يملكون أن يتحولوا عنه أو يميلوا إلى سواه وكانوا لذلك يختلسون الخطى ويتحينون أن تسنح لهم فرصة التنكر ، ليستمعوا منه بعضاً عما يقرؤه الرسول - ﷺ - حتى إذا ما فشا عليهم ذلك وعرف عنهم وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة وأن يتحولوا جميعاً إلى مفتونين بجرسه مأخوذين بسحر ألفاظه تعاهدوا على الكف وأكدوا بينهم المواثيق على ألا يفعلوا ثم كانت النتيجة المزرية أن كان يتلاقى كبارهم متلبسين بالجريمة فإذا تعاتبوا ادعى كل منهم أنه كان يتجسس على أخيه !!

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن من أنباء السابقين ، قصصاً جاء بها للاتعاظ وهو نوع من التربية الحكيمة الذى يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم كما قال سبحانه ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾[2] .

وظنوا - هم - أن « محمداً » يؤلف ذلك كله من خياله ويخترعه من وهمه قصداً إلى التلهى ليلتف حوله الفارغون من العمل المتعطلون عن الوظائف بعثوا « النضر بن الحارث » ليطوف على أهل القصص من الروم والفرس ، ليعارض « محمداً » ويحول الناس عنه : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين** ﴾[3] وفاتهم أن الذى يقصه « القرآن » برهان قائم على أن « محمداً » لا يدعى ما يجىء به ولا يزعم ما يحكيه :

﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا**

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣
(٢) سورة يوسف الآية : ١١١
(٣) سورة لقمان الآية : ٦

فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾[١] .

وهو تاريخ ليس عندهم علمه ولا بأيديهم كتبه ولا بين ظهرانيهم رواته : **﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾**[٢] .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم بل كانوا يتوهمون أنه لا يكون إلا من الملائكة **﴿ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾** ؟ ونسوا أن الجنس أميل إلى جنسه وأن الانسان يأنس للانسان **﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾**[٣] .

فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وهزال هذا الرأى اتجهوا اتجاهاً آخر **﴿ وقالوا : لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾**[٤] يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة أو أبا مسعود بن عمير سيد ثقيف الطائف وقد قطع الله عليهم السبيل بقوله : **﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾**[٥] .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الإتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه والتسليم له ، ووصفوا بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر فإن حديثه يطول وحسبنا أن نقول : إنه تحداهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يبق بعد ذلك كله إلا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار والصراط والميزان والجزاء على الأعمال يوم القيامة وإعادة الأجسام بعد فنائها التى تعرض لها ـ ﷺ ـ فى دعوته ، ليوقع الرهبة فى نفوسهم والهلع فى قلوبهم عسى أن يتخوفوا المصير ويحذروا سوء العاقبة وقد كانت هذه ـ أيضا ـ محل تندر عندهم ومجال تكذيب وشك ولا سيما الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ليأكل منها أهل النار فيشتد بهم الظمأ ولا يجدون ماء يرتوون به مبالغة فى العذاب والإيلام **﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ﴾**[٦] والتى جاء ذكرها فى آية أخرى فى قوله جل جلاله : **﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾**[٧] ولم يعقلوا أن تعيش شجرة فى النار أو تبقى على شدة اللهب وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة وقدرة المخلوق على قدرة الخالق وما علموا أنه ـ سبحانه ـ على كل شىء قدير .

وقد كان (لخباب بن الأرت) دين على كافر من هؤلاء المعاندين فلما طالبه به وألح فى الطلب وكان ذلك الكافر يريد أن يتخلص منه قال له يا خباب سأدفع لك هذا الدين يوم البعث مع أن عقلاءهم تحدثوا به وحكماءهم رددوه على ألسنتهم ولم ينكره هذا الإنكار الا الملاحدة الذين كانوا يقولون ـ كما حكا عنهم القرآن **﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾**[٨] .

---

(١) سورة القصص الآية ٤٤ : ٤٦
(٢) سورة النجم الآية : ٤
(٣) سورة الأنعام الآية : ٩
(٤) سورة الزخرف الآية : ٣١
(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٤
(٦) سورة الدخان الآيات : ٤٣ : ٤٦
(٧) سورة الصافات الآيتان : ٦٤ : ٦٥
(٨) سورة المؤمنون الآية : ٣٧

المُعَذَّبُون

لما لم تفلح قريش فى رد « محمد » - ﷺ - عن طريقه الذى سلكه ولا عن دعوته التى آلى على نفسه أن يمضى فيها إلى النهاية وقد خاب ظنها فى « أبى طالب » الذى كانت ترجو أن ينتصر لها ويضرب بسيفها أو يسلم لهم ابن أخيه إستعملت معه أقذر الأساليب فى الإيلام وأحقر الوسائل فى الكيد ولم تكتف بالسخرية منه والاستهزاء به ولا بإلقاء الأوساخ عليه وهو مار فى الطريق أو ساجد فى الصلاة أو أن يكون ذلك كله من الصبيان والنساء لا من الكبار المرموقين كعقبة بن أبى معيط أو أبى جهل وهما من المستهزئين الذين نكل الله بهم وانتقم له منهم وأراه مصارعهم الذليلة ونهايتهم المحزنة . إستعملت أقذر الأساليب لتصرف عنه أصحابه وتفرق من حوله أتباعه ليقف هو وحده بعد ذلك أشبه بالخليع المعيل ولقد نجحت فى ذلك كله إلى حد ما وأصبحت مكة ومنها من يعرفه ولا ينكره ويحترمه ولا يحقره لا تفتح أبوابها له ولا تأهل مجالسها به ولا تقبل كفارها بحال من الأحوال أن يعلن فيها محمد دعوته أو يرفع عقيدته أو يقول : لا إله إلا الله ، كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة أو معرضين لأقسى أنواع الإيلام والأذى ولقد ارتد فريق من هؤلاء الضعاف الذين أحسوا أنهم معرضون للموت وهكذا يكون العنت القذر والكيد الوضيع والخصومات الفاجرة .

إلا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن ليشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان ويحتملون الضيم ويمتحنون أشد أنواع الامتحان ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** ﴾[1] . إلا أن الايماز الصادق والعقيدة الراسخة أو الاذعان القوى حينما يمتلىء بها القلب لا يبالى صاحبها بالعذاب ولا يأبه بالموت ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاعت بصائرهم بدينه فلما هددهم بالقتل لم يكترثوا لتهديده .

﴿ **قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾[1] .

وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد - ﷺ - فلم يفرطوا فى دينهم أو ينفضوا عن نبيهم على الرغم من الجوع والعطش والمشقات التى كانت تترادف .

فهذا هو « بلال الحبشى » مؤذن رسول الله وقد كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هنا ما لا تحتمله الجبال ولا تصبر عليه البغال ثم لا يؤثر فى عقيدته ولا يصرفه عن طيته ولا يجعل قناته تلين لغامزه إذ يخرجه « أمية بن خلف » إلى الرمضاء فى وهج الظهيرة ويأمره أن يلقى بجسده العارى فوقها ثم

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٤

(٢) سورة طه الآية : ٧٣

يكلفه حمل الحجر الثقيل ويقول له : « ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين » محمد فلا يكون رده عليه إلا أن يقول : « أحدٌ أحدٌ » .

والتاريخ يحدثنا أن « أبا بكر » ـ رضى الله عنه ـ أنقذ كثيراً من الموالى أمثال « بلال » هذا ، إذ كان يشتريهم ثم يعتقهم .

ولعل إسلام الموالى وتعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ويقطع الحديد ولا يغلب سلطانه جبروت الطغاة ولا إرادة المتكبرين فى الأرض بغير الحق .

وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى تحالفوا على إنجازها من غير محاباة ولا استثناء ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى « عمر بن الخطاب » انحدر فى ذلك قبل أن يسلم فنكل بجارية له وبالغ فى تعذيبها وطلب إليها أن تعود إلى عبادة اللات والعزى . ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء « أبى بكر » لها .

أما آل ياسر « عمار » وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للفداء والتضحية والثبات على المبدأ والتمسك بالحق والتفانى فى ذات الله والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب وتملأ الصدر ويحيا بها الروح فى دنيا من السعادة والبهجة والرضا استبد بهم بنو مخزوم يسومونهم الظلم ويحملونهم على الكفر وينكلون بهم التنكيل الذى تأباه الانسانية وتعافه الكرامة وتنفر منه الأخلاق والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس وحرارة الرمضاء الأمر الذى لم تقو عليه بنية الرجل المتهدم « ياسر » أبو عمار فلفظ أنفاسه فى زفير الحر وظمأ الكبد وجوع البطن وإيلام الروح ونصب النفس ولا سيما وقد رأى زوجته يطعنها أبو جهل اللعين فى قلبها الطعنة النجلاء التى تودى بحياتها ولبس بعد ذلك كله أسى تجىء به نفوس ناكبة عن الرشد جانحة إلى الباطل منغمسة فى الشر متناسية للأخلاق متلاعبة بأبسط قوانين الانسانية .

ولعل رسول الله ـ ﷺ ـ كان ألمه أشد وهمه أكثر وعذاب نفسه أنكى وأوجع لأنه لا يملك لهؤلاء جميعاً سوى الرثاء والإشفاق والحسرة والعناء والمضامنة واللوعة وإن كان يقول لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

أو يقول لخباب بن الأرت ـ الذى تضجر من قسوة تلك المحنة فطلب منه أن يدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكشف الغمة وتفرج الكربة : (يا خباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه)[2] الحديث .

وفى الحق إنها المحنة بلغت نهايتها فى الشناعة وغايتها من البشاعة والعرب الذين كانوا يغيثون الملهوف ويتدلون المعروف ويحسنون الجوار وينكرون الظلم ويأبون القسوة ، يتلوث تاريخهم بتلك المخازى وينحدر إلى ذلك المستوى .

---

(١) المستدرك للحاكم ٣/٣٨٨ والبيهقى فى الدلائل ٢/٢٨٢ ومجمع الزوائد ٩/٢٩٣ وسيرة ابن هشام ١/٣٩٥
(٢) صحيح البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب علامات النبوة ٤/٢٤٤

أسئلة فى الذهن ينهال بعضها فى إثر بعض وتتزاحم فى الرأس دون أن تظفر بالجواب ؟ .

لكن الذى يعلم قذف النمرود لابراهيم - عليه السلام - فى النار ويتصور قصة أصحاب الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن ؛ ﴿ **قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾[١] .

يؤمن أن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان كما يؤمن أن الفضائل التى كان العرب يتمدحون بها لم تكن لها من الأصالة فى النفس والتمكن من القلب والرسوخ فى الخاطر ما يجعلها تمتزج بالدم وتتغلغل فى الروح فتصور الأفعال على مقتضاها صدورها عن العقيدة .

وذلك هو السر فى أن للتربية الدينية فى الأمم والجماعات جلالها واحترامها وقوتها وسلطانها وثباتها وتمكنها لأن الدين ينمى الوازع ويوقظ الضمير ويطهر القلب ويرتفع بالنفس عن الغرض والهوى والحاجة والغاية والشهرة والميل .

وهم كانوا فى حاجة إلى ذلك كله لتجرى منهم تلك الأخلاق مجرى الروح من الجسم .

هجرة إلى الحبشة

على الرغم من نكاية قريش بمحمد - ﷺ - وإيذائهم له وسخريتهم به وقطعهم الطريق عليه ، كلما هم بدعوة إنسان ، أو أعلن دينه فى محفل من المحافل أو مجتمع من المجتمعات لم يجرءوا على أن يتجاوزوا ذلك إلى قتله لأن عمه « أبا طالب » كان واقفاً لهم بالمرصاد وبنو هاشم كلهم من ورائه والاقدام على مثل هذا الطيش ويعرض قريشاً لحرب لا قبل لها بها ولا طاقة لها بمثلها فكان من الضرورى - عندهم - أن يصبوا جام غضبهم على أصحابه وأن يقضوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله .

وهنالك أذن النبى - ﷺ - للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : (إن بها ملكاً لا يظلم جاره[٢] فتسللوا فى ظلام الليل ولما انتهى خبر تسللهم إلى قريش أسرعت لتقطع عليهم المنافذ وتردهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم وتتمادى فى تعذيبهم وتسد عليهم كل مسلك ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الوثنية والشرك ولكن قضاء الله كان أسرع من إرادتهم ولطفه كاَن أسبق من حيلتهم .

غير أنهم لم يكادوا يصلون إلى الحبشة ويستقر بها قرارهم ، حتى كان الكفار قد أرسلوا إلى النجاشى « عبد الله بن أبى ربيعة » المخزومى .

« وعمرو بن العاص » وحملوهما من الهدايا للملك وللبطارقة ما عساه أن يساعدهما على الوصول إلى الغرض الذى جاءوا من أجله .

---

(١) سورة البروج الآيات : من ٤ - ٧

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة ٢٨٥/٢ وتاريخ الطبرى ٣٣٠/٢ وسيرة ابن هشام ٣٩٧/١

وقد تقبل الملك والبطارقة الهدايا بالغبطة والرضا ، والسرور والارتياح فكان ذلك مشجعاً للرسولين ـ ابن أبي ربيعة وابن العاص ـ أن يقولا له : « إنه قد فر منا قوم ، تركوا دينهم الذى كانوا عليه واعتنقوا دينا جديدا يعادى الأديان كلها ويقول فى عيسى وأمه مريم قولاً لا يليق بهما » . .

اهتز الملك والبطارقة لهذا القول واعتبروه عدوانا على المسيحية وافتياناً على مقدساتهم المرعية فانتدبوا واجداً من ذلك الوفد الآبق ليناقشوه فيما نسب إليهم .

فإذا « جعفر بن أبي طالب » ينبرى لهم ويبين بياناً شافيا : أن هذين الرجلين إنما أرادا الإيقاع والدس وأن حقيقة الأمر : أن محمداً ـ ﷺ ـ جاء إليهم بعد أن طفح الكيل ، وطال الليل ، واشتد الظلم وساد البغى فى الأرض بغير الحق وفشا بين الناس الربا وكثر الزنا واسترق القوى الضعيف فكف جماح الطيش وكبح لجام الظلم وسوى بين الناس فى المعاملة وقضى على الرق ونهى عن الزنا وحرم الربا ودعا إلى أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ثم قرأ « جعفر بن أبي طالب » سورة « مريم » وفيها الاشادة بعيسى وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم وتنزيه « مريم » عن الفواحش والشهادة لها بطهارة العرض ، ونقاء النفس وبراءة الساحة وشرف المحتد وحينئذ أبى « النجاشى » والبطارقة كل الإباء أن يفرطوا فى المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أو ليسمحوا لأى إنسان من كان أن ينالهم بسوء .

وظل هؤلاء المسلمون فى الحبشة يلاقون الرعاية والكرم والعناية والاهتمام حتى كانت الهجرة إلى المدينة وترامى إليهم إجماع الناس عليها وخروج النبى ـ ﷺ ـ وصاحبه « أبى بكر » فلحقوا بهم وشاركوهم النزوح إلى ذلك الوطن الجديد .

أما ما كان من أمر « النجاشى » والبطارقة بعد جلاء الحال لهم ـ هكذا ـ فإنهم بعثوا من قبلهم وفداً يستطلع الخبر من مكة ويدرس ذلك الحدث الذى حدث وينظر مدى تلاقيه مع المسيحية على محجة واحدة من السلوك القويم والسنن الواضح والهداية السليمة ، ثم مع هذا وذاك يشكر « محمداً » وأصحابه على ذلك التنويه العظيم بعيسى بن مريم وأمه ، وبالإنجيل الذى جاء به . وكان من هذا الوفد أن تأثر إلى حد بعيد بشريعة « محمد » ـ ﷺ ـ وأعجبه ما تأخذ به البشرية من إصلاح وما تسلكه من هدى وتعمل له من نهوض وما كاد يستمع للقرآن الكريم من النبى حتى شعر بسحره وأدرك سيطرته الغلابة على النفس وهيمنته القوية على الضمير واستدراره الغريب للدمع وسلطانه القاهر للفؤاد ولما خنقته العبرة وفاض ماءُ عينه أعلن إيمانه بمحمد وبدينة وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة الآيتان : ٨٢ : ٨٣

وفى هذه الأيام التى كانت قريش تعانى الهزيمة التى أصابتها من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ثم من إيمان هذا الوفد الوافد ، كذلك كان إسلام « حمزة بن عبد المطلب » ، وإسلام « عمر بن الخطاب » بعد ذلك بثلاثة أيام فطاش صوابهم أكثر وأكثر ، وأخذت منظماتهم الارهابية تزاول من جديد نشاطها فى التنكيل بالمسلمين والاسلام .

ولحق ذلك الرجل الطيب « أبا بكر » الذى كان ـ على الرغم من حبه لمحمد ومبادرته إلى اعتناق دينه ـ محترما لديهم ، موقرا فيهم ، لا يريدون أن ينالوا منه أو يعتدوا عليه ولم يجد بدا من الخروج هائماً على وجهه من الألم لا يدرى أهو ذاهب إلى الحبشة ليلحق هنالك بإخوانه من المسلمين أم هو ذاهب إلى مكان آخر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان وقد خشيت قريش أن يكون ذلك من أبى بكر غزواً داخلياً لها فضيقت عليه الخناق وأقامت فى وجهه المتاريس وكأنه فى هذه اللحظة قد تمثلت له الآية : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾[1] فأخذ طريقه إلى حيث يفارق تلك الوجوه وينأى بعرضه عن تلك الأقذار .

إلا أن رجلاً من هؤلاء الذين كانت تمتلىء نفوسهم بحبه لقيه وعز عليه أن يفارق مكة ، أو أن تخلو عرصاتها منه ، فسأله ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه وقال له : « لا تفعل يا أبا بكر فوالله مثلك لا يخرج ولا يُخرج » ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم : « ليبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوار « ابن الدغنة » لا يتعرض له أحد بسوء إلا كان ذلك تعرضا لابن الدغنة وعدوانا عليه » لكنهم اشترطوا على « ابن الدغنة » أن يظل أبو بكر فى قراءته للقرآن متخفيا فى داخل بيته حتى لا تعود الفتنة جذعة !

وكان الرجل يقرأ القرآن فى داخل بيته فيقتحم الأطفال والنساء الجدران ويدخلون إليه ليستمعوا لما يتلو وحينئذ عادت شكوى قريش منه وخوفها من الافتنان به فراحوا إلى « ابن الدغنة » الذى هدده بسحب جواره منه ولم يكن من هذا الرجل ـ الذى لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة مجتمعة لرجح ـ إلا أن يقول له : « افعل ما بدالك فإننى فى جوار من هو أقوى منك ومنهم ، ينصرنى ويؤيدنى ويكلؤنى ويرعانى ولا يتخلى عن جوارى . . »

الحصار الاقتصادى

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ربما كان أهونها أن تكون وجهاً لوجه أو أن تكون حارة لا باردة وفى العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى فى استذلال الدول الصغرى ـ لتنال غرضها منها

---

(١) سورة النساء الآية : ٩٧

وتصل إلى غايتها التى تقصد إليها إلى ما يسمى فى لغة علماء الاقتصاد السياسى « الحصار الاقتصادى » . وهى وسيلة من وسائل الحرمان والتجويع والحيلولة بين الدولة وبين تبادل السلعة أو شرائها أو الانتفاع بها بوجه من الوجوه سدا لحاجتها وقضاءا لمصلحتها وإقامة للأسوار والحواجز دونها لتصبح أمام الضرورة الملحة والحاجة القائمة مضطرة للتنازل عن كرامتها وعزة نفسها وإبائها فلا تعارض فى سلطان يفرض عليها أو رغبة ظالمة توجه إليها كما يفعل الآن أرباب الجشع الاستعمارى والعار الأجنبى مع الشعوب التى تريد أن تتحرر من سيطرتهم أو تتخلص من نفوذهم .

وهو بعينه الذى حدث من كفار مكة مع النبى - ﷺ - والمسلمين معه حينما وجدوا أنهم استنفذوا كل جهد فى إرغامهم وبذلوا كل محاولة فى إذلالهم وقطعوا كل أمل فى إلجائهم وأن المطاردة والعنف والاستهزاء والتعذيب وغير ذلك وذلك .

لا يقف التيار الجارف الذى كانت تسير به دعوة « محمد بن عبد الله » إلى نفوس الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأن فيهم من يتسللون إلى بيوت المسلمين ليستمعوا إلى القرآن الذى كان يترك فى نفوسهم يُقض مضاجعهم ويطارد النوم عن أجفانهم ويثير الوساوس فى قلوبهم والبلابل فى أفئدتهم .

وقد حدث الرواة : أنهم بعد أن عقدوا المجالس للمشورة وتبادلوا الرأى لعلاج موقفهم مع « محمد » انتهوا إلى معاهدة مكتوبة تربط ما بينهم وتعيد إلى حد بعيد سلوكهم مع المسلمين وكانت تلك المعاهدة تقضى ألا يزوجوهم أو يجيروهم أو يغيثوا اللهيف الذى يستصرخ بهم أو يفزع إليهم وألا يتبادلوا وإياهم منفعة من المنافع على وجه من الوجوه وأن يكون حالهم معهم حال المنبوذين واستتبع ذلك أن ينفصل كل من الفريقين فى الدار التى يعيشون فيها فكان هؤلاء المنبوذون فى شعب بنى هاشم وبنى عبد المطلب وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات كاملة .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال من الجوع والشحوب من الألم والحرمان والاصفرار من الحبس وفشت فيهم الأمراض والأوبئة ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الضغط والحصار أن يتجولوا أو ينتقلوا إلا فى داخل هذا السور المضروب أو السجن المحدد ، اللهم إلا فى الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت إذا أرادوا أو يحجوا إذا ما ابتغوا وكان النبى - ﷺ - لا يجد متنفسه إلا فى موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت فيعرض عليهم الاسلام وكانت دعوته تجد طريقها إلى أفئدتهم بسهولة وكان ما يعانيه هو وأصحابه حينئذ سبباً فى عطف القلوب عليهم وميل كثير من الناس إليهم وقد سرى ذلك كله إلى صفوف خصومهم فكاد يبدد جمعهم ويفرق كلمتهم ويشيع بينهم التفكك والتخاذل .

ووقف بعض هؤلاء ليقول لقريش : إنه ليس من المروءة ولا من الرجولة ولا من الذوق والأدب أن نتمتع نحن بحقوقنا المشروعة وأن نحس بقيمة الحياة فى مرية وأن ننعم بدنيانا التى بأيدينا فى الوقت الذى يشقى إخواننا فى النسب وزملاؤنا فى الوطن وشركاؤنا فى حرم بيت الله .

فلما ذكره أبو جهل بما فى الصحيفة أبدى تمرده عليها وعدم اعترافه بها ، وقال له لم نكن حاضرين لكتابتها ولا راضين عن قيودها ثم أمن على قوله آخر وآخر ، وهكذا ، حتى كادت الصحيفة تذوب من شدة ما وجه إليها من اعتراض ورميت به من قسوة ووصفت به من مجانبة للصواب وكان النبى - ﷺ - قد وصل إليه من العلم عن طريق الوحى أن الأرضة أكلت هذه الصحيفة الظالمة والوثيقة الغاشمة فأخبر بذلك بعض أصحابه ولم يلبث الخبر أن تطاير للمشركين أنفسهم فظنوا لأول وهلة أنها إشاعات يريد المسلمون بها بلبلة الخواطر استدرارا لعطف الناس عليهم وتمهيدا لرضا قريش بعودة المياه إلى مجاريها بينهم وبين المسلمين ولكن خبيثاً من خبثائهم تسلل إلى الصحيفة فى مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر لا ريب فيه وهنالك ذهلت قريش ذهولاً شنيعاً وبخاصة حينما ترامى إليها أن « محمداً » يقول : إن الأرضة لم تبق منها إلا لفظة « باسمك اللهم » وفى هذه اللحظة حاصوا حيصة حمر الوحش وأخذوا يروحون ويجيئون ويفكرون فيما عساه أن يكون . أو ما عساه أن يتميز أمام هذا الموقف الذى وقعتهم أياه الحوادث وصيرتهم إليه الأقدار على اعتبار أنه خذلان لهم وتقهقر إلى الوراء فى حرب المسلمين والقضاء على روحهم المعنوية التى كانت تدفعهم دائما أبداً إلى الغيرة على « محمد » والعصبية له والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه والدعوة لدينه وإعلان رايته خفاقة مدوّية وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يحسون بأن الصراع بينهم وبين قريش قبلى أو عصبى لا أثر للدين ولا للعقيدة فيه وصار همُّ « أبو طالب » الاهتمام بابن أخيه فى صحوة أو نومه وليله أو نهاره حتى لا تمتد إليه يد آثمة أو تتطاول عليه نفس خبيثة أو يقتله سيف ظالم ورسول الله - ﷺ - يتابع الدعوة الخافتة والجهود المكتومة وأصبح ذلك الموقف أشبه بالاعلان الصامت لذلك الدين الذى أرادوا طمس معالمه وقبره فى مهده منذ أول يوم ولادته ورأت قريش أنه لا مناص من التصريح بنقض الصحيفة المكتوبة والمعاهدة المعقودة واضطرت صاغرة إلى التنازل عن كبريائها وعاد الاتصال ورفعت قيود حظر التجول وتبادلوا السلع والحاجات الا أن النفوس كانت مع ذلك كله لا تزال تشعر بالجفوة والقلوب لا تزال تحس باللوعة والعيون لا تزال تتبادل النظر الشزر والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء .

والمسلمون كانوا يشعرون أنهم فى دار غربة وهوان يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خيراً من أولئك الذين يرونهم قذى فى أعينهم أو شجىّ فى حلوقهم ووطناً أحسن من هذا الوطن الذى يضيق بهم ويضيقون به حتى لقد كانت الهجرة إلى الحبشة تراودهم ليتخلصوا من ذلك العنت الذى يلاقونه .

أما محمد - ﷺ - فإنه نفض يديه من قريش وقطع أمله من مكه وظل - كذلك - يضيق ذرعاً بتلك البيئة المريضة والأرض الجدبة وكان يغدو إذا غدا ويروح إذا راح متمنياً ما يتمناه من كل معه من المسلمين أن يستبدله الله من قريش أهلاً بأهل وجيراناً بجيران .

عـام الحـــزن

كان سند النبى - ﷺ - فى دعوته ودرعه التى يتلقى بها الأحداث ، وساعده التى يذود بها الأذى وركنه الركين الذى يعتمد عليه فى أول عهده بالرسالة حيث لم يكن حوله من سواء المسلمين من يشدُّ أزره ويقوى ظهره إذ كان يُحسُّ من نفسه بالغربة والوحشة والضعف وقلة الحيلة اثنان من الناس كلاهما بعدد ضخم وقوة هائلة . . امرأة هى خديجة ، ورجل هو عمه أبو طالب .

وخديجة لم تكن له زوجة ككل امرأة تكون تحت رجل لا هم لها إلا أن تتمتع به وتلوذ بكنفه وتحتمى بظله وتترامى بين أحضانه وتطلب فيه دائما أبداً الغنى والمال والصحة والعافية والمركز والجاه وأن يكون قلبه فى كل آن متلهفاً عليها إن غابت أو حضرت ، فإن رأت شيئاً من ذلك كله قد تحول أو نقص أو رأت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ويشغل بالها وتفكيرها فترت شواغلها به وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التى كانت متأججة وجعلته من تحفها القديمة أو ثيابها البالية لأنه لم يعد فتى أحلامها الذى تحن إليه وتنجذب نحوه ، لم تكن « خديجة » تلك الزوجة بل كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته وأحب الناس إليه وكان هو عندها كل شىء تطلبه وكل حلم يدور بوهمها ويخطر ببالها ويسبح بخيالها تؤمن إيماناً جازماً بأنه يكمل نقصها ويحمل نفسها ويرضى تطلعها ويشفى أوجاعها ويملأ دنياها باليمن والبركة والسعادة والسرور لذلك كان عندها نور عينيها ونبض فؤادها وحياتها الدائبة وأملها الذى لا ينتهى فما لها فى يده وثقتها فى نفسه وقومها من حوله وأهلها وأطوع له من ظله وكأنه بها وحدها فى ألف ساعد وساعد وألف نصير ونصير وكلما غدا أو أراح كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة والأمل والحب والصحة والعافية والشجاعة والاقدام والظفر والغنم والفراغ الذى كانت تملؤه من قلبه لم يكن حل من قبل وهى مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا « ابراهيم » الذى كان بعد ذلك من «مارية » القبطية .

وكان موتها عند النبى - ﷺ - فاجعة كبرى ، ومصيبة عظمى شعر بعده أن الأيام تتنكر له والمحن تصطلح عليه والمصائب تواجهه والحوادث تحاربه وزاد من الألم فى نفسه أن لم يمض على موتها هذا ثلاثة أيام حتى مات عمه « أبو طالب » كذلك ، فكان هذا العام عام الحزن - كما سماه المسلمون وسماه النبى - وأى حزن وراء هذا وأية فاجعة بعد تلك الفاجعة ولذلك روى عنه - ﷺ - أنه كان يقول : « اجتمعت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد جزعاً »[1] .

ونحن نعلم أن قريشا بعد موت « أبى طالب » ابتدأت تعامله معاملة أخرى . وتقف منه موقفاً جديداً وتحشد كل ما تملك من وسائل وما تستطيع من حيلة لفشل حركته وتعطل سيره وتعوق ركبه وإن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/٣

كانت هذه الشدائد التى كان يلاقيها والمحن التى كان يصادفها دفعت عجلة الزمن وحركت عقرب الساعة ولفتت أذهان كثيرين إلى الدخول فى الاسلام والإيمان لمحمد ـ ﷺ ـ وهكذا الشر يأتى بالخير والضيق يكون وراءه الفرج القريب .

وعلى الرغم من أن قريشاً انتهزت فرصة موت عمه الذى كان درعه وسيفه ومِجَنَّه وترسه وبرهنت بهذا على أنها تحررت من الذوق وجف معنى الحياء فيها وأصبحت تفكر فى الحد من نشاطه والقطع لأوصاله والقضاء على تحركه وانتقاله وكان هو مع هذا كئيب النفس يحاول جهده كله أن يعيش فى ذلك الجو من الحزن الذى خلّفه له موت خديجة وأبى طالب لا لأنه يئس من الدعوة وقطع رجاءه فى نصر ربه له ولكن لأنه وهو يستجيب لبشريته كان يتألم كما يتألم الناس ولذلك لم يكن أحد يراه على الحال التى كان عليها من التسلل إلى المجتمعات والتسرب للمحافل وكان دخول من يدخل فى الإسلام أشبه بالعمل الآلى والتجاوب العاطفى لم يكن لأحد فيه جهد ولا فضل .

وكأنما أراد الله ـ جلت قدرته ـ أن يبرهن للنبى ـ ﷺ ـ من طرف خفى أن هذا الصنيع الذى يصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدراً أو يدفع إرادة أو يحول دون تبليغ الرسالة .

وبينما الرسول الكريم من شدة ما ناله من الحزن وكثرة ما أصابه من عناء التفكير مستغرق فى ذهوله سابح فى خياله رأى نفسه متكئاً إلى جذع شجرة يقرأ « القرآن » والجن حوله يستمعون إليه فى صمت وينصتون إليه فى إعجاب ويتأملون قوله ويتدبرون هديه وكأنما هو كان ضالتهم المنشوده وحاجتهم التى ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل وقد سجل القرآن قصتهم هذه وتغلغل الهدى فى نفوسهم : ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً** ﴾[1] .

وكان فى الحديث الذى صدر منهم والتفكير الذى بدأ عليهم مسحة من العقل والمنطق ، تدل على أنهم يجيدون التفكير إلى حد بعيد وبخاصة فى مثل قولهم : ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً** ﴾[2] وكان هذا الحدث فى نظر العرب جميعاً من الذهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يستغلوا بالتأمل والتفكير فى أشياء كانت لا تخطر عليهم ببال ولا تمر لهم بذهن وكان فى مقدمة ذلك فهمهم للجن وتصورهم لهم وحديثهم عن إيمانهم بالله وبحثهم عن المعرفة وجريهم وراءها وكانوا إلى هذه اللحظة يظنون فى ذلك الظنون .

وقد تناقلوا هذه القصة وأخذوا يتحدثون بأن لمحمد ـ ﷺ ـ محيطاً وراء محيطهم وأن دعوته إن لم تجد منهم انتباها ورغبة وتلقياً وقبولاً فستجد فى سواهم رضوا أم سخطوا وأنه إن كان ـ اليوم ـ يتودد إليهم فى

---

(١) سورة الجن الآيات من ٣ ـ ٥

(٢) سورة الجن الآيات من ١٢ ـ ١٤

هديه ويلاطفهم فى دعوته ويصفح عنهم فى ايذائهم له ومطاردتهم إياه فسيجىء اليوم الذى يكونون فيه مرغمين ويكون الأمر والنهى والحل والعقد له هو وحده وأنهم إن كانوا يقولون : أمر ابن أبى كبشة ـ أبوه من الرضاع ـ استهزاءا به وسخرية منه فلابد لهم أن يقولوا صدقا وحقاً .

وسترى البشرية كلها هذا النصر الذى يسعى إليه والسلطان الذى يتمكن له : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[1] وحينئذ يعاودهم الندم حيث لا ينفع .

مع ثقيف بالطائف

إصغاء الجن للنبى ـ ﷺ ـ واستماعهم إليه وإعجابهم به . وتبليغ قومهم ما دعوه منه كان بالطائف وقد كانت الطائف آهلة بالوجوه والأعيان من ثقيف وكانت خيراتها من التين والعنب وسائر أنواع الفاكهة يتهادى بها الركبان ويتحدث بها الرائح والغادى وقد اختار الرسول الكريم أن تكون وجهته إليها ودعوته فيها بعد أن نقض يديه من قريش بمكة وأصبح لا يرجو عندهم خيراً ولا يترقب فى جوارهم أمنا ولا يجد بينهم هدوءاً واستقراراً .

وكان المنظور ـ وللطائف تلك المزايا ولمناخها هذا الاعتدال ولأهلها ذلك الرزق الواسع ـ أن يكون منهم من دماثة الأخلاق وحسن المعاملة وقوة الادراك وسهولة القياد ما يحقق منهم أمل النبى ـ ﷺ ـ الذى أمله منذ اللحظة الأولى لتحول وجهه إليهم إلا أن الذى أخلف الظن وجعله لا يعود من هنالك بطائل أن الطائف كانت كعبة للوثنية ومركزاً مرموقا من مراكز الشرك لأن فيها « اللات » وهى احدى نبات الله « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ـ كما يزعمون ـ وعصبيتهم لها واعتقادهم فيها لا يمكن أن يفارق نفوسهم أو يغيب عن أذهانهم .

وتقص الأنباء أنه ـ ﷺ ـ حينما انتهى إلى الطائف واستقر بين ظهرانى ثقيف واستقبلوه استقبال الطارىء وأنسوا به أنسهم بالضيف واطمأنوا إليه اطمئنانهم لرجل حصيف الرأى بعيد النظر قوى الحجة واضح الدليل متكامل البيان استمعوا إلى دعوته إلى الله وتخويفه من المآل وتحذيره من العقاب ونصحه بالطاعة ونهيه عن المعصية ومجاهرته بضرورة المساواة ونبذ العبودية وبغض الظلم .

ثم لم يكد يصل بهم إلى أن البشرية الضالة والإنسانية المتخبطة هى التى تنحرف عن السنن وتلتوى عن القصد إذ تعبد حجراً أو تبتهل إلى جماد لا يضر ولا ينفع ورب الناس حاضر بين يديهم يرفع الضر ويكشف البلوى ويلبى دعوة الداعى إذا دعاه حتى فهموا أنه يريد بذلك أن ينتقل بهم إلى دين يحول بينهم وبين ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم فأغروا به السفهاء منهم وسلطوا عليه الصبيان .

ومازالوا به حتى أدركه الإعياء وأنهكه الجهد وخارت قواه ووجد نفسه وقد أغمى عليه ، وهو مستند إلى حائط بستان من بساتين الطائف .

---

(١) سورة النساء الآية : ٦٥

وبعد أن أخذ يضيق مما به ويصحوا من تلك الغاشية التى أصابته ابتدأ يقول مناجياربه : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ! يا أرحم الراحمين ! . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أويحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)[1] .

وهو دعاء ـ وإن كان عنواناً على الجزع والهلع والهوان والضعف والشدة والعسر ـ الا أنه تسجيل لذلك العنف الذى قوبل به ، والنذالة التى صنعوها معه وقد كان ـ ﷺ ـ يؤمن أن نصر الله يلاحقه وعنايته تسابقه ودفعه الأذى عنه ولا يمكن الا أن يكون لذلك يخاطبه خطاب المطمئن إلى وعده الواثق من لطفه الطامع فى رحمته حتى إذا ما خشى أن يكون قد تجاوز حدود الأدب معه ، سارع إلى مرضاته : (إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى) وقد كانت هذه الكلمة شعاره فى أمثال هذه الشدائد .

وقد جاء إليه جبريل عقب هذه الحادثة من غير توان ، فقال له ـ بعد أن سلم عليه ـ « إن الله قد سمع الذى قلته وسمع ما ردوا به عليك وهذا أخى ملك الجبال إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل » .

ولكنه قال له : (لا . . يا أخى جبريل فانى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً)[2] .

ولعمرى لو أن انساناً آخر مع هذا الذى أصابه منهم أو ناله من إيلامهم لما وقف هذا الموقف الكريم أوعاملهم بهذا الظرف وتلك الرأفة ولكنه كان يعلم ـ منذ ضمه « جبريل » عند أول عهده به وقال له : (اقرأ) ومنذ قال له (ورقه بن نوفل) : (لم يأت رجل بمثل ما أتيت به ألا عودى » . أنه معرض لذلك كله ولابد له أن يلاقيه .

وقد كان فى البستان الذى اتكأ إلى جداره بعض أصحابه من الأطفال فرق قلبهم له وثارت فى النفوس منهم الشفقة عليه وبخاصة بعد أن سمعوا منه ذلك التضرع الباكى والتوسل الحزين فلم يجدوا من العزاء له إلا أن يشيروا على خادم لهم أن يقدم له عنقوداً من العنب وشربة من الماء فتناوله منه شاكراً له ولهم هذا الصنيع حتى إذا ما أخذ فى الأكل سمى الله فملك ذلك على الخادم اعجابه وحمله هذا الإعجاب أن يسأله بعض أسئلة انتهت بايمانه به وانقطاعه له وقد عاتبه مخدوموه فلم يأبه بهم أو يلتفت اليهم أو يفكر فى أن قطع لما كان بينه وبينهم من صلة الخدمة التى يتعيش منها .

ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ ومضى معه ذلك الغلام وثالث هو مولاه (زيد بن حارثة) الذى كان معه .

ظل الرسول يفكر فى المكان الذى يتجه اليه بعد ذلك ولم يكن قد رسم الخطة التى يختطها أو الجهة

---

(١) سيرة ابن هشان ـ باب سفر الرسول إلى ثقيف ٧١/٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢١١/١ ومجمع الزوائد ٣٥/٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٧/٣

التى يحوّل إليها وجهه ولم يكن هنالك مفر من الرجوع إلى مكة التى كان يرجو ألا يعاود الرجوع إليها وهو لا يأمن على نفسه إذا رجع إلى مكة أن يضاعفوا له الايذاء ويواصلوا له الكيد ويدبروا له الشر وهو لم يبق فيه من الاحتمال ما يواجه له عدوانهم المنتظر ولا إيلامهم المترقب .

فكلف مولاه « زيداً » أن يسبقه إلى مكة ليبحث له عن رجل من أهل المروءة والنجدة والكرم والإباء والتفضل والأريحية . ليجيره من هؤلاء الناس فكان ذلك الرجل هو (المطعم بن عدى) الذى قبل أن يؤمنه ريثما ينكشف الغيم الذى يحيط به أو يبدو لمحمد وجهاً جديداً يتحول إليه .

وكان حدثاً من الأحداث أن يجير (المطعم بن عدى) رجلا لا يجد فى مكة كلها إلا قلوبا تغلى بالحقد عليه والكراهية له والنفور منه على أن « محمداً » ـ ﷺ ـ لم يكن ليفكر فى البقاء هنالك حتى يعرض « المطعم بن عدى » نفسه لسخطهم عليه من هذا الجوار الذى منحه لمحمد بل كان يرجو أن يبد له الله خيراً من مكة ومن أهلها .

الاسراء والمعراج

كان لتلك المعاملة القاسية التى عاملت بها قريش النبى ـ ﷺ ـ إلى درجة أن ضاق ذرعاً بمكة وأهلها فقطع الرجاء من دعوتهم ونقض يديه من جوارهم وتطلع بفؤاده المكدود ونفسه الكئيبة وقلبه الحزين إلى جو آخر يتنفس فيه الهواء النقى وينظر فيه إلى وجوه باسمة مشرقة لا تكفر له ولا تعبس لرؤيته وظل على ذلك زمنا طويلا يترقب الفرج وينتظر طلائع رحمة الله وقد كانت ذلك ـ مضافا إليه موت (خديجة) وموت (أبى طالب) وتلك المقاطعة الظالمة التى حاصرته بها قريش هو والمسلمين معه فى شعب بن هاشم ثلاث سنوات ـ سبباً فى اجهاد عنيف ونصيب قاس هدّ ركنه وفتور عظيم أصابه وتعب ليس قبله ولا بعده لحق به والأجسام إذا لم تخلد إلى السكون بعد الكدح والراحة بعد العناء والنوم بعد الصحو الطويل والسهر الدائم كلت وملت !

وقد جعل ـ سبحانه وتعالى ـ تلك الرحلة الممتعة ، ترضية لخاطره ـ ﷺ ـ ومتعة لنفسه ولذة لروحه وإظهاراً لمكانته عنده ومنزلته لديه حتى لا يتسرب إليه الشك فى أنه أفضل خلقه وأكرم أنبيائه ورسله وهو عمل أشبه بما يصنعه الملك من ملوك الدنيا إذا ما وفد عليه زائر عزيز فإنه يطوف به على قصوره الفخمة وضياعه الواسعة حيث يستقبله الناس هنالك بما يدل على اغتباطهم به وفرحهم بقدومه وإذا كانت الرحلات إلى جانب ما يكون فيها من المتعة للنفس والترويح عن الخاطر تزيد فى المعرفة وتطبق العلم على العمل فقد كان ما رآه ـ ﷺ ـ من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال والجزاء على أعمال الخير أو الشر وعقبى الظالم أو المتكبر والمنحرف أو المقترف تأكيداً للحقائق وتصويراً للمعاناه .

وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذى يرويه « مالك بن صعصعة » غير الذى يرويه أنس بن مالك وإن كان كلاهما يتفق على أن الإسراء تقدمه ايقاظ جبريل له وشق صدره وصب وعاء من علم وحكمة فيه كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب

السماوات يستأذن عليهم « جبريل » فيقول القائل منهم : « من يطرق الباب »؟ فيرد عليه جبريل قائلا : « أنا جبريل » فيقول سادن الباب : « ومن معك ؟ » فيقول له : « محمد » فيقول ذلك السادن : « أو قد أرسل إليه ؟ » فيقول جبريل : « نعم » فيقول السادن « أهلاً بالأخ الصالح والنبى الصالح »[1] .

وأنت إذا تصورت هذا الاستقبال كله لم يرد فى خيالك - شيئا ما - عن هذا الذى تسمع به عن استعراض الجيوش لاستقبال الملوك وعظماء الدول احتفالا بقدومهم وابتهاجا بضيافتهم .

ولا تنس أنه صلى بهم فى بيت المقدس وفيهم أبوه « آدم » وأبوه « ابراهيم » وأولو العزم من الرسل وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة والتكريم الواسع المدى .

ويقول رواة الحديث : (إن جبريل - عليه السلام - لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو - ﷺ - فانه ارتفع إلى (سدرة المنتهى) ورأى نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ثم تجاوزه إلى (البيت المعمور) وهكذا رأى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفى ذلك أيضا دليل آخر على أن قدره وراء هؤلاء جميعاً بما فيهم « جبريل » الذى لا يستطيع أن يتجاوز قدره أو يتخطى مكانه .

والإسراء : هو السير بالليل ومثله « السرى » وزن « هدى » وهو قطعه - ﷺ - المسافة من « المسجد الحرام » إلى « بيت المقدس » على الدابة المسماه بالبراق وكان العرب لا يقطعونها إلا فى شهر كامل يذهبون وآخر يجيئون ولذلك هالهم الأمر واستعظموا ذلك الحديث وطالبوه بالدليل على صدقه فأخبرهم أن بالطريق عيراً لبنى فلان وأخرى لبنى فلان ومن أوصافها كيت وكيت . . فطالبوه بوصف بيت المقدس فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه وهو يتحدث إليهم عن جدرانه ونوافذه وأبوابه .

وفى الحديث عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (لما كذبنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه . .)[2]

والقرآن الكريم تعرض لذكر الإسراء دون المعراج إذ يقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)[3] والسبب فى ذلك أنه تعالى كان يعلم أنه لم يكن عندهم من الكفاية والفهم ما يساعدهم على تلقى مثل هذا الخبر بالقبول وأنه مهما أتى بالأدلة على حصوله فإنهم لا يصدقونه .

على أنهم أنكرو الاسراء - كما علمت - وقالوا : لعلها رؤيا نائم أو أوهام حالم وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس)[4] والمعراج : هو الصعود ومنه قوله تعالى فى سورة المعارج .

---

(١) مسند أحمد ١٥٧/١ والبيهقى فى الدلائل ٣٧٢/٢

(٢) أخرجه الشيخان من حديث الزهرى وأحمد عن ابن شهاب والسيوطى عن جابر فى الخصائص الكبرى ٣٩٣/١ تحقيق الدكتور الهراس .

(٣) سورة الاسراء الآية : ١

(٤) سورة الاسراء الآية : ٦٠

(تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)[١] وقد صعد به (جبريل) من غير سلم ولا آلة أخرى يعرج عليها بل بقوة إلهية كانت تجذبه إلى فوق كأنه كان يمتطى « مصعداً » مما صنعه العلم الحديث الآن .

وللعلماء أختلاف فى حصوله للنبى - ﷺ - هل كان بجسمه وروحه أم أنه كان بروحه فقط والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط يقولون : إن نظرية الضغط الجوى هى التى تحدد ذلك لأن الإنسان إذا ارتفع إلى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات وقد ثبت أنه - ﷺ - لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط .

والذين يقولون : إنه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ، ويقولون : أنه كان معجزة من معجزاته - ﷺ - والمعجزة : هى الأمر الخارق للعادة . . ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى فى تسجيل هذه الحادثة قال : (سبحان الذى أسرى بعبده) والعبد : اسم للروح والجسم ولو كان بالروح فقط لما كان جديراً بالذكر ولما كان أكثر من خيال الشعراء أو أوهام الفلاسفة أو أحلام النائم) .

وفى عروجه - ﷺ - إلى السماء فرضت الصلاة خمسين صلاة فى اليوم والليلة ومازال « محمد » يذهب إلى ربه ليسأله التخفيف - بناء على نصيحة موسى - حتى كانت خمسا لا خمسين .

ومن عجيب الأمر فى حديث المعراج أنه يخص « موسى » باغرائه « محمداً » بالرجوع إلى ربه وخصه كذلك بالبكاء ، لأن رسولا بعث بعده يدخل الجنة من أمته أكثر من الذين يدخلون من أمة « موسى » .

بيعة العقبة

لم يعرف عنه - ﷺ - أنه سكت عن الدعوة أو تهاون فى أداء الرسالة ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد لا يثنيه صعب ولا يرده مستعصى ولا يثنى عزيمته قاس غليظ . . وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق فى وجهه سبيلا مهد هو بجلده وكفاحه سبيلا آخر حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد .

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له وحاولوا أن يعوقوا ركبه وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه فى كل قصد يقصده وكل طريق يبتدىء منه الخطى فإن علموا أن وافداً جاء يسأل عنه أو غريباً يسعى فى طلبه أخبروه عنه الأخبار الكاذبة وحدثوه الأحاديث الملفقة حتى لا يصل إليه أو يؤمن به .

وقد حدثوا : أن الأعشى الشاعر جاء اليه ليعلن إسلامه ومعه قصيدته التى قطعها : « ألم تفيض عيناك ليلة أرمدا) لينشدها بين يدى النبى - ﷺ - فاعترضه « عامر بن الطفيل » وقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا

(١) سورة المعارج الآية : ٤

فقال له : ما لى به من حاجة فقال له : ويحرم الخمر ، قال له : أغيب عنه إلى العام القابل حتى أرتوى منها ثم أجىء إليه وفى طريقه وهو عائد مات .

وفى الأسواق التى يقيمونها للتجارة وللأدب كعكاظ « وذى المجنة » كان يدب فى أزقتها ويندس فى طرقاتها ويمشى فى مسالكها ليدعو إلى دينه وينوِّه برسالته ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة حتى ولو أعرض عنه الناس أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم وذويهم بما صادفوه فى أسفارهم وما لاقوه فى غربتهم ولذلك كانت الأبواق من كل جهة وفى كل مكان تتحدث عن حدث جديد ورسالة جديدة وكان ذلك بمثابة التهديد لما سيكون من تبليغ ومعرفة واذعان وقبول .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الاسلام ودخول دعوته فى مرحلة جادة قوية فى أفق أوسع ونطاق أرحب كان من « بيعة العقبة » وهى منسك من مناسك الحج حيث ترمى الجمار وهى عقبة أولى وثانية وثالثة .

وتفصيل ذلك : أنه - ﷺ - كما كان يدعو فى الأسواق كان كذلك فى أيام الحج فيلتقى بالناس فى موسم الحج ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة فى أهليهم وعشيرتهم ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من « الأوس » بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم وكان عدد هذا النفر ستة فسط .

ثم حضر فى العام الذى بعده فى موسم الحج - أيضا أثنا عشر رجلاً ، بايعوه عند (العقبة الثانية) هم ولنسائهم الذين تركوهم فى المدينة وفى العام الثالث حضر من الأوس والخزرج وفد ثالث مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلا بايعوه عند العقبة الثالثة على كل نصرة وعلى حرب الأسود والأبيض ورغبوا إليه أن يتخذ « المدينة » موطنا له لتطلع منها شمس الدعوة رائعة وهاجة على العالم كله من غير أن يحجب نورها حجاب أو يقف فى سبيلها جهول أو يصد انبساط ضيائها أحمق .

ولما سرى خبر هذا العرض الطيب ذهب جماعة من قريش إلى أولئك الضيوف الحاجين إلى بيت الله الحرام ا وعتبوا عليهم أشد العتب أنهم يأخذون عدوهم من بينهم ليحموه فى بلدهم ويصونونه من خصم يطلبه أو غريم يبحث عنه فى الوقت الذى يفكرون هم فى قتله ليستريح العالم من شروره .

وقد أكد الوفد لقريش أن شيئا من ذلك لا يكون وحينئذ تسلل هذا الوفد إلى المدينة وشاع الخبر فى أثرهم أنهم خدعوا قريشا بهذا الرد الذى ردوا به عليهم وأن الخطة التى دبروها مع (محمد) والعهد الذى أخذوه عليه هى أن يتخذ (المدينة) منارة للرسالة وموطناً للدعوة وأنه هو جاد فى ذلك وأنهم هم جادون فى نصرته والعمل فى صفوفه .

وكان النبى - ﷺ - منذ بايع الوفد الأول ، قد أرسل اليهم « مصعب بن عمير » يعلمهم القرآن وينير لهم بعض المسائل التى تشتبه عليهم فى الدين .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم وينتصرون عليهم بالنبى الجديد الذى سيسارعون إلى اعتناق دينه عندما يصل اليهم خبره فكان هذا عاملاً من عوامل سريان الدعوة بسرعة

إلى صفوف الأوس والخزرج حتى لا يسبقهم اليهود باتباعه والإيمان به وبذلك يتمكنون منهم ويظهرون عليهم ويكيدون لهم .

ولم يكن شيء من ذلك خافيا على قريش فأخذت تتوجس من الخوف وتضطرب من الفزع وتدرس من جديد الموقف الذى يجب عليها أن تقفه من (محمد) حتى لا يفلت من يدها ليستعد للوثبة عليها والنيل منها ولا يصدم ما دام ماضيا فى سبيله هذا المعنى - أن يزحف عليهم بجيش من العرب لا قبل لهم برد ولا طاقة لهم بالوقوف فى طريقه .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ووقوفنا على الخطوات التى سلكوها معه من قبل - على الرغم من الكيد العنيف والأذى المتلاحق - أنهم كانوا يتهيبون قتله ويعتبرون الإقدام عليه إقداماً على عمل طائش وتصرف خاطىء أو غير سديد لذلك تجنبوه ولم يقبلوا مشورة من كل يشير عليهم به تفاديا من عداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب لكنهم أصبحوا مع « محمد » على حال تحتم عليهم أن يفكروا فى قتله لأنه بسلوكه الذى يسلكه ونهجه الذى ينتهجه منعه إلى قتلهم من غير شك والحصانة تقضى إذا تجهز لك عدوك أن تتجهز له وإذا خطا خطوة إلى حربك أن تخطو مثلها إلى حربه : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقد أيقنت قريش بذلك كله منذ أدبر عنها وفد الثلاثة والسبعين وأن عليها أن تحتاط للشر قبل أن يقع الا أن هذا الشر الذى سيقع شر شائك ودفعه بمثله أكثر شوكاً والحرج الذى تتوقعه من قتل (محمد) قائما لكن محمداً سيقتلها إن لم تبادر هى بقتله لذلك وضعت هذا الموقف موضع الدرس وأخذت تقلبه على وجوهه كلها . لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع - كما يقولون - حتى لا يفكروا فى الثأر له إذا قتل .

فقال قائل : نربطه على ظهر بعير أهوج يضل به فى الصحراء ليموت من الجوع والعطش فسفهوا رأيه وقالوا له : إنه لا يعد بمنطقة الحلو وبيانه العذب أن يجمع عليه الجموع التى تتأثر بقوله وتشفق لحاله وتعطف عليه وتفك هذا الوثاق الذى يعانيه .

وقال آخر : نحبسه فردوا عليه يشبه ماردوا به على سابقه .

وكان رأى أبى جهل : أحزم هذه الآراء وأحكمها لأنه قضى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى جلداً قويا ثم يجمعوا هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه فى قبائل العرب جميعاً فلا يستطيع قومه أن يثأروا له .

وبينما كانوا يعملون - جادين - لانجاز ما وصلوا إليه من تفكير كان المسلمون فى الحبشة ، والمسلمون فى مكة قد أخذوا طريقهم إلى « المدينة » وكان على - كرم الله وجهه - فى المكان الذى كان ينام فيه رسول الله - ﷺ - نائما على سريره وكان الرسول مع (أبى بكر) قد خرجا من مكة .

الهجـــرة

لم يكن من الحتم على « محمد » - ﷺ - أن يبقى بمكة وقد تبين له أنها لم تعد صالحة للدعوة ولا مرجواً

من أهلها الخير وبخاصة بعد أن أوصى الله - سبحانه وتعالى - إليه هذا الشر الذى يبيتونه له والغدر الذى تنطوى نفوسهم عليه بل إن بقاءه مع هذه الاعتبارات كلها عبث لا يليق به وخطأ ليس له أن يفعله .

ولا يصح أن تؤول هذه الهجرة بأنها فرار من الميدان أو هرب من المسئولية لأن الفرار إنما يكون فراراً إذا تأكد صاحبه أن الصمود نبل والبقاء شجاعة والمنازلة بطولة والحرب مصلحة والاستماتة فناء فى الحق وكذلك المسئولية انما تكون مسئولية إذا كانت جديرة بالتحمل .

لكن المسألة لا تعدوا أن يكون الجو غير ملائم والظروف ليست مناسبة والشأن فى ذلك شأن طلب الثمرة من الأرض السبخة أو الباحث عنها فى غير أوانها فإن المنطق يحكم عليه بالطيش ويصفه بالغته وهكذا كان كفار مكة كالأرض السبخة التى تلفظ الحب وتنكر البذور و لايجدى معهم محاولة ولا جهد .

على أن الرسول الكريم لم يكن مرسلا اليهم وحدهم مرتبطا بعجلتهم أو تتعمد مصيره بهم أو يعيش تحت رحمتهم - كما يقولون - وإنما هو مرسل للأحمر والأسود والعرب والعجم يسافر ويقيم ويتحمل ومن حقه أن يجعل مكة مقراً له وفى هذه الهجرة ظهر أنه - ﷺ - من كبار الساسة الذين لا يغلب دهاؤهم ولا يضعف احتمالهم ولا تضيع جهودهم ولا يخدع لأيهم ولا يطيش صوابهم وقد تبين ذلك كله فى أمور : منها تركه عليا - كرم الله وجهه - مكانه متغطيا ببردته الخضراء التى كانوا يعرفون أنها تلازمه ولا تفارقه ليظنوا انه لا يزال فى مكانه نائما كعادته فإن حاولوا أن يداهموا كان الأمر على غير ما يتوقعون والشأن على خلاف ما يقصدون وحيل بين ما يشتهون ولذلك ذهلوا حينما علموا أن النائم « على » وكانت هذه أول هزيمة أصابتهم فى الصميم وجعلت روحهم المعنوية هزيلة كئيبة ولم يشكوا عندها أنه قد سقط فى أيديهم .

ومنها أنه لم يترك مكانه لعلى الا وهم يرصدونه أمام بيته . . وقد طلع عليهم وهم فى سنة من النوم فرمى التراب على وجوههم ، وفوق رؤوسهم قائلا : (شاهت الوجوه) إذلالاً لهم واحتقاراً لشأنهم ولذلك تكامن كبرياؤهم وتضاءلت عظمتهم وبدأ على وجوههم الصغار والخزى .

ومنهم أنه لم يخرج من مكة الا فى النهار ليسجل عليهم فشل محاولاتهم التى حاولوها وبطلان تآمرهم الذى اجتمعوا له وفكروا فيه ودرسوه دراسة خاصة وقلبوه على وجه يحتمله وذلك لأنه نام فى غار « ثور » إلى الصبح حيث عاد إلى مكة ليصحب معه « أبا بكر » وقد ظل هو وأبو بكر ثلاثة أيام فى الغار حتى أحضر خادم « أبى بكر » البعيرين اللذين ركبهما « أبو بكر » وصاحبه . . وكان القصد من لقائهما فى الغار - الذى لا يبعد عن مكة الا بساعة واحدة من الزمن - ألا يدركها القوم إذا ما حدوا المسير فى طلبهما » ومنها أيضا ، أن « أسماء بنت أبى بكر » التى كانت تجىء إليهما بالطعام ، « وعبد الله » ابنه الذى كان يأتيهما بحديث المشركين عنهما وكان يعفى على مواضع أقدامهما بغنم « أبى بكر » التى كان يرعاها له مولاه « عامر بن فهيره » وكان هذا كله غاية التضليل وأقصى ما تكون التعمية . . وكل هذه أساليب الرجل الداهية وخطط السياسى المحنك وطرق لايهتدى إليها إلا انسان رتبه الحوادث والأيام .

أما عناية الله التى أغنت عن مضاعفة من الدروع - كما يقول البوصيرى فى قصيدته البردة - فهى التى

جعلت الحمام يصنع العش ويملؤه من بيضه ويرقد فوقه للتفريخ وجعلت العنكبوت تنسج خيوطها هذا النسيج الدقيق .

وكان من تلك العناية أن أعمى الله بصيرة المشركين فلم يدركوا من أمره - ﷺ - شيئا مع أنه كان فى موقع أنظارهم وكان « أبو بكر » كلما اشتد به الخوف وزاد عليه الهلع والفزع ، قال له صاحبه) « لا تحزن إن الله معنا » .

وقد دلت تلك المخاطرة التى أقدم عليها رسول الله - ﷺ - حينما كان لابد له أن ينأى عن تلك الوجوه الكالحة .

ويباعد ما بينه وبين تلك النفوس الخبيثة على أنه كان مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن أعداءه لا يستطيعون أن ينالوا منه ولا أن يظفروا به ولا أن يستعدوا عليه وإلا لكان همُّه أن يهرب وكفى أو أن ينجو فحسب ولكننا رأيناه يخرج بالليل ثم يعود بالنهار ورأيناه يحثو فى وجههم التراب غير مبال بما يستهدف له من انتقامهم أومايتعرض له من سخطهم .

وفى كتب التاريخ : أنهم بعد أن أصابهم هذا الحادث بدوار فى رؤوسهم رصدوا جائزة مغرية لمن يجىء بخبر « محمد » - حيا أو ميتا - أو من يدلهم على الطريق الذى سلكه والجهة التى انتهى إليها وكانت تلك الجائزة مائة بعير هى نصاب من المال لا يعدم أن يرفع الذى يحرزه من ذات الصدع إلى ذات الرجع لذلك تقدم « سراقة بن مالك » المدلجى الكنانى لهذه المهمة وقال لهم : « أنا ضمين لكم بذلك » وهنالك ركب فرسه إلى حيث سار « محمد » و « أبو بكر » على الرغم من أنهما سلكاً طريقاً مهجوراً لا يعرفه أحد ولا يمشى فيه انسان وكان السبب فى ترك المسافرين له ، وعدم خطوره لهم ببال أنه غير ممهد ولا قريب المسافة ، وما كان لسراقة أن يعرفه لولا أنه سمع رجلا يغنى بهذا البيت .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

فأخذ يتقصى منه خبر هذين الرفيقين وماذا عساه أن يكون لهما من نبأ حمل الشاعر على أن يسجله وجعل ذلك وغيره من الناس يتناقلونه والناس إنما يتناقلون الطريف من الحوادث أو الغريب من الأخبار .

ولابد أن يكون الفضول قد دفع غير (سراقة) أن يسأل لكن (سراقة) كان أسرع من سواه وطار إلى القوم ثم ركب إلى حيث يمر بخيمة « أم معبد » وربما سألها - كما سألتها قريش بعد - وعرف أن رجلين أضناهما الجوع وأنهكهما المسير وأعياهما التعب قدما إلى خيمتها يسألانها طعاما أو شراباً ولم يكن عندها شىء من الزاد أو الماء ولم يكن بخيمتها غير شاه هزيلة كان ضرعها من الهزال والجوع لم يدر قطرة واحدة من اللبن منذ زمن بعيد وأن أحد هذين الرجلين طلب الشاه فقرأ على ضرعها بعض الأدعية ثم احتلبها فحلبت فشرب هو وصاحبه وأعطى بقية الذى حلبه لصاحبة الخيمة . وارتحل الرجلان وخلفا وراءهما هذا الحديث المروى .

ولم يشك « سراقة » فى أن يكون هذان الرجلان « محمداً وأبو بكر » الذى يصاحبه فى كل شىء .

فى الطريق إلى المدينة

على الرغم من أن الطريق الذى سلكه رسول الله - ﷺ - لم يكن مألوفاً للمسافر إلى المدينة ولا معروفاً لقوافل التجارة التى كانت تنتقل من هنا وهناك فقد كان حادث خيمة « أم معبد » هو المفتاح الأول فى أن يضع « سراقة » يده على الخيط الموصل لكنه لم يكن وصولاً ساراً ولا هداية نافعة إذ أن فرسه لم تكد تصل به إلى حيث كان « محمد وأبو بكر » حتى ساخت قوائمها فى التراب وتوقفت حركتها وكأنما أصابها ذهول أو اعتراها شىء لا تدرى ما هو فظلت مكانها لا تحاول أن تغادره إلى الأمام ولا إلى الوراء ثم بعد غيبوبة طويلة عن الوجود انتزعت قوائمها بعنف انفجر له مكان تلك القوائم بصوت مزعج وحركة مخيفة ، ذهل لها « سراقة » ولم يسعه الا أن يطلب الأمان من « محمد » فأمنه - ﷺ - على أن يتأخر فى الرجوع إلى قريش ريثما تكون الرحلة قد انتهت أوقاربت الانتهاء حتى لا يستطيعوا أن يدركوه .

وقد طلب (سراقة) كتابا يثبت وصوله إلى الضَّالة المنشودة وحصوله على الغرض المطلوب رجاء أن يكون شفيعاً له فى استحقاق الجائزة المرصودة فرغب النبى إلى (أبى بكر) أن يكتب لسراقة هذا الكتاب فكتبه ومضى (سراقة) إلى قريش ليخبرهم خبره فظنوه يتوهم أو يتخيل إلا أنه بعد أن أطلعهم على الكتاب الذى كتبه (أبو بكر) بيده أطمأنوا إلى صدقه وأذعنوا لقوله ثم عاتبوه على البطء فى العودة الذى حال بينهم وبين ادراكه والحيلولة بينه وبين دخول المدينة فاعتذر بوعورة الطريق والتواء المسالك والخوف الذى يكتنف المسافر ولم يخبرهم عن السبب الذى حمله على التأخير حتى لا يتهموه بمجاملة (محمد) أو العمل على مرضاته لأنه وهب له حياته وكان فى استطاعته أن يأخذه بذنبه أو يقوده أسيرا .

وعلى كل حال فقد كان يهون المسافة التى كان طولها مملاً بغيضاً أن « أبا بكر » وهو العالم بأنساب العرب وأخبارهم كان يقص من التاريخ ويروى من حوادث الأيام ما يطرد الهم ويشيع المرح والأنس فى نفس النبى - ﷺ - فلا يحس تعبا ولا يشعر بألم ولا يدركه إعياء ولا فتور .

ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التى ظل محمد - ﷺ - يعانيها هو وأبو بكر فإنها كانت مشقة حبيبة إلى نفسهما سهلة الوقع عليهما لإحساسهما العميق بأن المدينة سوف تكون الدار الطيبة والبيئة الصالحة والتربة الخصبة والوطن العزيز الذى تجد الدعوة فيه من الازدهار والكمال والثبات والاستقرار ما كانت تتوق اليه فلا تجده وتتطلع إليه فلا تكاد تقرب منه .

وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بالمتاعب عامل آخر لا يصح اغفاله فى تاريخ الهجرة والحديث عنها وهو أن « محمداً » - ﷺ - فى كل خطوة يخطوها وفى كل مكان يمر به كانت تتفتح له قلوب الناس وتترامى بين يديه أفئدتهم وتحفه من كل جانب ضمائر تتأجج بنار الشوق وتشتعل بلهب الحب وتخف من مكانها لاستقباله والحفاوة به وتطلب منه أن يعرج عليها وينزل بين ظهرانيها .

ولم يكد يصل إلى « قباء » وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال - حتى وجد أهلها صفوفا على الطريق يتشوقون إليه . ويتلهفون عليه ويرجون رجاء حاراً أن ينزل فى رحابهم ويقيم بينهم وكان ذلك فى الضحى والشمس تلفح بنارها الوجوه ولا يقوى على استقبالها والصبر على لذعها القوى الا من يتناسى أذاها وألمها

فى سبيل حاجته الملحة وهدفه النبيل وغرضه الأسمى وكان على رأس أهل « قباء » أشرافهم ، ورؤساؤهم من بنى « عمر بن عوف » .

وكان فى هذا الوقت نفسه ينتظر هذا الانتظار ويترقب هذا الترقب ويصطف على جوانب الطرق أهل المدينة من لدن طلوع الشمس إلى غروبها إلا أنه آثر أن يستريح فى « قباء » وأن يبنى فيها مسجداً تقام فيه الصلوات وكان هذا المسجد أول مسجد فى الاسلام أعلن فيه المسلمون عبادتهم[1] ثم اجتمعت كلمتهم على نصرة الرسول ورفع راية الاسلام والجهاد الحق فى سبيل الله فهو ذلك المسجد الذى امتدحه الله إذ يذم غيره حين يقول فى سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجداً ضرارا وكفراً وتفريقاً بين المسلمين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا نقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)[2] وهو هذا الذى أسس على التقوى من أول يوم . وأهله هم هؤلاء الذين يصفهم (القرآن) بأنهم يحبون أن يتطهروا وإذا تحدث المؤرخون عن تبائه - ﷺ - لهذا المسجد وأنه خطب بالناس هنالك خطبة الجمعة وصلى بالناس وفهمنا نحن أنه كان بناء على الطريقة المألوفة باللبن أو الحجارة اعتمادا على أن المدة التى أقامها بقباء كانت ثلاثة أيام وهى لا تتسع للبناء بمعناه الواسع فإنه كان - على كل حال - رمزاً للانتقال بالدين من مرحلة العقيدة والايمان إلى مرحلة العمل ، وهى المرحلة التى كانت المدينة السبب الأصيل فى وجودها ، ولولا الهجرة إليها لما ظفر الاسلام بهذا الغنم إلا بعد عنف عنيف وجهد شاق .

أما المسجد الثانى بعد مسجد (قباء) هذه فقد كان بالمدينة - وهو المسمى بالحرم المدنى - ومن حديثه الرائع أن الرسول - ﷺ - لما دخل المدينة بين تهليل أهلها وفرحهم كانوا يتنازعون زمام ناقته ليأخذوها إلى حيث ينزل ضيفاً عليهم وكان كلما أنتزع أحد زمامها يقول لهم الرسول : (خلو زمامها فإنها مأمورة) ثم لا يزالون - كذلك - ولا يصرفهم النبى الا بهذه الكلمة حتى مع أخوال جده « عبد المطلب » - بنى النجار - الذين مات أبوه عندهم وفى حين أن طمعهم فى نزوله كان شديداً لتلك القرابة القريبة بينهم وبينه : فإنه قال لهم كذلك : (خلوا زمامها فإنها مأمورة)[3] .

وأنهى أمر تلك المأمورة بأن بركت على مقربة من دار « أبى أيوب الأنصارى » ثم قامت فبركت على باب دار « ابى أيوب الأنصارى » ثم قامت وعادت ثانية إلى موضعها الأول :

كان تفسير ذلك أن المكان الأول هو مكان المسجد والمكان الثانى هو مكان ضيافته - ﷺ - فإن « أبا أيوب » حمل رحله ونزل به عنده وكان له شرف تلك الضيافة دون أهل المدينة .

وكان من طريف ما يروى عن تلك الضيافة أن دار « أبى أيوب » كانت ذات طابقين أثنين فاختار النبى الطابق الأول وألح « أبو أيوب » أن يختار - ﷺ - الطابق الثانى رفعاً لشأنه وتكريماً لأمره ولم يكف عن الحاحه فى ذلك الا بعد أن أقنعه الرسول أن زواره كثيرون .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٥٨/٢ طبعة الأردن

(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٦/١ والبيهقى فى الدلائل ٥٠٣/٢ ومجمع الزوائد ٦٣/٦

فى المدينة

وصل - ﷺ - إلى المدينة ومعه المسلمون وكلهم خاوى الوفاض بادى الانفاض كما يقول الحريرى فى المقامات وما منهم إلا من له فى مكة ابن أو أب أو أخ أو زوجة أو أم أو أخت أو انسان عزيز عليه أن يفارقه أو يرى نفسه بعيداً عنه إلى جانب أنهم لا يملكون زاداً يتبلغون به ولا ماء يشربونه ولا داراً يأوون اليها .

والفقر إذا ما تناول الناس فى ناحية من هذه النواحى كان هو الموت الأحمر ولكنه القدر القاسى يأبى إلا أن يضيف إلى مرارة الاغتراب وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة الشديدة والبؤس المحقق والمسلمون فى المدينة إن اتسعت صدورهم ودورهم لضيافة النازلين عليهم لا تتسع أموالهم وأرزاقهم وإن كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة لهذا كان النبى - ﷺ - يهتم كل الاهتمام بأن يأخذ كل واحد من المهاجرين فى عمل يكسب منه قوته حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر بإخوانهم إلا ولجوه عليهم وفتحوه لهم ليشعروا إنهم لم تنأ بهم الدار أو تنقطع بهم الأسباب أو توصد فى وجوههم السبل أو تقتر عليهم الأرزاق .

ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريرة التى مر بها المهاجرون حينئذ إلا وهم لا يقلون فى ثرائهم وكثرة أموالهم وانتعاشهم الاقتصادى عن السكان الأصليين - فى المدينة من المسلمين وغيرهم وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين فى هذا الوقت تلك التى أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف وقد أخذت المؤاخاة والامتزاج والشركة بين الفريقين من المكيين والمدنيين تتحكم أواصرها وتسود أسبابها إذ آخى النبى - ﷺ - بينه وبين (سعيد بن الربيع) الأنصارى وقد عرض « سعد » عليه أن يقاسمه أهله وأمواله فأبى ذلك وقال له : « بارك الله لك فى أهلك وأموالك دلنى على السوق » فدله على السوق وكان يتجر فى الأقط والسمن ثم ما لبث أن كان من الأغنياء وكان من أكثر المسلمين بذلا فى سبيل الله إلى درجة أنه ساهم فى تجهيز جيش العسرة أعظم المساهمة .

وهكذا يخبر التاريخ عن المهاجرين أنهم لم يكونوا مثالاً من أمثلة البطالة والتواكل والعجز والاستجداء لكنهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وفرضوا أنفسهم فى المجتمع الجديد سادة لا سوقة .

ومن المعروف فى هذه الآونة أن « محمداً » - ﷺ - جعل بعد وصوله إلى المدينة بئراً اشتراها المسلمون من يهودى بأربعين ألف درهم ليكون الانتفاع بمائها لجميع المسلمين حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء لكن هذا كله لا يعنى أن النبى - ﷺ - ومن كان معه من أهل مكة اطمأنت ضمائرهم كل الأطمئنان فى بلد ، هم وافدون عليه نازحون إليه تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم قد انتهت بهم المطاردة عنده وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع أو تنسيهم بلداً فيه البيت الذى جعله الله للناس مثابة وأمنا وهم فى المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذى ينتظر الأوبة ويرجو لقاء أهله وعشيرته حتى رسول الله - ﷺ - الذى كان يظهر حنينه ويبدى تشوقه ولهفه وإن كان بنى المسجد وبنى بيوت زوجاته لاصقة به ليغرس فى قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن الجديد والاطمئنان إليه والرضا به « وكل مكان ينبت العز طيب » .

وقد أخذت جذور الدعوة الاسلامية تمتد وتتمكن وشرع الله الآذان والصلاة والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام وكان للمؤاخاة التى ربطها النبى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة التى جمعت بين اليهود والمسلمين الأثر البالغ فى تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا فى مكة تخشى بأس المسلمين وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم وغزوهم فى عقر دارهم انتقاماً لأموالهم المسلوبة وأهلهم المعذبين ودينهم المضطهد وحريتهم المحاربة وكرامتهم المضيعة لذلك أخذت حمى الخوف والهلع والجزع والفزع تسرى فى أفئدة طواغيت للشرك هناك مما عساه أن يلحق بهم أو يطرأ عليهم فلم يكن لهم شاغل وراء الاستعداد للاجهاز على تلك الدولة التى يؤسسها « محمد » - ﷺ - فى المدينة لهذا كانت لا تفتأ تتحسس أخباره وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه وتبذل لذلك كله ما تبذل لترى إلى أى مدى تبلغ قوته إذا هى حاربته أو خرجت لملاقاته وكان رسول الله - ﷺ - كذلك - يتبع أخبارهم ويعرف ما يبيتون له وكان عمه « العباس » هنالك يكتب له تحركاتهم وشرورهم التى يضمرونها .

وكان التشريع السماوى والأدب النبوى يسيران جنباً إلى جنب فى تكوين الوحدة الاسلامية والمبادىء الانسانية والأخلاق النبيلة لتتلاقى القلوب ويجتمع الشمل وتذوب الفوارق ، وتسود المحبة وينسى كل انسان عصبيته لأهله وذويه أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر .

وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى « مكة » الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد والمسلمين معه فقد كان الصراع فى أفئدتهم على أشده من جراء هذا الزحف الذى يجىء به الغد المنتظر على الرغم من علمهم الذى لا شك فيه أن عناصر أخرى تشاركهم عداوة هذا الدين الذى يدعو به « محمد » وأصحابه ، لكن قريشا كانت على يقين أن هذه العناصر لا تلبث أن تصير هباء إذا هبت عليها الريح العاصف من غضبة أولئك الذين عاهدوا (محمداً) على أن يقفوا بجانبه ويدافعوا عنه ويردوا كيد المشركين إلى وجوههم إن حدثتهم نفوسهم أن ينالوا منه أو يلحقوا به شيئا من الأذى والهوان .

عنت اليهود

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد طمأن اليهود على مستقبلهم وحريتهم وكرامتهم وأفهمهم أنه سوف لا يتعرض لعقائدهم وعباداتهم وأنهم سيكونون - معه - فى تقديرهم واحترام ملكيتهم وحق تنقلهم وتصرفاتهم فى أموالهم وطقوسهم كالمسلمين والمعاهدة التى وقعها وإياهم تضمن لهم هذه المعانى كلها لا يبخس فيها ولا ينحرف عنها ولا تحدثه نفسه بنقضها أو الخروج عليها .

لكن البوادر التى كانت تبدو فى المناسبة تلو المناسبة تدل دلالة لا تقبل الريب والشك على أن نفوسهم تغلى بالحقد وجوانحهم تتأجج بالكراهية وأنهم يستعدون لجولة مفضوحة .

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾(١)

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

ويقول أساتذة التاريخ الاسلامى : أنهم كانوا يطمعون أن يسيطروا على « محمد » - صلى الله عليه وسلم - ويسخروه للدعوة اليهودية ، لا يتحرك إلا بإرادتهم ولا يدعو إلا بما يرسمونه له من المبادىء والآداب والدساتير والنظم فلما رأوا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأن حركته وسكونه وقوله وفعله وتوجيهه وإرشاده وهديه وتعاليمه وأوامره ونواهيه إنما يتلقاها من السماء ويأخذها عن رب « موسى » و « عيسى » والأنبياء من قبله وأنه ماض فى خطة هو فيها مسخر لا مخير ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[1] لا تحركه شهواته ولا يدفعه طموحه أخذوا ينفضون أيديهم من الآمال التى علقوها على طيه فى أيديهم ووضعه فى جيوبهم وتملكهم لزمامه وحينئذ بدت الأحقاد والضغائن .

على أن اليهود إلى جانب ذلك كانوا فى المدينة رجال أعمال ومال يحتكرون الأسواق ويحذقون أساليب الربح ويتفننون فنون التجارة ويحولون التراب إلى ذهب والمهاجرون من مكة زاحموهم فى الأسواق ونافسوهم فى التجارة وضيقوا عليهم مجال العمل فلم يعد لهم من الربح والاستغلال والاحتكار مثل الذى كان لهم من قبل وهم الذين يجعلون المال إلههم من دون الله لذلك ضاقوا ذرعا بمحمد وأصحابه لأنهم عكروا صفو حياتهم ونغصوا عليهم العيش الذى كانوا يتمتعون به . . ومن وراء هذا وهذا كان « عبد الله بن أبى بن سلول » على وشك أن يراه الناس :

يلمع التاج فوق هامته على جبين كأنه الذهب

لأن اليهود كانوا يعدون العدة لتتويجه ملكا عليهم - وإن لم يكن يهوديا فقد كان عميلا لهم يعيش بعواطفهم ويجعل نفسه ذيلاً فى مؤخرتهم فلما أشرق على المدينة نور الرسالة وسطعت شمس الهداية ذهبت تلك السحب وزال هذا الضباب وخابت ظنون وأحلام أوحت بها الأمانى الكاذبة والأوهام الباطلة .

وقد حدث أنه - صلى الله عليه وسلم - كان ذاهبا لزيارة « سعد بن عبادة » الخزرجى الأنصارى لمرضه وفى طريقه إلى بيت «سعد » رأى جمعاً فيهم « ابن أبى » - ويظهر أنه كان لا يزال على الكفر - ورأى النبى أن يسلم عليهم وأن يتحدث إليهم وكان فى حديثه شىء من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأمر والنهى والحلال والحرام فما كان من « ابن أُبى » إلا أن قال له : هذا كلام تبذله لمن يطلبه وتذيعه لمن يتشوق إليه وتجلس فى بيتك لتقوله لمن يفد عليك لأنك تؤذى به الأحاسيس وتثير به العواطف وتهيج به حفائظ الناس ولما انتهى الرسول إلى بيت « سعد » وسلم عليه رأى فى وجهه الألم وعدم الارتياح فقال له : أرى فى وجهك يا رسول الله تغيراً ينبىء عن غضب لأمر لم يصادف منك رضا وارتياحا فأخبره الرسول الخبر فقال له سعد : اعذره يا رسول الله لأنك جئت إلينا ونحن ننظم له الخرز لنتوجه علينا وكان مجيئك تبديدا لأحلامه وخيبة لظنونه وضياعا لما كان يرجوه ولهذا كان الدور الذى قام به « عبد الله بن أُبى » - رأس المنافقين - من الكيد للاسلام واشعال نيران الفتنة فى كل مناسبة وإقامة العقبات والعراقيل فى وجه الدعوة لا يستهان به فى رأى المنصفين معه علماء السيرة النبوية وربما كان هو وحده وراء التمرد الذى كان صلى الله عليه وسلم يقاومه فى صفوف المنافقين تارة ويقاومه فى صفوف اليهود مرة أخرى .

---

(١) سورة النجم الآية : ٣

وفى هذه الآونة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس وكان هذا ذريعة لأن يُعيّر اليهود « محمدا » وأصحابه أنهم يستقبلون قبلتهم ولا يتبعون شريعتهم وكان لهذا القول وقعه السىء على نفس « محمد » وأصحابه فهو لذلك يترقب بفارغ الصبر أن يحول الله وجهه إلى البيت الحرام بمكة الذى تهفو إليه مشاعره ويرتبط به وجدانه وكان لشدة ـ طمعه فى أن يحقق الله هذا الرجاء يتطلع بوجهه إلى السماء ترقباً للوحى الذى ينزل عليه وهنالك نزلت الآية : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[1] وبذلك اطمأن خاطره واستراح قلبه وانقطعت قالة اليهود وأصبحوا يفكرون فى أشياء أخرى جديدة يبلبلون بها الأفئدة ويشككون بها الناس وينغصون بها الصفو على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الدكتور « هيكل » فى كتابه (حياة محمد) : « وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لددا وأكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة وفى هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين جمعتها اليهود صفوفا متراصة يهاجمون به محمدا ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار ودسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه وجلس بين المسلمين باديا فى غاية الورع والتقوى ثم لم يلبث الحين بعد الحين أن يعتنى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى نفس المسلمين عقيدتهم به ورسالة الحق التى يدعو إليها وانضم إلى اليهود ـ فى ذلك كله ـ جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقا وبلغ من تعنتهم ـ اليهود ـ أن كانوا ينكرون ما فى التوراة ويسألون محمدا : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم » .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى غاية الحرج مع المنافقين لأنهم ـ فى الغالب ـ كانوا من أهل المدينة ولقرابتهم وأهليهم عنده حق الرعاية والاحترام وليس من الكياسة أن يغضبهم وأن يحول موقفهم معه إلى موقف العدو اللدود فيكثر بذلك خصومه الذين يناوئونه لهذا كان يعاملهم برفق ويكل أمرهم إلى ذويهم وقد أراد « عمر بن الخطاب » ـ رضى الله عنه ـ أن يفتك بعبد الله بن أبى بن سلول فمنعه الرسول وقال له : (أترضى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) . وكان لعبد الله بن أبى ولد من خيار صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعى « عبد الله » أيضا ـ فاستأذن الرسول أن يقتل أباه بيده حتى لا تأخذه الغيرة على قاتله فيقتله ويرتكب حراما ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا تقتله ولا يقتله سواك)[2]

وكان من الحزم القضاء على أصل الداء ـ اليهود ـ الذين مكنّوا للنفاق فى المجتمع الاسلامى .

بعد الاستقرار

انتهى المطاف بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه بالمدينة واستقبلهم أهلها بالهشاشة

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٤

(٢) الاصابة لابن حجر ٣٢٧/٢ مجمع الزوائد ٣١٨/٩ تاريخ الطبرى ٦٠٨/٢

والبشاشة والسرور والرضا والارتياح والاطمئنان واتجه كل واحد من المهاجرين إلى العمل الذى يناسبه من التجارة أو الزراعة ليصل على لقمة العيش التى تمسك أوده وتقيم صلبه فلا يكون عالة على غيره ولا عبئا على سواه إلا أن الأمر لم يكن لينتهى إلى هذا الحد فيرضى كل منهم الرضا كله ويستريح الراحة التى لا يشكو بعدها أينا ولا تعبا وبخاصة الرسول الكريم الذى يخطط لحياة طويلة وسياسة دائمة ودولة يستطيع بها أن يكبح جماح الظلم ويعيد طغيان الكفر ويقضى على فساد الحكم وفوضى السلوك والأخلاق .

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذى يتحين له فرصة الإيلام والايذاء والجبروت والتعدى - والمطاردة والقهر والقضاء على دعوته والإجهاز على من يقفون معه أو يؤمنون به وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجد فيها جوا نقى وحالا أهدأ لكنه واجه اليهود بها يضمرون الشر ويكتمون العداوة ويلهبون فى قلوب المنافقين نيران البغضاء ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان واشاعة التفكك فى صفوف المسلمين حتى لا تقوى لمحمد شوكة ولا تقوم للإسلام دولة وينتهى الحال بهجرة أخرى عن المدينة كالهجرة التى كانت من مكة وقد راود هذا الحلم أفكار بعض اليهود فقالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - لماذا لم تهاجر إلى (بيت المقدس) كما فعل الأنبياء والمرسلون من قبل ؟ ومن أجل هذا كله فالنبى - صلى الله عليه وسلم - كان فى المدينة على حال لا يحسد عليها وقد حمله هذا على أن يلتزم المبدأ القائل : « اطلب الموت توهب لك الحياة » وطلبه الموت كان ممثلا فى تلك الخطة التى سار عليها :

أراد أن يُفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر على موقف القوة الذى تقفه منه فتعامله معاملة الضعيف الفار من وجهها الهارب من عدوانها الناجى بدينه منها فتظل على تفكيرها فى قتله أو الظفر به ولم يجد وسيلة لذلك أحسن من أن يرسل السرايا من المسلمين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام ولتشيع هنالك الفزع والخوف فلا يجرؤ أحد على اقتحامه أو السير منه إلا بقوة مدججة بالسلاح وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال أو يتحولون بتجارتهم إلى طريق آخر أكثر مشقة وأبعد مدى وفى هذا تعطيل رحلاتهم وكساد تجارتهم وإيلام لنفوسهم وإثارة لحفيظتهم وأكد النبى - صلى الله عليه وسلم - بالأحلاف التى ربط بها بينه وبين القبائل والأقوام المختلفة التى تستوطن هذا الطريق ذلك المعنى الذى قصد به حرب العصابات التى تشنها جماعاته على قوافل التجارة وكان الهدف الذى يرمى إليه أن تفكر قريش فى تسوية حسابها معه - كما يقولون - اعتداء يستطيع المسلمون فى مكة فى ظلها أن يعيشوا فى سلامة من شرهم وبعد عن إيذائهم ويترتب على ذلك أن المنافقين واليهود فى المدينة يكفون عن نوايا السوء التى يضمرونها والخطط الخبيثة التى يرسمونها ولم يمض عامان كاملان على اغترابه فى المدينة حتى كان فى استطاعته أن يلتقى بهم وجها لوجه ملاقاة الند للند وكان له جيش يستطيع به أن يتهدد لقاءهم ويشرد جموعهم ويشيع فى صفوفهم الهلع والرعب .

وبعد ثمانية أشهر من إقامته بالمدينة بعث بعمه « حمزة بن عبد المطلب » فى ثلاثين راكبا من المهاجرين فالتقوا بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة من أهل مكة كان « حمزة » هو وجماعته على استعداد لقتلهم لولا أن حجز بينهم جهنى كان موادعاً للطرفين وسار « عبيدة بن الحارث » عقب هذه المسيرة فى

ستين راكبا ليقطعوا الطريق على « أبى سفيان » ومائتين كانوا معه وقد انسحب أبو سفيان ومن كان معه وخرج كذلك « سعد بن أبى وقاص » فى ثمانية.

وهكذا خروج يتبعه آخر وآخر ، إلى أن أصبحت قريش تفكر تفكيراً جاداً فى سلامة تجارتها وأمن طريقها وبخاصة وقد رأوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرج بنفسه لملاقاة (أمية بن خلف) وملاقاة (أبى سفيان) .

ويقول بعض كتاب السيرة : أنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينتدب لهذه العملية إلا المهاجرين بحجة أنهم هم المعتدى عليهم من أهل مكة الذين غنموا أموالهم واغتصبوا حقوقهم وخربوا ديارهم وأوقعوا الأذى بأهلهم وإلى جانب ذلك فربما كان فى هذه القوافل بعض من يربطهم بهم دم أو قرابة فيحول ذلك بين قتالهم وإزهاق أرواحهم ويثير فيما بينهم عاطفة النسب وروح الاتصال ووشائج الارتباط وعلى كل حال فقد كان هذا الموقف ضرورياً لأنه على الأقل منع قريشاً من مواصلة عدوانها وحملها على أن تحسب للمسلمين بالمدينة ـ من المهاجرين وغيرهم ـ ألف حساب . ثم تنتهى إحدى السرايا إلى نهاية تثير بعض النفوس وتوقف المسلمين موقف النقد وإن كان نقداً لا قيمة له ويرجع ذلك إلى أن « عبد الله بن جحش الأسدى » بعثه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ليترصد أخبار قريش لكنه لم يكتف بهذا التخطيط الذى رسمه له الرسول وإنما إنتهى به الأمر إلى أخذ عير بما تحمله من عروض التجارة المختلفة وقتل « عمرو بن الحضرمى » الذى كان يقودها هو وجماعة معه وقد جاء إلى النبى بتلك العير وأسيرين وكان هذا الحديث الذى أحدثه « عبد الله بن جحش » مثار أحاديث رددها المشركون والمنافقون على السواء كلها كانت لمزاً جارحاً وطعناً حقيرا ورمياً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه لم يحترم الأشهر الحرم التى كانت لها قدسيتها عند الناس منذ الجاهليه لم يسفكوا فيها دما ولم يعتدوا على حرمة من المحرمات وقد أخذ بعض من تعطفهم العواطف على « عبد الله » يلتمسون له العذر ويصححون له الوضع وقال فريق منهم : إن القتل كان حيث كانت اللحظات الأخيرة من رجب قد تصرمت . وأثار ذلك القول الرسول نفسه ـ بعد أن وصل إلى أذنيه دوى المرجفين ـ فأبدى غضبه من (عبد الله بن جحش) وقال له : (لم آمرك بقتال ولا بسفك دم) . ولما حمى وطيس هذه الفتنة واتخذها المشركون والمنافقون ذريعة للطعن والتشويش نزل قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾[1] .

يستعرض سلوكهم السىء وتاريخهم الأسود وماضيهم الملوث ومواقفهم المرذولة وكان هذا الخطأ الذى ارتكبه « عبد الله » لا يساوى شيئا إلى جانب صدهم عن دين الله ومحاربتهم للحق وانحرافهم عن الجادة والتوائهم عن الصراط السوى وكأنما كان ذلك المنطق الذى سمعوه والأسلوب الذى جوبهوا به بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم وتنزل على رؤوسهم لأن من أحمق الحمق وأكبر الكبائر أن يرى الرجل القذى فى عين أخيه ثم لا يرى الجذع فى عين نفسه .

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧

شبهة ندفعها

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التى كان يرسلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جماعة المهاجرين ، الواحدة تلو الأخرى مكونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش إلى الشام أو الآيبين منها من أجل تجارتهم التى كانت الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ونماء أموالهم ، ووفرة أقواتهم : إن هذه حرب عدوانية لا يصح للداعية أو المصلح الاجتماعى أن يلتجىء إليها أو يجعلها معتمدة فى نشر أفكاره وبث تعاليمه والاقناع بأنها الحق الصلاح والرأى والصواب . . وقد بالغ قوم فى هذه الشبهة فزعموا أن دين « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتشر بالسيف وتمكن بالعنف وارتفعت رايته بالقوة وأخذ به معتنقوه حين لم يجدوا بدا من الدخول فيه والايمان به والوقوف إلى جانبه ليردوا عن أنفسهم طغيان القوة وجبروت السلطان وبطش الكثرة الكاثرة ممن وضعوا أرواحهم لمطامعه وانتصارا لمبادئه وتأكيدا لطموحه فى السيادة والملك وهو قول إنما يقول به من يتجرد من المنطق ويجافى الحق ويجانب الصواب ويناقش مناقشة الأطفال ويحاول بلغة المجانين ويزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة من البشر يريد أن يسخرهم لمطامعه العدوانية وشهواته المسفة وكبريائه المصنوع كما كان الفراعين والقياصرة والأكاسرة الذين علوا فى الأرض بغير الحق فى حين أن دعوته هذه كانت : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

لا تعاند الطبع ، ولا تخالف الذوق ولا تعارض التقدم ولا تقود الانسان إلا إلى الصلاح والفلاح ولا يمكن للبشرية أن تسعد السعادة التامة دون أن تلتمس منها الرشد وتستمد منها الهداية وتجعل منها طب نفوسها وعلاج أمراضها .

ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحد أو الجأ اليها انسانا وكتابه الكريم ينادى بأعلى صوته يقول له لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى وهو فى الوقت الذى يجعل الأخذ بهذا الدين والايمان به قائماً على الاختيار لا الاضطرار يشرع للمسلم القتال دفاعاً عن عرضه أو ماله أو نفسه أو دينه . .

وإذا نحن حققنا النظر فى تلك الحرب التى كانت تدير رحاها السرايا التى أشاعت الخوف فى الطريق إلى الشام أو منها وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحداً من هذه الأمور الأربعة التى جعلناها أسباباً واضحة تبرر التحام الجيوش فى ساحات القتال ، فأموالهم فى مكة قد اغتصبت ودينهم يناله الايلام والايذاء والمطاردة والصد ونفوسهم مهددة بالقضاء فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذى لا بديل عنه ويساقون إلى حربهم بحكم الدفاع الذى لابد منه وحيثما انتهى قرار المسلمين بالمدينة واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الاقامة الدولة التى يحمون حوزتها ويدافعون عن حدودها ويرون من يغير عليها وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش وتنتهك حرمتها كانت فى حدود الدولة وكان عليها لتمر منها أو تستخدمها لمصلحتها ـ أن تستأذن عليها كما تقضى بذلك الأعراف الدولية .

على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذى يثير الرعب ويشيع الفزع فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة تتخذ لها الأهبة ويوفر لها الاستعداد من الذخيرة والسلاح والرجال لأن القصد الأول كان تعرفها أخبار قريش وتحركاتها واستعدادها لمواصلة القضاء على المسلمين وكبت نشاطهم والحد من تحركهم واتساع نطاق دعوتهم والمنصفون من المؤرخين إنما يعيبون على المصلحين أو أصحاب الدعوات التقدمية الحرب الهجومية إذ هى التى يشتم منها القسر والقهر والاكراه والالجاء والالزام الذى لا اختيار معه ولا يدع مجالا للمنطق والتفكير والترجيح والموازنة كما يفعل الذين يذعنون للحق ويؤمنون بالصواب أما الحرب الدفاعية التى ترد العدوان وتصد الباطل وتذود شرور الاستبداد وطيش الرعونة وسفاهة الحمقى فإنها مسلمة بالبدائه والفطر لا ينكرها عقل ولا باباها ذوق ولم تكن حروب الاسلام فى يوم من الأيام هجوماً ولا بطشاً وإنما كانت لدفع الظلم ورد البغى وكبح جماح الباطل ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف فى كتابه « الدولة الاسلامية » : « إن النبى لم يقم بحرب هجومية إطلاقاً حتى فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش فإن موقعة « بدر » التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود إقليم المدينة وعلى إثر تحدّى المكيين للنبى وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين حق السيادة اليثربية ، فأبو سفيان حين مر بقافلة فى المنطقة اليثربية كان يتحدى أهل يثرب بقوته ويستضئل شأن النبى ولهذا خرج النبى إليه وأراد أن يصادر هذه القافلة أو أن يحاربها وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم والطائفة الأولى هى القافلة والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ومنع النبى من مصادرتها .

« ووقعة » أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة وعلى نحو ميلين منها وكان المكيون فيها مهاجمين يطالبون بثأر بدر ثم إن النبى خرج فى السنة الرابعة إلى « بدر الثانية » لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد فلما كان العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة « الخندق » كان النبى مستقراً فى يثرب وعدوه هو الذى جاء إليه متحدياً منتهكاً لحقه فى السيادة كما كان الحال فى عام أحد وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام ومع ذلك فإن النبى حرض على الجهاد ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإعزاز الدولة الاسلامية بحيث يعيش فى أمن عام وإتاحة الفرصة للمبادىء أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان . دون أن تقف القوى المسلمة المادية فى طريقها فتصدها وتعطل من سيرها .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر وجبروت الظلم وتسلط الجبارين . وتشويش المرجفين وعناد الحمقى وسفه المحرومين على أن دعوى الاكراه والارغام والالجاء إذا صح فى هذه الآونة أن يرددها مدّع مغرض فهل يمكن أن يرددها الآن عاقل بعد أن أثبت التقدم الحضارى والنضوج الذهنى والازدهار العلمى أنه يغزو العقول والأفئدة وبعد أن اعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الانسانية بتعاليمه لأنه الدين الذى لا تنهض بسواه ولا يصلح حالها إلا به .

ويقول الدكتور هيكل : (وما دامت الحرب فى مطرق الناس فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود هى غاية ما تحتمل نظرة البشر وما يحقق للانسان اتصال تطورنا فى سبيل الخير والكمال وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ممن يتهمون الاسلام بالعنف واراقة الدماء واشعال نيران الحروب فى سبيل إعلاء كلمته وانضواء الناس تحت رايته إنهم ينسون ما جاء به من إرشاد وما أعلنه من هداية وما تضمنه من آداب وما رسمه من خطوط وما دعا إليه من خير لم يتخلف به عن تقدم وعمران ومدنية وحضارة وإصلاح ونفع وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر والعنف والتسلط والارغام والضغط واراقة الدماء وإزهاق النفوس أن يغمروا جانبه أو يلمزوا تكاليفه أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الانسانية إلى البر والمعروف لتنطلى دعوى اتهامه والاختلاق عليه لكن شيئاً من ذلك لم يكن ولا يمكن أن يكون . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للتمكين لدينه ونشر دعوته بما أزاقوه هم باسم (عيسى) و (موسى) وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها وتلك الأموال الطائلة التى كانوا يزودون بها الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام وتحويل القلوب والأنظار عنه : **﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون﴾**(١) .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الويلات التى تعاينها البشرية هنا وهنالك لا تحتمى إلا باليهودية والمسيحية وهمامتهم براء ما فى ذلك شك . أما الاسلام فهو لا يزال سلاحا على الانسانية والناس .

اليهود فى الطريق

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعانى شدة فى طريق دعوته إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التى كان يعانيها من المنافقين واليهود غير أن حال المنافقين كان شائكاً لأنهم يعلنون الاسلام وليس من حقه أن يدخل إلى قلوبهم ولا أن يهتك سرائرهم ولا أن يعاملهم الا بظاهر مايبدو منهم ولكن اليهود كانوا يزعمون فى أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل فى تقديرها واحترامها عن دعوة « محمد » وهم لهذا يحب أن يجعلوه مطية طيعة لأهوائهم وأغراضهم أو يزيلوه عن الطريق ليكونوا وحدهم فى الميدان لا ترتفع عليهم صيحة ولا يزاحمون منافس . وسياستهم التى يسلكونها ـ فى كل زمان ومكان ـ تقوم على الكيد المشوب بالذلة والخنوع المختلط بالضعف والتواضع الذى يصل إلى حد الهوان فى سبيل الوصول إلى أغراضهم فإن أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف وعاملوه بالقسوة وأرغموه على أن يركب حد السيف ، يقول الدكتور هيكل :

« فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٦

وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت ثم كان بها اليهود يقيم منهم « بنو قينقاع » داخلها ويقيم « بنو قريظة » فى « فدك » و « بنو النضير » على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خيبر ، أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط وإن بقيت فى نفس « محمد » بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما ما مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له أثره بعد ، وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافا نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك وأما اليهود فبادروا باديء الرأى إلى حسن استقبال « محمد » ظناً منهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى دينهم والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود ـ شعب الله المختار كما يزعمون عن فلسطين أرض الميعاد وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد لأسباب النجاح لبلوغه غايته » .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « كان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة فلا يستطيعون رد الاعتداء على من يعتدى عليه منهم فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدى وإلقاء الرعب فى قلوبهم ممن تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الاسلامية الناشئة فى يثرب .

وكان « أبو عفك » ـ وهو يهودى من بنى عمرو بن عوف ـ يرسل الأشعار يطعن بها على « محمد » وعلى المسلمين ويحرض قومه على الخروج عليهم وظل كذلك إلى ما بعد بدر يغرى بهم الناس فأخذ « سالم بن عمير » نفسه بالقضاء عليه وذهب إليه فى داره ليلا وقتله وكذلك قتل « عمير بن عوف » امرأة من بنى أمية بن زيد تسمى « عصماء بنت مروان » وكانت تعيب الاسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه ولم يكتف « عمير » بقتلها بل تحدى قومها حين سألوه فى هذا ، فكان لجرأته أثر كبير إذ ظهر الاسلام فى بنى خطمة ـ وهم قوم زوج عصماء هذه ـ ومن ثم ظهر منهم من كان يخفى اسلامه .

كذلك كان كعب بن الأشرف اليهودى شاعراً شيطاناً أخذ نفسه بالكيد للمسلمين وإرسال الأشعار فى التحريض عليهم ولقد ساءته نتيجة « بدر » وآلمت نفسه حتى لقد قال حين علم بها : « هؤلاء أشراف العرب ملوك الناس ـ يعنى قريشا ـ والله لئن كان « محمد » أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ثم ذهب إلى مكة يرثى أصحاب « القليب » ويحرض قريشاً على الثار وينشد فى ذلك الأشعار وعاد إلى المدينة فأخذ يسب بنساء المسلمين حتى امتلأت النفوس بالغيظ منه وحتى أجمع المسلمون على قتله فذهب إليه جماعة استدرجوه حتى خلوا به وقتلوه وزاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ولكنه لم يسكتهم عن « محمد » ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض » .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقظاً لحيلهم بصيراً بكيدهم عالما بما تمتلىء به قلوبهم العفنة وضمائرهم الخبيثة وطواياهم الفاسدة ونواياهم الشريرة ولقد رأيناه يأخذهم بحذق ويقلم أظافرهم بحكمة ويقص أجنحتهم ببراعة ويستريح من كيدهم بمهارة وينتهى بهم إلى الاذلال الذى كتبه الله عليهم ولم تكن مانعتهم حصونهم التى أحكموا بناءها . وقد كان بنو (قينقاع) بداخل المدينة يعملون فى صياغة الذهب

والحلى وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخيلاء ورؤ وسهم بالكبر وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ويطئوا بأرجلهم أشلاءهم لأن اقتصاد المدينة وتجارتها وأسواقها بأيديهم هم لا يزاحمهم فى ذلك كله أحد ، وفى ذات يوم قدمت إلى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشترى شيئاً من الذهب فتطاول أحدهم عليها وعبث بخبائها وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تطاول على المرأة المسلمة . وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى إشعال نار حرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين على الرغم من المعاهدة القائمة بين المسلمين وسائر اليهود وقد أعلنوا عدم التزامهم بهذه المعاهدة وتحديهم للنبى - ﷺ - والمسلمين معه وقالوا للنبى ﷺ :

(لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) ولم يكن هناك بد من أن يضرب - محمد صلى الله عليه وسلم - ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التى تهددها والرعب الذى يسيطر عليها وحينئذ حاصر « بنى قينقاع » خمسة عشر يوماً لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل إليهم أحد فى بيوتهم وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى نالهم والفزع الشديد الذى أصابهم داعياً إلى أن يظهر « عبد الله بن أبى بن سلول » - رأس المنافقين - على شاشة المسرح ويقول للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « إنهم حلفائى وأنا لا أحب أن تؤذينى فى حلفائى » وقد أعرض عنه النبى - صلى الله عليه وسلم فلم يصغ إليه ولم يأبه به إلا أن « عبادة بن الصامت » رجاه أن يضيق الخرق على الواقع ويستجيب لرجاء « ابن أبى » ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع دينين لاحسانه ورحمته وكان الرأى الذى انتهى إليه النبى هو استئصال شأفتهم وإبادتهم جميعا إلا أن الرأى الذى استقر عليه بعد ذلك كان خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وأقواتهم وديارهم وكان هذا الخروج إلى « وادى القرى » ثم إلى « أذرعات » على حدود الشام وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية والدسائس التى تحاك هنالك وإن كان يهود بنى النضير وبنى قريظة على حدودها القريبة .

وكان طبيعياً بعد هذا الذى حل ببنى قينقاع أن ينكمش غير المسلمين وأن يصيبهم الرعب لكن « أبا سفيان » جمع مائتى رجل وأغاروا فى خارج المدينة على رجلين فقتلوهما وحرقوا بعض البيوت والنخيل يقصدون بذلك إلى إشاعة الفزع فى قلوب الناس وقد ندب الرسول بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام وكان أكثر الطعام سويقاً لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق وبعد دلك بقليل قتل « كعب بن الأشرف » فكان ذلك نهاية إذلال اليهود .

أما ما كان من أمر « بنى النضير » فهو لا يعدو أن يكون صورة - كذلك - من صور الخداع واللؤم والمكيدة والغدر والذلة والضعف فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - ذهب إليهم يستعين بهم على دفع دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين بطريق الخطأ وكان القتيلان من حلفائهما وحلفائه - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كل الاستعداد لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيلين لكنهم أخذوا يسوفون ويروحون ويجيئون ليدبروا أمر قتله بحجر يلقيه أحدهم فوق رأسه من سطح المنزل الذى يستند إلى جواره إلا أن الله أخبره بما يدبرون له فتسلل من مكانه دون أن يحس به أحد ثم أخذ سمته إلى المدينة ولما طال غيابه لحق به أصحابه

وهم لا يعرفون من أمر تسلله شيئاً وكان هذا التصرف منه محل دهش واستغراب حملهم على الايمان بنفاذ بصيرته - صلى الله عليه وسلم - وهنالك أرسل النبى « محمد بن مسلمة » يحمل إنذاره إليهم أن أخرجوا من بلادى لأنكم نقضتم عهدى وهممتم أن تغدروا بى وفى هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك وبينما هم يتهيأون للرحيل جاء إليهم رسول من « ابن أبى » يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف إلى جانبهم ومعه ألفان من قومه يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل إليهم أحد من المسلمين وقد أخذوا يقلبون هذا العرض الذى يعرضه ابن أبى على وجوهه وانتهوا إلى عدم الثقة فيه لأنه قال مثل هذا القول لبنى قينقاع ولم يغن عنهم شيئاً « وبنو قريظة » الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنيعاً لأنهم يرتبطون مع « محمد » بمعاهدة تجعلهم يقفون إلى جانبه لا إلى جانبهم وقال كبيرهم « حيى بن أخطب » : سأرسل إلى « محمد » إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا ما يريد ، وسنحتمى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوما أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا « محمد » أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم رضى النبى أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره فخرجوا ومعهم « حيى بن أخطب » الذى كان يغريهم بالعصيان ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب الباقون إلى أذرعات وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى البشر التى كانت تناوىء الدعوة وتكيد للاسلام وتصد عن سبيل الله وتبغى فى الأرض الفساد ولم يجد اليهود بعد ذلك - وعلى رأسهم حيى بن أخطب - طريقاً يسلكونه للانتقام لأنفسهم من « محمد » ومن حوله المسلمون معه إلا أن يؤلبوا عليه قريشاً والمشركين جميعاً لتتلاقى وإياه فى حرب تكون قضاء عليه وعلى دعوته ولهذا خرج « حيى بن أخطب » و « سلام بن أبى الحقيق » ومعهم من بنى وائل « هوذة بن أبى قيس » و « أبو عمار » حتى قدموا على قريش بمكة فسأل أهلها حُيَيًّا عن قومه فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم إليهم لتسيروا إلى « محمد » وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال :

أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ولم تصدق قريشا شيئاً من ذلك فسألته « أديننا خير أم دينه ؟ فقال : لا بل دينكم أنتم وإلى هذا تشير الآية : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾[1] .

ولم يزل « حيى بن أخطب » يسعى سعيه ويعمل عمله حتى مر غلى « كعب بن أسد » ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد والتخلى عنه إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة وكان « بنو قريظة » قد عاهدوا المسلمين أن يقفوا إلى جانبهم بكل أنواع المعونة والمساعدة وقد تردد كعب أن يستجيب لحيى لكن حييا لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فبعث « سعد بن معاذ » سيد الأوس و « سعد بن عبادة » سيد الخزرج ومعهما « عبد الله بن رواحة » و « خوت بن جبير » ليقفوا على جلية الأمر فلما رأوا منهم روح الشر وقال : « كعب بن أسد » : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه

(١) سورة النساء الآيتان : ٥١ ، ٥٢

ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة وفتحوا الطريق إلى الأحزاب ليدخلوا المدينة لم يجدوا بدا من أن يتمهلوا لهم فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة طالبوا بعدها بالخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض النبى ولا المسلمون هذا العرض وعرض عليهم الرسول أن يختاروا رجلاً يحكمونه بينه وبينهم فاختاروا « سعد بن معاذ » فحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية[1].

ويقول الدكتور هيكل تعليقاً على هذا الحكم : « ولعل » « سعد » ذكر أن الأجزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لما كان أمام المسلمين لا أن يُستأصلوا وأن يقتلوا وأن يُمثل بهم فجزاهم بمثل ما عرَّضوا المسلمين له ».

وقد كان للقضاء على بنى قريظة أثر بالغ فى قوة المسلمين وخوف المشركين منهم والاهتمام كل الاهتمام بوجود جبهة متينة لصد عدوانهم وعندئذ اتجهت الأنظار إلى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول اليهود الأخرى من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وإلى جانبهم على القرب يهود تيماء ووادى القرى وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون لذلك كان الاستعداد بينهم قائماً على قدم وساق فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ليزيلوا من نفوس المسلمين وبخاصة الأنصار وأغلق بها من العداوة التى غرسها « حيى بن أخطب » من جراء تأليبه العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء.

وقد كان المسلمون سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما « سلام بن أبى الحُقيق » و « اليسير بن زرّام » وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود إلا أن كثيرين من قريش مع ذلك كله - كانوا يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين وذلك لمناعة حصون خيبر وقيامها فوق جبال صخرية وكان أبرز زعماء أهل خيبر فى هذا الوقت « سلام بن مشِكم » الذى أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون فيجعلوا الأموال والعيال فى حصن والذخائر فى حصن والمقاتلة فى ثالث وهكذا وضيق المسلمون الحصار عليهم وهم يستميتون فى الدفاع عن أنفسهم وقتل « سلام بن مشكم » فتولى قيادتهم « الحارث بن أبى زينب » وما زالوا صامدين مستبسلين والأيام يتابع بعضها بعضا وقد أرسل النبى إليهم « أبا بكر » ثم رجع من غير جدوى وأرسل بعده « عمر » فرجع كذلك فأرسل « عليا » ودعا له بالنصر وقد خرج إليه رجل من اليهود فضربه فسقط ترسه فتناول بابا كان عند الحصن فترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده وهكذا توالى اقتحام الحصون كلها حتى سقطت « خيبر » وصالحهم النبى - صلى الله عليه وسلم على البقاء فى أراضيهم يزرعونها بالنصف لأنه لم يكن فى المسلمين من يحسن القيام على فلاحة الأرض وزراعتها وقد قبل يهود فدك ووادى القرى هذا المبدأ فقد صالحوه - صلى الله عليه وسلم - على مثل ما حصل ليهود خيبر من غير حرب ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية وسنرى من متابعة الحوادث أن أمرها بعد الفتح سيئول إلى الاذعان والخضوع.

---

(١) صحيح البخارى - كتاب الجهاد - باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٦/١٦٥ ومسلم ٣/١٣٨٨ وعبد الرزاق فى مصنفه ٥/٣٧٠

غزوة بـدر الكبرى

يرى المؤرخون ممن تصدوا للكتابة عن حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومواقفه التى وقفتها فى وجه الشرك أن هذه الغزوة كانت حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين كل الاختلاف عهد الاستكانة والرضا والمصافحة والاغضاء والالتجاء إلى أسلوب السياسة وعهد القوة الرادعة والبطش المزعج والبأس المخيف والموقف الذى يحس صاحبه معه بالتمكن والاعتزاز والثقة فإن المسلمين لم تنته بهم الجولة ـ ولم يفزعوا من تفريق شمل الكافرين الذين لاذوا أمامهم بالفرار والهلع والخوف والجزع حتى أخذت نشوة الانتصار تدب فى مفاصلهم ثم صارت بعد ذلك تشعرهم بأن هذا الرصيد من الايمان الذى يملأ جوانحهم لا يمكن أن تقف له قوى الغدر ولا جيوش البغى ولا محافل الكفر ولا وسائل الدمار والموت وأن هذه الحرارة التى تصنعها العقيدة لا تستطيع حرارة البخار ولا الكهرباء أن تتغلب عليها أو تسقط حسابها من الاعتبار فلقد كان عدد المقاتلين الذين خرجوا لملاقاة أبى سفيان ـ أولا ـ ولملاقاة هذا الجيش الذى دفعت به مكة كلها ـ ثانيا ـ لا يتجاوز ثلث خصومهم ومع ذلك كان النصر إلى جانبهم والفوز من نصيبهم وقضى الله بهذه الجولة أن يملأ الخوف نفوس الصناديد الأبطال ممن أرادوا أن يخفت صوت الحق وتنتكس راية القرآن و « محمد » ينفض يده من كل بارقة أمل تحثه نفسه بها .

ونحن نعلم أن أسلوب حرب العصابات التى آلت على نفسها أن يعكر الصفو على أهل مكة فلا تطمئن بعض الاطمئنان أبدا على تجارتها إلى الشام ظلت حدته تتزايد وأمره يتضاعف ثم كان ما كان من سرية « عبد الله بن جحش » التى أثارت قالة السوء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه أنهم لا يقدسون حرمات الأشهر التى لا يحل فيها القتال وأن الرسول بعد هذا أغرى أصحابه بالعير التى خرج بها « أبو سفيان » إلى الشام بتجارة كان معظم أصحاب الأموال فيها ولم يكتف من جانبه بهذا الإغراء حتى خرج معهم يترقب فى الطريق أبا سفيان ومن معه وهم ذاهبون إلى الشام لكن الفرصة كانت قد تفلتت منه . إذ أن أبا سفيان مر قبل أن يأخذ النبى وأصحابه مكانهم من الطريق ولم يكن لهم بد بعد ذلك كله إلا ترقب أوبة العير عند رجوعها من الشام وكانت أنباء هذا التآمر على أبى سفيان وعيره تطايرت إليه فكان عليه أن يغير طريقه حتى لا يظفر به خصومه وفى الوقت نفسه كان استأجر من يسبقه إلى مكة يستنفر الناس جميعا لحماية تجارتهم التى توشك أن تقع فى قبضة « محمد » وأصحابه وعلى الرغم من أن كثيرا من رجالات مكة لم يطاوعهم وجدانهم أن يخرجوا لقتال « محمد » وأصحابه لاقتناعهم بالظلم ما حققوا المطاردة التى وقعت عليه وروابط النسب التى لا تخلو من أن تكون قائمة بينهم وبين الذين كانوا معه من المسلمين وبخاصة بعد أن تبين لهم أن السبب الذى من أجله كانت الدعوة إلى الحرب والخروج لملاقاة المسلمين قد زال فإن أبا سفيان كان قد وصل إلى مكة بالتجارة لم يصبها ـ أو يصيبه ـ أذى إلا أن الدعوة إلى الخروج ولقاء « محمد » وأصحابه وإشعال نار الحرب والقضاء على هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا مع ركب المسافرين بالتجارة إلى الشام أسلوب العصابات قد لقيت استجابة عند بعض الذين يحبون الاصطياد فى الماء العكر أمثال « أبى الجهل » الذى سفه رأى « أبى سفيان » وهو يدعو الى عدم الخروج ما دام السبب غير قائم « وعتبة بن ربيعة الذى قال : « إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئاً والله لئن

أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون » .

وعلى كل حال فقد رجحت كفة أبى جهل فى الدعوة إلى الخروج وذهب الفريقان إلى « جبهة القتال » وفى نفوسهما من الحماسة والحمية والأستبسال والشجاعة الشىء الكثير إلا أن الفرق ما بينهما بعيد كل البعد محمد وأصحابه تثور بهما عقيدة تحارب وإيمان يطارد ومبدأ يريد أن ينطلق إلى غايته لكن قريشاً وكفار مكة معها يثور بها طيش جاهلى ووثنية هوجاء وحقد ظالم وشتان ما بين اليزيدين فى الندى ولما نزل المسلمون للتجمع الذى يسبق الهجوم كانوا - بادىء ذى بدء - بعيدا عن الماء الذى يسمى بدرا فناقش بعض المسلمين النبى - صلى الله عليه وسلم - : أهذا النزول بعيداً عن الماء وحى أوحى به الله إليك لا تنحرف عنه ولا تستطيع أن تخالفه ، أم هى المكيدة والخدعة والسياسة والحنكة والحزم التى يتطلبها الحرب ؟ فقال الرسول : لم يكن ذلك وحياً ولكنه الاجتهاد والرأى فقال له « الحباب بن المنذر » : السياسة والحزم أن نضع أيدينا على ناصية بدر تستقى منها وتشرب دوابنا ونحول بينها وبين المشركين ويكون ذلك تضييقاً عليهم وحرباً لهم[1] ، وهنالك استراح النبى لهذا الرأى واستراح له المسلمون وبنوا حوضاً على فم البئر لتسعفهم بالماء حتى لا يعوقهم الاحتياج منها وبينما هم يمرحون ويتصفون ابتهاجا بهذا الموقع « الاستراتيجى » الذى اتخذوه إذ اندفع « الأسود بن عبد الأسد المخزومى » من بين صفوف قريش يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون وهنالك يضربه « حمزة بن عبد المطلب » ضربة فى ساقه فيسقط ودمه يشخب ويدعو ذلك « عتبة بن ربيعة » أن يخرج من بين الصفوف ليطلب مبارزة المسلمين ولما تقدم له بعض الشبان الذى كانت الحمية تغلى فى عروقهم امتنع أن ينازله ونادى بأعلى صوته : « يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من المقاتلين » وكان « عتبة » يحيط به أخوه شيبة وابنه الوليد فتصدى « حمزة » لشيبة فقتله وتصدى « على » للوليد فقتله ، وتصدى « عبيدة بن الحارث » لعتبة وانتهى بالاجهاز عليه وبذلك كانت قريش قد خسرت ثلاثة من أعز أبطالها وخيرة فرسانها[2] فلم تجد بدا من أن تلقى بكل ثقلها فى المعركة وتعطى للحرب حظها من الاهتمام فتزاحف الناس والتقى الجيشان صبيحة الجمعة السبعة عشر من رمضان والنبى - صلى الله عليه وسلم - على رأس المسلمين ينظم صفوفهم ويحدد مواقفهم ويملأ نفوسهم إيماناً بالله وثقة بنصره وتمكيناً لدينه ورفقا لمراميه وإعزازا لمن يقفون إلى جانب نبيه ، قائلا : (اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد)[1] .

وما زال يهتف بهذا الدعاء حتى أشفق عليه « أبو بكر » أن يناله مكروه من هذا الجهد الذى يبذله والاعياء الذى يعانيه فقال له : « هوّن عليك يا رسول الله ، فإن الله منجز لك ما وعدك وكان الرسول -

---

(١) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ١٥/٢

(١) تاريخ الطبرى ٤٤١/٢ والبيهقى فى دلائل البقرة ٣٥/٣

من هذا التعب ـ قد أخذته سنة من النعاس رأى فيها مصارع الصناديد من قريش واطمأن كل الاطمئنان إلى نصر الله فتقدم إلى صفوف المسلمين ـ من جديد ـ ليقول لهم : (والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)[1] وكان لهذا القول فى نفوس المسلمين أثره البالغ . وكان « سعد بن معاذ » قد رأى أن يبنى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عريشا ليقوم فيه بعيدا عن مخاطر الحرب وعدوانها حتى إذا ما كان النصر فى جانب قريش استطاع أن يعود إلى المدينة ليواصل كفاحه وجهاده والاستمرار فى نشر دعوته إلى الناس وقد لقيت هذه الفكرة استحساناً وقبولاً ومن هذا العريش كان يخرج إلى صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليطمئن كل الاطمئنان على سير القتال وكان من اغتباطه لسير المعركة وارتياحه لاستبسال أصحابه واعتقاده أن النصر فى النهاية سيكون فى جانبه ربما جرى على لسانه قول القائل :

نغلّق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أحقَّ وأظلما أو قرأ قوله سبحانه ﴿ سيُهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[2] .

ويقول الأستاذ « أحمد ابراهيم الشريف » : « سمت روح المسلمين المعنوية بتحريض الرسول ونزول القرآن يبشرهم بأن الملائكة تشد أزرهم فاندفعوا يقاتلون وقد جعلوا همهم سادة قريش يريدون استئصال شأفتهم جزاء ما عذبوهم وأخرجوهم ولأنهم رأس الكفر لو قتلوا الضعف غيرهم ولوجد الاسلام طريق الدعوة ممهداً لا تقف فى طريقها مطامع الزعماء وكبرياء الرؤساء . . وما لبثت قريش حين رأت كثيرا من ساداتها يسقطون قتلى بأيدى المسلمين أن ولت الأدبار لا تلوى على شىء . والمسلمون يضربون فى أعناقها وأدبارها ويأسرون من رجالها من لم يسعفه حسن فراره بالنجاة وبلغ عدد القتلى من قريش سبعين قتيلا فيهم معظم سادة قريش وعلى رأسهم أبو جهل كما استأسر سبعون . . وهكذا كانت هزيمة قريش تامة ساحقة أما المسلمون فقد اندفعت منهم فرقة تطارد الفارين وقامت أخرى بجمع الغنائم والتفت الثالثة بالعريش تحمى النبى مخافة أن يرتد إليه العدو » .

ومن الحديث فى « بدر » أو عن بدر لا نسمع إلا بطولة نادرة امتلأت بها نفوس المسلمين الذين طوَّحوا بالكفر وأذلوا أهله وأطاحوا بدولته .

طرف كانت فى بدر

كان فى صفوف المشركين فى بدر « أمية بن خلف » وقد وقع فى أيدى المسلمين أسير هو وابنه وأراد « عبدالرحمن بن عوف » أن يحميهما من عدوان من عدوا أن تحدثه نفسه بالنيل منهما أو التطاول عليهما وكان (بلال) رقيقا مملوكا لأمية ولقى منه من صنوف العنت وألوان التعذيب بسبب اعتناقه الاسلام ودخوله فى دين « محمد » ما لم يلقه أحد فى سبيل عقيدة أعتنقها أو مبدأ التزمه أو شريعة انضوى تحت رايتها وكم تركه فى الرمضاء المحرقة متجرداً من ثيابه لتلفحه نارها ويؤذيه لهيبها ثم لا يكتفى بذلك دون أن يلقى بالحجر

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٢٢

(٢) سورة القمر الآية : ٤٥

الثقيل على بطنه رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام والبقاء على وثنية الكفر وضلالة الشرك والسجود للأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تحس ولا تدرك . وما إن وقعت عينا « بلال » على طلبته التى يرجوها وضالته التى كان يترقب فرصة الظفر بها حتى هجم عليها ليشفى غليله منها ويروى ظمأه إليها ويقتص لهذا الذى لقيه من جبروت المالك وعسف التسلط وجهل الضال وكبرياء الأحمق فلما زجره « عبد الرحمن بن عوف » المرة بعد المرة نادى بأعلى صوته قائلا رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فلما ألح بلال فى الهجوم عليه وألح عبد الرحمن فى الزجر له قال عبد الرحمن لبلال : « يا بن السوداء هو أسيرى ومالى » ولكن بلالاً كرر الإلحاح وقال يا أنصار الله : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا »(١) وأحاط الناس بأمية وابنه فى يدى ابن عوف وسبقت ضربة إلى ابن أمية وأخرى إلى أمية نفسه فكانا فى خبر كان .

وكان من هؤلاء الأسرى كثيرون كانت لهم سوابق سيئة فى معاملة المسلمين بمكة لم يقبل منهم المسلمون الفداء وأبو إلا أن تجزَّ رؤسهم وتباح دماؤهم وتكون نهايتهم على أيديهم مثل « عقبة بن أبى معيط » . و« النضير بن الحارث » وذلك للايلام والأذى الذى كان منهم وبخاصة « النضر » الذى كان يشترى كتب الأسمار والخرافات ويحكى منها للسذج وضعاف العقول ثم يقول : أليست هذه خيرا مما يزعم محمد أنه يوحى به إليه ؟ وتشير إلى قصته الآية من سورة لقمان : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين** ﴾(٢) .

وكان من طريف أمر الأسلام أن جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاعر هو « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى » وقال : لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن ولك علىَّ ألا أقاتلك أو أعين عليك فلما أطلق سراحه نكث عهده وأخلف وعده وخرج لحربه وحرب المسلمين فى « أحد » فوقع فى أيدى المسلمين وأنتهى أمره بالقتل .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أبدى رغبة شديدة فى الترفق بمن كانت لهم مواقف نبيلة سابقاً مع المسلمين قبل الهجرة وبخاصة إن كانوا من « بنى هاشم » الذى ساعدوه ووقفوا إلى جانبه مدى ثلاثة عشر عاما بمكة قبل الهجرة وكان فى هؤلاء الذين أوصى ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم ولم يرغب فى قتلهم عمه « العباس » إلا أن حذيفة ـ أو أبا حذيفة ـ لما بلغه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤكد الوصية بعمه ـ وكان فى القتلى أبوه « عتبة بن ربيعة » وعمه (شيبة) وأخوه (الوليد) قال : أيقتل أهلونا وينجو العباس ؟ وهنالك تغير وجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا القول ولم يسعه إلا أن يشكو لعمر قولة حذيفة فقال عمر : « لقد نافق حذيفة دعنى أقتله » وكان حذيفة يقول : شككت فى نفسى ورجوت أن استشهد.فى سبيل الله لأكفر عن هذه الكلمة ومات ـ رضى الله عنه ـ فى حرب اليمامة فى خلافة « أبى بكر » وحذيفة هذا هو الذى بدا عليه الغضب حين بلغه مقتل أبيه عتبة فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (هل آلمك مقتل أبيك) فقال : (لا ولكنى كنت أرجو فيه رجاحة عقل وبعد نظر

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ٩٦/٥

(٢) سورة لقمان الآية : ٦

وحسن تفكير أن يكون له ميل إلى رسول الله وحب فى دينه واستجابة لدعوته ووقوف إلى جانبه وود عن شريعته لكنه آثر سبيل الكفر وطريق الغواية ودخل جهنم من أوسع أبوابها .

ومن الصور العاطفية التى تفيض بالحنين والحب فى هؤلاء الأسرى الذين ضاقت عليهم شباك الأرض تلك الصورة التى كانت بين « زينب » ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين زوجها فإن زوجها « العاص بن الربيع » وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يكن هنالك بدا من أن يلاقى الذى يلقاه أمثاله من معسكر الكفر الذى كان كل هم الرجل منهم أن ينكل بالرسول وبالمسلمين وبدعوة الحق حتى إذا ما انتهى به المصير إلى تلك النهاية بدت عليه الكآبة وأحاطت به الذلة وشعر بأنه أحقر من لا شىء فى العدد فلما رأت « زينب » ما لحق به دفعت بقلادة كانت أمها « خديجة » قد نحلتها إياها حين بنى بها « العاص » وذلك فداء لزوجها وكان هذا الصنيع الرقيق مثيراً لوجدان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فلم يسعه الا أن يقول للمسلمين هل لكم أن تردوا قلادتها وتخلوا لها أسيرها بها) وقد خلّ المسلمون سبيله وعاد إلى مكة وخرج على رأس عير فى تجارة لبعض أرباب الأموال من قريش وفى عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه وهنالك التجأ إلى « زينب » ليرد المسلمون إليه ما أخذوه منه وعملت « زينب » على ردِّ أمواله إليه فقد كان أجيراً على العمل لا يملك من الأموال شيئاً ـ على الرغم من أن صلة الزوجين بينهما قد انقطعت لأن الرسول فرق بينهما بحكم اختلاف الدين و « مضى العاص بن الربيع » إلى مكة ولما أبرأ ذمته من الأموال التى كانت فى يده عاد إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة وأعلن إسلامه وعادت إليه « زينب » واستأنف معها فى ظلال الاسلام عيشاً أرغد وحياة أهنأ وصلة أقوى فما كانت ولعل السبب فى تمسكه بها وحدبه عليها وترامى عاطفته نحوها إلى هذا الحد لا ترجع إلى رابطة الزوجين وكفى ولكن إلى أنها ابنة رسول الله وأنها ـ كذلك ـ ابنة خالته لأن أمه (هالة بنت خويلد الأسدية) أخت « خديجة » ـ أم المؤمنين ـ وكان « العاص هذا ممن عرفوا فى مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق وكان النبى يثنى عليه فى صهره وكثيراً ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك « زينب » فلم يتركها وازداد تعلقا بها .

وكان من الصور التى تفيض بالانسانية المهذبة والمروءة النادرة أن قتلى المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثثهم ويوارى فى التراب أجسامهم صنع المسلمون بهن ضنيع الانسانية والمروءة إذ جمعوا أشلاءهم وأجسامهم وجعلوهم فى قليب ـ بئر ـ ثم هالوا عليهم التراب وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوما كاملا وليلة كاملة لا يغادرون مكان المعركة وبينما المسلمون بالليل يسودهم الهدوءوالسكون يستغرق فى نومه منهم من أتعبه العمل وأنهكته الحركة وأعياه الكر والفر فى ميدان القتال ، كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقفاً على القليب الذى يضم جثث الموتى مناجيا تلك الجثث قائلا : (يا أهل القليب ، يا عقبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام يا فلان يا فلان ـ يذكر من فى القليب واحداً واحداً ـ : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى وجدت

ما وعدنى ربى حقا ؟) قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قوماً جيَّفوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (ماأنتم باسمع لما أقول منهم) ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا [(١)]

ولقد كانت هذه الجولة بين المشركين والمسلمين ـ على الجملة ـ من الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر والجماعة المناوئة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأصحابه معه ولقد كان « أبو لهب » الذى فضحه القرآن الكريم فى السورة التى تلعنه وتهتك عرضه : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾[(٢)] من الذين استأجروا من ينوب عنه فى الخروج إلى قتال المسلمين فلما انتهت إليه نبأ هزيمة دولة الباطل وجيش الشرك وأصحاب دعوة الشيطان دارت به الأرض الفضاء وأصابه دوار حاد مرض بعده أيام ثم مات ولم يكن هو وحده الذى تلقى كالصاعقة وقع انتصار المسلمين فى غزوة بدر فإن كثيرا منهم من كان يقول تعقيباً أو تعليقاً على هذا الانتصار : « بطن الأرض أحسن من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل : « ناحت من بعد قريش على قتلاها شهراً كاملاً وجززن شعر رؤوسهن وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ولم يخالفهن فى هذا إلا « هند بنت عتبة » زوج أبى سفيان ولقد مشى نساء منهن يوما إليها فقلن لها :

« ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بنى الخزرج . لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه والدهن علىَّ حرام حتى نغزو محمداً . . والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة ، ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش « أبى سفيان » وتحرض الناس حتى كانت موقعة (أحد) أما (أبوسفيان) فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً) وقد فعل وفعلت زوجته هند بنت عتبة .

بعد بدر

ترك انتصار المسلمين ببدر أثره السيىء فى نفوس المشركين والمنافقين واليهود على السواء : ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم** ﴾[(١)] لكن هذا الانتصار من ناحية أخرى كان عنواناً على طور جديد من القوة والبأس والمهابة والسلطان والعنفوان والشدة إلى درجة أن الشعراء الذين كان يهجون « محمداً » ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحرضون عليه أعداءه ، خرست ألسنتهم وخفضت أصواتهم وأصبحوا يسرون فى أنفسهم ما كانوا يباهون بالجهر به . والإعلان له وقد أصبح « محمد » وأصحابه يطاولون بأعناقهم ويجاهرون بينهم وينادون بأعلى صوتهم أنهم على الحق وكلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يحجب النور الذى يحملونه بأيمانهم مهما غلت مراجل الحقد فيهم وازداد لهيب الكراهية فى أفئدتهم وكان « كعب ابن الأشرف » . الشاعر اليهودى . قد وقف بمكة ليرثى قتلى القليب ليثير فى نفوسهم أهليهم وقرابتهم الغيظ الافين والألم المكبوت والضغن المتمكر

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ٩٧/٥
(٢) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢
(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

وهو الذى قال الكلمة المشهورة : هؤلاء أشراف الناس وملوك العرب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . . لكن هذا كله من المشركين والمنافقين وخصوم « محمد » جميعاً يشبه ما يسمونه حركة المذبوح وليس من الممكن لمحمد ولأصحابه أن يرجعوا إلى الوراء أو تقف بهم عجلة المضى فى الطريق إلى النهاية « جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر بالبيت الحرام - بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان « عمير » شيطانا من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله وأصحابه ويلقون منه العناء وكان ابنه « وهب » فى أسارى بدر فقال صفوان : « والله ما فى العيش بعدهم خير » . فقال عمير : « والله صدقت . ولولا دينى وعيالى لركبت إلى « محمد » حتى أقتله فقال صفوان : على كل ذلك ، قال عمير : فاكتم علىّ شأنى وشأنك » . ثم انطلق عمير إلى المدينة من غير علم صفوان ، فرآه « عمر » فأخبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : (أدخله علىّ) فأقبل « عمر » حتى أخذ بحمالة سيفه ولبيه بهافلما دخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (أرسله يا عمر أدن يا عمير ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت من أجل الذى فى أيديكم - يعنى ابنه وهباً - فأحسنوا إليه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقنى بالذى جئت به ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية بالحجر ثم قص عليه ما دار بينهما من حديث . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقهوا أخاكم وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا وقال عمير : يا رسول الله إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله وأنا أحب أن تأذن لى فى القدوم إلى مكة لأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام فلعل الله أن يهديهم وإلا آذيتهم فى دينهم فأذن له فلحق بمكة وأسلم على يديه ناس كثيرون »[1] .

وتدل كتب السيرة من غير استثناء على أن هذا الأثر العميق الذى تركته « غزوة بدر » فى النفوس لم يكن فى مكة وحدها وإنما كان فى مكة والمدينة ولذلك فإن معسكر الكفر قد تحول كله إلى جهة حامية الوطيس لا حديث لها إلا عن الثأر والقتال وتأديب « محمد » وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا فى دار الندوة ليقرروا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الموقف الجديد ، وكانت الخطوة الأولى هى التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت هدف « محمد » وأصحابه فى أول الأمر وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت ثم أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش وغيرهم وباليهود الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية لمحمد والذين آمنوا معه وانتهى ذلك كله باللقاء المعروف فى « أحد » .

أما « محمد » وأصحابه فإنهم لا يزالون فى نشوة الظفر والنصر لم يدر بخلدهم شبح المعارك ولا معنى الكرة الأخرى التى تنتظرهم من وراء السحب والحجب وفى الطريق إلى المدينة - وهم منصرفون من ميدان المعركة - كان الذى يعنيهم ويشغل تفكيرهم هو توزيع الغنائم وقسمة هذه الأسلاب التى أخذوها من عدوهم ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ولا تشريع متبع ولا عرف معمول به وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث : جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وحده وهو لائذ بالفرار وجماعة المقاتلين التى كانت تصارع الموت وتتلقى الضربات والذين كانوا فى حراسة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يدهمه

(١) سيره ابن هشام ٣١٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقى ٤١٧/٢ والاصابة ٣٧/٣

العدو أو يلحق به السوء فأى هذه الطوائف ، يأخذ الغنائم أو يظفر منها بنصيب الأسد ؟ وصحح الله - سبحانه وتعالى - هذا الخلاف ونزل قوله جل جلاله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾[١] ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو إعلاء صوت الحق ويمكن راية الإسلام ثم تبع ذلك فيما بعد البيان لتوزيعها على أربابها . المستحقين لها : ﴿ **واعلموا أنما غنتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير** ﴾[٢] .

فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات الاتى حددتها الآية الكريمة ثم يوزع الباقى بعد هذا الخميس كما يرى القائد العام للجيش وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس وللورثة حصة من استشهد وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم فى المعركة دون أن يحضرها ومن كُلِّف بأمر خاص بعيداً عن ميدانها .

أما الأسرى فإن حالهم كان موزعاً بين الفداء الذى كان يتراوح بين الألف إلى عشرة آلاف أو الترك إذا كان الأسير لا يمكن ما يفدى به : ﴿ **فإمامنا بعد وإما فداء** ﴾[٣] وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى هو الفكرة الأولى فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - حينما عرض الرأى - بادىء ذى بدء - على أصحابه كان رأى « عمر » القتل والإبادة ليكون فى هذا الصنيع الردع والزجر وكان من رأى « أبى بكر » الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقرابة وقد كان الرأى الذى انتهى إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحد الوسط وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه وفى بعض الأحايين كانوا - شفاءًا لغليلهم وذهاباً لغيظهم وثأراً لإحن قديمة بينهم وبين الأسير - يرون أنه لا بديل من قتله فيقرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ولا يعارض فيه وقد أخذ « عمر بن الخطاب » بوثاق « العباس بن عبد المطلب » فشدد عليه فظل « العباس » يئن ليلةً كاملة فتألم الرسول أشد الألم فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقه وإطلاقه من غير فدية فأبى الرسول إلا أن يسوى بينه وبين الأسرى وقال له : (أفد نفسك وابنى أخيك . . عقيل ونوفل) فاشتكى له أنه لا يجد ما يدفعه فقال له : (ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة) فقال له : ومن أخبرك به ؟ قال : (أخبرنى الله)[٤] قال : أشهد أنك رسول الله ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين وجرى فى خاطر « العباس » أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أرهقه بهذا المال الذى ألزمه بدفعه فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم** ﴾[٥] فسر بذلك «العباس» ولم يعد بعد ذلك إلا جندياً مخلصاً من جنود

---

(١) سورة الأنفال الآية : ١

(٢) سورة الأنفال الآية : ٤١

(٣) سورة محمد الآية : ٤

(٤) جمع الزوائد ٨٦/٦

(٥) سورة الأنفال الآية : ٧٠

الإسلام يدافع عنه وينادى به ويرغب فيه ويبذل له ويقف إلى جنب رسوله وقوف المؤمن المخلص الذى جرى الدين فى لحمه ودمه وخالط روحه مخالطة امتزاج فلم يكن منه إلا ما يكون من المؤمن الصادق .

حديث أحـــــد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزاً قوياً لأن تتجمع قلوبهم وتتلاقى أهواءهم ويبذلوا كلَّ ما يملكونه لتعادل ميزان القوى وردِّ الاعتبار الذى كان لهم من قبل وكان أول شىء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت الشرارة الأولى فى بدر ثم يُحصل ثمنها فى تجهيز جيش جرار للقضاء على شوكة المسلمين ووقف زحفهم على طريق التجارة والحدِّ من محاولاتهم النيل من أهل مكة أو العدوان عليهم وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم وكبار القادة منهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب والذين يمكن أن يكون قتلهم إغراء لمحمد وأصحابه لغزو مكة نفسها وتطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها .

ولم يمض شهر واحد حتى كان « أبو سفيان » قد اتصل بحلفاء قريش ـ فى كل جهة ـ ليعدوا أنفسهم للقاء « محمد » والقضاء عليه وعلى من يقفون إلى جانبه من المؤمنين بدعوته المتفانين . فى السير على دربه وساعده على الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو إليه من تكوين جبهة قوية للخروج إلى القتال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال « هند بنت عتبة » وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم وكانت « هند » بالذات من العوامل القوية فى إذكاء الحماسة وإشعال نيران الحمية والغيرة وكان من ضحاياها فى « بدر » أبوها . . وأخوها وعمها وكذلك كان « جبير بن مطعم بن عدى » قد فقد عمه « طعيمة بن عدى » وكان الغلام الحبشى « وحشى » قد اشتهر بمهارة فائقة وفروسية نادرة وإقدام لا تراجع فيه وأنه لا يخطىء مقاتل فريسته فوعده بالعتق مولاه جبير بن مطعم بن عدى كذلك استأجرته « هند » واتفق معه الطرفان على أن تكون فريسته أو هدفه « حمزة بن عبد المطلب » لأنه كان حبيباً عزيزاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتله فى الميدان إيلام بالغ .

وكان «العباس بن عبد المطلب» عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة يرسل إلى ابن أخيه أخبار تلك التحريكات التى تتحركها قريش خطوة خطوة حتى لا يؤخذ على غرة أو يفاجأ مفاجأة بما لم يكن فى خلده وحياته وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى دونهم ولكنه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها والأسلوب الذى يسلكه ويسير عليه ويقف به الموقف الذى يواجهه به هذا التآمر الذى يهيىء له «أبو سفيان » وغيره من رؤساء الكفر وطواغيت الشرك للنيل من الدعوة التى يحمل رايتها « محمد » وأصحابه وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه قد رأوا أن الخطة المثلى التى يواجهون بها هذا الغزو المرتقب أو الزحف المنتظر هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة حتى إذا ما جاء الجيش الملكى بقيادة أبى سفيان وغيره ووجه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات وتزعم هذا الرأى « عبد الله بن أبى بن سلول » ولاقى ارتياحاً وقبولاً عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك إلا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى « بدر » من الشبان والمتطلعين إلى الاستشهاد ألحوا فى الخروج وملاقاة العدو خارج المدينة حتى

جاء بعضهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : « يا رسول الله إن إبنى أصابته القرعة فخرج فى بدر وكان من الشهداء فى جوار الأنبياء والصديقين وقد رأيته فى النوم ينعم فى الجنة وأكان مما أوصانى به أن أسارع فى اللحاق به لأكون معه فى الجنة . وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت فى سبيل الله لألحق بإبنى فى الجنة » .

وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو فى الميدان هى الفكرة التى انتهى إليها رأى الأغلبية فلم يسع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن ينزل على هذا الرأى الذى هو السواد الأعظم وما هو إلا أن دخل بيته ولبس لامته استعداداً لخوض المعمعة وخرج إلى قومه ليعلن إليهم أنه جاد فى أمره حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه قائلين : إخلع لامتك يا رسول الله فإننا سنتحصن بالمنازل والبيوت ونرميهم من داخل حصوننا وسطوح دورنا وقد ظنوا أنهم يرضونه بهذا الرأى الذى كان يميل إليه فى بادىء الأمر ولكنه قال لهم :

(ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم)[١] .

ويقول صاحب كتاب الدولة الإسلامية الأولى : « تقدم النبى بالمسلمين متجهاً إلى « أحد » حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه ورفض أن ينضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبى ، حذر أن توقع الاضطراب فى نفوس الجيش وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذى ظهر من خيانتهم وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد وفى الطريق انخذل عنه « عبد الله بن أبى » بثلث الناس وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استعمال الرأى . وكذلك همت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا متأثرة برأى « ابن أبى » لولا أن ذكرتا إيمانهما فصبرتا وبقى الرسول ومعه سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص !

وقد جعل الرسول ظهره إلى جبل « أحد » وصف أصحابه فى مواجهة العدو ووضع خمسين من الرماة على مرتفع . وقال لهم : (احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من وراء ، وألزموا مكانكم لا تبرحوه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنّا وإنّما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل وألزموا أماكنكم حتى يأتيكم أمرى)[٢] .

وفى تشديد النبى على الرماة وفى تراجع بعض الناس عنه وفى المناقشة التى دارت قبل الخروج ما يثير التفكير والتأمل فى أمر الجبهة اليثريبيه قبل بدء القتال فقد بدأت الجبهة اليثريبيه فى المعركة مفككة ورأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة فى الاستعداد لمقاتلة العدو لقد كانت كلمتهم موحدة فى بدر وكان أمرهم جميعاً وكانوا مثال الطاعة والنظام والحرص على تنفيذ أمر القيادة كما كانوا يقدرون قوة العدو . ويدركون تفوقه عليهم ويعدون أنفسهم للصبر على الشدة وتمتلىء نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر وها هم

---

(١) صحيح البخارى ٥/١٢٠

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/٣٦٤ وأحمد فى الفتح الربانى ٢٢/٥١ ومجمع الزوائد ٩/١٠٧ وابن سعد فى الطبقات ٢/٣٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/٣٠٨

أولاء اليوم تختلف كلمتهم فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصين بها ومنهم من يرى الخروج ومناصرة العدو حيث هو بظاهر المدينة وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو ويعملوا حسابه لتفوقه في العدد وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم « بدر » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعمعة حامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل القوتين وتكافؤ الطرفين وكان « أبو دجانة » قد أخذ سيف الرسول - صلى الله عليه وسلم -[2] - وجعل يحصد به الرؤوس وهو رجل قد اشتهر بالشجاعة والإقدام والفروسية وكان هو وحمزة « يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر ولا يستطيع أحد أن يردهما أو يقف في طريقهما إذا كانت الانتصارات والهزائم في الحروب تتوقف على النظام والطاعة والإيمان والعقيدة وأن شيأ واحداً من هذه كلها قد يكون شيئاً قوياً في نهاية محمودة أو غير محمودة فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي لا ينطق عن الهوى قد رسم للمسلمين وهو لا يشك في صدق إيمانهم - الدستور الصحيح للنظام والطاعة التي يحتاجها النصر وهو يعلم مدى الفائدة التي تعود منها وفي هذه الكلمات البسيطة التي يخاطب بها الرماة الخمسين ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحربي الذي لا يعرفه إلا كبار القواد والساسة فإن المحنة لم تحل بالمسلمين في أحد إلا بسبب هذه المخالفة حيث بدأت بوادر النصر فترك هؤلاء أمكنتهم وسارعوا إلى انتهاب الغنائم وكان كشف هذه الثغرة تمهيداً لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة (خالد بن الوليد) حول المسلمين وإعمال السيف فيهم بعد أن انضم إليه الفارون من أهل مكة وبذلك أصبح جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - هدفاً ميسوراً للمشركين ينالون منه ويقبضون على ناصيته وبفرار المسلمين وانطلاق الصوت المغرض : « إن محمداً قد مات » كان جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - على الحال التي تستحق الرثاء والأسف إذ كان كبار المسلمين من أمثال « أبي بكر » و « عمر » و « علي » قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم ولم يكن لهم تفكير إلا في النجاة من الموت أو الأسر ، ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله نبينا فأشار إليه الرسول أن يسكت لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ففرحوا به ، والتفوا حوله ووقفوا إلى جانبه يدافعون عنه ومن جوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ورهط من كثير غيرهم وكان أبو دجانه الترس الواقي الذي وقف إلى جانبه يتلقى الرميات المصوبة إليه ويردها عنه وقد تقدم أمية ابن خلف يريد قتله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : « لا نجوت إن نجا محمد » فطعنه الرسول بحربة « الحارث ابن الصمة » طعنة ولىَّ بعدها ثم مات[1] .

وانجلت هذه المعركة عن شدائد شديدة عاناها الرسول وإصابات بالغة لقيها وطارت قريش لنصرها سروراً وفرحاً حتى قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر موعدنا العام القابل » . وكان قد وقر في ذهن « أبي سفيان » أن النبي - صلى الله عليه وسلم - في القتلى هو وأبو بكر وعمر وعلي وكبار الصحابة فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزناً شديداً .

ولما خلا الميدان من المشركين وأخذوا طريقهم إلى مكة خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ساحة المعركة ليتفقد موتاه ليأمر بدفنهم وإهالة التراب عليهم فراعه عمه « الحمزة » في القتلى قد مثل به - وكانت

---

(٢) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ طبعة الأردن

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/٣ طبعة الأردن

هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قد بقرت بطنه وأخذت كبده لتلوكها - فلما رآه على تلك الحال غضب غضباً شديداً وقال: (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم)[1] فأنزل الله عليه قوله: ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبروما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾[2] فهدأ - صلى الله عليه وسلم - وقال: (أصبرو أحتسب)[3] ونهى عن المثلة .

وكان من طريف أخبار أحد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما التقى ببعض هؤلاء الذين فروا من الميدان وعاتبهم فى ذلك الفرار كان ردهم عليه أنهم قد انتهى إلى مسامعهم خبر موته فلم يجدوا بعد ذلك سبباً لصمودهم واستمرارهم فى المعركة الدائرة بينهم وبين العدو وهنالك نزلت الآيات: ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ، وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾[4] .

ولم يشأ النبى إلا أن يترك لهم المدارسة للحالة وأخذ العظة والعبرة رجاء ألا تتكرر المأساة فيما بعد أمام هذا العدو الذى يتربص بهم الدوائر فى كل موقف وكل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فإنه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت هذه المأساة فيما بعد مأساةالخروج على أوامر القائد ومخالفة تخطيطه الذى يرسمه للمعركة مع العدو وربما كان الذى استفاده المسلمون من هذه المحنة وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم من أحسن الدروس فى تعليمهم الجرأة على عدوهم وكيفية الاستعداد للوقوف فى وجهها وقوفاً يشيع فى نفسه الرعب .

قاتل حمـــزة

كان خروج المشركين إلى « أُحد » مسبوقاً بحوافز كثيرة وتصميم أكيد استعداد تام لغسل العار الذى لحق بهم من جراء الهزيمة التى حلت بهم ببدر ولذلك فإنهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصراً على الرجال وحدهم وإنما شاركت الرجل المرأة وكان الصراع بينها وبينه قوياً على هذا الخروج فالرجال يرون أن الميدان لهم والحرب تبعته يتحملونها ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح إلا إذا فنى الرجال ولم يبق من يزود عن العرض ويأخذ بالثأر ويذب عن الحمى ويدافع عن الحريم والمرأة تريد أن تشفى غليلها وتثأر لقتلاها وترى مصارع أعدائها وبعد صراع فى الرأى ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع وعواطفها المشبوبة وفؤادها الملتاع خرجت « هند بنت عتبة » ومعها عدد من النسوة لا يقل عن خمسة عشرة وحملت معهن صنماً على جمل ليبارك نواياهن ويقرن بهن التوفيق فى سعيهن ويجعل النصر لهن على العدو وكان هؤلاء النسوة ومعهم هند يردِّدن الأناشيد الحماسية التى تلهب فى قلوب

---

(١) الدار المنثور للسيوطى - تفسير سورة النحل الآية ١٢٦

(٢) سورة النحل الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٣) رواه الترمذى فى كتاب التفسير - سورة النحل ٢٩٩/٥ وأحمد فى مسنده الفتح الربانى ١٩٢/١٨ والحاكم فى المستدرك ٣٥٩/٢

(٤) سورة آل عمران الآيات : ١٤٤ - ١٤٦

الرجال نيران الاستبسال والشجاعة حتى لا يتردد أحد فى إقدامه وكره على الخصوم الكرة القاضية .

وإذا كان لكل واحدة منهن ثأر تطلبه فإن هند بنت عتبة كان لها أكثر من ثأر لأنها كانت تندب أباها وأخاها وعمها ولهذا كانت أكثر النساء إلحاحاً فى الخروج إلى المعركة مع العلم بأنها لم تكن من السوقة ولا النساء اللائى ينطلى عليهن التبذل والاختلاط بالرجال فى ميدان كر وفر إلا أن المصائب لا قانون لها ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها أو يوجِّه خط سيرها لذلك كان خروج من خرجن إلى ميدان المعركة فى « أحد » خارجاً عن القانون مغايراً للمألوف .

وقد ساعد « هند إلى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على فتى مفتول الذراعين حديد النظر جرىء القلب غير هياب ولا وجل طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ لها بالثأر الذى يشفى غليلها ويروى ظمأها ويمسح دموعها ويريح نفسها وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى « وحشى » عبد « جبير بن مطعم بن عدى » وهو فارس لا تخطىء ضربته ولا يخيب قصده ولا ينبو سيفه ولا ينجو منه منازله وقد اطمأنت كل الاطمئنان لأنه وعدها أن يقتل عدوها اللدود « حمزة بن عبد المطلب » وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده « جبير بن مطعم » أن يعتقه إن هو قتل « حمزة بن عبد المطلب » لأنه قاتل عمه « طعيمة بن عدى » وعلى هذا فإن وحشياً الحبشى يهزه إلى الحرب ويغريه بقتل « حمزة » عاملان قويان المال الذى وعدت به « هند » والعتق الذى وعد سيده « جبير بن مطعم » .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته يجدر بنا أن نقف وقوفا قصيراً عند « حمزة » الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لترى هل كان يستحق كلَّ هذا الاهتمام من خصومه ؟

فى الحق أن « حمزة بن عبد المطلب » لم يكن مجرد إنسان فى صفوف محمد يغار على دينه ويدافع عن عقيدته ويحارب خصومه ويخيف عدوه ويرد عنه كيد الكائدين وإنما هو عمه ـ أولا ـ وإلى جانب هذا فهو من القلوب النقية التى تحيطه بالحب وتخصه بالرعاية وتمحضه الود الصادق والاخلاص النادر وكان منذ نشأته ملازماً للرسول لا يفارقه إلا على الكره منه وكان مع هذا كله من الفرسان المغاوير الذين تعتز ببطولتهم الجبهة الإسلامية كلها ويحدث موته فيها اهتزازاً يتصدع له جدار دعوة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتركيز على اختفاء وجهه من الميدان ـ إلى جانب كونه إيلاما بالغاً لمحمد ـ ثغرة واسعة ـ وفجوة فسيحة فى الصف اليثربى وبخاصة بعدما تبين بلاؤه فى « بدر » وقتله لرجالات قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل وقد صدَّقَ ذلك كله فجيعة الرسول عليه وتهديده إذا نصره الله على قريش وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً فى مقابل المثلة بحمزة وحده وكذلك جاء فى قصة إسلام « وحشى » من قول الرسول له : هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فإنى لا أحب أن أراك ؟ فى حين أنه قد جاء إليه ليعلن إسلامه أو أنه كان أعلنه حينئذ .

وقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يمكنه عن قتله لحمزة إذ سأله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسأله غيره كذلك : « قال عبيد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشياً قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك « حمزة » كيف قتلته ؟ قال وحشى : أما إنى سَأحدثكُما كما حدثت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سألنى عن ذلك . . كنت غلاماً لجبير ابن مطعم وكان عمه طعيمه ابن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير إن قتلت حمزة عم « محمد » بعمى فأنت عتيق فخرجت مع

الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئاً فلما التقى الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدّا ما يقوم له شىء فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه » سباع ابن عبد العُزّى » فلما رآه « حمزة » قال : له هلم إلىَّ يا بن مقطعة البظور فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى المعسكر فقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسلموا رَميَّت علىَّ المذاهب فقلت : ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد فوالله إنى لفى ذاك من همى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه وتشهده شهادة الحق فلما قال ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة . فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثته كما حدثتكما فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرينَّك ! فكنت أتنكب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان لئلا يرانى ، حتى قبضه الله فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً فى يده السيف وما أعرفه فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار فضربه بالسيف فربك أعلم أينا قتله فإذا كنت قتلته ، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قتلت شر الناس »[1] .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ويغلب الانحراف على طبعه لا يلبث إذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق ، مستميتاً فيه مدافعاً عنه لا يتزحزح ولا يشك ولا يرتاب وفى حرص « وحشى » على أن يرضى عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشغله نفسه زمناً طويلاً بهذا الرضا ، دلالة على أن عقيدته راسخة وإيمانه ثابت وربما كان أول المؤمنين بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما قال له غيب وجهك عنى لم يقلها كرها لأن يراه فى صفوف المسلمين يعلن إيمانه الذى ملأ قلبه ، وأخذ عليه هواجسه وأحلامه ولكن قالها تعبيراً عن كامن اللوعة المكبوتة فى نفسه على عمه الذى كان يحبه ويقف بجانبه ويساعده فى التمكين لكلمة السماء حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان قتله خسارة وما بعدها خسارة للإسلام والمسلمين من غير شك !!

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد شعورهم بأن مقاومتهم للعدو ووقوفهم فى وجهه ضرب من العبث ولون من ألوان الانتحار ، حتى لقد كاد صموده هو نفسه يكون عبثاً وانتحاراً لأنه بعد انفضاض المسلمين من الميدان كان يعرض

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ١٢٨/٥ ورواه أحمد فى مسنده انظر الفتح الربانى ٢١/٥٩ والطبرى فى تاريخه ١٦/٢ والبيهقى فى الدلائل ٢٤١/٣

نفسه للموت بغير ثمن وللهزيمة بدون جدوى ، وقد كان الأجدر به والهزيمة تحل بالجيش لا محالة أن يهيء لنفسه طريقاً للفرار كما فعل كثير من أصحابه حرصاً على حياته من الهلاك وإبقاء على روحه التى لم يكن ليملكها وحده ولكنها كانت ملكاً للبشرية التى يعمل لها ويكدح لانقاذها ويعيش ليأخذ بيدها ويكافح للنهوض بها وتوجيهها إلى مستقبل أفضل ، وحياة أحسن وسلوك أمثل إلا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل أعباء الرسالة ومسئولية الدعوة إلى الله لا يعنيه أن يكون إلى جانبه قوة من الناس تسانده وجيش من المحاربين وما ضده لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف ولا أن يغلب بالقوة ولا أن يظهر بالبطش ولا أن يعلو بالعدد والعدة وهو الذى يعتمد على المنطق ويدعو إلى الحق ويقود الإنسانية إلى التى هى أقوم ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر فى معركة أو يغلب فى جولة أو يضطر خصمه معه إلى أن ينزل على حكم القوة ، أو إرادة التسلط والنفوذ لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجا والبرهان أو الصواب والحق .

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا العنصر الساحق الذى أصابوه كان من المعجزات التى أيده الله بها والخوارق التى سخَّرها له ، فلقد وقفت له قلة قليلة تناوشه ونفر ضئيل يحاربه فنال منه بعض الذى يحب لا كل الذى يحب أما بقية الجيش فإنها كانت على يقين أنه قتل وليس هنالك بعد الذى كان ما يدعو إلى حرب شاملة . أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن « محمداً » لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف وحطوا رحالهم وهم فى طريقهم إلى مكة دون أن يتريثوا وأجمعوا الرأى على أن يأخذوا طريقهم إلى « يثرب » لتأديب « محمد » ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشك فى أن خمر الانتصار الذى حصلت عليه قريش ـ وبخاصة بعد قول « أبى سفيان » فى نهاية المعركة ، يوم بيوم بدر والموعد فى بدر مرة أخرى فى العام المقبل » ـ سيحملها على التمرد والطغيان الغرور وأن ذلك سيسوقها لا محالة إلى الطمع فى الدخول إلى يثرب التى يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو إلى مكة بالتجارة ولهذا فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد أن يظهر بمظهر المقهور الذى خرج من المعركة مثخناً بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ولكنه أقام فى الطريق من غير أن يواصل السير إلى المدينة وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان هو وأصحابه بالروحاء على بعد سبعة وثلاثين ميلا بعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على « محمد » وأصحابه ، وقد أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببقائه على الطريق أياماً أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقائهم ودفع عداوتهم وإشاعة الرعب فى قلوبهم وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان ذلك كله مضافاً إليه تنكيل « محمد » باليهود وإشاعته الخوف والفزع فى نفوس المنافقين عاملاً قوياً حاراً فى أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الإسلام واستعراض عضلاتهم جميعاً فى مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » : فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن النبى فى المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته على ألا يخرج إلا من حضر

الغزوة وخرج المسلمون فوقع فى روع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء فمر به « معبد الخزاعى » وكان قد مر بمحمد ومن معه فسأله عن شأنهم فأجابه معبد ـ وكان لا يزال على الشرك .

« إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكونون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً » .

على أن (أبا سفيان) فكر من جانبه فيما يكون لفراره من « محمد » ، ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه من الأثر أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يود أن تقوله فى محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع إلى « محمد » فهزمه المسلمون إذا ليكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ! فلجأ إلى الحيلة فبعث مع ركب من « بنى عبد القيس » يقصدون المدينة يبلغون « محمداً » أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليتأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ، ولم تهن قوته ، بل ظل فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشاً أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم وأخيراً فترت همة أبى سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع (محمد) إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانته .

وفى هذا الموقف الذى وقفه المسلمون مع النبى بحمراء الأسد وغيرها لإرهاب العدو وتخويفه نزل قوله سبحانه ثناء عليهم : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾[1] ولم يمض عام واحد على « أحد » حتى كان الموعد الذى هدَّد « أبو سفيان » بلقاء المسلمين فيه « ببدر » قد حان فخرج أبو سفيان إلى بدر وخرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن هدَّد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك إلى أن يخرج وحده وكان لهذا التهديد أثره فى حماسة المسلمين وإقدامهم البالغ بعد أن كان فيهم فتور وتردد وقد أقام ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع معتمداً على أن العام لم يكن خصباً وقال : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن وإن عامكم هذا عام جدب فارجعوا فرجع الناس أما المسلمون فإنهم اتجروا فى سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود فى آخر الآيات السابقة بقوله جل شأنه : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ ويقول المؤرخون : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرجع إلى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التى كانت إلى بدر الثانية والتى انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل إلا وقد صنع من التطهير العام فى الطريق وإشاعة الرعب فى نفوس المتمردين ولم يكن له أن يصنعه فى سنوات وكان أبرز ما صنع هو جلاء بنى النضير الذى كان بعد جلاء بنى قينقاع الضربة القاصمة التى وجهت إلى اليهود جبهة المعارضة للرسول وأصحابه ثم كانت بعد ذلك غزوة الخندق أو الأحزاب التى لم تجن من ورائها بعد التجمع ومحاصرة المدينة والفشل الذى منيت به إلا القضاء على بنى قريظة وبذلك كله صار المركز القوى للإسلام والمسلمين .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٧٢ ـ ١٧٤

حديث الإفك

كانت غزوة « المريسيع » - أو بنى المصطلق - إحدى العمليات الحربية التى أراد بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة « أحد » لم تفت فى عضده ولم تضعف شوكته لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ويرهبون بأسه لا يزالون يعملون من طريق حرب الاشاعات على تشويه سمعته وتلفيق الأكاذيب له وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان لتكوين هذه الحرب النفسية تقويضاً لبنائه الضخم ونلويثاً لتاريخه الناصع وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة من أن يصلوا إلى غرضهم هذا من أيسر الطرق وأقربها إذا انقطعت « عائشة » - رضى الله عنها - عن الركب لداع ضرورى وقد أركبها راحلته رجل كان - أيضاً - تأخر كما تأخرت وكان هذا ذريعة للإفاضة فى حديث غير كريم القصد منه نقكير الصفو وأثارة الفتنة . والقصة - كما ترويها صاحبتها - « عن عائشة » - رضى الله عنها - قالت : كان - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا فى غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمن حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت التمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم وإنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعدما استمر الجبيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىَّ فبينا أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت وكان « صفوان بن المعطل السلمى » ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى حر الظهيرة فهلك من هلك ! وكان الذى تولى الإفك « عبد الله بن أبى سلول » فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك وبينما فى وجعى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت « فخرجت أنا و « أم مسطح » قبل « المناصع » تبرزنا - لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أوفى التنزه فأقبلت أنا و « أم مسطح بنت ابى رهم » نمشى فعثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئسما قلت ! أتسبى رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : يا هنتاه ! ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : إئذن لى إلى « أبوىَّ » .

قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوىَّ فقلت لأمى ما يتحدث الناس به ؟ فقالت : يا بنية هوّنى على نفسك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة

قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! فقلت : سبحان الله : ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « على بن أبى طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله فأما « أسامة » فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ! ولا نعلم إلا خيراً ، وأما « على » فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ! فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « بريرة » فقال : يا بريرة ، هل رأيت فيها شيأ يريبك ؟ فقالت : بريرة : لا والذى بعثك بالحق ! ما رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ، ما علمت على أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام « سعد بن معاذ » فقال : يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواتنا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقام « سعد بن عبادة » - وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام « أسيد بن الحضير » فقال : كذبت لعمر الله . لتقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكنوا وسكت وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء . قلت ، فتشهد ثم قال : يا عائشة ، لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ! وإن كنت ألممت بذنب ثم تبت تاب الله عليك ! فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ! وقلت لأبى : أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال والله ما ادرى ما أقول لرسول الله فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال ، قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : والله ، لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث الناس وقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقوننى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى لبريئة لا تصدّقونى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! ثم تحولت على فراش وأنا أرجو أن يبرئنى الله ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل فى شأنى وحياً يتلى ولأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم القرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فوالله ما دام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات فلما سُرِّى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة ، إحمدى الله فقد برأك الله ! فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : لا والله لا أقوم إليه

ولا أحمد إلا الله ! فأنزل الله - عز وجل - ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم .. الآيات ، [١] فلما أنزل الله - عز وجل - هذا فى براءتى ، قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان ينفق على « مسطح بن أثاثة » لقرابته منه : « والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة ! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى .. إلى قوله والله غفور رحيم ﴾[٢] ، فقال أبو بكر : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى « مسطح » الذى كان يجرى عليه .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل « زينب بنت جحش » عن أمرى ، فقال : يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت عليها إلا خيراً ! قالت : وهى التى كانت تساميني فعصمها الله بالورع »[٣]

وفى هذه القصة عظات وعبر :

منها أن الشدائد كانت تلاحقه - صلى الله عليه وسلم - فى كل خطوة من خطوات دعوته إلى الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه وفى أهله وفى سبيل إعلان هذه الدعوة وإبلاغها إلى الناس ومع ذلك كله فإنها لم تستطع أن تصرف جهده أو تثنى عزمه أو أن تشيع اليأس فى نفسه أو تعوق خطوه أو تنال من ثقته بربه أو تشوه تاريخه أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ما صير فيه ..

ومنها - كذلك - أن مع العسر يسراً - كما يقول الله - سبحانه وتعالى - فإن عائشة - رضى الله عنها - لما شهدت لها السماء وبرأها الوحى ، ونوّهت بها الآيات البينات صار الإيمان بطهرها عقيدة ورميها بالزنا كفراً - والعياذ بالله - : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾[٤]. ومن أن المولى - جلا وعلا - لا يتخلى عن أوليائه فى أحرج الأوقات وأحلك الظروف مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم وعناصر الشر تحاربهم والخصوم يكيدون لهم ويتفقون عليهم وقد كان مسطح الذى أذاع هذا الفحش وعبد الله بن أبى الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذه الفرية يظنون أنهم أصابوا من محمد - صلى الله عليه وسلم - مقتلاً أو كشفوا له هناة ولكن الله قد رد كيدهم فى نحرهم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾[٥] ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة - رضى الله عنها - بهذا الإفك أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب بنزاهة العرض وطهارة الجانب وشرف القدر وسمو المنزلة لما كان منهم إلا الخرس ولكنه الحمق الذى جعلهم يسعون إلى حتفهم لظلفهم ويقدمون على سلوك يكون من ورائه لهم الويل والخزى والأسى والأسف والحسرة والخيبة والصغار والهوان .

ومنها - وهى أهم من ذلك كله وأعظم - أن الذى يهتم بكشف الأستار وافتضاح الأعراض يتخبط فى

---

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة النور الآية : ٢٢

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - ١٤٨/٥ - ١٥٣ وكتاب التفسير - باب قوله : لولا إذ سمعتموه ٤٥٢/٨ ومسلم فى كتاب التوبة ٢١٢٩/٤ وعبد الرزاق فى مصنفه ١١٠/٥ والترمذى فى كتاب التفسير ١٣/٥

(٤) سورة النور الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة النور الآية : ١١

منطقة ويلتوى فى سيره ولا يبالى أن تمشى به رجله إلى حتفه وتنتهى به إلى خاتمة لا يرضاها وغاية لا يحمدها أم أنها ستصل به إلى شاطىء الأمان ومواطن السلامة والعافية ، فإن هذا الرجل الذى اهتم به مروجوا هذه القالة وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ظهر من مجريات الحوادث والأمور - فيما بعد - أن إسناد دور البطولة إليه فى هذه الخرافة الملفقة والفرية المصنوعة لم يصادفه التوفيق ولم يقترن به الصواب والسداد لأنه رجل « غرهاة » كما تقول كتب المعاجم وقواميس اللغة ويفسرونه بأنه لا يرغب فى النساء ولا يتوق إليهن ولا يُخشى عليهن منه لأنه يفقد الفحولة ولا يوجد عنده الميل الجنسى ولا يمكن أن يشتاق إلى المرأة أو يحن إليها أو يطلبها أو يرى أنها ترضى فيه نزوعاً أو تشفى غليلاً ولذلك فإن عبد الله بن أبى وهو المقصود بقوله سبحانه : ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾[1] لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الإفك حتى راح يؤلب النفوس ويثير القلوب ويقدم للفتنة وقوداً آخر وآخر مصوراً ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازته ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[2] وكأنما كان يعتقد أنه « كقابض على الماء خانته فروج الأصابع » .

الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجابهات الكثيرة التى كانت بين المشركين والمسلمين والذعر الذى بدأ يدب فى قلوب خصوم محمد - ﷺ - من مواقف البطولة التى كانوا يرونها غير مرة من أصحابه - (رضوان الله عليهم) فإن العداوة التى كانت بادية فى سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتنقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها أو تنتهى نتائجها المتكررة فى كل يوم وكل مناسبة وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هى أبرز تلك المسرحيات التى تجلى فيها بشكل واضح تيقظ موامرتهم بالنبى - ﷺ - ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له حين تيقظت خصومهم الحقيرة المتمثلة فى تحركاتهم المريبة هنا وهنالك لحشد الجيوش واتخاذ العدة وإشعال نار الحرب وإعلان التغير العام على هذا الذى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضرى : « لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وإرث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ووعدوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم إرتياحاً فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدى ، وعددهم أربعة آلاف وتجهزت غطفان يرأسهم عيينه بن حصن جازى إحسان الرسول إليه كفراً فإنه أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمة حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رضيلة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع

---

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ، فلما بلغه عليه السلام أخبار التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث فى المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عملى لم تكن العرب تعرفه فأمر ـ عليه السلام ـ المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية بعمله وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الاستاذ أحمد إبراهيم الشريف فى الإعداد الذى سبق غزوة الأحزاب هذه :

« اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى يثرب فى نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون مجاملة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفى سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال . . . وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق وأخوة كنانة ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش بمكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التى تحمل لواء المعارضة ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهى التى بينها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع وأخذ الحصار الأقتصادى يؤثر فيها تأثيراً كثيرا جعلها تفكر فى إعادة النظر فى موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التى نشأت فى يثرب وأخذت عليها طرق تجارتها وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التى يدعو بها وليس بعيداً أن يكون على حق مادامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا . . . وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حييا عن قومه من بنى النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال : أقاموا ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعداً بعد أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . . بلغت أنباء هذا المسير محمّدا والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أحد ولم تكن فى أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون المقابلة هذه القوة التى تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ؟ لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ولكن أيكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ثم إن النبى لا يريد المغامرة وليست البطولة هى التى يحرص عليها فالحرب عنده وسيلة لا غاية وهو ـ وإن كان سريع النهضة لضرب العدو ـ رقيق التنظيم ماهراً فى القيادة فإنه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربى وإنما هو نبى يريد سيادة مبدأ وتحقيق رسالة ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة وقد أقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو يوماً كيوم أحد ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها فى مساحة مكشوفة مثل يوم أحد وإنما ووجهت بتنظيم جديد وفاجأها الخندق فأخذها العجب إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول وكان الوقت شتاءً والجو بارداً والرياح شديدة وأدركت قريش وأحزابها أنهم مقيمون أمام الخندق طويلا يتعرضون لهذا الجو القاسى الذى تعجز خيامهم عن حمايتهم منه ومحمد وأصحابه بخندقهم ولدتهم الحيرة ومساكنهم وراءهم فهم يستطيعون الصبر طويلاً أفليس الخير للاحزاب أن يعودوا أدراجهم لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر

المين ، قدر اليهود هذا كله وخاف حيى بن أخطب مغبتها فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بنى قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام إليهم ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب وسرت قريش بما تعهد به حيى وسارع هو إلى تنفيذ خطته فاقنع زعيم بنى قريظة كعب بن أسد بذلك ومازال حتى ثارت يهوديته وأعلن نقضه للعهد وعاد حيى يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم وعلم الرسول بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير ليقفوا على جلية الأمر ، وليحاولوا رد اليهود إن كانوا قد فكروا فى الخيانة وهنالك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردوا إخوانهم من بنى النضير إلى ديارهم إن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير لكنهم لم يقتنعوا وقال كعب : من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ واشتدت المناقشة وكاد الفريقان يتشاتمان . . . ورجع رسل محمد إليه ، واشتد البلاء وعظم الخوف ورأى المسلمون طريق قريظة وقد فتح للاحزاب ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو فإن الحيلة إذن خير ما يلجأ إليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف لذلك بعث النبى إلى غطفان يعدها بثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت ولما لم يكن لغطفان هدف إلا المال فقد بدأت تميل إلى هذا العرض ثم إنه أرسل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس بإسلامه وكان صديقا لقريش كما كان صديقا لليهود ليصل بالحيلة إلى تفكيك وحدة الأحزاب وكان داهية ذكيا فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمداً وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضمانا لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير[1] وقال لقريش : إن بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالا باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ، فلما طلبت قريش والأحزاب من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن وعندئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيغدرون وعرض أمر الهجوم السريع على عطفان فترددت فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصفت الرعد واشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من قبل حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب وخيل إليهم أن محمداً سوف يستغل هذه الفرصة فيها جمعهم ويوقع بهم فقام طليحة بن خويلد الأسدى وصاح إن محمداً قد بدأكم بشر النجاه النجاه وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء ولبى داعى الفرار وصاح بقريش إلى مرتحل أيها الناس فارتحلوا فقد نقضت قريظة عهدها وبدأكم محمد بشر ما تكرهون وهكذا هزم الله الأحزاب وكفى المسلمين القتال .

وفى هذه الغزوة لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاءوا للإجهاز عليهم وإسكات صوتهم وتفريق شملهم وتنكيس رايتهم إلى الأبد حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة فى يثرب وهنالك تمر القوافل التجارية وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها وعدوا بها عليها إلا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم إيمان وبين جوانحهم عقيدة نماها لديهم وأكدها فى نفوسهم

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/٣٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/٤٤٥ والواقدى فى المغازى ٢/٤٨٠

تلك الشقة التى لا حد لها فى نصر الله لهم والتى كان الرسول - ﷺ - يعلنها إليهم ويبشرهم بها ويؤكد لهم أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعده بها ولا يخلف الله وعده ونحن نستطيع أن ندرك من غير شك - أن الرسول - ﷺ - أثبت مما لا ريب فيه أنه قائد حربى محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدو الضخم الذى حشده عدوه وواجهه به خصومه وتبين ذلك واضحا كل الوضوح فى أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذى استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبنى قريظة إلى درجة أن فكرت قريش ممثلة فى القائد العام أبى سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذى أحرزته فى أحد وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التى صادفتها من البقاء الطويل وقيام العواصف التى اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب على أن الخندق كان ضمانا إلى حد ما فى صيانة جيش المسلمين من هجوم عدوهم وتطاول خصومهم وإن كان بعض الفرسان اقتحمه وأراد بهذا الاقتحام أن يمهد لغيره أن يقتحمه غير أن عملية لم تكن من اليسر بحيث يستطيعها كل أحد وثانى هذين الأمرين تلك المبارزة التى أراد مقتحموا الخندق أن يشيعوا بها الرعب والفزع فى نفوس أصحاب محمد - ﷺ - إلا أنها لم تحقق غرضها ولم تصل بأصحابها إلى النتيجة المطلوبة وكان على بن أبى طالب - رضى - الله عنه صاحب الفضل فى أنها خيبت ظنونهم وأحبطت أعمالهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً إذ تقدم عمرو بن ودَّى طلبا للمبارزة وتقدم له على فقتله وكان بعد ذلك قرار المشركين وكانت هذه هى الضربة الأولى والفضل فى الحروب دائما أبداً للضربة الأولى وأظن أنه قد كان من الطبيعى جدا بعد هذه الغزوة أن يفهم خصوم محمد - ﷺ - أنهم سوف لا تقوم لهم قائمة بعد وأنه لم يبق إلا أن يقول قائلهم فى صوت عال أو خافت إن الإسلام قد أصبح قوة ضاربة لا يمكن قهرها ولا القضاء عليها .

قصـــة زينب

لم يقتصر مؤامرات المشركين ، ولا دسائس المنافقين فى الكيد للرسول - ﷺ - على الحروب الميدانية التى أثاروا عجاجها ورسموا منهاجها وأشعلوا نيرانها وأراقوا فيها دماء كريمة عزيزة ولكن هذا الكيد كان يمتد بهم إلى أقصى الغايات وأبعد المسافات فيتناول العرض والشرف والسلوك والطباع والأخلاق والعادات وأمهات المؤمنين اللاتى كن أطهر من ماء السماء وأنقى عرضا من حبات الندى وكأنما هو مخطط قد رسمت له الحدود والأبعاد وأعدت لتنفيذه الأوقات والمناسبات والظروف الملائمة وتتناول الرسول - ﷺ - نفسه إذا دعت الضرورة إلى ذلك فيتهمه بالسحر والكهانة والشعر وأن ما ينزل به جبريل الأمين أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه حتى إذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون وخرافة ما يدعون وكذب ما يزعمون حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر للهجوم ومناسبة أخرى للطعن واللمز والتشويه والتجريح وقد كان زواجه - ﷺ - بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث العفن والتشنيع المفضوح والانتهاش الساقط وفى كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ فيها هذه الأحاديث طريقها إلى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى والمستشرقون فى العصر الحديث ورثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به وأتقنوا التنقيص والطعن واختلاق العيوب والمساوىء وقصة زينب بنت جحش واحدة من هذه القضايا التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى الطعن على الرسول وإبرازه فى صور الشخص الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه هو فقط يشبع شهواتها ويلبى رغباتها ويستجيب لنزوعها وميولها أو الرجل الشهوانى الذى ينس عقله ورشده وتفكيره

وخلقه ومنطقة وأدبه وعرضه ودينه لينزل على إرادة الغريزة والطبع والهوى والميل متناسيا الأعراف والتقاليد والدساتير والنظم والقصة هكذا كما يرويها الشيخ محمد الخضرى : (وفى هذا العام - يقصد السادس الهجرى الذى كانت فيه غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق تزوج عليه السلام زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول - ﷺ - خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانتها من الشرف العظيم فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون ألا كفء من سواهم لبناتهم وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف فلما نزل قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾[1] لم يروا بدا من القبول فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها أى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً للنزاع من جهة وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزوج من زوجة المتبنى ﴿ **لئلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا** ﴾[2] ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثه) بدل زيد بن محمد ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم : فى هذه القصة أقوالا لا تجوز إلا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال : سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات ورسول الله هو الذى زوجها زيدا فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك ومن هنا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه : إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾[3] ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجته ثم يشتهى زواجها ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنايا حتى مدحه الله بقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[4] أما الدكتور هيكل فى كتابه حياة النبى - فإنه يقول : (يكفى لهدم كل هذه القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله - عليه السلام - وأنها ربيت بعينة وعناية وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيداً وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الشباب وأنه هو الذى خطبها لزيد مولاه إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦٠
(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧
(٣) سورة طه الآية : ١٣١
(٤) سورة القلم الآية : ٤

مر ببيت زيد ولم يكن هو فيه رأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فالقاها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة ولو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد ويثبت التاريخ أيضا أن محمداً خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية وهى مع ذلك ابنة عمة الرسول وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ورأى فى ذلك على زينب عاراً كبيرا وكان ذلك عاراً كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وإن أعتقوا لكن محمد يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها وأن يدرك الناس جميعا أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب وهذا الهدم لعاداتها مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها مما تخش سماعه وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها فيكون مستعدا للتضحية التى أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس قيادها ولا لأن إباؤها واشتكى زيد إلى النبى ذلك وطلب طلاقها وقال له النبى : أمسك عليك زوجك إلا أن زيداً لم يطق فطلقها وكان الشارع الحكيم قد اراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعى جميع حقوق الإبن ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة إن محمداً نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب لكن محمداً كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما طلب منه أن يبلغ رسالته فليخش ما يقول الناس فذلك لا شىء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء هذه رواية التاريخ الصحيح) وربما كان من المستحسن أن ننقل لك صورة من تفكير بعض المستشرقين وتصورهم لهذه القصة عن كتاب حياة محمد للمستشرق (إميل درمنغم) الذى ترجمه إلى العربية (محمد عادل زعيتر) لترى إلى أى حد كان هذا الإسفاف وتلك الخرافات : « شعر محمد فى العقد الأخير من عمره بكبير ميل إلى النساء فقد أثارت عائشة الفتاة التى تزوجت به فى السنة التاسعة من عمرها عوامل الميل إلى النعيم الجنس فى زوج خديجة الطاهرة الذى ظل وفيا لها عشرين سنة مع زيادة سنها عن سنه كثيرا فلما بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب أقام لنفسه بيتاً كبيوت سادات العرب فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة عن ميل جنسى أوعن سياسة وكان له بضع سرارى جميلات عرضت عليه هدية أو نالها سبيا وقد زاد لذلك الميل الجنسى القوى الذى كان محصورا قبل زمن أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج فكان كل باب منها خاصاً لسكن إحدى زوجاته . . . وقد دخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثه بعد الفراغ من غزوة بنى النضير وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثه كثيرا وكان قد تبناه فكان زيد بن محمد وكان يستشيره فى كل أمر وكان زيد فى ذلك اليوم غائباً عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها والتى كانت زوجة لزيد وكانت زينب هذه سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها فأثر هذا الجمال الغض الفياض فى نفس النبى - ﷺ - فقال : سبحان مقلب القلوب ولم ينطق

بغير هذه الكلمة ثم انصرف وقد قصت زينب على زوجها زيد ما رأت فحار فى الأمر وكان زيد المخلص لمولاه النبى مزاجه المتقد فرأى ألا يمسك عليه زوجه فأعرب عن عزمه على طلاق زينب وذكر له أنه لا يستطيع العيش معها فقال محمد : أمسك عليك زوجك بيد أن زيدا أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه محمد فى نفسه فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً بأنه أضحى كارها لزينب فطلقها بعد بضعة أيام فلما انقضت عدة زينب أرسلت إلى محمد من يقول له : إن زيداً طلقها إرضاءً له وكان محمد راغباً فى الزواج من زينب على استحياء .

ونحن نرى من هذا الرأى الذى يمثله « درمنغم » يتجافى مع الحقيقة كل المجافاة ويتجرد من الذوق إلى أبعد حد لأنه لا يجعل الرسول فى مصاف النخبة الممتازة من البشرية التى ارتفعت بها عناية الله عن هذا المستوى البشرى السافل إلى أفق يجعل منهم القدوة الصالحة للإنسانية ولكنه ينزل بهم إلى المستوى الترابى الحقير الذى يعيش الناس فيه لحيوانيتهم الطائشة وآدميتهم الرعناء فلا يمنعهم شىء وراء شهوة البطن والفرج على أن محمداً ـ ﷺ ـ الذى مرت به فترة الشباب وهو أكمل ما يكون قوة وأنضج ما يكون حيوية وأقصى ما يكون جنسياً وأعظم ما يكون فراغاً لم يُعرف عنه الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ويبحث عنها وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم وتتحكم فى سلوكهم وتملك عليهم كل شعورهم ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين وسعت إليه دون أن يسعى إليها . . وفى الوقت الذى جرت حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق والميل العارم فقد كان فى حريمه حفصة الشابة الجميلة فى الثمانى عشرة من عمرها وعائشة الصغيرة العزيزة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها فأى شىء كانت تزيده زينب التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة رهى ـ مع ذلك كله ـ ابنة عمته ، اللهم لا شىء فلم يبق يعد ذلك كله إلا أن المسألة لا تغدو أن يكون هذا منهجاً سماويا خاصا أردا به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ولا يكون شاقاً على الناس ولا يمثل قصته على خشبة المسرح إلا أشخاص لا يدخل فى روع المجتمع أنهم من السوقة أوممن لا يصح أن تكون لهم قيادة للجماعة الانسانية التى يعيشون معها ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالا بالمجتمع من سلوك إلى سلوك غير الرسول ـ « ـ وزيد بن حارثه مولاه وصفيه وموضع ثقته وزينب عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع البغيض شأن آخر فى تقبل الناس إياها وتركهم لها وإقلاعهم عنها وعدم ارتياحهم إليها ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزماً فى الأسلوب وحكمة فى التشريع وصوابا لا يعدله صواب ولهذا فإنه لم يثبت أن أحداً غضب من أجل أن تنحل منه هذه النبوة المزودة أو هذا النسب اللصيق أو هذه الوشيجة التى لا تعتمد على شىء وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل الارتياح ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[1] إلا أن الخصومة لا منطق لها والحقد يتجاوز معايير السدا والحكمة والذوق والأدب .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

إلى هذا التاريخ كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود وبين النبى - ﷺ - والمسلمون معه وكانت قريش إلى هذه الفترة نهكتها الحرب وقلمت أظافرها الهزائم التى لحقت بها فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمداً إلا الحقد الذى تغلى جوانحها ونوايا الشر التى تخفيها فى ضمائرها حتى لقد جلس أبو سفيان يوماً من الأيام فى نادى قومه يكاد الغيظ يفيض منه فقال ، ألا رجل يأخذ محمدا على غرة فى مسيرة إلى السوق أو إلى دار بعض أصحابه أو إلى المسجد فيضربه ضربة تقضى عليه ليريحنا منه ومن خطره علينا بعد تلك الدماء التى أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا فتقدم إليه رجل وقال له أنا ذلك الذى تنشده وهنالك أعطاه أبو سفيان الأموال والزاد والراحلة ليقوم له بتلك المهمة وفى صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبى - ﷺ - ليضربه بخنجره الذى سقط منه فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروهاً ولما وجد أن قدرته قد ذهبت وأن خطره قد هوى وأن قلبه قد امتلأ بالخوف وأن رجليه لا تحملانه وأن الأرض موشكة أن تنشق لتبتلعه وأن أسيد بن حضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه أعلن ندمه وأسفه على ما أقدم عليه فقال له النبى أصدقنى حديثك وخبرنى خبرك فلم يخف عنه شيئاً وأنبأه أنه موفد من قبل أبى سفيان لقتله وأنه يعترف منذ هذه اللحظة أن أبا سفيان وقومه على الباطل وأن الرسول على الحق وقد بعث النبى - ﷺ - رجلين من أصحابه ليقتلا أبا سفيان هما عمرو بن أميه الضمرى - وكان من فتاك العرب فى الجاهلية - وسلمة بن أسلم وقد عرف أبو سفيان وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه وقتل فى طريقه وهو فار رجلا من تيمه ورجلا من بنى الديل ولقى آخرين من قريش بعثتهما يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيراً إلى المدينة وكأن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة يسلم حتى بيديه مفاتيح مكة فيما بعد .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التى تضم اهليهم وذوى قرابتهم وإخوانهم وأخواتهم بل لم يكن النبى - ﷺ - أكثر منهم جلدا ولا أشد منهم احتمالا أو أقل شوقاً ولهفة إلى أن يجد نفسه وقد مكنه الله من الأرض العزيزة عليه ومن البيت الحبيب إليه حتى بلغ من حنينه هذا ومن شدة تعلقه بهذا المكان الذى بزغت شمسه قبل أن تطلع الشمس وتنشر ضياءها على هذه الدنيا أن رأى فى منامه - ﷺ - أنه دخل مكة ولم يكن يذيع فيهم ذلك النبأ ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين** ﴾[1] حتى ويثبت أفئدتهم من بين أضلاعهم تطوف بالبيت وتتملى من نوره ويتيمم بغباره وتملأ خياشيمها بريَّاهُ ثم ظلوا يتحينون الفرصة ويترقبون أن يحقق الله لهم ما يرجون أن يكون إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشاً لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس وطيب خاطر وسوف تصدهم صداً عنيفاً إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف وسلطان الحرب وقد

---

(١) سورة الفتح الآية : ٢٧

كانت قريش لا تفكر فى حرب محمد - ﷺ - لأنها تعانى من حروبها الماضية وتقاسى مما خسرته فيها من عتاد ورجال وكذلك كان الرسول - ﷺ - لا يرغب فى حربها ولا يميل إلى مناوشتها ولا يهىء نفسه لمواجهتها إلا أنه مع ذلك كله كان ينتظر أن يحقق الله ما وعده به ولا يشك بعض الشك فى أنه منجزه إياه وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والسياسة والحزم والكياسة ويقول الدكتور هيكل : « إنهم المجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبى بما ألهم فى رؤ ياه الصادقة ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رؤ وسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون إلى رؤ يا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم وحتى تنقل نبأ هذه الرؤ يات إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام أيحاربون فى سبيله ؟ أيحملون قريشاً عنه عنوة أم تفتح قريش له طريقه صاغرة مذعنه ؟

أذّن محمد فى الناس بالحج وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج فى أول ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء وكان عدد الذين خرجوا ألفاً ونصف وساق معه الهدى وسبعين بدنه وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً فلما بلغ ذا الحليفة قص الناس الرؤ وس ولبوا بالحج وغرلوا الهدى ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر ولم يحمل أحد سلاحاً إلا ما يحمله المسافرين من سيف مغمد وبلغ قريش أمر محمد فامتلأت بالمخاوف وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوههم حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخول مكة ولم يثنهم ما علموا من إحرام خضوعهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم إلا العاصفة الدينية عن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغاً ما بلغ الثمن الذى يدفعونه كذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمه بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بذى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . . أما محمد فإنه تابع مسيرته حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش فقال له : « لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، فقال ﷺ - ياويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافدين وإ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[1] ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع إنه لم يخرج من المدينة غازيا وإنما خرج محرما يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه وهو لم يتخذ للحرب عدتها فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش مكة تبدو على مرمى النظر فنادى فى الناس قائلا من يخرج بنا على غير طريقهم التى هم بها وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعرا بين شعاب مضنية حتى أفضت به إلى سهل عند منقطع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم مدافعين عن مكة إذا داهمها المسلمون . . ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبى فقال قائل خلأت القصواء فقال ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم دعا الناس إلى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه فأخرج سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً فنزل به إلى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء فغرزه فى الرمال

(١) سيرة إبن هشام ٣/٣٢٣

فى قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا ، ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فهل يعدون لها عدة النزال .

وقف المعسكران يفكران فى الخطة التى تتبع . . . أما محمد فظل على خطته فى السلم والجنوح إليه إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به وهنالك لا يبقى من انتصار السيف مفر وأما قريش فترددت ثم فكرت فى أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة وجاءه بديل ابن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألونه ما الذى جاء به فلما اقتنعوا أن لم يأت محاربا رجعوا إلى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا وبعثوا رجلاً من بنى عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصدقوا فبعثوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة فلما رآه النبى مقبلاً أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلاً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت فأيقن الحليس أن قريشاً ظالمة وعاد إليهم ليقول لهم سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا أَيُحج لخم وخدام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ،هلكت قريش ورب الكعبة فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم . . . وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فاكدوا له أنه عندهم غير متهم وقد خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بيضته وأنه إن نالها بهؤلاء الأوشاب كان ذلك العار الخالد وكان عروة يتناول ـ أثناء الحديث ـ لحية الرسول وكان المغيرة ابن شعبه يضرب يد عروة كلما تناول لحية النبى ، ورجع عروة إلى قريش فقال لهم : « يامعشر قريش إنى والله ما رأيت ملكا فى قوم مثل محمد وأصحابه وإنهم لم يسلموه لشىء أبداً فروا رأيكم » .

وطالت المحادثات على النحو الذى قدمناه ففكر محمد فى أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذى يرى فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلوا سبيله وخرج جماعة من سفهاء مكة ـ أربعون أو خمسون ـ يريدون العبث بمعسكر المسلمين فأخذوا أخذاً وجىء بهم إلى النبى فأطلق وثاقهم وعفا عنهم .

وقد أراد عليه السلام أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عداوتهم إذا أرادوا الاعتداء عليه وقال للنبى إن عثمان أعز بها منى فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره وأبلغهم رسالته فلم يأبهوا بها ولكنهم أذنوا له فى دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة وطال إحتباس عثمان هنالك وترامى إلى المسلمين أنه قتل غيلة وغدراً. ودخل فى روع النبى ـ ﷺ ـ أن قريشاً قتلت عثمان فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعا على ألا يفروا حتى الموت وكلهم حماسة للإنتقام ممن غدر وقتل وهى بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾[1] وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى أغمادها وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها وجعل كل ينتظر يوم الظفر أويوم الاستشهاد

(١) سورة الفتح ا : ١٨

ثم لم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان بنفسه إليهم وأبلغ محمداً ما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له ائت محمد وصالحه على أن يرجع ليعود فى العام المقبل » وإلى هنا ينتهى الحديث عن قصة هذا الصراع الذى تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية والجانب الآخر منها يتمثل فى الموقف الذى وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمى من قبل قريش فى إبرام المعاهدة بينها وبين محمد وقد كان فيه من الطرافة بالبسملة ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ فيأبى سهيل إلا أن يكون ذلك باسمك اللهم على ما تعود الناس قبل الإسلام عليه « هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله » فلا يرضى بذلك سهيل ثم يقول لو آمنا بك رسول الله ما كان بيننا وبينك خلاف وإنما أنت محمد بن عبدالله ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتبه وتنتهى المعاهدة بعد الأتى وأخذ ورد إلى نصوص أربعة :

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود فى العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثانى : أن تعقد هدنة عدم الاعتداء بين الطرفين إلى مدى عشر سنوات أو أربع بعض الروايات ـ يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه

الثالث : أنه من أراد أن يدخل فى حلف جانب من الجانبين دخل ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرماته وعدم الاعتداء عليه .

الرابع :أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده ـ ولوكان مسلما ـ ومن جاء إليهم لا يردونه .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : والشرط الأخير هو الذى أغضب المسلمين وأثار إعتراضهم لكن محمد أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفا يصغر إلى جانبه كل شيء وعدَّ هذا فتحاً مبينا وقد كان محمد أبعد نظرا من رجاله ومن خصومه على السواء وإن بدا لأول وهلة أن قريشاً ذهبت فى الصلح بالكفة الراجحة إلا أن الأيام أثبتت غير هذا فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة فى العام المقبل واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام فأثر هذا تأثيرا كبيراً فى موقفها الداخلى والخارجى كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد صراحة وبخاصة خزاعة التى كان جزءا كبير من الأحابيش فى بطولنها وبذلك جذب محمد إليه جزء كبيراً من هذه القوة فأضعف ذلك مركز قريش الحربى ثم إن محمداً قد أتيحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائيا على اليهود ببلاد العرب وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم وبدأت القبائل التى كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه »

والحق أن هذا الشرط الأخير فى تلك المعاهدة كان مشكلة المشاكل لأن كثيراً من المسلمين الذين كانوا يُعذَّبون بمكة جاءوا إلى النبى هرباً من ذلك الجحيم الذى يعيشون فيه فردهم بحكم الوفاء ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾[1] ولم يجف مداد هذه المعاهدة وسهيل لا يزال فى موقفه بجوار النبى ـ ﷺ ـ حتى جاء ـ يرسف فى قيده ـ أبو جندل بن سهيل

(١) سورة النحل الآية : ٩١

ابن عمرو هذا فضربه سهيل وجعل يرده ليرجع معه وجعل أبو جندل يصرخ ويقول يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين وأفتن فى دينى والنبى يقول له : اصبر يا أبا جندل واحتسب فإنا لا نغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً .

ووفد ـ كذلك ـ من مكة الى المدينة ابوبصير فأرسل اليه سيده رجلين ليأخذاه من النبى فلما سلمه إليهما قال له يارسول الله أتردنى إلى المشركين فقال له نحن لانغدر . . وفى الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفرَّ الآخر وذهب أبوبصير حتى نزلت العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا فلما ذهب أبوبصير إلى هنالك وسمع إخوانه بمكة هربوا إليه وجعلوا وإياه يقطعون الطريق على قريش ويظفرون بكل مايمر بهم من قوافل وبذلك أحست قريش بالخطر الذى يتهددها من جراء وجود هذا الشرط فى معاهدة الصلح التى أبرمها مع محمد مبعوثهم سهيل بن عمرو فذهبوا الى محمد يرجون منه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا وأن يقبل كل من يفر إليه من أهل مكة حتى لايزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التى تمر إلى الشام وهكذا أثبتت الأيام بعد نصر النبى ﷺ وأنه لم يكن ليأخذ بهذا الشرط الأخير الذى كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه أو عدم بعد للأمور وإدراك لعواقبها وإنما كانت سياسة رشيدة ونظرا بعيدا وكياسة حازمة مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة وأن يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء وهو مطمئن إلى أنه لايواجه تكتل خصوم ولا احتشاد أعداء ولاكيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية وصلابة عودها وارتفاع رايتها لأن المعاهدات إنما تكون بين قوتين متكافئتين وهذا يعنى أن قريشا قد أصبحت تحسب ـ من جديد ـ لمحمد حسابا جديدا كالحساب الذى يكون بين الند والند يكون محمد ـ ـ قد اطمأن إلى وضعه اطمئنانا يساعده على ألا يتهيب قوة أو يخشى جبروتا أو يرهب طغيانا ولذلك فإن الخطوة التى تحرك بها صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى دلت على أنه ماكان ليقدم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابته .

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة علامة النصر فى الطريق أمام محمد ـ ـ لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤمرات والخيانات والغدر والتحرش به من هنا وهنالك لأن عدواته كانت متمثلة فى معسكرين قويين يخشى بأسهما ويخاف مايعدانه له من كيد وخصومة هذأ المعسكران هما قريش واليهود . . أما قريش فإنها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التى حقنت دماءها وأبقت على شبابها وكبار القادة منها وجعلتها آمنة على تجارتها التى هى شريان حياتها وأما اليهود فاننا نعلم كيف أن الرسول ـ ﷺ ـ قد أخذهم بالشدة وعاملهم بالعنف وأشعرهم بالذلة التى تليق بهم والتى تخالط دمائهم وتكون الجزء المهم فى حقيقتهم ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا فى خيبر والفلول الأخرى التى فرت اليها واختارت البقاء إلى جوارها وقد مر بنا الحديث عنهم أيضا تحت عنوان « اليهود فى الطريق » ولسنا بحاجة الى تكرار ذلك مرة اخرى . . إلا أن لكل شيء إذا ماتم نقصانه ـ كما يقول الشاعر الأندلسى ـ فإن

المنافقين لايزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقير فى خذلان الدعوة وإشاعة عوامل الهزيمة ويقول الشيخ عبدالمتعال الصعيدى : « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدأ المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التى عطلتها الحرب لتستعيد مافقدته من أموال وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التى وقعت فيها باستمرار صانع الحرب تلك السنين الخمس وانقطاع تجارتها فيها الى الشام وهى أهم مواردها المالية فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ولم تعد محتاجة إلى تحسسهم لها ولا إلى مايدبرونه من فتن ومؤامرات فسكتوا » عما كانوا يدبرونه من قبل لأنهم كانوا آلات فى يد قريش أيضا فلايتحركون إلا اذا حركتهم ولا يمكنهم أن يقدموا على شىء من أنفسهم » .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب فأما القوة الأولى فهى قوة قريش فى مكة بما لها من نفوذ أدبى ومادى وأما القوة الثانية فهى قوة اليهود بمالها من علم وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده وقد استطاع ببعد نظره وحسن سياسته وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله لكنه لم يأمن ناحية الشمال حيث تجمعت فلول اليهود فى خيبر وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهودى وادى القرى . . تيماء لغزو يثرب وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية واليهود أشر من قريش عدواة لمحمد لأنهم أحرص على دينهم من قريش ولأن فيهم علما ومكرا أكثر مما فى قريش وليس من اليسير أن يوادعهم لصلح كصلح الحديبية ولأن يطمئن إليهم وقد سبقت منهم وبينه خصومات لم ينتصروا فى إحداها فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يمدوا لهم مددا من قوى خارجية وإذن فلابد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا حتى لاتقوم لهم من بعد بلاد العرب قائمة أبدا وكذلك فعل فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول آخر حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية وقد حرص - محمد - على ذلك حتى لايكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه وبعد تفكير عن الكسب المادى ومحمد لايريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا وأعظمها دربة على القتال لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولم يتم له الغلب فيها وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال وكان المسلمون يدركون تمام الإدراك ويقدرون نتائجه حق التقدير لذلك ذهبوا مستقتلين لايعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم وكان النبى يدرك - كذلك - قيمة هذا الموقف ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة أعادت الى أعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه ثم إنه كان يدرك أنه مابقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة

العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التى يعمل لها والتى يسعى لإقرارها حتى يتم تكوين الأمة التى يريدها نواه لمجتمع إنسانى فاضل تحت لواء الإسلام . . وبانتهاء سلطان اليهود خففت حدة البغضاء التى كانت فى صدور المسلمين لهم وبخاصة الأنصار وتغير الموقف نهائيا فى جزيرة العرب لصالح المسلمين وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبى فرصة إحكام خطته وبدا بوضوح لأصحابه إنه الرجل العبقرى الفذ الذى اكتملت له بصيرة القلب إلى جانب تأييد السماء » . .

وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ الشريف فيها بيت القصيد لأن الرسول - ﷺ - إجتمع له الى جانب بصيرة القلب تأييد السماء ولهذا كان سلوكه حازما ونهجه حكيما وتصرفه صوابا وعمله سدادا يؤيده الوحى وتؤازره عناية الله وهذه هى عقيدة المسلم التى لايتحول عنها ولايرتاب فيها ولقد كان وقوفه - ﷺ - لهذه القوى الجبارة والخصومات الفاجرة دليلا على أنه لايقف وحده وإنما كانت معه إرادة الله التى هى السلاح الذى لايفل والجيش الذى لايغلب ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذى كان ظهره إليه واعتماده عليه لخانته الأسباب وخفى عليه الصواب وكان له تاريخ آخر غير هذا التاريخ .

وقد كان لأصحابه فى تلك الأدوار البطولية المواقف الرائعة والعمل الجاد والجهد المشكور حتى فى غير ميدان الكر والفر وهو مانسميه نحن الآن بالحرب النفسية كما فعل نعيم بن مسعود فى السفارة بين قريش وبنى قريظة فى غزوة الأحزاب المسماة بالخندق وهى السفارة التى كانت سببا فى فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز فى هزيمة الأحزاب أو بعبارة أدق فى خيبة التجمع الذى أرادت الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة والقضاء على محمد وأصحابه حتى لاتقوم له قائمة الى الابد .

وماكانوا يظنون على الباغى تدور الدوائر وليس أكثر من هذا الرعب الذى ملأ قلوبهم والفزع الذى تحطمت به نفوسهم الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف فى كل شىء وقد حدث أن النبى - ﷺ - لما انتهى العام الذى تضمنته المعاهدة وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التى ساق لها الهدى فى عامه السابق وعلمت قريش بقدومه أخذها الهلع وظنت أنه - ﷺ - سيغدر بها ويغزوها فى عقر دارها وربما كان سوء الظن الذى يملأ نفوسهم سببا فى أن يأمر الرسول أصحابه فى طوافهم بالبيت أن يظهروا حركة ونشاطا يدلان على القوة لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »[1] وكان عدد المسلمين فى هذه العمرة ألفين كانوا فى نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذى زلزلت له أفئدة قريش وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذى يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبدالله بن رواحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن صدَّه عن ذلك عمر بن الخطاب وقال له رسول الله - ﷺ - مهلا يابن رواحة ، وقل : لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وخذل الأحزاب وحده فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته وردَّدها المسلمون بعده فتجاوبت بأصدائها

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٠

جوانب مكة وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير فى نفوسهم الحقد والكراهية وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس قد قذفت أختها ميمونة التى أحبت الاسلام وآمنت به ورغبة العباس فى الزواج منها فلما تقدم اليه سهيل بن عمرو أن يخرج بعد انتهاء الأيام الثلاثة قال له الرسول ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولمنا وأشركناكم معنا طعام الوليمة ؟ فقال له : لاحاجة لنا لطعامكم . . إلا أن هذه الأيام التى اقامها النبى - ﷺ - والمسلمون معه كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم والخلق الكريم والأدب الرفيع والمعاشرة الحسنة حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم فى دين محمد حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وأحد أبطالها المغاوير ينادى فى بطن مكة قائلا : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولاساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم بعد ذلك عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لإسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز فى أن كانت مكة قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك وتتهاوى فيه الأصنام ويصبح من المألوف إلى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة وراء « لا إله إلا الله محمدا رسول الله » ولهذا كان المسلمون فى غاية الاطمئنان الى أن الزمن فى صالحهم - كما يقولون - لم يتعجلوه ولم يسبقوا حوادثه لفتح مكة بعد أن تهيأت الأذهان لهذا الفتح وبخاصة وهم يعلمون أن الأجل الذى نصت عليه معاهدة الحديبية لايزال بعيد المدى اللهم إلا اذا حصل جديد يحملهم حملا على أن يحملوا السلاح قبل الأوان .

حديث أبى سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة كان همه - ﷺ - أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة فى الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذين كتب إليهم يدعوهم بدعاية الاسلام قيصر ملك الروم وكان نص الخطاب الذى أرسله إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين - الفلاحين - ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون »[١] .

ولما وصل الكتاب إلى قيصر هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير اليه حتى اذا - مااستجاب للداعى ودخل فى هذا الدين واختط لنفسه طريقا جديدا كان قويما مستقيما أم ليس فيه من الاستقامة شىء وهذا هو شأن الرجل الذى تتفتح نفسه للحق وتتجه للصواب وترحب بالنور

(١) متفق عليه

الذى يضىء لها الطريق ويكشف لها مواضع أقدامها فى الدرب الذى تسلكه فكان منه أن قال « أنظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه وكان أبوسفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : « سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبوسفيان : أنا ـ لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره ـ فقال قيصر : أدن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وقد جعلكم خلفه ، كيلا تحملوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ، قال : هو فينا ذو نسب قال : هل تكلم هذا القول أحد منكم قبله ، قال : لا . . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندرى ماهو فاعل فيها ، قال : فهل قابلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه مرة لنا ومره علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت انه لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فزعمت أن لا فقلت ماكان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بيننا وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك هل يغدرفذكرت أن لا وكذلك الرسل لاتغدر فعلمت أنه نبى وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وإن كان ماكلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك . . قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لفظهم فلا أدرى ماقالوه وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبوسفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم أمر بأبوابها أن تغلق ثم قال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم علىَّ فقال لهم : إنى قلت مقالتى لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ النبى محمد - لأنها تنطوى فى حوارها وجدلها السيرة العطرة التى يعتز بها المسلمون إذا ذكرت النبوات وتحدث الناس عن الرسالات فلقد كانت الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة إلى درجة أنها تصلح لأن تكون دستورا أو بمعنى أصح ميزانا توزن به أعمال الذين يتصدون لقيادة الجماهير وتوجيه الانسانية وإنقاذ المتورطين فى سلوكهم أو المتخبطين فى سيرهم ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف أن كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ويطلبون الملك ويبغون الريادة أم إنه من أولئك الذين يحملون المصابيح ويجعلون من أنفسهم زيتا لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير وطريق البر ويأخذوا بأيديها الى حيث يكون النجاح والفلاح دون أن يترقبوا على ذلك أجرا إلا رحمة الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض .

ونحن ننظر الى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ثم الحوار نفسه ، أما الحوار فهو - كما رأينا - لم يترك شبهة تخطر بالبال وتتوارد على الذهن إلا أشبعها بحثا وناقشها من كل ناحية وجعل الجواب عنها مسلما لبراءة العقول لذلك كانت النتيجة المترتبة عليه ضرورية لامفر من التزامها ولاريب فى تزيفها عليها كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم إلا أن رجوع قيصر كان لعمى فى بصيرته سببه أنه آثر الفانية على الباقية والدنيا على الدين والشيطان على الرحمن وانحرافه عن السفن والتواؤه عن القصد لايطعن فى علم المقدمات وسلامة الترتب والترتب .

وأما الأشخاص الذين أداروا ذمة الحوار ومثلوا هذا المنطق فهما أبوسفيان وقيصر وكلاهما لايمكن أن يحابى محمدا ولا أن يحابى دينه لذلك كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء وقد كان أبوسفيان من أساطين الكفر وكبار المعارضين وكان يعينه - حينئذ - أن يقول كلمة مغموزه ، أو رأيا ملتويا أو يحكم حكما قاسيا يرسله كالصاروخ الموجه ليكيد به محمدا وأصحابه ولكنه آثر الجانب الذى يتناسب مع رجولته الضخمة وبسالته الفذة وعقله الكبير وشرفه العظيم ونسبه النبيل ومكانته فى قومه والقاضى أو الشاهد إنها معا تبه لشرف مركزه وقداسة وضعه لم يذكر شيئا فى هذا الوقت إلا الصدق فى القول والإنصاف فى الحكم والسداد فى الرأى وعدم الميل الى جانب الهوى او الغرض لأن ذلك يزرى بالمروءة والشرف ويدنس العرض والخلق وأبوسفيان مهما كانت خصومته لمحمد واختلافه معه فى الرأى لاينسى أنه ذلك الرجل الذى كانت له السيادة فى العرب ولايليق بمثله أن يُسف أو أن ينزل الى مستوى السوقة لذلك كله كان جديرا من النبى - ﷺ - فى يوم فتح مكة أن يعطيه هذا الأمان الكبير المقرون بأن ينادى مناديه من دخل دار أبى سفيان فهو آمن وكان هذا سببا فى الدهش البالغ الذى أصاب الناس فى هذا اليوم وهم كانوا لايزالون يزعمون أنه باق على موقف العناد والمعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لايعترضه إلا الذى يبلغ به الحق غايته .

فتـــح مكـــة

لاتزال إلى هذا التاريخ مسافة الزمن الذى تضمنته معاهدة الحديبية والذى اتفق على أن يكون إحدها هدنة قائمة بين النبى - وبين قريش ولايشعل أحدهما حربا ولايعتدى على حليفا إلا أن غزوة مؤتة التى جاءت فى أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب الموالين لهم لثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ماكان يرجو محمد وأصحابه ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد - وعاد وضعهم معهم - أو كاد يعود - الى مثل ماكان عليه قبل الأحزاب وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول فى حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر فى حلف قريش ودخلت خزاعة فى حلف رسول الله وكان بين بنى بكر وخزاعة حزازات قديمة وثارات من سالف العهود أثارها وبعث كامن حقدها ماوصل اليه معسكر محمد وأصحابه فى مؤتة التى لم يكن طيشهم فيها من فضل الأفضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ولاضرر يلقونه وأخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها وكانت قريش تساعد بنى بكر بالمال والسلاح فى الخفاء متناسية أن ذلك خرق لمعاهدة الحديبية زاعمة أن أحدا لايعرف هذا التحرك المستتر الذى تتحركه لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبى - ﷺ بالمدينة وأخبروه خبر هذا النكث للعهد وناشدوه أن يدرك حلفاءه ويقول الشيخ الخضرى في كتابه « نورا يتبعنى » : « إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وأزال موانعه وقد كان عليه السلام يعلم أنه لاتنزل العرب حتى تنزل قريش ولاتنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوق لفتحها ولكن كان يمنع من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية - وهو سيد من وفى - ولكن إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول - ﷺ - على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا الخزاعى وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم مايربوا على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال : « والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى » . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ماعملوه نقض للعهود التى أخذت عليهم ندموا على مافعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين حبيبة وقد اراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يابنية أرغبت به عنى أم رغبت لى عنه ؟ فقالت : ماكان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لها : لقد أصابك بعدى شر ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد فعرض عليه ماجاء له . فقال عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك .

قام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش ، علهم يساعدونه على مقصده ، فلم يجيره منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله ، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً ، فاتهموه بأنه خانهم . واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان ، لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فانه تجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة ، فقال يا رسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكنهم عندوا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينه ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش ، كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها ، فدعا مولاه جل ذكره ، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبغتها فى بلادها ، فقام حاطب بن أبى بلتعه أحد الذين شهدوا بدراً ، وكتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم بأمر رسول الله - ﷺ - وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل ، فأعلم الله رسوله بذلك ، فأرسل فى أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقوا حتى الروضة ، فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها أخرجى الكتاب أو لنلقين عنك الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل على ، إنى كنت حليفاً لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولارضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾** ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعوانه ودعا : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديداً ، وقال : (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره بأن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة ، ولما وصل عليه السلام مر الظهران ، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يلتمسون الخبر عن رسول الله ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال

أبو سفيان ما هذه لكأنها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو ، فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان ، وقال للعباس احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ، وهو يسأل عنها ويقول مالى ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة ، فقال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان يا عباس حبذا يوم الزمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال رسول الله : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدى ، ودخل هو من أعلاها من كداء ، ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الأذى ، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى اسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم أرتد وافترى على الله الكذب ، فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم ، فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ، ومنهم عكرمه بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب ابن زهير ، ووحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عقبة زوج أبى سفيان ، وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الزعر من قريش يريدون صده ، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين ، وقتل من جيشه أثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، وأما جيش رسول الله - ﷺ - فلم يصادف مانعاً ، وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل ، تواضعا لله وشكراً على هذه النعمة ، حتى تكاد جبهته تمس الرحل وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل إلى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة ، وميمونة ، فاستراح قليلا ، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه ، وهو يقرأ سورة الفتح : حتى أتى البيت ، وطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ، ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل) ، (وما يبدىء الباطل وما يعيد) ثم أمر بالآلهة التى كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم فى أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة ، من هذه الأدناس ، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب .

وإلى هنا تكون عصابة الشرك ، فى مكة وغيرها ، قد تهاوت أعلامها ، وزالت دولتها ، ولم يعد فى امكانها أن تعامل محمداً بالأسلوب القديم ، الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة ، ولكنها الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله ، لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فاذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط ، أو خرجت على نص من نصوص المعاهدة ، بعثت كبيراً من ساستها ، أو عظيما من قوادها يرجوا محمداً - ﷺ - أن يتغاضى عن هفوة المسىء ، وحماقة المعتدى ، ولقد رأيناه كيف إنها مادت الأرض من تحت

أقدامها وتهددها الأخطار وأحاط بها الهلع والفزع ، لأن خيانتها قد تكشفت وإمدادها لبنى بكر بالسلاح والمال فى اشتباكها مع بنى خزاعة ، قد عرف أو وصل أمره إلى النبى - ﷺ - فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر ، وراحت ترسل قائدها لعناد النبى وحربه ليؤكد من جديد عهد الحديبية ، فلما لم يجدها ذلك كله نقيراً ولا قطميراً ، أسلم للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة ، فلم يقاوم دخوله ، أن تعترض طريقه ، أو تشهر فى وجهه سيفاً ، باستثناء تلك المناوشة البسيطة التى قوبلت بها كتيبة خالد بن الوليد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده فى هذا اليوم هو كل شىء ، ولكن الذى كان هو كل شىء وأعظم من كل شىء .

أولا : أيطلب النبى - ﷺ سادن الكعبة عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح الكعبة ثم يدخلها دخول الظافر المنتصر .

ثانيا : تتحطم على مرآى ومسمع منهم تلك الأصنام ، التى يؤلهونها ويعبدونها من دون الله ةلم يكن منهم إلا الرضا والاستسلام .

ثالثا : أن يعلن إليهم أنه فى موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم - والعفو عند المقدرة ، فيقول : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعا : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء ، تبايعه على الاسلام والطاعة والبذل والعطاء ، فى حين أنهم لم يستطيعوا صد هذا التيار الزاحف ، وهذه كلها معان تدل على أنه - ﷺ - كان يتحدث من موطن القوة لا موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة عوضه الله بها عن كل شدة كان يلاقيها ، وكل إيذاء أصابه نصراً عزيزاً ، أرض به خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونسى الرسول احن هؤلاء وعداوتهم ، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس ، ويعلق الدكتور هيكل على هذا الموقف فيقول : (ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد والانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الانسان ، هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ، ومن عذبوه هو وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه فى بدر وفى أحد ، ومن حاصروه فى غزوة الخندق ، ومن ألبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه لما ونوا عن ذلك لحظة ، هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بيده وفى سلطانه ، هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد أمة وأهلها فى لمحة الطرف ، لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة ، أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا المتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه ، فصفح وعفا ، وضرب بذلك للعالم كله مثلا فى البر والوفاء بالعهد ، وفى سمو النفس سموا لا يبلغه أحد) .

والقارىء لأبناء هذه الغزوة وأحاديثها ، يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التى تنبىء عن اخلاص المؤمنين كدينهم ، ودعوة نبيهم ، إخلاصا يفوق حدود الوصف ، وتنبىء كذلك عن العصبية للجنس ، أو الدم ، أو الجاه والحكم .

وربما كان من أروع الصور للاخلاص للدين وللرسول - ﷺ - ما صنعته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبي سفيان ، الذى ظن أنه سيجد فى جوارها من الحنان والرحمة ، والاجلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله فوق كاهله من هموم ، وما لاقاه فى طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن آبويه لها ، لا قيمة لها ، إلى جانب ما تحتفظ به لرسول الله من قداسة ، وما ترعاه له من حرمة ، وان الحقوق التى يمليها الدين لها عندها الاعتبار الأول ، وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير ، الذى تقوم كبرياؤه على الزيف ، وتعتمد على الباطل ، وتنحاز إلى جذب الشيطان ، وتغتصب جاهها وسلطانها من الغوغاء والأوباش ، ثم لا تلبث إذا ما جد الجد ، وانتصر الحق على الباطل ، أن يتضاءل حجمها ، ويتهاوى كبرياؤها ، وتبدو على حقيقتها أقل من لا شىء فى العدد .

يمر به صديقه العباسى بن عبد المطلب على نيران المسلمين ، ليدخل فى نفسه الرعب ويعلق هو على هذا المنظر المذهل فيقول : إنها كنيران عرفة ويراه عمر فيقول : عدو الله أبو سفيان ، الحمد لله الذى أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، ويهم بقتله ، ويمنعه العباس قائلا له : إنه فى جوارى ، ويدخل على النبى - ﷺ - ليعلن اسلامه ، حقنا لدمه ، وابقاء على نفسه ، ويبتدره الرسول بقوله : أما آن لك أن تعلم أنه لا إله الله فيقول بلى وأن محمدا رسول الله فيقول : أما هذه ففى النفس منها شىء ، فيعالجه صاحبه العباس بقوله : أشهد قبل أن تضرب عنقك ، فيشهد ، ويتجه العباس الى رسول الله بقوله : إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له ذكراً ، ليظفر منه فيما بعد بتلك الكلمة (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن) وإلى أن تزول دولة الظلم وسلطان الباطل (إن الباطل كان زهوقاً) .

ويفر الهاربون من العدالة ، عكرمة ، وضفوان ، ووحشى قاتل حمزة ، فى أحد ، وعبد الله بن الذبعرى ، وكعب بن زهير ، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، ثم تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، فلا يجدون سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم إلى رسول الله - ﷺ - ليحق عليهم بالحرية ، وتقول أكلة الكبود . هند ، بعد أن وقفت بين يدى رسول الله وأعلنت اسلامها (والله يارسول الله ماكان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن أذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء إلى أن يعزوا من أهل خبائك) ويتنكر كعب بن زهير ، ليقف بين يدى الرسول عقب صلاة الفجر بالمسجد ، ليقول له لو جاء اليك كعب عائداً لائذا ، تقبل منه يا رسول الله ، فيقول له : نعم أقبل منه ، فيقول له : مكان العائذ بك ، كعب يا رسول الله ، وينشده قصيدته المعروفة بانت أسماء ، والتى يقول فيها :

أنبئت أن رسول الله اوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

غزوة تبوك

كان رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإذلاله لطواغيت الشرك وقادة الكفر ، وتهافت القبائل والبطولة على مبايعته على الاسلام ، ودخولهم فى دين الله افواجا ، وتحطيمه للأصنام التى كانت فى الكعبة ،

وغيرها ، قد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والاكاسرة والملوك والسلاطين ، وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم ، بحكم نشر الدين واعلان العقيدة ، وعموم الدعوة إلى الناس جميعا ، وهنالك دب الخوف إلى نفوس الروم والفرس ، وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددها الغزو الاسلامى حينئذ ، وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف فى وجهه ، والحد من تحركه ، والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والناس وراء

ماتجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها فى خبر كان لا محالة ، طال الزمان أو قصر ، فأعلن - ﷺ - النفير العام فى المسلمين ، لأنه علم أن الروم لا يناجذونه وحدهم ، ولكن ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من العرب والاعراب ، الذين كان محمد - ﷺ - قد أرغمهم - ماداموا لم يختاروا الاسلام - على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويقول المؤرخون إن النبى - ﷺ - كان مما أخذ نفسه به مع المسلمين ، إذ أراد الخروج إلى غزو ، ألا يصارحهم بالجهة التى سينتهى إليها الجيش ، حتى لا يتسرب نبأ ذلك إلى العدو ، فيتأهب له ، لكنه فى هذه المرة قد آثر الإعلان والمصارحة ، والسبب فى هذه المخالفة أن السفر شاق ، لأنه إلى تبوك فى الشام ، والجو شديد الحرارة والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاة إلى التعلل بها ، وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج ، وبهذا كان الاعتذار مفتوحا على مصراعيه ، وبدأ النفاق فى أوضح صورة وأجلى مظاهره ، على الرغم من التهديد الصريح ، الذى كان يقرع أذانهم فى مثل قوله سبحانه : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾(١) وقوله أيضا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾(٢) على ان هنالك من المسلمين من ابدى غاية الاخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله ، مثل عثمان ، وأبى بكر ، وعمر ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر التى يركبونها ، فجاءوا الى الرسول ليوفر لهم الظهر التى يركبونها ، فلما قال لهم : (لا أجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون)(٣) ويظهر من أحداث غزوة تبوك : انها كانت خر ماطفح به الكيل فى نفوس المنافقين ، إذا ظهرت كراهيتهم ، لأن ينتصر ﷺ أو ليتمكن نفوذه ويقوى سلطانه بشكل لا إلتواء فيه ولا خفاء فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ولا اسلوبا يعللون به تخلفهم وعدم وخروجهم ، إلا سلكوه والتجأوا إليه ، وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان وتلك الأساليب ، وإن كانت كلها لم تخف عن النبى ﷺ .

ولكنه علمها وأطلعه الله عليها ، وكان ذلك افتضاحا لحالهم ، وكشفا لسوءاتهم ، وقد حمل ذلك كله جماعة من المتخلفين أن يصارحوه ﷺ أن يتخلفهم ، لم يكن لعذر يلتمسونه التماساً ، أو يزورونه كذبا وبهتانا ، وإنهم لهذا يتركون الأمر له ، ليقض فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد ، وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ، ثم نزلت فيهم الآية : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين**

(١) سورة التوبة آية : ٢٤

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة التوبة الآية : ٩٢

خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] .

ويقول الدكتور هيكل : وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فأثرت الانسحاب بجيشها ، الذى كانت وجهته إلى حدودها ، ايتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون إلى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن يناله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى بعد ذلك أحد ، وكان يوحنا بن رؤية صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود ، قد وجه اليه النبى رسالة أن يذعن أو يغزوه ، فأقبل (يوحنا) وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة ، وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جرباء وأذرح ، واعطوه الجزية ، وكتب رسول الله لهم كيف آمن ، هذا نص أحدها ، وهو ما كتب به إلى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس ؛ وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يرونه من بر أو بحر » وإيذانا بالموافقة على هذا العهد ، أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن أتفق على أن يتدفع أيلة جزية ، قدرها ثلاثمائة دينار كل عام .

لم يكن محمد بحاجة إلى القتال ، بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنة عودة الجيش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيد بنى عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة ومعاونته جيوش الروم ، إذا جاءته من ناحيته ، لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس ، وأنقلب هو بجيشه راجعا ، إلى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة فى غفلة من مليكها ، الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، حتى أخذ حسانا ، وأخذ أكيدر أسيراً ، وهدده بالقتل أن لم تفتح دومة أبوابها ، وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى فى عاصمته ، وهنالك عرض على اكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفا له .

ولم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبيروزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات ، من تأمين حدود شبه الجزيرة ، واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١٨

الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوما ، وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء فى شدة بتبوك فى حيث كانت ثمار المدينة قد طابت وأن يستمع الناس بها ، وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينتقل من ملأ الايمان قلوبهم نبأهم اليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حينا وباللين حينا ، والجيش يسير قافلا إلى المدينة ومحمد يحفظ النفو س ، حتى إذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة من أبل وشاء وبرود روع ، وعلى اكيد رحلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها .

وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطرابا ، رد المستهزئين إلى صوابهم ، وجاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم ، وأقروا بذنبهم ، هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وقد أمر محمد فأعرض عنهم المسلمون خمسين يوما ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ محمد يشتد فى معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل ، وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه ، وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم ، وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه ، بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته ، كان المنافقون خطراً عظيما ، ولقد كان له من قبل حيث كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن تشرق بنفسه على ما يجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع المنافقين ، شر تخشى مغبته ، وخطر ما اسرع ما يستشرى ، إذا لم تجتث جرثومته .

بنى جماعة مسجداً بذى أوان على بعد ساعة من المدينة ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين ، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضرارا وكفرا ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبى أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود ، فلما عاد وعرف من أمر السجد وحقيقته ما قصد اليه من اقامته ، أمر باحراقه ، فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائض المنافقين ، فخافوا وانكمشوا ولم يعد لهم من يحميهم الا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم ، على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين ، مرض أثرهما وتوفى ، وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام .

والواقع أن سورة التوبة كانت السجل الواعى لغزوة بتوك ، وقد عرفت لكل لون من ألوان النفاق ، الذى صهر به هؤلاء ، الذين كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر ، فى حقيقته المكشوفة ، حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة ، لأنها فضحت أمرهم ، وهتكت أسرارهم ، ولقد كان النبى - ﷺ - عنيفاً فى معاملتهم ، كما ثبت ذلك مع الذين أتخذوا مسجد ضرارا ، وكما ثبت مع الذين خلفوا الا أن ذلك كله كان فى آخر المطاف ، حيث لم يبق فى قوس الصبر منزع كما يقولون ، والا فإن الباب كان مفتوحاً لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير ، الذى عاتبه الله عليه بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم

حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾[1] . ولكن فى لصق العيون والنقائض به ، ثم بالمسلمين معه كذلك ، ، وهذه آيات هذه السورة تقول : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات . . ومنهم الذين يؤذون النبى ﴾ وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام ، إلا أنها كانت مجابهة والتحاما لهؤلاء الذين كانوا مرضى القلوب والأفئدة ، إذ تبينوا للرسول - ﷺ - والمسلمين على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولا بهرج ، وفى الوقت الذى تكامل للدولة الاسلامية نفوذها ، والذى لايمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه ، كانوا هم قد تكاملت لهم عناصر الهزال والضعف ، الذى لا يكون بعده سوى الفناء والموت ، وكذلك تكون نهاية المرضى . . وربما تغاضى رسول الله - ﷺ - عن بعض المنافقين ، فلم يأخذهم بالشدة ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم ، وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة وقد كان هذا المعنى واضحا تمام الوضوح فى عبدالله بن أبى ، الذى طالما هم بعض المسلمين بقتله ، فلم يرض الرسول من ذلك لم يشجع عليه ، وحيث وفاته صلى عليه صلاة الجنازة ، ارضاء لأبنه الذى كان من خيار الصحابة وان كان - ﷺ - قد نهى عن مثل هذه الصلاة فيما بعد بقوله سبحانه : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾[2] وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الخزرج ، الذين كانوا يحبون عبدالله، ويعترفون له بالفضل عليهم ، ومهما كان الحال من اللين أو الشدة ، فى معاملة المنافقين ، فإن أحداً لا يشك فى أنهم أصبحوا منذ تبوك ، يعاملون بعنف ، ويؤخذون بشدة لا تقل عن تلك التى كان يعامل بها المشركون ، وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء إلى ماقبل تبوك ، لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالعزلة والذلة ، والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم ، وقد أرسل الرسول - ﷺ - أباب بكر ، فى أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ، ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه ، لأنه كان غير راض عن حج المشركين الى بيت الله الحرام ، مع أن ذلك كان مألوفا فى الجاهلية ، وقد سبق له ان استنقرهم للحج فى غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة تنبذ اليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾[3] وذهب على بن أبى طالب ممثلا رسميا عن النبى - ﷺ - ليعلن ذلك الانذار الرسمى الذى تضمنه أوائل السورة من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج لأكبر : ﴿ **أنى الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فأعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان ، التى وصل اليها الاسلام ، كان من الوضع الذى يسمح بأن يصدر أوامره ونواهيه من مركز القوة ، التى يحسب لها الناس ألف حساب ، فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف فى وجهها ، إلا إذا تجرد من العقل أو كان مغامرا بروحه التى بين جنبيه ، وهيهات أن يكون هنالك شىء من ذلك كله إلا عند المجانين .

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٣ - ٤٥
(٢) سورة التوبة الآية : ٨٤
(١) سورة التوبة آية : ٢٨

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ والذى اردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك ، ولا يطوف به عريان كان ، لابد لهؤلاء جميعاً أن ينكمشوا، وأن يؤمنوا إيمانا لا شك فيه ، أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا من يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عن رايتها ، وان وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، واحسنت اليه ، وضمنت له البقاء الطيب والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن ، فانه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ويكتنفه الشك ، وتترمى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مباىء علم الاجتماع ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم)[1] وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ، ويستعصى فيها الوئام والصلح ، ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر ، إلى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره إلى الدين والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد ، لذلك كله أدركت هذه الفلول المشركة فى اطراف الجزيرة أو فى داخلها ، أنه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين ، وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال والهوان ، إلى الأبد ، وعندئذ أخذت الوفود من نجران ، وعبد القيس ، وبنى حنيفة ، وكنده ، وأزد شنوءه ، وهمزان ، وثعلبة ، وغسان ، وبنى أسد ، وبطون وقبائل كثيرة ، تتوافد عليه ﷺ لتعصم دماءها من السفك وقومها من الازدراء ، وحياتها من الامتهان ومستقبلها من الضياع ، تعاهده على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وهنالك كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد اطمأن الاطمئنان على الاطمئنان ، إلى أنه لا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام الحادى عشر سيخرج إلى حج بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، وشرف المرافقة إلى الافئدة المؤمنة والقلوب الممتلئة بنور اليقين ، وخرج معه تسعون ألف ، أو أربعون ألف ومائة ألف فى بعض الروايات ، ومشوا تميد الأرض من تحتهم ، وترقص النجوم من فوقهم ، ويمتلىء الجو كله من حولهم بالبهجة والسرور ، ويتقدمهم رسول الله ﷺ ـ على ناقته القصواء قائلا : « لبيك اللهم لبيك ـ لبيك لا شريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

وهم بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيحون إلى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه ، التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة فى الاحياء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال : « اللهم زده تشريفا وتعظيما ، ومهابة وبرا ، وطاف به سبعا ، واستلم الحجر الأسود ، وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، وسعى بين الصفا والمروة سبعا كذلك ، وكان إذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله إلا الله الله أكبر لا اله إلا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » فى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها وفى التاسع توجه إلى عرفات وخطب خطبته المشهورة ، وهى خطبة الوداع لهذه

---

(١) سورة آل عمران آية : ٧٣

الأمة ، التى كافح من أجلها ، وجاهد لتحريرها ، وحارب فى سبيلها وظل ثلاثا وعشرين سنة ، يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأكرم ، والعيش الاحسن ، والحياة التى تمتلىء بالسعادة ، وتطفح بالبهجة ، وتجود على الناس بالرخاء والاطمئنان ، ونصها الذى اجمعت عليه كتب التاريخ والسيرة .

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير .

أما بعد . . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبرأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارق وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم .

أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليوطئوا عدة ما حرم الله وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهون بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكون لأنفسهن شيئا اتخذتموهم بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .

أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم أشهد فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله الا هل بلغت اللهم فاشهد . . أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »[1] .

---

(١) أخرجه : ابن ماجة فى سننه جـ٢ ص ٩٠٥ كتاب الوصايا ـ باب لا وصية لوارث ـ رقم ٢٧١٢

وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى جل شأنه : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾[١] وأدى - ﷺ - مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعا إلى المدينة ، ولما بدت له من بعيد معالمها الشامخة ، كبر ثلاثا وقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير أيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده)[٢].

والواقع الذى لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة ، حدد فيها النبى - ﷺ - المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى ، الذى يسوده التعاون والوفاء والحب والبر ، والرحمة والتعاطف والخير والسعادة ، والأمن والطمأنينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال : (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام) فإن الجماعات والشعوب ، والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول إلى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية والذئاب المفترسة ، إلا إذا رخصت فيها الدماء على الناس ، إلى هذا الحد الذى لا يجد فيه القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ تشبه الدستور العادل والقانون الصحيح ، والنظام الذى لابد منه لوجود البيئة المترابطة بالحق ، المتواصلة بالبر ، المتماسكة بالعدل ، المتضاربة فى القلوب والأفئدة ، حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فاذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما . والعيش لونا من ألوان التعاسة أن لم يكن هو التعاسة بذاتها .

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها ، وفى القرآن الكريم : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾[٣] والأمانة أو أداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى ، والشعب الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس ، والانسان مدنى بالطبع كما يقول : ابن خلدون وغيره من فلاسفة علم الاجتماع ، ولا يمكن لإنسان أن يعامل إنسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط ، وتنقطع الأواصر ، وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح ، ويصيبها الشلل والموت ، وهكذا إذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة ، وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر الا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة فى الفلاح والنجاح ، والسداد والرشاد لمن يوجه اليه القول ونصحه بالتقويم ، ويأخذ بيده إلى سلوك السبيل السوى ، والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفاسد ، تهدد كيان الأمم والشعوب ،

---

(١) المائدة الآية : ٣

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه جـ ٣ ص ٢٨٥ كتاب الحج باب ما جاء فيما يقول عند التقول من الحج والعمرة رقم ٩٥٠ ، وأخرجه البخارى كتاب باب ٣٦ ومسلم برقم ٤٢٨ كتاب الحج .

(٣) النساء آية : ٥٨

وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، ويبدو بالذى يتهاون فى دينه حتى ولو بارتكاب الصغائر ، التى يعتادها مستهينا لشأنها مستخفاً لها ، وهى الخطوة الأولى إلى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الآدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومعظم النار من مستصغر الشرر « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » وطاعة الله رياضة للنفس على التزام أوامره واجتناب نواهيه ، التزاما لا تهاون فيه ولا تغافل ، ولا تباطؤ ولا تراخى ، ولا نقص ولا زيادة ، كذلك فإن حصل خلل فى دقة الامتثال ودقة التطبيق ودقة الالتزام ، كان ذلك كله هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان إلى ضمير المؤمن ، ليقوده إلى المعصية ، ثم إلى الغضب عليه ، ثم إلى الطرد من رحمته والعياذ بالله .

وفى الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع ، وبخاصة حيث تكون زوجة ، فإن وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل ، وهى قائمة على الحب المتبادل والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما تحتاج إلى صون حرماته ، والمحافظة على عرضه (ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة » وهى على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوان لا يمكن لأنفسهم شيئا أخذتموهن بآمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » الا إنها مع هذا الضعف ، تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية فى سعادة البيت ، كما تستطيع أن تكون شيئا ذا أهمية فى ذلك النعيم الواسع ، الذى ينشده الرجل من البناء بها ، أو الحياة معها ، وهذه السعادة وذلك النعيم ، لا يمكن وجودها الا إذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبى ، أو الخلقى لهذا المخلوق الضعيف المسمى بالمرأة ، الوضع الذى يحتم على الرجل أن يعاشرها بالمعروف ﴿ **فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظاً** ﴾[1] وليس أدل على روح الاخلاص وحب الخير والرغبة الصادقة فى الاصلاح من قوله - ﷺ - فى أول الخطبة :

(اسمعوا منى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا) ورحمه الله وصلى وسلم عليه ، فقد كان موقفه هذا بحق موقف وداع . .

انتهى هذا البحث من كتاب (من فيض الرسالة) لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب خاتمة سورة المزمل) .

---

(١) النساء الآيات : ١٩ - ٢١

تخفيف من الله الغفور الرحيم

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۙ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

(أدنى من ثلثى الليل) : المراد أقل منه
(لن تحصوه) : تطيقوه .
(فتاب عليكم) : رجع بالتيسير عليكم .

أضواء كاشفة

هذه الآية ترجع إلى أول السورة ، حيث كان الأمر فيها للنبى ـ وكذلك صحبه ـ بأن يقيم ساعات طوالا فى الليل ، تتراوح بين الثلث والثلثين ، وقد امتثل النبى لذلك بل وبولغ فى هذا ، وبعد عشر سنين من هذا الأمر ، نزل التخفيف على الأمة ، وانتقل الأمر من الواجب إلى المباح ، لما ستذكر الآية الشريفة ، فلقد خفف الله عن الأمة الاسلامية ، حيث اتسع العدد ، وأصبح فيها المريض وذو الحاجة ، والمسافر والمقاتل ، وهؤلاء بلا شك لا يطيقون القيام ، فجعله الله مندوباً ، من شاء فعله ، فاستحق ثوابه ، ومن شاء ترك هذا الفضل الكبير ، والله هو العالم بكل شىء .

إن ربك يعلم أنك قمت وامتثلت أمر ربك ، أنت وطائفة من قومك ، قمتم أدنى من ثلثى الليل ، وقمتم نصفه وثلثه ، وكان معك صحبك ، والمراد بالعلم أن الله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء .

والله وحده هو الذى يقدر الليل والنهار ، وهو الذى يعلم المصلحة وقد علم أن المدة السابقة كافية للتربية الاسلامية ، وقد جاء معكم أناس لا يستطيعون ذلك العمل . فالله علم أنكم كجماعة لن تطيقوا قيام الليل على سبيل الواجب ، أما كأفراد فمنكم من يقدر وأكثركم لا يقدر ، والأحكام الشرعية تبنى على الأعم الأغلب . فالله قد رجع عليكم بالتيسير والتخفيف ، قد رجعتم إليه بالشكوى والدعاء ، فأقرءوا ما تيسر من القرآن فى قيام الليل ، أو فى الصلاة فى ساعة من ساعات الليل ، علم الله أن الحال والشأن صون منكم مرض ضعاف ، لا يستطيعون قيام الليل ، وآخرون منكم مسافرون يضربون فى الأرض ، يبتغون من فضل الله بالتجارة ، والسعى على تحصيل الرزق من طريق الحلال ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، هؤلاء وهؤلاء لا يستطيعون قيام الليل ، فالله خفف عنكم فإقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة كاملة الأركان ، مستوفاة الشروط وآتوا الزكاة ـ أى الزكاة الواجبة بناء ، على أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، أو هى زكاة الفطر ، أو مطلق انفاق على أن السورة مكية ـ وأقرضوا الله قرضا حسناً ، فالله غنى قادر سيجازيكم على الدرهم عشراً ، بل ربما ضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، فأقرضوه يكن خيراً لكم وأفضل ، وما تقدموا لأنفسكم من خير مطلقاً تجدوا ثوابه عند الله كاملا ، وتجدوه عند الله هو خيراً من العمل ، مهما كان صعباً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله على ما فرط منكم ، فإن من أمراض القلوب الرياء وحب السمعة ، وكثيراً ما كان ذلك فى الصدقة فاستغفروا الله مما يكون قد حصل ، إن الله غفور رحيم .

التفسـير

قوله تعالى : (إن هذه) أى السورة (تذكرة) أى يتذكر بها أولوا الألباب ، ولهذا قال تعالى : **﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾** أى ممن شاء الله تعالى هدايته ، كما قيده فى السورة الأخرى **﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيماً ﴾**[1] ثم قال تعالى : **﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾** .

أى تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ، لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال : **﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾** أى تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا **﴿ علم أن لن تحصوه ﴾** أى الفرض الذى أوجبه عليكم **﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾** أى من غير تحديد بوقت ، أى ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة الاسراء **﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾**[2] أى بقراءتك **﴿ ولا تخافت بها ﴾** وقد استدل أصحاب الامام أبى حنيفة ، ـ رحمه الله ـ بهذه الآية وهى قوله : (فاقرءوا ما تيسر من

---

(١) سورة الانسان آية : ٣٠

(٢) سورة الاسراء آية : ١١٠

القرآن ﴾ على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن »[(١)]

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو فى الصحيحين أيضا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[(٢)] وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج فهى خداج فهى خداج غير تمام »[(٣)] وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً « لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن »[(٤)]

وقوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ أى علم أن سيكون من هذه الأمة ، ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين لما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الأخبار ، بالمغيبات المستقبلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ أى قوموا بما تيسر عليكم منه ، قال ابن جرير ، حدثنا يعقوب حدثنا ابن عليه عن أبى رجاء محمد قال قلت للحسن ابن أبا سعيد ما تقول فى رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلى المكتوبة ، قال يتوسد القرآن لعن الله ذاك . قال الله تعالى للعبد الصالح : (وإنه لذو علم لما علمناه)[(٥)] وقال تعالى : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾[(٦)] قلت يا أبا سعيد قال الله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ قال نعم ولو خمس آيات ، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى ، أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن ، أن يقوموا ولو بشىء منه فى الليل ، ولهذا جاء فى الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه »[(٧)] فقيل معناه : نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل) وفى السنن « أوتروا يا أهل القرآن » وفى الحديث الآخر « من لم يوتر فليس منا »[(٨)] وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم .

وقال الطبرانى حدثنا أحمد بن سعيد فرقد الحداد حدثنا أبو أحمد محمد بن يوسف الزبيدى حدثنا عبد الرحمن عن محمد بن عبد الله بن طاوس من ولد طاوس عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس عن النبى ـ ﷺ : « فاقرءوا ما تيسر منه » قال « مائة آية » وهذا حديث غريب موجود فى معجم الطبرانى ـ رحمه الله تعالى[(٩)] .

---

(١) أخرجه البخارى جـ١ ص١٨٢ كتاب الصلاة باب وجوب القراءة للامام والمأموم .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٢ ص٢٥ كتاب أبواب الصلاة ـ باب ما جاء أنه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب رقم ٢٤٧

(٣) أخرجه مسلم جـ١ ص٢٩٦ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة رقم ٣٨/٣٩٥

(٤) أخرجه ابن خذيمة جـ١ ص٢٤٨ رقم ٤٩٠

(٥) سورة يوسف ية : ٦٨ (٦) سورة الانعام اية : ٩١

(٧) أخرجه مسلم جـ١ ص٥٣٧ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما روى فيمن نام الليل أجع حتى أصبح رقم ٢٠٥/ ٧٧٤

(٨) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٢ ص٣١٦ كتاب أبواب الصلاة ـ باب ما جاء أن الوتر ليس بختم رقم ٤٥٣ ، ٤٥٤ ـ وقال محققه أخرجه النسائى وصححه الحاكم .

(٩) أخرجه مجمع الزوائد عن ابن عباس جـ٧ ص١٣٠ تفسير المزمل وقال أخرجه الطبرانى . وفيه عبد الرحمن بن طاووس ولم أعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أى أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا دليل لمن قال أن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين الا بالمدينة ، والله أعلم .

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واجب من السلف ، إن هذه الآية نسخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » قال هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع »[١]

وقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعنى من الصدقات فان الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ .

أى جميع ما تقدموه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل ، وهو خير مما ابقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خثيمة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الحارث بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله : « أيكم ما له أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر »[٣] ورواه البخارى من حديث حفص ابن غياث والنسائى من طريق أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به ثم قال تعالى : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » أى أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها فانه غفور رحيم لمن استغفره .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٤١ كتاب الايمان باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الاسلام رقم ١١/٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٥

(٣) أخرجه الامام أحمد جـ ١ ص ٣٨٢

ســورة المدثر

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وياتها ست وخمسون فى عدّ العراقى والبزّى وخمس وخمسون فى عد المكى ، وكلماتها مائتان وخمس وخمسون وحروفها ألف وعشر .

المختلف فيها اثنان : (يتساءلون عن المجرمين) فواصل آياتها (رُدنها) على الدال آية : (ثم يطمع أن أزيد) .

سميت المدثر : لمفتتحها .

مقصود السورة : ـ أمر النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على (الكفار) وأهل العصيان ، وتهديد وليد بن المغيرة بنقض القرآن ، وبيان عدد زبانية النيران وأن كل أحد رهن بالاساءة والإحسان ، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان ، وذكر وعد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران فى قوله : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) .

المنسوخ فيها آية واحدة : (ذرنى ومن خلقت وحيداً) من آية السيف .

المتشابهات :

قوله : ﴿ إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ أعاد (كيف قدر) مرتين وأعاد (قدّر) ثلاث مرات ، لأن التقدير : إنه ـ أى الوليد ـ فكر فى شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتى به وقدر ماذا يمكنه أن يقول فيهما . فقال الله سبحانه : (فقتل كيف قدّر) أى القول فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ثم قتل كيف قدر) أى القول فى القرآن .

قوله : ﴿ كلاّ إنه تذكرة ﴾ أى تذكير وعدل إليها للفاصلة .

وقوله : ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ وفى عبس (إنها تذكرة) لأن تقدير الآية فى هذه السورة : إن القرآن تذكرة وفى عبس : إن آيات القرآن تذكرة وقيل : حمل التذكرة على التذكير لأنها بمعناه .

فضل السورة :

فيه الحديث الضعيف عن أُبَى : من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة وحديث علىّ : يا علىّ من قرأها أعطاه الله ثواب المتحابين فى الله وله بكل آية قرأها مائة شفاعة(١) .

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

معانى المفردات

(المدثر) : ـ لابس الدثار وهو ما فوق الشعار الذى يلبس فوق الجسد مباشرة .
(وثيابك) : المراد قلبك ونفسك .
(الرجز) : ـ هو العذاب والمراد هنا أسبابه .
(نقر فى الناقور) : ـ نفخ فى الصور .
(لا تمنن) : ـ المراد لا تعط ، يقال : منّ الأمير على فلان إذا أنعم عليه وأعطاه .

أضـواء كاشـفة

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أول اتصاله بالوحى ولقائه له ، يتأثر بذلك كثيراً ، وكان يتزمل بعده ويتدثر ، حتى انقطع عنه الوحى حيناً ، ثم جاءه على شوق منه إليه ، وربما كان هذا التخلف ليهدأ روعه ، وتسكن نفسه ، ويتطلب تلك المناجاة الإلهية ، وقيل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كان يصيبه من أذى قومه ما يجعله يفكر فى مصيرهم ، ويعتزل مجتمعهم ، ويجلس متدثراً بدثاره فى بيته ، فجاءه الوحى يخصه على ترك العزلة وعلى التشمير للدعوة .

يا أيها المدثر الذى اشتمل بدثاره لمن لا يهمه أمر ، ولا يعنيه شأن ، والمستغرق فى أفكاره ، والمتهيب للقاء الوحى ، قم نشيطاً من مضجعك ، ولا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك ، فإن العناية الإلهية أعدتك لرسالة سامية خالدة ، ولنشر دين عام ، هو خاتم الأديان ، قم فأنذر الناس بذلك الدين ، وخوفهم عاقبة الكفر به ، هذه الرسالة التى كلف النبى بها ، والتى جاءت لتهدى الناس إلى الطريق الحق ، وتجعلهم يعبدون الله الواحد الأحد بعد الأصنام والأوثان ، والصاحبة والولد ، ليست بالأمر الهين السهل .

تصور أنك تحاول أن تقنع شخصاً بترك ما يعتقده وورثه عن آبائه ، لذلك أرشد الله نبيه إلى طريق النجاح فى تلك الدعوة الإسلامية ، وأنها لأسلحة جبارة لو استخدمت استخداماً صحيحاً ، لكسب صاحبها المعركة بلا شك وهى :

١ - « وربك فكبر » نعم مهما يكن من شيء فكبر ربك وحده ، ولا تشرك به غيره ، واختص ربك بالكبرياء والعظمة ، وخلص عقلك من أوهام الشرك وعبادة مالا ينفع بل يضر .

٢ - « وثيابك فطهر » تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال ، ولذلك قالت العرب : فلان طاهر الثوب ، أو نقي الثياب ، أو طاهر الجيب ، يريدون بذلك وصفه نفسه بالنقاء من المعايب وسيء الأخلاق ، ولا غرابة في ذلك ، فالثياب مما يلازم الإنسان في جميع أدوار حياته ، وقد يطلقون الثياب ويريدون ذات النفس أو القلب وعليه قول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

وعلى ذلك فالمراد بالآية تحرير نفسه الشريفة من سيء الأخلاق ، ورديء العادات ، بحيث يكون صبوراً قويّ الهمة ، عظيم النفس ، متحليا بالمثل العليا .

٣ - « والرجز فاهجر » أي اترك كل ما يؤدي بك إلى العذاب من المعاصي والآثام ، وحرر جوارحك من كل ما يغضب ربك :

ألست معي في أن هذه الكلمات ، جمعت أمهات الفضائل ، لتحرير العقل من ربقة الشرك ، وتقويم النفس بكريم الخلق ، وإصلاح البدن بهجر المآثم والمحارم .

وهذه الأوامر للنبي ، ليس معناها أنه يفعل ضدها لا : بل هو من باب « فاستقم كما أمرت »[1] أي دُم على ما أنت عليه من عبادة الواحد الأحد ، ومن تحلي نفسك بالخلق الشريف ، ومن هجرك لكل ما يغضب الله .

٤ - أرباب الدعوات ، وأصحاب الرسالات ، لابد فيهم من أخلاق وصفات ، مضى ذكر بعضها ، وهنا يشير القرآن إلى صفة مهمة ، تستحق الإفراد بالذكر وهي : الجود وعدم البخل ، واستكثار العطاء ، فإن البخل وشح النفس ، ممن ينفر الناس عن صاحب الدعوة ، حقيقة الجود مما يدخل في قوله تعالى : (وثيابك فطهر) ولكنه خص بالذكر ، لأثره المهم في جذب قلوب الناس فحقاً صدق الله « ولا تمنن تستكثر » أي لا تعط عطاء مهما كان كثيراً وأنت تقدر في نفسك أنه كثير ، بل أعتقد أنه قليل وأعط عطاء من لا يخاف الفقر بحال .

٥ - « ولربك فاصبر » أي إذا كان الأمر كذلك ، وقد قمت بالواجب عليك ، واتبعت نصائح ربك ثم وجدت من قومك إعراضاً وتكذيباً وإيذاء ، فاصبر لأجل ربك ، ولتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فإن الصبر هو عدة المسلم ، وطريق الوصول إلى ما يريد .

قم يا محمد فأنذر وبلغ رسالة ربك كلها ، وإن لم تفعل هذا فما بلغت رسالته ، والله عاصمك من الناس ، فإذا أبوا إلا التكذيب ، فاعلم أن وراءهم يوماً ثقيلاً ، يوماً عبوساً قمطريراً ، فإذا نقر في الناقور ، ونفخ في الصور ، فذلك يومئذ إذ يحصل هذا يوم عسير جداً ، شديد على الكافرين غير يسير .

---

(١) سورة هود آية : ١١٢

التفسير

ثبت فى صحيح البخارى من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن جابر أنه كان يقول أول شىء نزل من القرآن (يا أيها المدثر) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾[١] ، إلخ ، قال البخارى حدثنا وكيع عن على بن المبارك ، عن يحيى ابن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يا أيها المدثر) قلت يقولون : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً فرفعت رأسى ، فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على ماء بارداً - قال - فدثرونى وصبوا على ماء باردا - قال : فنزلت ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر ﴾[٢] .

هكذا ساقه من هذا الوجه وقد رواه مسلم من طريق عقيل ابن شهاب عن أبى سلمة ، قال أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئث منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت زملونى فزملونى فأنزل ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر - إلى - فاهجر ﴾[٣] ، قال أبو سلمة والرجز الأوثان - ثم حمى الوحى وتتابع هذا لفظ البخارى وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقيض أنه قد نزل الوحى مثل هذا لقوله : (فإذا الملك الذى كان بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[٤] ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ليث حدثنا عقيل عن ابن شهاب قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ثم فتر الوحى عنى فترة فبينا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئث منه فرقا حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم زملونى زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ﴾ ثم نزل الوحى وتتابع ، أخرجاه من حديث الزهرى[٥] وقال الطبرانى حدثنا محمد

---

(١) سورة العلق الآيات : ١-٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٣ ص ٢٠٩ كتاب التفسير باب تفسير المدثر أنظر توضيح مسلم جـ١ ص ١٤٤ كتاب الإيمان باب بدء الوحى رقم ١٦١/٢٥٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص١٤٣ كتاب الإيمان باب بدء الوحى رقم ١٦١/٢٥٥

(٤) سورة العلق الآيات : من ١-٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ٤ ص٤٤٠

ابن على بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر البجلى ، حدثنا المعافى بن عمران عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **قم فأنذر** ﴾ أى شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة (وربك فكبر) . أى عظم .

وقوله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال الأصلح الكندى عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية (وثيابك فطهر) قال لا تلبسها على معصية ولا على غدرة ، ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى .

فإنى بحمد الله لا ثوب فاجر   لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال فى كلام العرب نقى الثياب وفى رواية بهذا الإسناد فطهر من الذنوب ، وكذا قال إبراهيم والشعب وعطاء وقال الثورى عن رجل عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال من الإثم وكذا قال إبراهيم النخعى ، وقال مجاهد : (وثيابك فطهر) قال نفسك ليس ثيابه ، وفى رواية عنه (وثيابك فطهر) أى عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين وقال فى رواية أخرى (وثيابك فطهر) أى لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا ، وقال قتادة : (وثيابك فطهر) أى طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية وقال الشاعر :

وإذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

وقال العوفى عن ابن عباس : (وثيابك فطهر) يعنى لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ويقال لا تلبس ثيابك على معصية ، وقال محمد بن سيرين : (وثيابك فطهر) أى اغسلها بالماء ، قال ابن زيد كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه ، وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال أمرؤ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقال سعيد بن جبير : (وثيابك فطهر) وقلبك ونيتك فطهر .

وقال محمد بن كعب القرطبى والحسن البصرى : وخلقك فحسن .

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٠

وقوله تعالى : (والرجز فاهجر) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس والرجز وهو الأصنام فاهجر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة الزهوى وابن زيد : إنها الأوثان ، وقال ابراهيم والضحاك : (والرجز فاهجر) أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشىء من ذلك ، كقوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قال ابن عباس لا تعط العطية تلتمس أكثر منها ، وكذا قال عكرمة ، ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وابراهيم النخعى والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ (ولا تمنن أن تستكثر) وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير ، وقال خصيف عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قال لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ، عليه عوضاً من الدنيا ، **فهذه** أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ، **قاله مجاهد** ، وقال ابرهيم النخعى اصبر عطيتك لله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد (الناقور) الصور ، قال مجاهد : وهو كهيئة القرن ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أسباط ابن محمد عن مطرف عن عطية العوفى عن ابن عباس (فإذا نقر فى الناقور) فقال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟) فقال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا) وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن ابن فضيل وأسباط كلاهما عن مطرف به .

ورواه من طريق أخرى عن العوفى عن ابن عباس به[٣]

وقوله تعالى : ﴿ **فذلك يومئذ يوم عسير** ﴾ أى شديد (على الكافرين غير يسير) (على الكافرين غير يسير) أى غير سهل عليهم كما قال تعالى : ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾[٤] . وقد روى عن زرارة ابن أوفى قاضى البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾ شهق شهقة ثم خر ميتاً ـ رحمه الله تعالى ـ

---

(١) الأحزاب الآية : ١
(٢) الأعراف الآية : ١٤٢
(٣) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص ٣٢٦ مسند عبد الله بن عباس .
(٤) القمر الآية : ٨

مصير زعماء الضلال

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

معاني المفردات

(ذرني) دعني واتركني .
(ممدوداً) : مبسوطاً موسعاً .
(شهوداً) : حضوراً لا يفارقونه .
(مهدت تمهيداً) : بسطت له الدنيا بسطاً .
(كلا) : كلمة روع وزجر .
(عنيداً) : معانداً لها ومكابراً .

(سأرهقه صعوداً) : سأكلفه وأحمله عذاباً شاقاً صعباً كصعوبة من يحاول صعود جبل صعب .
(قدر) : هيأ الأمر فى نفسه ودبره .
(عبس وبسر) : العبوس تقلص عضلات الوجه أو الحاجبين عند ألم أو حزن .
والبسور أشد من من العبوس .
(سقر) : اسم من أسماء جهنم وهو من سقرته الشمس إذا لوحته وآمته .
(فتنة) : ابتلاء واختباراً .
(ولا يرتاب) : ولا يشك .
(مرض) : شك ونفاق .
(مثلا) : المثل هو القول السائر على ألسنة الخلق ويكون فى أمر عجيب وشأن خطير والمراد أن عدة الخزنة أمر عجيب كالمثل .
(جنود ربك) : أنصاره وأعوانه والمراد هنا صنف من الخلق .
(ذكرى للبشر) : موعظة وعبرة .

أضـــواء كاشـــفة

لقد رسم الله سبحانه وتعالى الخطوط لنجاح الدعوة المحمدية باستكمال العقل وتحرره من الشرك ، وباستكمال النفس بالخلق الكامل والمثل العليا ، وتطهير الجوارح بالبعد عن المعاصى والمحارم ، ولقد ذكر صنفين لهما وضع خاص ، هما الجود والصبر ، وبعد ذلك بين ما يلاقيه الكفار يوم القيامة ، ثم أراد أن يشجع الرسول على التبليغ ، فذكر أحد زعماء الشرك وتوعده الشعر التى هى لواحة للبشر ، هذه هى دعائم نجاح الرسول فى ذعوته ، وتلك سنة الله فى الدعوات كلها ، لا يستقيم لها أمر إلا بهذا ، ذرنى ومن خلقت وحدى بلا شريك معى ، اتركه لى وثق أنى قادر عليه ، فقد خلقته وحيداً ، لا مال له ، ولا ولد ، ولا حول له ولا قوة ، حتى إذا أنعمت عليه بالمال والولد ، قام يكفر بى ويكذب رسلى ، لقد مهدت له الدنيا ووسعتها عليه توسيعا ، ثم بعد ذلك يطمع أن أزيده من نعمى ، أو ثم يطمع أن أزيده كلا إنه كان لآياتنا القرآنية معانداً ومكابراً ، وماذا يكون جزاؤه ؟ سأرهقه صعوداً أى سأحمله من العذاب نوعاً شاقاً عليه تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل فى طريق وعر ، وكأن سائلاً سأل كيف كانت حالته فى معاندة الآيات حتى استحق هذا العذاب ؟ فأجيب : إنه فكر فيها وقدر ، وهيأ فى نفسه أمراً وأجل فيها رأيا بقوله ليرضى الباطل وأهله .

فقتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ وهذا كما يقولون : قاتله الله ما أشجعه فى معرض التعجب والاستعظام مدحاً للشخص للذى يقولون فيه هذا الكلام ، وكأنه بلغ حداً يجعل حساده يقولون له هذا ، ثم شاع هذا الاستعمال وحرّف نوعاً ما ، حتى صار يقوله كل معجب بشخص أو كل محب له ، أما العبارة فى الآية فليس المقصود منها المدح إنما هى للتعجب المشوب بالذم ، أو المدح الذى فيها للتهكم

والاستهزاء ، ثم بعد أن فكر وقدر نظر فى جمهور الندى نظر المفكر الساهم ، ثم قطب وجهه وقلص عضلات حاجبيه واشتد ذلك التقطيب . متهيئاً للكلام والحكم القطعى فى شأن الرسول والقرآن ، ولما كان قوله محض افتراء ونهاية الاعراض عن الحق والإيمان ، وكان ناشئاً عن كبر وغمط للحقوق عبر عنه القرآن بقوله : « ثم أدبر واستكبر » فماذا قال ؟ قال : إن هذا الكلام الذى سمعته ما هو إلا سحر يؤثر عن السحرة من البابليين والأشوريين والمصريين ، ثم أكبر رأيه بأنه سحر معروف وليس من كلام الله بقوله : ما هذا إلا مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية . ما جزاء هذا ؟ سأرهقه صعوداً ، سأصليه سقراً . وما أدراك ؟ ما سقر ؟ أى أىّ شىء أعلمك ؟ ما سقر ؟ وهذا استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر فيها المفكر ، لا يمكنه أن يعرف من أمرها إلا ما عرفه الوحى من أنها لا تبقى على شىء يلقي فيها إلا أهلكته ، ولا تذر أحداً من الفجار يفلت منها وهى لواحة للبشر ، تجعل أجسامهم قطعاً سوداً متغيرة ، عليها تسعة عشر ، وهم خزنتها الموكلون بخدمتها وهل هم تسعة عشر ملكاً أو صنفاً أو صفاً أو نقيباً الله أعلم بذلك كله وليس لنا أن نبحث فى ذلك بل ندع الأمر إلى الله وخاصة بعد قوله تعالى : ﴿ ما أدراك ما سقر ؟ ﴾ على أن المخاطب بذلك سيد البشر ز وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة أى ليسوا بشراً وهذا رد على من قال : سأكفيكم أمر سبعة عشر فأكفونى أمر الأثنين وعلى قول أبى جهل لما سمع هذه الآية لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء ؟! فيرد الله عليهم ، ليس هؤلاء بشراً ، بل هم ملائكة ، فاسألوا عنهم عاداً وثمود وأهل قرى قوم لوط ، فإنهم يعرفون الملائكة وقوتهم . وما جعلنا عدتهم ـ تسعة عشر ـ إلا ابتلاء واختباراً للناس وكانت فتنة وضلالاً وإعراضاً ، أما المؤمنون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين وأهل الكتاب ، فازدادوا يقيناً على يقينهم ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، بل هم متيقنون ، وكان ذلك ليقول الذين فى قلوبهم شك ونفاق كالمنافقين ، وليقول الكافرون بالوحى : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ أى ماذا أراد الله بهذا القول ـ عدتهم تسعة عشر ـ الذى يشبه المثل فى الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر .

مثل ذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ممن أراد لهم بذلك ، لأنهم على استعداد للخير أو للشر ، وقد ساروا بمحض إختيارهم فى أحد السبيلين ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، نعم لا يعلم خلقه إلا هو وجنود ربك ، التى هىوسائط فى تنفيذ إرادته وأحكامه من الأمور الغيبية التى نؤمن بها فقط .

وما سقر ووصفها بهذا إلا ذكرى وموعظة للبشر ، فيخافون ربهم ويبتعدون عن عقابه وعذابه ، أما حقيقتها فشىء لا يعلمه إلا الله .

يكاد المفسرون يجمعون على أن قصة التهديد السابقة نزلت فى الوليد بن المغيرة ، فإنه كان كثير المال والولد ، عظيم الجاه قوى النفوذ ، فيروى أن بساتينه كانت ممتدة بين مكة ، والطائف لا ينقطع لها ثمر ، وكان له عشرة أولاد ، يحضرون مجلسه لكبر سنهم ورجاحة عقولهم ، ويقيمون معه لا يغادرون مكة لغناهم وثرائهم ، ولما اشتد الأمر ورأى زعماء الشرك أن دعوة النبى محمد ـ صلى الله عليه ولسم ـ آخذة فى الانتشار ، وأن محمداً سيجتمع بوفود العرب وسيكلمهم فى الإسلام ، اجتمعوا للتشاور فيما يقولون ليردوا

به العرب عن الإسلام ، فقال قائل نقول : إنه شاعر ، وقال آخر : لا إنه كاهن وقال ثالث : لا . إنه مجنون وقال رابع : لا إنه كذاب ! كل هذا والوليد يسمع ولا يتكلم فقالوا له : مالك لا تتكلم ؟ فقال لقد سمعت محمداً يقرأ كلاماً ما هو بكلام الإنس ولا الجن ، وإن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما يقول هذا بشر فكان لهذا الكلام وقع شديد على المجتمعين ، وقالوا لقد صبأ الوليد - أى ترك دين آبائه وأجداده ولتصبأن معه قريش . فخرج الوليد وتفرق الجمع وكلهم حزن أسيف . ولكن أبا جهل ذهب لدار الوليد يحتال عليه ، وأخذ يكلمه بكلام يثير فيه الحمية الجاهلية ، والنخوة المادية فقال له : لقد تركنا قريشاً تجمع لك مالاً حتى تكفيك تعرضك لمحمد وماله فقال الوليد : لقد علمت قريشاً أنى من أكثرها مالاً فهل أنا محتاج لكسر محمد اليتيم ؟! قم بنا إلى دار الندوة ولأتولن كلاماً أصحح به وضعى . اجتمع الناس فقال الوليد : إن محمداً ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب وأنتم تعلمون هذا ولا سبيل إلى إنكاره ، فقالوا له : فماذا نقول عنه إذاً يا عبد شمس ؟ - ولقد وصف القرآن الوليد فى تلك اللحظة الرهيبة وصفاً دقيقاً جداً - فقال : إن الوليد فكر وقلب وجوه الرأى فيما يقوله ، وقدر الرأى وقلبه على وجوهه ، ثم قاطعه الوحى بقوله « قتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » معجباً من أمره ناعياً عليه سوء فعله ثم نظر الوليد فى القوم بعد تفكيره ثم عبس وبسر أى قطب حاجبيه تغظيباً شديداً وقال لهم : قولوا : إنه ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، ففرحت قريش بذلك فرحاً شديداً واغتم النبى صلى الله عليه وسلم وحزن ورجع إلى بيته وتدثر بدثاره وجلس فكانت هذه السورة ، وأمره الله أن يدع الوليد ومن على شاكلته فالله يكفيكه فى الدنيا ، وليعذبنه عذاباً شديداً فى الآخرة بنار هى سقر تسوِّد الوجوه ، وتشوى اللحم .. إلخ ما فى الآيات .

التفسـير

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث : الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفراً ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حين قال تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ أى خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى (مالاً ممدوداً) أى واسعاً كثيراً ، قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضاً يشغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له بنين شهوداً ، وقال مجاهد لا يغيبون أى حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ، ويتجلى بهم ، وكانوا فيما ذكر السدى وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة ثلاثة عشر وقال بن عباس ومجاهد كانوا عشرة ، وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده (ومهدت له تمهيداً) أى مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك (ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) أى معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم قال الله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا حسن على أبى سعيد عن رسول الله - صلى الله

عليه وسلم ـ قال : (ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل من نار ستصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به كذلك فيه أبداً)[1] .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن الحسن بن موسى الأشيب به ، ثم قال غريب لا تعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج كذا قال : وقد رواه ابن جرير عن يونس عن عبد الله ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج وفيه غرابة ونكارة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة وعلى ابن عبد الرحمن المعروف بعلان المقرى قال حدثنا منجاب أخبرنا شريك عن عمار الدهنى عن عطيه العوفى عن أبى سعيد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سأرهقه صعوداً) قال : « هو جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت »[2] .

ورواه البزار وابن جرير من حديث شريك به وقال قتادة عن ابن عباس صعوداً : صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه وقال السدى صعوداً صخرة ملساء فى جهنم يُكلف أن يصعدها وقال مجاهد « سأرهقه صعوداً » أى مشقة من العذاب وقال قتادة عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدّر ﴾ أى إنما أرهقناه صعوداً أى قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أى تروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر كيف يختلق من المقال (وقدر) أى تروى (فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر) وعاد عليه (ثم نظر) أى أعاد النظر والتروى (ثم عبس) أى قبض بين عينيه وقطب (وبسر) أى كلح كره ومنه قول توبة ابن حمير :

وقد رابنى صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتى وبسورها

وقوله : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى هذا ليس كلام الله ، وهذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش ـ لعنه الله ـ وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى عن ابن عباس قال دخل الوليد بن المغيرة عن أبى بكر ابن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش ، فقال يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا والله لئن صبأ الوليد لتصبئن قريش فلما سمع بذلك أبو جهل من هشام قال أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد ألم تر إلى قومك ؟ قد جمعوا لك الصدقة فقال ألست أكثرهم مالاً وولداً فقال له أبو جهل يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد أقد تحدث به عشيرتى فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ولا عمر ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ـ إلى قوله ـ لا تبقى ولا تذر ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال والله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأنه ليعلوا وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر فأنزل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير جـ٤ ص٤٤٢ فى تفسير سورة المدثر .

﴿ فقتل كيف قدّر ﴾ الآية (ثم عبس ويسر) قبض ما بين عينيه وملح ، وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال أى عن إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال لم قال يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أنى أكثرها مالاً ، قال قل فيه قولاً يُعلِمُ قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له ، قال : فماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، وقال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعنى حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - تسعة عشر ﴾ وقد ذكر محمد ابن اسحاق وغير واحد نحواً من هذا وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يُقدم عليهم وفود العرب للحج يصدوهم عنه فقال قائلون : شاعر وقال آخرون ؛ ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال قائلون : شاعر ، وقال آخرون : ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾(١) كل هذا والوليد يكفر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ونظر وعبس وبسر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر .

قال الله تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ أى سأغمره فيها من جميع جهاته ثم قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم تبدّل غير ذلك وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحييون ، قاله ابن بريدة وأبو سفيان وغيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال مجاهد أى للجلد وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد ابن أسلم : تلوح أجسادهم عليها ، وقال قتادة (لواحة للبشر) أى حرّاقة للجلد ، وقال ابن عباس : تحرق بشدة الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى من مقدمى الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم ، وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة إبراهيم بن موسى حدثنا أبى زائدة أخبرنا حارث عن عامر عن البراء فى قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن خزنة جهنم فقال الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ (عليها تسعة عشر) فأخبر أصحابه وقال (أدعهم أما إنى سائلهم عن تربة الجنة إن أتونى إما أنها دور مكة بيضاء) فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية ثم قال : (أخبرونى عن تربة الجنة ، فقالوا أخبرهم يا ابن سلام فقال كأنها خبزة بيضاء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أما إن الخبز إنما يكون من الدرمك)(٢) .

هكذا وقع عند ابن أبى حاتم عن البراء والمشهور عن جابر ابن عبد الله ، قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا منده حدثنا أحمد بن عبيدة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم حدثنا سفيان عن

---

(١) الإسراء آية : ٤٨

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤

مجالد عن الشعيب عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد : غلب أصحابك اليوم فقال (بأى شىء) قال سألتهم يهود وهل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - ؟ على بأعداء الله لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » فأرسل إليهم فدعاهم قالوا يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : (هكذا) وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة - وقال لأصحابه (إن سألتم عن تربة الجنة هى الدرمك) فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ما تربة الجنة) فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : أخبره يا أبا القاسم فقال : (الخبز من الدرمك) وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبى عمر عن شيبان به وقال هو والبزار لا يعرف من حديث مجالد وقد رواه الإمام أحمد عن على بن المدينى عن سفيان بنقصه الدرمك فقط[1] .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى خزنتها (إلا ملائكة) أى زبانية غلاظا شداداً ، وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل يا معشر قريش : أما تستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل أن أبا الأشدين واسمه كلده بن أسيد بن خلف قال يا معشر قريش : اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم خمسة عشر ، إعجاباً معه بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون ، كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه .

قال الهيلى وهو الذى دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مصارعته ، وقال إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى - صلى الله عليه وسلم - مراراً فلم يؤمن ، قال وقد نسب ابن إسحق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وقد قيل : أنه لا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أى يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

وقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض) أى من المنافقين (والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) أى يقولون ما الحكم فى ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى من مثل هذا وأشباهه ، يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ - أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين الذين

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٤

سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة (فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[١] وقال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا إسرائيل عن إبرايهم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى »[٢] ، فقال أبو ذر لوددت أنى شجرة تورق ، ورواه الترمذى وابن ماجة من حديث إسرائيل وقال الترمذى حديث حسن غريب ويروى عن أبى ذر موقوفاً وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين ابن عرفة المصرى حدثنا عروة بن مروان الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو وعن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »[٣] وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة حدثنا عمر بن زرارة أخذنا عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا ما نسمع من شىء فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد »[٤] .

وقال أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى حدثنا عبيد ابن سليمان الباهلى سمعت الضحاك بن مزاحم يحدث عن مسروق بن الأجدع عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة (وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) . وهذا مرفوع غريب جداً ثم رواه عن محمود بن آدم عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم ثم قرأ (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون)[٥] .

ثم قال حدثنا أحمد بن بشار حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه حدثنا المغيره

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٦٢/٢٥٩

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٥ ص ١٧٣

أنظر الترمذى فى جـ ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب فى قول النبى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا رقم ١٣١٢

أنظر ابن ماجة فى كتاب الزهد باب الحزن والبكاء .

(٣) أخرجه ابن ماجة كتاب الهد باب الحزن والبكاء

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

ابن عمر بن عطية من بنى عمرو بن سوف حدثنى سليمان بن أيوب عن سالم بن عوف حدثنى عطاء بن زيد ابن مسعود من بنى الحكم حدثنى سليمان بن عمرو بن الربيع من بنى سالم حدثنى عبد الرحمن بن العلاء من بنى ساعدة عن أبيه العلاء بن سعد وقد شهد الفتح وما بعده أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا وما تسمع يا رسول الله ؟ قال « أطت السماء وحق لها أن تئط إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد وقالت الملائكة (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون)[1] ثم قال حدثنا إسحق بن محمد بن اسماعيل العدوى حدثنا عبد الملك بن قدامة عن عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن عبد الله بن عمر أن عمر جاء والصلاة قائمة وتقر ثلاثة جلوس أحدهم أبو جحش الليثى فقال قوموا فصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه سلم - فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم وقال لا أقوم حتى يأتى رجل هو أقوى منى ذراعيه وأشد منى بطشاً ، فيصرعنى ثم يدس وجهى فى التراب قال عمر فصرعته ودسست وجهه فى التراب فأتى عثمان بن عفان فحمزنى عنه فخرج عمر مغتصباً حتى انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه سولم - : فقال « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » فذكر له ما كان منه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن رضى عمر رحمه الله على ذلك لوددت أنك جئتنى برأس الخبيث فقام عمر فوجه نحوه فلما أبعد ناداه فقال « اجلس حتى أخبرك بغناء الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبى جحش إن الله تعالى فى السماء الدنيا ملائكة خشوع لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا ربنا ما عبدناك حق عبادتك وإن لله فى السماء الثانية ملائكة سجود لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رءوسهم وقالوا سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر وما يقولون يارسول الله ؟ فقال « أما أهل السماء الدنيا فيقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأما أهل السماء الثانية فيقولون سبحان ذى العزة وأما أهل السماء الثالثة فيقولون سبحان الحى الذى لا يموت فقلها ياعمر فى صلاتك ، فقال عمر يارسول الله فكيف بالذى كنت علمتنى وأمرتنى أن أقوله فى صلاتى ؟ فقال « قل هذا مرة وهذا مرة »[2] وكان الذى أمره به أن يقوله « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك » هذا حديث غريب جداً بل منكر نكارة شديدة وإسحاق المروزى روى عنه البخارى وذكره ابن حبان فى الثقاب وضعفه أبو داود والنسائى والقصيلى والدارقطنى وقال أبو حاتم الرازى كان صدوقا إلا أنه ذهب بصره فربما لقن وكتبه صحيحه وقال مرة هو مضطرب وشيخه عبد الملك بن قدامه أبو قتاده الجمحى تكلم فيه أيضاً والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ولا عرف بحاله ولا تعرض لضعف بعض رجاله غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلاً بنحوه ، ومن طريق أخرى عن الحسن البصرى مرسلاً قريبا منه ثم قال محمد بن نصر حدثنا محمد بن عبد الله بن مهراد أخبرنا النقد عباد بن منصور قال سمعت عدى ابن ارطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال سمعت رجلا من أصحاب النبى قال « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وإن منهم ملائكة

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٦

ركوعا لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » وهذا إسناد لا بأس به[١]

وقوله تعالى : ﴿ وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾ قال مجاهد وغير واحد (وما هى) أى النار التى وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ .

مبحث فى رحاب قوله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾

عالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة

وكما سبق أن تناولنا عالم الجن بالتفصيل والبيان الشامل كما جاء على لسان العلماء ، وكان ذلك مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله فإننا هنا نتناول عالم الملائكة المكرمين تناولاً مفصلاً ، كما جاء فى كتاب الله تعالى ، وكما ورد فى سنة نبيه ﷺ نقول وبالله التوفيق .

يقول الشيخ « عمر سليمان الأشقر » فى كتابه « عالم الملائكة الأبرار فى ضوءالقرآن والسنة » :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة عالم من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .

وقد بسطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع ، وبنيت جوانبه ، ومن طالع هذه النصوص فى هذا الجانب ، يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً ، وليس فكرة غامضة ، وهذا مما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الاجمالية ، وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح فى هذا الموضوع ، إلا لأن العقل الإنسانى لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة وتسمع أحاديثهم ، ولا شك أن هذا العجز فى صلح الإنسان ، فلوكان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به ، لما أطاق الحياة ، وحسبنا أن نتصور أن إنسانا تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات لنعلم البلاء الذى يحل بهذا المسكين ، الذى لابدَّ أن يصاب بالذهول والجنون ولا يظن أحد أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ، فإن الحقائق التى تسوقها النصوص فى هذا الموضوع لها تأثير كبير فى نفى الخرافة والزيف عن العقول فى هذا الموضوع ، فقد انتشر منذ القديم بألوهية الملائكة أو أن الملائكة بنات الله ، ويرى بعض الفلاسفة أن الملائكة هم الأفلاك التى نراها فى الفضاء .

وهذه الحقائق التى جاءت بها النصوص تعمق فى نفوسنا الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود ، الذى وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون وعلاقة الملائكة بنا تكوينا وإيمانا

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٦

ومراقبة . . . توحى للإنسان بأهميته وقيمته وتنفى من فكرة القول بتناهية وحقارته ، وبذلك يقدر قدر نفسه ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذى عليه أن يقوم به .

ولو ذهبنا نعدد الآثار الطيبة التى يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة ودراسة النصوص التى تتحدث عنهم ، لطال القول فى هذه المقدمة ، إلا أننى أترك للقارىء أن يعيش مع النصوص ، فتمده - حين يتأمل فيها - بموجباتها وآثارها .

والله تعالى المسئول أن ينفع بهذا البحث وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

١ - صفات الملائكة وقدراتهم

سنحاول فى هذا الفصل أن نتبنى من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخلقية والخلقية ثم نتحدث عن القدرات التى وهبهم الله إياها .

الصفات الخَلْقية وما يتعلق بها

مادة الخلق :

عرفنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى ترويه عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنها وعن أبيها - أن المادة التى خلقوا منها هى النور فقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) رواه مسلم فى صحيحه(١)

ولم يبين لنا الرسول - ﷺ - أى نور هذا الذى خلقوا منه ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

وما روى عن عكرمة أنه قال : (خلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة) وما روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : (خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر) لا يجوز الأخذ به وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين ولعلهم قد اشتقوا من الاسرائيليات . (راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة/١٩٧) وأما ما ذكره ولى الله الدهلى فى الحجة البالغة (ص ٣٣) من (أن الملأ الأعلى) ثلاثة أقسام : قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوساً كريمه .

وقسم اتفق حدوث فراج فى النجارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض (أى الترك) للألوات البهيمية . وقسم هم نفوس إنسانية المآخذ من الملأ الأعلى مازالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم حتى طرحت عنها جلابيب أبدانها فانسلكت فى سلكهم وعثرت منهم . - فلا يوجد دليل صحيح على صحة هذا التقسيم - بهذا التفصيل والتحديد .

---

(١) أخرجه الامام مسلم جـ ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠/ ٢٩٩٦

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ؟ ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبى البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾**[١] والمراد بالخليفة آدم عليه السلام ، وأمرهم بالسجود له حين خلقه **﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾**[٢]

عظم خلقهم :

قال تعالى فى ملائكة النار : **﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾**[٣]

وسأكتفى بسوق الأحاديث التى تتحدث عن ملكين كريمين فحسب .

عظم خلق جبريل :

روى الإمام أحمد فى سُنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق . يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان) من الدر واليواقيت[٤]

وفى سنن الترمذى باسناد صحيح ، أن الرسول - ﷺ - قال فى جبريل : (رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض)[٥]

وقال فى وصفه : **﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴾**[٦]

والمراد بالرسول الكريم هنا : جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه .

عظم خلقه حَمَلة العرش

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أذن لى أن أحدِّث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)[٧]

ورواه ابن حاتم وقال : (تخفق الطير) قال محقق مشكاة المصابيح ، إسناده صحيح .

وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : (اذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش . رجلاه فى الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول : (أى الملك) : سبحانك حيث كنت)[٨]

---

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) الحجر آية : ٢٩

(٣) التحريم آية : ٦

(٤) أخرجه الامام أحمد : جـ ١ ص ٤٦ مسند عبد الله بن مسعود

(٥) مسلم : فى صحيحه جـ ١ ص ١٥٩ كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل « لقد رآه نزلة أخرى » رقم ٢٨٧ / ١٧٧

(٦) التكوير الآيات : ١٩ - ٢١

(٧) أخرجه أبو داود فى سننه جـ ٥ ص ٥٦ كتاب السنة - باب فى الجهمية رقم ٤٧٢٧

(٨) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١ ص ٨٠

للملائكة أجنحة

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك : ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1]

والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة ، بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك .

جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى فى جبريل : ﴿ **علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى** ﴾[2]

قال ابن عباس : ﴿ ذو مرة ﴾ ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن وقيل : ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، انظر إلى ما قالته النسوة فى حق يوسف الصديق عندما رأينه : ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾[3]

هل بين الملائكة والبشر شبه فى الشكل والصورة ؟

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه عن جابر رضى الله عنه قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها (صاحبكم يعنى نفسه)[4] فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحيه الكلبى ، أم هو بين الصورة التى يكون بها جبريل عندما يتمثل فى صورة بشر؟ الأرجح هو الأخير ، لأن جبريل كان يتمثل فى صورة دحيه كثيرا .

تفاوتهم فى الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة فى الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾[5] وقال فى جبريل : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين** ﴾ أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله .

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ، ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع : أن

---

(١) فاطر ١ : ١

(٢) النجم الآيتان ٥/٦

(٣) يوسف الآية : ٣١

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص١٥٣ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات رقم ٢٧١/١٦٧ (انظر الترمذى جـ٥ ص٥٦٤ كتاب المناقب باب فى صفة النبى ﷺ رقم ٣٦٤٩

(٥) الصافات اية : ١٦٤

جبريل جاء للنبى ﷺ فقال : ما تعدون من شهد بدراً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة)[١]

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

من أسباب ضلال بنى آدم فى حديثهم عن عوالم الغيب ، أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية ، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب فى مقال فى صحيفة سيارة ، من أن جبريل كان يأتى الرسول ـ « ـ بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول يحتاج إلى جواب من الله ، فكيف يأتى بهذه السرعة الخارقة ، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ، ليصل إلى بعض نجوم السماء .

وما درى هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة ، تحاول أن تقيس الطائرة بمقياسها الخاص ، لو تفكر فى الأمر لعلم أن عالم الملائكة لها مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنـ نحن البشر .

ولقد ضل فى هذا المجال مشركو العرب ، الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

وناقشهم القرآن فى هاتين القضيتين ، فبين أنهم ـ فيما ذهبوا إليه لم يعتمدوا على دليل صحيح ، وأن هذا القول قول متهافت ، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات ، وهم يكرهون البنات ، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتاً ، يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بشر به ، وقد يتعدى هذا المأفون طوره فيدس هذه المولودة فى التراب ، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد ، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع فى عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهى . استمع إلى الآيات التالية تحكى هذه الخرافة وتناقش أصحابها ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وانهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين** ﴾[٢]

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويسألون** ﴾[٣]

لا يأكلون ولا يشربون

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ؟ ص ١٠ كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدر ـ ط/ دار إحياء الكتب العربية

(٢) الصافات الآيتان : ١٤٩ ـ ١٥٦

(٣) الزخرف آية : ١٩

وشرابهم ، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاءوا إبراهيم فى صورة بشر ، فقدم لهم الطعام ، فلم تمتد أيديهم إليه ، فاوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم ، فزال خوفه واستغرابه : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فاوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم** ﴾[١] وفى آية أخرى قال : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[٢]

لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى فى وصف ملائكته : ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٣] ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفى الآية الأخرى ﴿ **فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ تقول العرب : سئم الشىء أى ملّه .

منازلهم

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾[٤] وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾[٥] وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت لهم ، ووكلت إليهم : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[٦] ويكثر نزولهم فى مناسبات خاصة ، كليلة القدر ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾[٧]

عددهم

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾[٨]

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم ، فاسمع ما قاله ﷺ فى البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : (فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[٩] رواه البخارى ومسلم وفى صحيح مسلم عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام

---

(١) الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨
(٢) هود آية : ٧٠
(٣) الأنبياء آية : ٢٠
(٤) الشورى آية : ٥
(٥) فصلت آية : ٣٨
(٦) مريم آية : ٦٤
(٧) القدر الآيتان : ٣ ، ٤
(٨) المدثر آية : ٣١
(٩) أخرجه البخارى ومسلم : مسلم جـ ١ ص ١٥٠ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوتن وفرض الصلاة رقم ٢٦٤/١.

سبعون ألف ملك يجرونها)[١] فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك . وإذا تأملت فى النصوص الواردة فى الملائكة التى تقوم على الانسان ـ علمت مدى كثرتهم ـ فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

أسماؤهم

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل وهنا بعض الآيات التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة :

١ ، ٢ ـ جبريل وميكائيل :

قال تعالى : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾[٢] وجبريل هو الروح الأمين المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾[٣] وهو الروح المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم** ﴾[٤] وهو الروح الذى أرسله إلى مريم : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾[٥]

٣ ـ إسرافيل :

ومن الملائكة إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ فى دعائه كلما استيقظ من الليل) (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم)[٦]

٤ ـ مالك :

ومنهم مالك خازن النار ﴿ **ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾[٧]

---

(١) أخرجه مسلم : جـ ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى شدة حر نار جهنم رقم ٢٦ / ٢٨٤٢

(٢) البقرة ا : ٩٧ / ٩٨

(٣) الشعراء الآية : ١٩٣ / ١٩٤

(٤) القدر آية : ٤

(٥) مريم آية : ١٧

(٦) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ رقم ٣٤٢٠ كتاب الدعوات باب ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل مسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، أبو داود فى كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء النسائى ، قيام الليل وتطوع النهار باب بأى شىء تستفتح صلاة الليل ابن ماجه فى كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

(٧) الزخرف آية : ٧٧

٥ - رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به فى بعض الأحاديث)

٦ ، ٧ - منكر ونكير :

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر .

٨ ، ٩ - هاروت وماروت

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾[1] ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس فى فترة من الفترات وقد نسجت حولهما فى كتب التفسير أساطير كثيرة ، لم يثبت شىء منها فى الكتاب والسنة ، فيكتفى فى معرفة أمرهما مادلت عليه الآية الكريمة .

عزرائيل :

وقد جاء فى بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ، ولا يوجد فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[2] وما ذكروه غير صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد : أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنهما اسمان للملكين .

* هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[3] فالملائكة تشملهم الآية لأنهم فى السماء ، يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً فى حديث الصور المشهود ، ثم يقبض أرواح الباقين ، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً وهو الباقى آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : لمن الملك اليوم ؟

---

(١) البقرة آية : ١٠٢

(٢) ق الآيتان : ١٧ / ١٨

(٣) الزمر آية : ٦٨

ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[١]

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور؟ هذا ما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخُلُقية

ـ الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدى سَفَرة ، كرام بررة ﴾[٢] أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة: لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسفر الذى يصلح بين القوم ، وقد وصف الله هؤلاء الملائكة بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خَلْقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران)[٣] أخرجه الجماعة

ـ استحياء الملائكة :

من أخبار الملائكة التى أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ بها : الحياء ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مضجعاً فى بيتها كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث . . ثم استأذن عثمان ، فجلس الرسول ـ ﷺ ـ وسوّى عليه ثيابه ، فدخل ، فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ، فلم تهش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : (ألا أستحى من رجل تستحيى منه الملائكة)[٤]

قُدراتهم

ـ قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾[٥] وإبراهيم عليه السلام ـ جاءته الملائكة فى صورة بشر ، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

---

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) عبس الآيتان : ١٥ ـ ١٦

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب فضائل الصحابة باب فضل عثمان رقم ٣٦/ ٢٤٠١

(٥) مريم الآيتان : ١٦ ـ ١٩

وجاءوا إلى لوط فى صورة شباب حسان الوجوه ، وضاق لوط بهم وخشى عليهم من قومه ، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب** ﴾[١]

يقول ابن كثير : (تبدى لهم الملائكة فى صورة شباب حسان امتحانا واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) وقد كان جبريل يأتى الرسول - ﷺ - فى صفات متعددة ، فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى (صحابى كان جميل الصورة) وتارة فى صورة اعرابى .

وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتى كذلك .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الاسلام ، وفى الحديث أنه سأله عن الايمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم .[٢]

ورأت عائشة الرسول واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبى يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - ذاك جبريل وهو يقرؤك السلام[٣]

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت فى منتصف الطريق إلى الأرض التى هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكَّموا فيه ملكاً جاءهم فى صورة آدمى ، يقول عليه السلام (فجاءهم الملك فى صورة آدمى ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا مابين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له) ولابد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك فى صورة ادمى[٤] .

- **عظم سرعتهم** :

أعظم سرعة يعرفها البشر هى سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل فى الثانية الواحدة .

أما سرعة الملائكة فهى فوق ذلك ، وهى سرعة لا تقاس بمقاييس البشر .

كان السائل يأتى إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى ، واليوم لو وجدت المراكب التى تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة فى آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

---

(١) هود اية : ٧٧

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان

أخرجه أبو داود كتاب السنة . باب فى القدر . والنسائى فى كتاب بالإيمان باب بعث الاسلام

أخرجه الترمذى جـ٥ ص٨ كتاب الإيمان باب ماجاء ف. وصف جبريل رقم ٢٦١٠ ماجه فى المقدمة بالإيمان

(٣) أخرجه مسلم جـ٤ ص١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فى فضل عائشة رقم ٩٠/ ٢٤٤٧

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم ٤٦/ ٢٧٦٦

- علمهم :

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ، ولكن ليس عندهم القدرة التى أعطيت للإنسان فى التعرف على الأشياء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾(١)

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشافه سنن الكون ، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذى علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الانسان ومن العلم الذى أعطوه علم الكتابة ، ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾(٢)

اختصام الملأ الأعلى

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ، ففى سنن الترمذى ومسند أحمد عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال : « أتانى الليلة ربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة ، فقال : يامحمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى ، حتى وجدت بردها بين ثديى ، فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض ، فقال : يامحمد : هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم ، فى الكفارات والدرجات » .

(والكفارات : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الاقدام الى الجماعات ، واسباغ الوضوء فى المكاره)

قال : صدقت يامحمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يامحمد إذا صليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفرلى وترحمنى وتتوب علىّ ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

والدرجات : افشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام .(٣)

قال ابن كثير فى هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعل يقظة فقد غلط)

وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فى قوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾(٤)

---

(١) البقرة الآيتان : ٣١ - ٣٢

(٢) التكوير الآيتان : ١٠ - ١٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، جـ ٤ ص ٦٦ انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٣٤٢ كتاب تفسير القرآن - سورة ص رقم ٣٢٣٣

(٤) سورة ص الآيتان : ٦٩/ ٧٠

فإن الاختصام المذكور فى الحديث قد فسره الرسول ﷺ والإختصام المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ...** ﴾[١] فالاختصام المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم ـ عليه السلام ـ وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

منظمون فى كل شئونهم

الملائكة منظمون فى عبادتهم وقد حثنا الرسول ـ ﷺ ـ على الاقتداء بهم فى ذلك فقال .

(ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قالا : (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف) رواه الجماعة « إلا البخارى »[٢]

وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن (جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) الحديث فى صحيح مسلم .

وفى يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾[٣]

ويقفون صفوفاً بين يدى الله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾[٤] والروح جبريل وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر ، فى صحيح مسلم وفى مسند أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (آتى باب الجنة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)[٥]

ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الاسرار إذ كان جبريل يستأذن فى كل سماء ولا يفتح له إلا بعد الاستفسار .

---

(١) سورة ص الآيات : ٧١/ ٧٤

(٢) أخرجه مسلم جـ١ ص٣٢٢ كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون فى الصلاة رقم ١١٩/ ٤٣٠

(٣) الفجر آية : ٢٢

(٤) النبأ آية : ٣٨

(٥) أخرجه مسلم جـ١ ص١٨٨ كتاب الإيمان ـ باب اختباء النبى ﷺ دعوة الشفاعة لأمته رقم ٣٣٤/ ١٩٨.

الفصل الثانى

٢ ـ عبادة الملائكة

نظرة فى طبيعة الملائكة

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ، ليست لديهم القدرة على العصيان ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[١]

فتركهم للمعصية ، وفعلهم للطاعة جبِلّة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم .

لعل هذا هو السبب ، الذى دعا فريقاً من العلماء إلى القول بأن الملائكة ليسو بمكلفين ، وأنهم ليسوا بداخلين فى الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسو بمكلفين بنفس التكاليف ، التى كلف بها ابناء آدم ، أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً ، فهو قول مردود ، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[٢] وفى الآية أنهم يخافون ربهم ، والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم : ﴿ **وهم من خشية ربهم مشفقون** ﴾[٣]

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة ، أنهم عباد الله ، ولكنهم مكرمون ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين فى أن الملائكة بنات الله ، دعوى باطلة ، لا نصيب لها من الصحة ، وقد أكذب الله القائلين لهذا القول ، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم فى اكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[٤] الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية ، قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط ، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون ، وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره ، فإن الله يعذبه جزاء تمرده .

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدى ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجيبون ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[٥] وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففى صحيح البخارى عن ابن عباس قال :

---

(١) التحريم آية : ٦
(٢) النحل آية : ٥٠
(٣) الأنبياء آية : ٢٨
(٤) الأنبياء الآيات : ٢٦ ـ ٢٩
(٥) الأنبياء آية : ٢٧

قال رسول الله ﷺ لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك وماكان ربك نسياً)[١]

نماذج من عبادتهم

الملائكة عباد الله ، مكلفون بطاعته ، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة ونورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

التسبيح

الملائكة يذكرون الله تعالى ، وأعظم ذكرهم التسبيح ، يسبحه تعالى حملة عرشه ، ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** ﴾[٢] كما يسبحه عموم ملائكته : ﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾[٣] وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٤]. ولكثرة تسبيحهم ، فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة ، وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ **وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون** ﴾[٥] وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر ، روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر ، قال سئل رسول الله ﷺ أى الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده)[٦]

صلاتهم

كان النبى ﷺ يحث أصحابه على الاقتداء بالملائكة فى الاصطفاف للصلاة : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال : (يتمون الصف الأول فالأول ويتراصون فى الصف) رواه البخارى[٧]

وفى القرآن عن الملائكة : ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾[٨] وهم يقومون ويركعون ويسجدون ، ففى

---

(١) مريم آية : ٦٤
(٢) غافر آية : ٧
(٣) الشورى آية : ٥
(٤) الأنبياء آية : ٢٠
(٥) الصافات الآيتين : ١٦٥/ ١٦٦
(٦) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٨٤/ ٢٧٣١
(٧) اخرجه البخارى :
(٨) الصافات آية : ١٦٥

شكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال :

(بينما رسول الله فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شىء ، قال : إنى لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)[٢]

حجّهم

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون اليها ، هذه الكعبة التى أسماها الله تعالى البيت المعمور ، وأقسم به فى سورة الطور ﴿والبيت المعمور﴾[٢]

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم[٣]) يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وَجَد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه بانى الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل) وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة ، أى فوقها لو وقع لوقع عليها ، وذكر أن فى كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة .

وهذا الذى ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب ، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة أن رجلاً قال لعلى : ما البيت المعمور ؟ فقال : (بيت فى السماء يقال له الضُّراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ولا يعودون فيها أبداً) .

خوفهم من الله وخشيتهم له

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة ، كان تعظيمهم له ، وخشيتهم له عظيمة ، قال الله فيهم : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾[٤]

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اراد الله أن يوصى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد) .[٥]

---

(١) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٣٢ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة

(٢) الطور آية : ٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الإيمان باب لإسراء برسول الله ﷺ رقم ٢٥٦ / ١٦٢

(٤) الأنبياء آية : ٢٨

(٥) أخرجه ابن عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٢٧

الفصل الثالث

٣ - الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

- سؤالهم عن الحكمة من خلق الانسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم ، أعلم ملائكته بمراده ، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك ، لأنهم علموا أنه سيقع من بنى آدم إفساد وسفك دماء ، وعصيان وكفر ، فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكم لا يعلمونها : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾[١]

- سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، حين يتم خلقه ، وتنفخ فيه الروح ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٢]

وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾[٣]

- توجيه الملائكة لآدم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله قال : (فزادوه ورحمة الله)[٤] متفق عليه

- غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفى آدم ، لم يعرف أولاده كيف يفعلون به ، فأعلمتهم الملائكة ، ففى مستدرك الحاكم ، ومعجم الطبرانى الأوسط . بإسناد صحيح عن أبىّ رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (لما توفى آدم ، غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم فى ولده)[٥]

---

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) ص الآيتان : ٧١/ ٧٢

(٣) الآيتان : ٧٣/ ٧٤

(٤) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢١٨٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رقم ٢٨/ ٢٨٤١

(٥) أخرجه : الحاكم فى مستدركه جـ٢ ص٤٤٥ كتاب التاريخ

وقد ثبت فى صحاح الحديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبى عامر الذى استشهد فى معركة أحد ، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد مقتل حنظلة : (إن صاحبكم تغسله الملائكة - يعنى حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب فقال رسول الله ﷺ (لذلك غسلته الملائكة)[١] رواه الحاكم والبيهقى فى السنن واسناده حسن .

الملائكة وبنى آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة ، فهم يقومون عليه عند خلقه ، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ، ويأتونه بالوحى من الله ، ويراقبون أعماله وتصرفاته ، وينزعون روحه إذا جاء أجله . وسنتناول ذلك بشىء من التفصيل والبيان :

- دورهم فى تكوين الانسان :

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا مرّ بالنطفة إثنين وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : أى ربِّ : ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك)[٢]

وفى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق : (إن أحدكم يجمع خلقه وهو فى بطن أمه أربعون يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد)[٣]

وفى الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكاً فيقول : (أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن امه)[٤]

- حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[٥] وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس ، أن المعقبات من الله هم الملائكة ، جعلهم الله ليحفظوا الانسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه ، خلوا عنه .

---

(١) أخرجه : الحاكم فى مستدركه جـ٣ ص٢٠٤

(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢٠٣٧ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ١/ ٢٦٤٥

(٣) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ١/ ٢٦٤٣

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٢٣٨ كتاب القدر رقم ٥/٢٦٤٦

(٥) الرعد الآيتان : ١٠/١١

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شىء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه)

وقال رجل لعلى بن أبى طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك ، فقال على : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة) .

والمعقبات المذكورة فى آية الرعد هى المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[1] فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتى أجله المقدر له .

- يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾[2]

وقال : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[3]

وقد يأتى بالوحى غير جبريل - وهذا قليل - كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبى - ﷺ - سمع نقيضات من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[4].

وفى التاريخ لابن عساكر باسناد صحيح عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتانى ملك فسلم على ، نزل من السماء لم ينزل قبلها ، فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[5] .

وفى مسند أحمد والترمذى والنسائى عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أما رأيت العارض الذى عرض لى قبيل ؟ هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، أستأذن ربه عز وجل أن يسلم على ، ويبشرنى أن الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[6] .

---

(١) الأنعام آية : ٦١

(٢) البقرة آية : ٩٧

(٣) الشعراء الآيتان : ١٩٣/ ١٩٤

(٤) أخرجه مسلم جـ١ ص٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين وقصورها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤/ ٨٠٦

(٥) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٤/ ٣١٧

(٦) أخرجه احمد فى مسنده جـ٥ ص٣٩١

وفى المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبى بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : « أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى ، فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقلت زدنى ، فقال : اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل ، استزده فقلت : زدنى ، كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف »[1] .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبى :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولاً أو نبياً ، فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم ، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها .

ورأى الصحابة جبريل فى صورة أعرابى ، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذى زار أخاً فى الله يبشره بأن الله يحبه لحبه أخيه . وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتى الوحى الرسول ﷺ ؟

سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه ، الرسول - ﷺ - فقال : « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟

فقال الرسول ﷺ :

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول »[2].

فجبريل كان يأتى الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو فى حالته الملكية ، وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية ، وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين ، مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « بينما أنا أمشى ، إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت ، فقلت : زملونى »[3] . والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء ، وهاتان المرتان مذكورتان فى سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٥ ص٤١ ، ١١٤ مشكل الآثار للطحاوى ١٨٩/٤ الأحاديث الصحيحة للالبانى ٨٤٣

(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص١٨١٧ كتاب الفضائل - باب عرق النبى ﷺ - فى البرد وحين يأتيه الوحى - رقم ٢٣٣٣/٨٧ .

(٣) أخرجه مسلم جـ ١ ص١٤٣ كتاب الايمان باب بدء الوحى رقم ١٦١/٢٥٥

نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ﴾[١] .

ـ لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى من الله تعالى ، فقد كان يأتيه فى كل عام فى رمضان فى كل ليلة من لياليه ، فيدارسه القرآن[٢] حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه .

ـ إمامته للرسـول :

وقد أم جبريل الرسول ، كى يعلمه الصلاة ، كما يريدها الله تعالى :

ففى صحيح البخارى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « نزل جبريل فأمنى فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس مرات »[٣] وفى مسند أحمد وسنن النسائى وأبى داود عن ابن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس ، وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد ، صلى بى الظهر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثليه ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء إلى ثلث الليل ، وصلى بى الفجر فأسفر . ثم التفت إلىَّ وقال : يا محمد : هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين »[٤] .

ولم يعلمه كيفية الصلاة عملياً وأوقاتها فحسب ، بل علمه الوضوء ، ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى ، فعلمنى الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه »[٥] .

ـ رقيته للرسول ﷺ :

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبرٰيل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم ، قال : بسم الله أرقيك ، من كل ما يؤذيك ، من شر كل ذى نفس ، وعين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك »[٦] .

---

(١) النجم الآيات : ٥ ـ ١٧

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٤ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٤) أخرجه البخارى بمعناه جـ ١ ص ١٣١ باب مواقيت الصلاة .

(٥) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع برقم ٢٧٠

(٦) أخرجه الترمذى جـ ٣ ص ٣٠٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢
كما أخرجه ابن ماجة ـ كتاب الطب باب ماعوذ منه النبى ﷺ رقم ٣٥٢٣

أعمال أخرى :

ومن ذلك أنه حارب مع الرسول فى بدر والخندق ، وصحب الرسول ﷺ فى الأسراء وغير ذلك .

ـ تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله لكل انسان قريناً من الملائكة ، وقريناً من الجن ، ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « مامنكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير »(١) ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله ، قيضه الله له ليهديه ويرشده .

وقرين الانسان من الملائكة ، وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم . وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)(٢) .

وانظر إلى الحديث التالى ، كى تعرف كيف يتسابق القرين الجنى ، والقرين الملكى على توجيه الانسان ، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : (ختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه النوم طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فاذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإذا قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد ما أماتها ، ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن نزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان رقم ٢٨١٤/٦٩

(٢) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٢٠٤ كتاب التفسير باب تفسير سورة البقرة رقم ٢٩٨٨

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه رقم ٢٣٦٢
الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤١٥

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الاكثار من الأعمال الخيرة ، التى تصلح نفوسنا ، وتقرب الملائكة منا ، ففى قرب الملائكة منا خير عظيم ، فقد (كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)[١] رواه البخارى عن ابن عباس .

ـ حفظ أعمال بنى آدم :

الملائكة موكولون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون** ﴾[٢] وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين ، لايفارقانه ، يحصيان عليه أعماله وأقواله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[٣] .

ومعنى قعيد أى مترصد ، ورقيب عتيد ، أى مراقب معد لذلك لايترك كلمة تفلت ، والظاهر أن الملائكة الموكلة بالانسان ، تكتب كل مايصدر عن الانسان من أفعال وأقوال ، لايتركون شيئا ، لقوله تعالى : ﴿ **مايلفظ من قول** ﴾ .

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل ماصدر منه ، ولذلك فان الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين : ﴿ **ياويلتنا ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[٤]

وفى مسند أحمد عن بلال بن الحارث المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت يكتب الله ـ عز وجل ـ له بها رضاءه الى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ولايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه** ﴾[٥] . فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ ثم قال : يا ابن آدم : بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة جـ ٤ ص ١٢٨ .
(٢) سورة الانفطار الآيتان : ١٠ ـ ١١
(٣) سورة ق الآيات : ١٦ ـ ١٨
(٤) سورة الكهف آية : ٤٩
(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب خ من تكلم بكلمة يضحك بها على الناس رقم ٢٣١٤

يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[1] .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ماتكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت . حتى اذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ماكان فيه من خير أو شر والقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾[2] .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين ، فلم يئن أحمد حتى مات ، رحمه الله .

ـ صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات

فى معجم الطبرانى باسناد حسن عن أبى أمامه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ﴿ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة ﴾[3] .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى : ﴿ يعلمون ماتفعلون ﴾[4]

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه ، يقول رسول الله ـ ﷺ ـ : (قال الله عزوجل : إذا هم عبدى بحسنة فلم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا)[5] .

وفى الحديث الآخر المتفق عليه أيضا : (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائى)[6] .

---

(١) سورة الاسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الرعد آية : ٣٩
(٣) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٢٠٧ ، الطبرانى فى المعجم الكبير جـ ٨ ص ٢١٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى/١٢٠٩
(٤) سورة الانفطار آية : ١٢
(٥) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة رقم ٢٠٤/١٢٨ب (٦) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١١٧ ، ١١٨ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٥/١٢٨

شـــبهة

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[(١)] .

فالجواب : أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى ، فهو وإن خفى عن البشر ، فلا يعلم واحدهم ما فى ضمير أخيه ، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة .

وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما فى الصدور ، وهو الإرادة والقصد ، أما بقية الأمور كالاعتقادات ، فلا دليل على كونها تعلمها .

دعوة العباد إلى فعل الخير

فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[(٢)] .

وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها : (ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا غربت شمسه إلا وبجنبتها ملكان يناديان)[(٣)] فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ، ففى البخارى ومسلم عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ انه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : ابرص وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فأرسل اليهم ملكا فأتى الأبرص ، فقال : أى شىء أحب إليك ، فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قدرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، واعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ، قال : الابل ، أو قال البقر ، فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) . فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر فاعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب اليك ؟ قال : أن يرد الله الىَّ بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه فرد الله اليه بصره ، قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والدا فأنتج وولَّد هذا .

---

(١) سورة غافر آية : ١٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة ـ باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧/١٠١٠

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب ٢/٤٩

فكان لهذا واد من الأبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلابلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بعيرا أتبلغ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ماقال لهذا ، ورد عليه مثل مارد هذا . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك : شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ودع ماشئت ، فوالله لاأجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك)[١] .

الملائكة تنزع روح الانسان

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد ، عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم ، قال تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾[٢]

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك قال تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾[٣] .

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين ، نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولاهوادة قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فكيف إذ توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[٦] أما المؤمنون فان الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رقيقا .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ كتاب الزهد والرقائق رقم ١٠/٢٩٦٤

(٢) سورة السجدة آية : ١١

(٣) سورة الانعام الآيتان : ٦١-٦٢

(٤) سورة الانعام آية : ٩٣

(٥) سورة الانفال آية : ٥٠

(٦) سورة محمد آية : ٢٧

تبشيرهم المؤمنين عند النزع

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن ، فان الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته قال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون** ﴾(١)

وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم : ﴿ **أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾(٢) .

موسى يفقأ عين ملك الموت

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران ، فقال له : أجب ربك . قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها) قال : (فرجع الملك الى الله ، فقال : إنك أرسلتنى الى عبدلك لايريد الموت ، وقد فقأ عينى) قال : « فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة » .

وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال ثم مه ؟ قال : ثم تموت . قال : فالآن من قريب) (٣) .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهو الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ماعند الله . وقد يبادر بعض الناس الى التكذيب بمثل هذه الرواية ، لأن عقولهم لا تستسيغها، وقد نسوا أن أول صفات المؤمنين ، أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة ، فإذا صحَّ الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب** ﴾(٤)

سؤالهم العبد فى القبر ومايكون منهم فى المحشر والجنة والنار

سيأتى فى مبحث الايمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى ، مايكون من الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد فى قبره ، وهذان هما منكر ونكير ، وأن منهم ملائكة ينعّمون العباد فى قبورهم ، وآخرين يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين فى الجنة .

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٠ - ٣١
(٢) سورة الانعام آية : ٩٣
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص١٨٤٣ كتاب الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام رقم ٢٣٧٢/١٥٨
(٤) سورة آل عمران آية : ٧

الملائكة والمؤمنون

تحدثنا فى المبحث الماضى عن الدور الذى كلف الله الملائكة القيام به تجاه بنى آدم كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فما ذكرناه من تشكيلهم للنطفة ، وحراستهم للعباد ، وتبليغ الوحى ، ومراقبتهم للعباد وكتابة الأعمال ، ونزع الأرواح ، لاتختص بقسم من بنى آدم دون قسم ، ولابمؤمن دون كافر .

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار ،. وسنتناول دورهم وموقفهم من الفريقين بالبيان والتوضيح .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى اذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض)[١] .

تسديد المؤمن

روى الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسدده)[٢] .

أما كيفية تسديده فالله أعلم به .

ومن هذا الباب مارواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسى ، فأطاف بهن ، ولم تلد إلا امرأة منهن نصف إنسان قال النبى ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته)[٣] .

فالملك سدد نبى الله سليمان ، وأرشد الى الأصوب والأكمل .

صلاتهم على المؤمنين

أخبرنا الله أن الملائكة تصلى على الرسول ﷺ : (إن الله وملائكته يصلون على النبى)[٤] وهم

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده رقم ٢٦٣٧/١٥٧
(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه جـ ٣ ص ٦١٣ ، كتاب الاجتماع باب ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى التاخى رقم ١٣٢٣ أنظر ابن ماجه كتاب الأحكام رقم ٢٣٠٩
(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه جـ ٣ ص ١٢٧٦ كتاب الايمان باب الاستثناء رقم ١٦٥٤/٢٥
(٤) سورة الاحزاب آية : ٥٦

يصلون على المؤمنين أيضا ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[١]

• والصلاة من الله تعالى : ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عزوجل الرحمة ، وقد يقال : لامنافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم ، وهذا ماسنوضحه فيما يأتى .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

ـ معلم الناس الخير :

روى الطبرانى والترمذى باسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله وملائكته حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير[٢] .

ـ الذين يؤمون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم : (إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صلّ عليه ، اللهم أرحمه ، مالم يؤذ فيه مالم يحدث فيه)[٣] .

ـ الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن ابى داود وابن ماجة ومسند أحمد عن البراء ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) . وفى سنن الترمذى (إن الله ملائكته يصلون على الصف المقدم)[٤] .

ـ الذين يمكثون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى ابو داود فى سننه باسناد صحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ولم يحدث ، أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه)[٥] .

ـ الذين يسّدون الفرج بين الصفوف :

فى سنن ابن ماجة ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم باسناد حسن عن عائشة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة)[٦]

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٣
(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ١ ص ١٢٤
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص ٤٦٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٦٤٩/٢٧٦
(٤) أخرجه أحمد فى مسنده جـ٤ ص ٢٦٩ ، ٢٨٤ وعبدالرازق فى مصنفه رقم ٢٤٥٠
(٥) أخرجه أبوداود فى سننه جـ١ ص ٣١٩ رقم ٤٦٩
(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه برقم ٩٩٥ ، أحمد جـ٦/٦٧ ، ٨٩ ، ١٦٠ والبيهقى فى السنن جـ٣ ص ١٠١ ، ١٠٣ والحاكم ١٢٤/١

ـ الذين يتسحرون :

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين)[1]

ـ الذين يصلون على النبي ﷺ :

روى أحمد في مسنده ، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : (مامن عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر)[2]

ـ الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله ﷺ قال : (مامن امرىء مسلم يعود مسلما إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك ، يصلون عليه في أى ساعات النهار كان ، حتى يمسى ، وأى ساعات الليل كان حتى يصبح)[3] وفي رواية لأبي داود والحاكم (مامن رجل يعود مريضا ممسيا ، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، ومن أتاه مصبحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسى)[4] .

ـ هل لصلاة الملائكة علينا من أثر :

يقول تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾[5]

الآية تفيد أن ذكر الله لنا في الملأ الأعلى ، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم له تأثير في هدايتنا وتخليصنا من الظلمات التى تعنى الكفر والشرك ، والذنوب والمعاصى ، إلى النور ، الذى يعنى وضوح المنهج والسبيل ، وبالتعرف على طريق الحق الذى هو الإسلام ، وتعريفنا بمراد الله منا ، وإعطائنا النور الذى يدلنا على الحق في الأفعال والأقوال والأشخاص .

ـ التأمين على دعاء المؤمنين :

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ففى سنن ابن ماجة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه ، كلما دعا له بخير قال : آمين ، ولك مثله)[6] ولما كان الدعاء المؤمن عليه حريا بالاجابة فانه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده جـ٣ ص ١٢ ، والهيثمى في مجمع الزوائد جـ٣ ص ١٥٠ وابن حبان برقم ٨٨٠ والالبانى سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٤

(٢) أخرجه الزبيدى في انحاف السادة المتقين ٤٨/٥ وأبو نعيم في الحلية ١٨٠/١

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٦٨/٤ رقم ٢٩٤٧

(٤) أخرجه أبو داود ٤٧٥/٣ رقم ٣٠٩٨ والحاكم في المستدرك ٣٤١/١

(٥) سورة الاحزاب آية : ٤٣

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه جـ٢ ص ٩٦٧ رقم ٢٨٩٥

لاينبغى للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر ، ففى صحيح مسلم عن أم سلمة قال . قال رسول الله ﷺ : (لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يؤمنون على ماتقولون) .(١)

استغفارهم للمؤمنين :

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾(٢) .

وأخبر فى آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ، ينزهون ربهم ، ويخضعون له ، ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار ، ويدعونه بأن ينجيهم من النار ، ويدخلهم الجنة ، ويحفظه من فعل الذنوب والمعاصى :

﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يؤمئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾(٣) .

- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

ففى صحيحى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى - ﷺ - قال : « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا (٤) .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٥) .

وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)(٦) أى تتواضع له .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى أغماض الميت والدعاء له ، إذا حضر رقم ٩٢٠/٧

(٢) سورة السورى آية : ٥

(٣) سورة غافر الآيات : ٧ - ٩

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ كتاب الذكر والدعاء - باب فضل جمالى الذكر رقم ٢٦٨٩/٢٥

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩/٣٨

(٦) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

فالأعمال الصالحة كما ترى ، تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد فى حالة عالية من السمو الروحى ، لو صلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ، ومصافحتهم كما فى الحديث الذى يرويه البخارى وغيرهما عن أنس رضى الله عنه عن النبى - ﷺ :

« لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة »[1] .

« وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة بإسناد صحيح : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحالة التى أنتم عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة بأكفّهم ، ولزارتكم فى بيوتكم ، ولو لم تذنبوا ، لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم »[2] .

- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يثمون الجُمع الأول ، فالأول . ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر »[3] .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى وغيره عن رفاعة بن رافع قال : « كنا يوماً نصلى وراء النبى - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف ، قال : من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها »[4] .

فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين الذين يسجلون صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لأنهم بضعة وثلاثين ملكاً .

- تعاقب الملائكة فينا :

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون الذكر ويشهدون الجمع والجماعات ، يتعاقبون فينا ، فطائفة تأتى وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٦ كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة رقم ٢٧٤٩/١١

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل ودام الذكر والفكر فى أمور الآخرة رقم ١٢/٢٧٥٠

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٥٨٧ كتاب الجمعة باب فضل التهجر فى يوم الجمعة رقم ٢٤/٨٥٠

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٣٣٣ ، جـ ٢ ص ١٨ ، ١٤٧

وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون »[١] .

ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم . ففى البخارى ومسلم ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بأربع كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار »[٢] ـ الحديث .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها . قال : ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾[٣] .

ـ تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يقرأ القرآن فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده (الجُرن) إذ جالت (وبثت) فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحى فقمت إليها ، فاذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها فقال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله بينما أنا البارحة عند جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى فقال رسول الله ﷺ : (أقرأ ياابن حضير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : (اقرأ ياابن حضير) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ماأراها فقال رسول الله ﷺ (تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم)[٤] رواه البخارى ومسلم ، ايبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام)[٥] .

وفى معجم الطبرانى الكبير باسناد حسن عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال : (إن الله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد فليس من أحد يصلى على إلا بلغنيها وإنى سألت ربى ألا يصلى على عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثالها)[٦]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر رقم ٢١٠ـ٦٣٢/
ـ انظر صحيح البخارى جـ٢ ص٢١٣ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص١٦٢ كتاب الايمان ـ باب فى قوله عليه السلام ـ الله الله لا ينام رقم ١٧٩/٢٩٥

(٣) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب نزول السكينة لقراءة القرآن رقم ٧٩٦/٢٤٢

(٥) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ١ ص٤٥٢ ، جـ٢ ص٢٥١
انظر السنن الكبرى للنسائى جـ٣ ص٤٣ كتاب الصلاة ـ باب السلام على النبى ﷺ .

(٦) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع رقم ٦٩٤٧
أخرجه الذهبى فى ميزان الاعتدال ترجمة اسماعيل بن ابراهيم رقم ٨٢٩ جـ١ ص٢١٣

تبشيرهم المؤمنين : فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم فإنه سيرزق بذرية صالحة ﴿ **هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلو ن فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم** ﴾(١) وبشرت زكريا بيحيى ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى** ﴾(٢) وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين بل قد تبشر المؤمنين ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (زار رجل أخا له فى قرى أخرى فأرصد الله له على مدرجته (طريقة) ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا غير انى أحببته فى الله عز وجل . قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما احببته فيه)(٣)

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (أتانى جبريل فقال : يارسول الله ! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه ادام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيها ولانصب)(٤) .

الملائكة والرؤيا فى المنام : روى البخارى فى صحيحه فى باب التهجد عن عبدالله بن عمر رضى الله عنها قال : (كان الرجل فى حياة النبى ﷺ اذا رأى رؤ يا قصّها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤ يا فأقصها على رسول الله ﷺ وكنت غلاما شابا وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار فإذا هى مطوية كطى البئر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار قال : فلقينا ملك آخر فقال لى : لاترع)(٥) أى لا تخف .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (قال لى رسول الله ﷺ : (أريتك فى المنام يجىء بك الملك فى سرقة من حرير فقال لى : هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فاذا أنت هى فقلت : إن يك هذا من الله يتمه)(٦) .

يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم فى حربهم : وقد أمد الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة فى معركة بدر قال تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنت أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن**

(١) سورة الذاريات الآيات : ٢٤ ـ ٢٨
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٩
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة وآداب باب فضل الحب فى الله رقم ٢٥٦٦/٣٧
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ رقم ٢٤٣٢/٧١
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٢ ص ٦١ كتاب الجمعة باب التهجد بالليل .
(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٨٨٩ ، كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم ٢٤٣٨/٧٩
(٧) سورة الانفال آية : ٩

يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾[١] .

وقد قال الرسول ﷺ : فى يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[٢] وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الا مداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال اعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم قال تعالى : ﴿ وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٣]

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[٤] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾[٥] . وقد رأى الرسول - ﷺ - الملائكة فى يوم بدر ففى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضى الله عنه وهما يدعوان أخذت الرسول - ﷺ - سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال : (أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع)[٦] .

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين ، صوت ضربة لملك يضرب أحد الكفار وصوته ، وهو يزجر فرسه ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس (بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط ، فأخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله - ﷺ - فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)[٧] .

وقد حاربت الملائكة فى مواقع أخرى ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها ﴾[٨] . والمعنى بالجنود التى لم يروها الملائكة كما ثبت فى الصحاح وفى غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) وكان الرسول - ﷺ - يغتسل فقال للرسول - ﷺ - (أوضعتم سلاحكم فإنا لم نضع سلاحنا بعد فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة)

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٢٣ - ١٢٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٥ ص١٠٣ باب شهود الملائكة بدراً .

(٣) سورة الانفال آية : ١٠

(٤) سورة الانفال آية : ١٢

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٢٦ - ١٢٧

(٦) أخرجه ابن كثير جـ٣ ص٥٦٣ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ٣ ص٥٤

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٣ ص١٣٨٥ - كتاب الجهاد والسيرة باب الامداد بالملائكة فى غزوة بدر رقم ١٧٦٣/٥٨

(٨) سورة الأحزاب آية : ٩

حمايتهم للرسول ﷺ : روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقيل نعم فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه فى التراب قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليطأ على رقبته ، قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ، ويتقى بيديه قال : فقيل له : مالك ، فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لودنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[1] . ورواه البخارى فى صحيحه بأخصر من رواية مسلم فى كتاب التفسير .

حمايتهم ونصرتهم لصالحى العباد وتفريج كربهم : وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين ، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره ، ففى تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ قال : ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال هذا الرجل : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت : لا خبرة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب ، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ، ودار عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه ، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه . وتبعنى ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه ، فقال هو لى ، وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة ، فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إنى أريد أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ، فقال : عجل فقمت فارتَجَّ على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيراً ، وهو يقول : هيه أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله : (امّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا ، فتعلقت بالفارس ، وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذ دعاه ويكشف السوء .

قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً ، ومن ذلك أرسل الله جبريل لاغاثة أم اسماعيل فى مكة ففى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قصة مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة (وهى قصة طويلة) أن أم اسماعيل ، سعت سعى الانسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات ، تبحث عن الماء فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتا ، فقالت : (صه) تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : قد اسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فقال لها الملك : (لا تخافى الضيعه فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله)

(1) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب قوله : إن الانسان ليطغى . . أن رآه استغنى رقم ٢٧٩٧/٣٨

وفى سنن النسائى بإسناد صحيح أن هذا الملك الذى جاءها هو جبريل (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل ، تجمع البطحاء رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معينا)[١] .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين : قال الرسول ﷺ فى سعد بن معاذ (هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمة ، ثم فُرج عنه)[٢] رواه النسائى عن ابن عمر باسناد صحيح .

اظلالها للشهيد بأجنحتها : فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما قتل أبى ، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى ، وينهونى ، والنبى ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمتى فاطمة تبكى ، فقال النبى ﷺ : (تبكين أولا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٣] .

وبهذا ينتهى المبحث الخاص بعالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة .

خاتمة سورة المدثر
الحديث عن أهل سقر

قال تعالى :

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ

---

(١) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع رقم ٦٤٥٥ وكنز رقم ٣٤٧٦٧
(٢) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى جـ٤ ص١٠٠ ، ١٠١ كتاب الجنائز باب صفة الغير وضغطته .
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢/ ٩١ فى كتاب (الجنائز) باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه .

مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

معانى المفردات

﴿ **إذا أدبر** ﴾ دبر وأدبر بمعنى ولى وانصرم ﴿ **إذا أسفر** ﴾ أضاء وظهر ﴿ **الكبر** ﴾ جمع كبرى أنثى الأكبر ﴿ **رهينة** ﴾ يقال رهن الشىء رهناً ورهينة ، وهو الشىء المرهون وثيقة لشىء آخر ﴿ **ما سلككم** ﴾ ما أدخلكم ﴿ **المصلين** ﴾ الصلاة فى اللغة الدعاء والدين ، وشرعاً تطلق على الصلاة المعروفة ، والمراد المعنى اللغوى لا الشرعى ﴿ **نخوض مع الخائضين** ﴾ نكذب مع المكذبين ، وأصل الخوض الذهاب فى الماء ثم نقل إلى الذهاب فى الكلام ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام . ﴿ **اليقين** ﴾ الموت ﴿ **التذكرة** ﴾ المراد القرآن ﴿ **مستنفرة** ﴾ نافرة من نفسها ﴿ **قسورة** ﴾ أسد ﴿ **صحف منشرة** ﴾ الصحف القراطيس التى تكتب وتتداولها أيدى الناس والمنشرة المبسوطة المفتوحة .

أضواء كاشفة

لقد تكلم المشركون فى خزنة جهنم وعددهم ، واتخذوا ذلك مادة لسخريتهم واستهزائهم ، فضلوا ضلالاً بعيداً ، والقرآن هنا يزجرهم عن ذلك ويردعهم بكلمة زاجرة هى (كلا) ثم أقسم بالقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر على أن سقر هى إحدى الكبر ، أما قسمه بهذه الأشياء فإنه للفت أنظار المشركين إلى تلك الآثار الباهرة ، التى تدل على قدرة الله القادرة ، على أن هذا التقلب والتغيير من حال إلى حال ، ومن نور إلى ظلام ، ثم منه إلى ضياء دليل على جواز البعث والانتقال من حال الفناء إلى حال الحياة .

أقسم بالقمر ونوره كيف ينشأ صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً حتى المحاق ، وهذا الليل بجحافله وسكونه وهدوئه ، وموت الطبيعة فيه ، ثم يأتى الصبح بأضوائه اللامعة ووجهه المشرق وحياته الحافلة ، أقسم بهذا كله على أن جهنم المعدة للمكذبين ، الذين يتخذون القرآن عضين ، هى إحدى الكبر من جهة أنها نذير للبشر لمن شاء منكم أيها البشر أن يتقدم للخير ، ولمن شاء أن يتأخر بفعل الشر ، نعم هى نذير لهؤلاء الذين يخافون يوماً عبوساً قمطريراً .

هذا إنذار للعامين والعصاة المذنبين ، مع العلم أن كل نفس بما كسبت مرهونة ، أى أن النفس مرهونة بعملها ، فإن كان خيراً ، فك رهنها وحبسها ، وإن كان شراً ، فستظل حتى تستوفى عقابها ، وعلى ذلك فالعصاة نفوسهم مرهونة بعملهم الشر ، والمؤمنون أصحاب اليمين ليست نفوسهم مرهونة ، لأنهم أدوا ما عليهم ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ . فإنهم فى جنات مكرمون ، على سرر متقابلون ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتساءلون ، أى يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين المكذبين ، ما حالهم ؟ ولعلهم يعرفون الجواب ، ولكن هذا يساق زيادة فى تبكيت المجرمين وإيلامهم ، وإمعاناً فى سرور المؤمنين أصحاب اليمين ، يتساءلون عنهم ، فيطلون عليهم ، وهم فى جهنم فيقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ وما الذى أدخلكم فى جهنم ؟ قالوا لهم : الذين سلكنا أننا لم نك من المصلين ، ولم نك ندعو الله رب العالمين ، بل كنا ندعو غيره ونشرك به سواه ، وأنا لم نك نطعم المسكين المحتاج ؟ بل كنا ننفق للدنيا وللرياء ، وكنا نكذب مع المكذبين ، ونخوض مع الخائضين فى هراء الكلام وفاسده ، وكنا نكذب بيوم القيامة ، ولا نصدق به ، وظللنا على هذا الحال ، حتى أتانا اليقين الذى لا شك فيه كالموت ، وهذا العذاب الذى نقاسيه اليوم .

إذا كان الأمر كذلك ، فما تنفع هؤلاء شفاعة الشافعين ، ومن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ وهذا رد عليهم فى دعواهم أن الآلهة تشفع عند الله لهم .

عجباً لهؤلاء بعد هذا البيان الساطع ، فما لهم عن القرآن معرضين ؟ أى شىء حصل لهؤلاء ، حتى يعرضوا عن كلام رب العالمين ، مالك يوم الدين .

مالهم يعرضون ويفرون ؟ كأنهم حمر - المراد حمر الوحش - نافرة من نفسها وطبعها - وقد فرت من أسد ، إن أمر هؤلاء لعجب .

بل - وهذا إضراب عن إعراضهم ونفورهم مما فيه سعادتهم وخيرهم كالحيوان - واستمع لما هو أعجب وأغرب ، بل يريد كل امرىء منهم أن تنزل عليه صحف من السماء مبسوطة ، تأمره باتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

كلا وألف كلا ، بل هم لا يخافون الآخرة ، ولا يرجونها أصلاً ، فهذا هو السبب ، وطلبهم الصحف المنشرة ضرب من العبث واللهو ، فأعرض عن هذا ولا تسمع لهم فى شىء .

كلا ، إن القرآن تذكرة وعظة لمن يريد الآخرة ، ويؤمن بالغيب ، وفيه استعداد للخير ، فمن شاء ذكره واتعظ به وآمن ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ذلك بالقهر والالجاء ، لكن الله ترك الايمان والكفر لاختيار العبد ، الذى هو مناط الثواب والعقاب ، وقيل المعنى : وما يذكرون فى حال من الأحوال إلا فى حال أن يشاء الله لهم ذلك ، إذ الأمر كله له ، هو الله أهل لأن يتقى ويحذر عقابه فلماذا لا تتقون ؟ وهو أهل للمغفرة فلماذا لا تصلحون أعمالكم ؟ وتتوبون لربكم وتثوبون لرشدكم ؟ !!

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ﴾ أى ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أى العظائم يعنى النار ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف ﴿ نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أى لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

ويحدثنا العلامة ابن القيم فى كتابه ﴿ التبيان فى أقسام القرآن ﴾ فيقول :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل ، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ـ ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها ما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته . ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين ، وجدهما من أعظم الآيات فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع فى حركتهما إختلاط بالبطء ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ، ولا يجرى أحدهما فى فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه فى سلطانه ، ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجىء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم التى فى خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ، ولا تنتهى إلى مباديها أو هامهم ، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾(١) .

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيط متسخن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضوأ شىء وأحسنه وأجمله ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حاله الأول ، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين ، وحساب آجال العالم : من مواقيت حجهم ، وصلاتهم ، ومواقيت أجائرهم ، ومداييناتهم ، ومعاملاتهم التى لا تقوم مصالحهم إلا بهما ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة .

وقد ذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه : أحدها قوله : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾(٢) .

---

(١) آل عمران آية : ١٩١

(٢) البقرة آية : ١٨٩

والثانية قوله : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] .

والثالثة قوله : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً** ﴾[2] . فلولا ما يحدثه الله سبحانه فى آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه ، لم يعلم ميقات الحج ، والصوم والعدد ، ومدة الرضاع ، ومدة الحمل ، ومدة الاجارة ، ومدة آجال الحاملات .

فإن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس ، قيل : هذا وإن كان ممكناً ، إلا أنه يعسر ضبطه ، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس ، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور ، وأوساطها ، وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس ، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطراباً واختلافاً ، ولا يحتاج إلى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرف من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر وأنفع وأصح . وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس ، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته وعلمه وتدبيره ، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها ، فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير ، ولا يمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً ، وافتقاره الى محل يقوم به ، وسيره دائباً لا يفتر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده إليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة ، حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف ـ علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له ، كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً ، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهى إلى الانقطاع والسكون . وأن هذا الضوء والنور ، لابد أن ينتهى إلى ضده ، وأن هذا السلطان ، لابد أن ينتهى إلى العزل ، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التى عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتثارها ، وعباد السماء انفطارها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها فى النار ، أحقر شيء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل فى الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه فى اليم ، وكما أرى الأصنام فى الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة ، ومعاول الموحدين ، قد هشمت منها تلك الوجوه ،وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدى والأرجل ، التى كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام ، وهذه سنة الله التى لا تبدل ، وعادته التى لا تحول ، أنه يرى عابد غيره حال معبوده فى الدنيا والآخرة . وإن كان المعبود غير راض بعبادة

---

(١) يونس آية : ٥

(٢) الإسراء آية : ١٢

غيره ويريه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة ﴾[١] ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير فى الشمس ، ولو شاء لغيرهما معاً ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يرى عباده آياته فى أنواع تصاريفها ، ليدلهم على أنه الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[٢] . وأما تأثير القمر فى ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى النبات ، وجزر البحر ومده ، وبحرانات الأمراض ، وتنقلها من حال إلى حال ، وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .

وما أقسامه سبحانه بالليل إذا أدبر ، فلما فى ادباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذا أقبل من النهار داعيه وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور ، يقول قائلهم : (الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور) فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى يبدىء ويعيد . فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟ .

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواص الأرض بتباشيره وبشائره . فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار . فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ؟ ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة ، مع فقد لذة النور وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدوء ، لراحة أبدانهم وجموم حواسهم . فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ، ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً ، كما جعل النهار ضياء ومعاشاً ، ولولا الليل وبرده ، لاحترقت أبدان الحيوان والنبات من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق عليها من نبات وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ، أن جعلها سراجاً يطلع على العالم فى وقت حاجتهم إليه ، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه ، فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما ، متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، والليل سرمداً إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

(١) الأنفال آية : ٤٢
(٢) الأعراف آية : ٥٤

وتأمل حكمته سبحانه فى ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما فى ذلك من مصالح الخلق ، ففى الشتاء تفور الحرارة فى الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواء ، فيتولد منه السحاب وينعقد ، فيحدث المطر الذى به حياة الأرض . ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع . وفى الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجفف وجه الأرض ، فيتهيأ العمل ، وفى الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففى هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبى .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين ، تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة ، فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها ، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب إلى الضبط ، واشترك الناس فى العلم به . وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما فى منازلهما ، لما فى ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب فى موضع واحد لا تتعداه ، لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك ، فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض ، لينال نفعها وتأثيرها البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع ، التى يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها ، واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منهما من صاحبه ، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة ، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً . أو أكثر ، لاختل نظام العالم وفسد أكثر النبات والحيوان ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويا دائماً ، لما اختلفت فصول السنة ، التى باختلافها مصالح العباد والحيوان ، فكان فى هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ، ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[3] . فهذه ثلاثة مواضع ، يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية ، وما ينشأ عنها ، كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفى هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغنيات .

---

(١) يس الآيتين : ٣٧ - ٣٨

(٢) فصلت الآيات : ٩ - ١٢

(٣) الأنعام آية : ٩٦

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهى القمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ـ على المعاد لما فى القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته ، كما هو مشهود فى إبداء النهار والليل وإعادتهما ، وفى إبداء النور وإعادته فى القمر ، وفى إبداء الزمان وإعادته ، الذى هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة وإعادتها ، وإبداء ما يحدث فى تلك الفصول وإعادته ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد ، الذى أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ومنقولة ، ومعقولة ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان ، فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾(١) .

ولما أقام الحجة وبين المحجة ، ارتهن كل نفس يكسبها ، وآخذها بذنوبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه ، واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمى المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات ، أخرجتهم من زمرة المفلحين ، وأدخلتهم فى جملة الهالكين :

(الأولى) : ترك الصلاة ، وهى عمود الإخلاص للمعبود .

(الثانية) : ترك إطعام المسكين الذى هو مراتب الإحسان للعبيد ، فلا إخلاص للخالق ، ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى : ﴿ **الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾(٢) وقال : ﴿ **ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون** ﴾(٣) ، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٤) .

وقال : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٥) وقرن سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه : فأمر بها تارة ، وأثنى على فاعليها تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركها تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما .

الصفة الثالثة والرابعة : الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ، ويقينهم وكلامهم ، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين شكاً وتكذيباً ، وبالكلام النافع خوضاً فى الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة .

---

(١) الفرقان آية : ٣
(٢) الماعون الآيتان : ٦ ، ٧
(٣) التوبة آية : ٥٤
(٤) الأنفال آية : ٣
(٥) السجدة آية : ١٦

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم ، بإثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالأول عدله ، والثانى فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب ، والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم . بل أشد ، والثانى يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

قوله تعالى : ـ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ : يقول تعالى مخبراً أن (كل نفس بما كسبت رهينة) أى معتقلة بعملها يوم القيامة ، قال ابن عباس وغيره (إلا أصحب اليمين) فإنهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا . ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم : وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعنى الموت كقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما هو ـ يعنى عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين من ربه) قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنفع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أى فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك ، عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أى كأنهم فى نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش ، إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد .

وقال حماد بن سلمة بسنده عن ابن عباس : الأسد بالعربية ويقال له بالحبشية قسورة وبالفارسية شير ، وبالنبطية أوبا .

وقوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أى بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب ، كما أنزل الله على النبى صلى الله عليه وسلم قال مجاهد وغيره كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[2] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كلا بل لايخافون الآخرة ﴾ أى إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها . ثم قال تعالى : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أى حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أى هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

---

(١) الحجر آية : ٩٩

(٢) الأنعام آية : ١٢٤

وقال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له »[١] .

هل عرفت ما للقرآن الكريم من مكانة فى اللوح المحفوظ ؟ قال تعالى : ﴿ **حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾[٢] .

وهل تأملنا بقلوبنا قول الله جل جلاله عن الكتاب العزيز والقرآن العظيم : ﴿ **كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره** ﴾ أى من شاء الوصول إلى دار السعادة والنعيم ، فليذكر ما فى هذا الكتاب من مواعظ وهداية ، وقصص وعقيدة وأحكام وتشريع ووعد ووعيد ، صدقت يا ربنا ﴿ **إنّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾[٣] .

فضل القرآن يوم الحشر

وليس فضل القرآن مقصوراً على الدنيا وحدها ، إنما فضله ، يتعدى إلى ما بعد الموت ، من بعث وحشر ونشر وحساب ، وميزان وصراط وجنة ونار . نعم إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، ونحن هنا بصدد الحديث عن فضل القرآن فى رحاب قوله تعالى فى ختام سورة المدثر : ﴿ **كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره** ﴾ فنقول :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، يا خير خلق الله على الاطلاق . نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ومحوت الظلمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين .

وبعد : فإن ماديات الحياة قد تطغى على روحانياتها ، وهنا تتمرغ النفس فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وتحاول أن تجد لها منفذاً تنفذ منه لتنشق النسيم العاطر ، نسيم الروح فتطاردها الدنيا ، وعندئذ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ومن هنا فإن الاسلام يضع معالم الهداية على طريق يؤدى إلى عالم الخلود ، فينادينا سبحانه وتعالى منبها ومحذراً ومذكراً : ﴿ **إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾[٤] .

إنها أمارات كبرى ، وعلامات خطيرة ، تختل لها قوانين الكون ، ليجعلها الله تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد جـ٣ ص١٤٢

(٢) الزخرف الآيات : ١ ـ ٤

(٣) الإسراء آية : ٩

(٤) الانفطار الآيات : ١ ـ ٥

أنظر يا أخا الاسلام إلى هذه السماء المتقنة الصنع ، التى أخبر الله عنها بقوله : ﴿ **ومالها من فروج** ﴾[١] وأخبر عنها بقوله : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها** ﴾[٢] وأخبر عنها بقوله : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها** ﴾[٣] هذه السماء التى تحدى بها الله البشرية جمعاء بقوله : ﴿ **الذى خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾[٤] ثم يزيد التحدى تحدياً فيقول : ﴿ **ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾[٥] .

سبحانك اللهم أنت الواحد — كل الوجود على وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً — وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى — كل القلوب له تقر وتشهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى — وإلى علاك علا الجبين الساجد

هذه السماء ، التى من أخص خصائصها أن ليس لها فروج ، ولا شقوق ، ولا فطور ، أول ما تصب به عند البعث أنها تشقق ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾[٦] .

هذه حال السماء فما حال الكواكب التى تسير فى أفلاكها بنظام دقيق بديع ، هذا الخلق العظيم الذى لم يستطع العلم بجبروته أن يقتحم عليه أسراره المنيعة ، والذى عندما أراد العلم أن يرفع رأسه فخوراً بما اكتشفه من هذا العالم الغامض ، قال إننا لم نكتشف إلا جزءاً يسيراً ، هذا الجزء اليسير يشتمل على ألف مليون مجموعة شمسية ، كل مجموعة تحتوى على ألف مليون نجم ، أقل نجم فى هذه المجموعة شمسنا تلك التى تنير الكوكب الأرضى ، وباقى العالم لا يعلمه إلا من أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وهذا الموقف يذكرنى بنشيد كنا نردده فى مراحل التعليم الأولى ونحن براعم لم تتفتح بعد . كان نشيد الصباح الذى نردده كما يلى :

انظر لتلك الشجرة — ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة — وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى — يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى — أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة — وقدرة مقتدرة
أنظر إلى الشمس التى — جذوتها مستعرة

(١ ، ٢) سورة ق آية : ٦

(٣) سورة النازعات آية : ٢٧

(٤ ، ٥) سورة الملك آية : ٤ ـ ٤

(٦) سورة الفرقان الايتان : ٢٥ ـ ٢٦

فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة
أنظر إلى المرء وقل من شق منه بصره
من الذى جهزه بقوة مبتكرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرته مقتدرة
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

هذه بعض مظاهر القدرة ، وبعض مشاهد الخلق الذى أبدعته يد الله :

سل الواحة الخضراء والماء جارياً
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى
سل الليل والاصباح والطير شادياً
سل هذه الأنسام والأرض والسما
وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وأمتد سرمداً
فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم
سوى الله يجريه كما نشاء راوياً

سبحانك يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، أرأيت إلى هذه الكواكب يا أخا الاسلام ، كيف تنثر وهى تسير فى أفلاكها كما تسير السفينة فى ساحات البحار ، وفى مساحات شاسعات تنثر هذه الكواكب كما تنثر حبات العقد إذا انفرط سلكه ؟ إنه إنذار شديد اللهجة بأن هناك محكمة ، وبأن هناك يوماً يجعل الولدان شيباً .

ويأتى المشهد الثالث من مشاهد القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾ هذا مشهد أرضى بعد المشاهد العلوية من انشقاق السماء وانتثار الكواكب ، يلتقى المشهد الأرضى بالمشاهد العلوية إيذانا وإعلاناً ببدء حياة جديدة ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة الغائبة الزائلة ﴿ وإذا البحار

فجرت ﴾[1] وما أدراك ما البحار ، خلق عظيم ، الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود .

ومعنى تفجير البحار هنا ، يقول على بن أبى طلحة عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض ، وقال قتادة اختلط عذبها بملحها ، وقال آخرون ملئت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾[2] وهذا هو الموقف المحتوم والمصير المعلوم ، فبعد انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، يأتى الدور على القبور ، وهى مساكن الموتى ، وأرحام ستدفع ما فيها للولادة الثانية ، فالولادة الأولى كانت من بطون الأمهات ، وتأتى الولادة الثانية من أرحام القبور . ومعنى (بعثرت) كما قال ابن عباس رضى الله عنه بعثت ، وقال السدى : تحرك تبعثر ، فيخرج من فيها ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[3] ومصداق قوله جل شأنه : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾[4] ثم تأتى النتيجة المترتبة على تلك المقدمات وهى قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾[5] وهذه هى الجملة الواقعة جوابا للشرط (إذا) أى إذا ماتقدمت من الخير ففعلته وأدته ، وماسوقت فيه من الأعمال فلم تؤده ، ومن هنا ، فإن آيات الكتاب العزيز عندما تحث على أى عمل من أعمال الدنيا ، تخاطب المسلم بأسلوب رقيق فيه طمأنينة ورحمة ، وعدم عجلة وسرعة ، قال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض[6] فلم يقل تعالى : فسارعوا ولاسابقوا وقال تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[7] فالأمر هنا بالمشى لا بالمسارعة ولا بالمسابقة ، أما إذا كان الأمر أمر الآخرة ، فإن أسلوب القرآن ، يدعو الى التعجيل بفعل الخير . والمسابقة فيه والمسارعة ، قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[8] .

وقال سبحانه : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[9] وقال جل شأنه : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[10] وقال تبارك اسمه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[11] .

---

(١) الانفطار آية : ٣
(٢) الانفطار آية : ٤
(٣) الزمر آية : ٦٨
(٤) ق الآيات : ٤١ - ٤٤
(٥) الانفطار آية : ١٠
(٦) الجمعة آية : ١٠
(٧) الملك آية : ١٥
(٨) الصافات آية : ٦١
(٩) المطففين آية : ٢٦
(١٠) الحديد آية : ٢١
(١١) آل عمران آية : ١٣٣

هذا لتعلم كل نفس أنها بمسيس الحاجة إلى ما قدمت من خير ، وأنه لا يليق بها أن تؤخر فعل الخيرات .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾(١) وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾(٢) وبعد هذه المقدمات يخاطب الله العباد خطاب تحذير وتذكير :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾(٣) .

قال ابن عمر : غره والله جهله ، وروى عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : (ما غرك بربك الكريم) شىء ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى ما غرك بى لقلت ستورك المرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى ما غرك بربك الكريم لقلت غرنى كرم الكريم .

وقال بعض أهل الإشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؟ لأنه إنما أتى باسمه الكريم ، لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور .

وقوله تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ أى ما غرك بالرب الكريم (الذى خلقك فسواك فعدلك) .

أى جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال ، قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ، قال مجاهد فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم . وقال ابن جرير بسنده عن موسى بن على ابن رباح قال حدثنى أبى عن جدى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له : ما ولد لك ؟ قال يا رسول الله ما عسى أن يولد لى إما غلام وإما جارية ، قال فمن يشبه ؟ قال يا رسول الله من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) المائدة آية : ٤٨
(٢) آل عمران آية : ٣٠
(٣) الانفطار الآيات : ٦ ـ ٨
(٤) أخرجه الالبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

عندها : (مه لا تقولن هكذا إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله تعالى : (فى أى صورة ما شاء ركبك)[٢] قال : شكلك .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رجلًا قال : يا رسول الله إن إمرأتى ولدت غلاماً أسود . قال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : فهل فيها من أورق ؟ قال : نعم ، قال : فأنى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق[٣] .

قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق ، وقد قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ إن شاء فى صورة القرد وإن شاء فى صورة خنزير .

قال قتادة : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك ، ومعنى هذا القول أن الله تعالى قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه ، وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة . وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾[٤] أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالميعاد والجزاء والحساب .

---

(١) أخرجه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣
(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ٣٦٥/٨
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص١١٣٧ كتاب اللعان رقم ١٠٠٠/٢٠
(٤) الانفطار آية : ٩

تفسير سورة القيامة

مقــدمة :

قال العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى فى «بصائر ذوى التمييز» :

السورة مكية ، وآياتها أربعون ، وكلماتها مائة وتسع وتسعون ، وحروفها ثلاثمائة واثنتان وخمسون .

فواصل آياتها (يقراه) .

سميت سورة القيامة ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هول القيامة ، وهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أعيان العالم ، وبيان جزاء الأعمال ، وآداب سماع الوحى ، لوعد باللقاء والرؤية ، والخبر عن حال السَّكرة ، والرجوع إلى بيان برهان القيامة ، وتقرير القدرة على بعث الأسواق فى قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ .

المتشـابهات

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أعاد ، فقال : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : إنه سبحانه اقسم بهما ، والثانى : لم يقسم بهما ، والثالث : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة .

قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وكرره فى الآية الثانية ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ ، الأول عبارة عن بياض العين . بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وخَسفَ القَمرُ ﴾ وفيه قول ثان ـ وهو قول الجمهور من المفسرين ـ أنهما بمعنى واحد . وجاز تكراره لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول . . . قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَولَى ﴾ كررها مرتين ، بل كررها أربع مرات فإن قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ تمام الذم ، بدليل قوله : ﴿ فَأَولَى لَهُمْ ﴾ ، فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه للتهديد ، وإنما كررها لأن المعنى : أولى لك الموت ، فأولى لك العذاب فى القبر ، ثم أولى لك أهوال القيامة ، فأولى لك عذاب النار . نعوذ بالله منها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ذكر فى السورة السابقة قوله : ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم البعث ، وذكر هنا الدليل عليه بأتم وجه ، فوصف يوم القيامة وأحواله ، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

معانى المفردات

(لَآ أُقْسِمُ) يرى قوم أن (لَا) نافية ردٌّ لكلام قد تقدم وجواب لهم ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم ، ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة : أن البعث حق لا شك فيه . ويرى جمع من المفسرين : إنها للنفى على معنى أنى لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك . (النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) قال مجاهد هى التى تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لِمَ فعَلْتَهُ ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ تَسْتَكْثِرْ منه ؟

(بَلَى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفياً ، فالمراد بها هنا نعم فجمعها بعد تفرقها .

(بَنَانَهُ) البنان : واحده بنانة وهى الأصابع .

(لِيَفْجُرَ): ليدوم على فجوره فى الحاضر والمستقبل لا ينزع عنه .

(بَرِقَ) تحير فزعاً .

(خَسَفَ الْقَمَر) ذهب ضوءه .
(أَيْنَ الْمَفر) أى : إلى أين الفرار .
(الْوزَرَ) : الملجأ ، وأصله الجبل المنيع .
(يُنَبَّأ) أى : يخبر .
(بَصِيرَهُ) أى : حجة شاهدة على ما صدر منه .
(مَعَاذِيرَهْ) المعاذير : ما يعتذر به .
(لِتعجلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك .
(قُرْآنَه) أى : قراءته أى : إثباتها فى لسانك .
(قَرَأْنَاه) أى : قرأه جبريل عليك .
(فَاتَّبع قُرْآنَهُ) أى : فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك .
(بَيَانَهَ) أى : تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ماأشكل معانيه .
(الْعَاجِلَةَ) دار الدنيا ، (نَاضرةُ) أى : مهللة بشراً بما ترى من النعيم ، (نَاظرة) أى : تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، (بَاسرةُ) أى : شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة ، (تَظُنُّ) أى : تستيقن ، (فَاقِرَة) أى : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيوْمِ الْقِيَامَةِ . وَ لاَ أُقْسِمُ بِالنفسِ اللَّوَّامَةِ . أَيحسْبُ الإِنْسَانُ أَنَ لَّن تجْمع عِظَامَهُ . بَلى قادِرِين عَلَى أن نُّسَوِّى بَنَانَهُ ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بيوم القيامة ، وعظيم أهواله ، وبالنفس اللوامة ، التى تندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه وقسمه سبحانه وتعالى بيوم القيامة وتفخيم شأنه ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جبير . سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَة ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

وقال العلامة ابن القيم : فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس إلى معرفتها ، والايمان بها ، وأمر رسوله أن يقسم عليها كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحق هُوَ ؟ قُل إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَق ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعة ، قُلْ بَلَى وَربى لَتَأْتِينكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الذينَ كَفَرُوا أن لَنْ يُبْعَثُوا قُل بَلَى وَربى لَتُبْعثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير ﴾ فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها ، يأمر نبيه أن يُقْسِمَ عَلَى مَا أَقْسَمَ عَلَيْه هُوَ سبحانه وتعالى من النبوة والقرآن والمعاد .

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً .

واختلف فى النفس المقسم بها ههنا ، هل هى خاصة أو عامة ؟
على قولين بناء على الأقوال الثلاثة فى اللوامة ـ فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون أزداد إحساناً ، ويلوم المسىء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته .
والقول الثانى : أنها خاصة . قال الحسن : هى النفس المؤمنة وأن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حاله ، لأنه يستقصرها فى كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه ، وأن الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه .
والقول الثالث : إنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل .
وهى النفس الكافرة التى تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله .
قال شيخ الإسلام ابن تيميه : والأظهر أن المراد نفس الانسان مطلقاً فإن نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم ـ سبحانه ـ بجنس النفس فى قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون مذموماً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ فهذا اللوم غير محمود . فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله : ﴿ إِنَّ الانسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ وعلى جزائها كقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وعلى تباين عملها كقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ وكل نفس لوامة ، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر ، وترك الخير . فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

مناسبة الجمع بين القسمين فى الذكر

وجمع ـ سبحانه وتعالى ـ فى القسم بين محل الجزاء وهويوم القيامة ، ومحل الكسب ، وهو النفس اللوامة ، ومنه ـ سبحانه ـ بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرضها الخير والشر ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه ، فيجعلها مريدة للخير ، مرشدة له ، كارهة للشر مجانبة له ، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ، ولأنها متلومه مترددة ، لا تثبت على حال واحدة ، فهى محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها فى معاشها ومعادها فتؤثره ، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها فى القيامة لنفسها عليه لوماً بحق ، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه .

ففى صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وإنها لا غنى لها عن ذلك ،

ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة ، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما فى الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ أى : أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه ، فنحن قادرون على أن نسوى بنانه وأطراف يديه ورجليه ونجعلها مستوية قال ابن القيم :

وفى ذكر البنان لطيفة ، وهى أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على دون ذلك أقدر ، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل : إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها . وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينها ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتى لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين .

والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرقة ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته ـ سبحانه ـ على جمع العظام التى فرقها ولم يجمعها . والأول استدلال بقدرته ـ سبحانه ـ على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، هو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام وأطراده ، ولأن الكلام لم يسق تجمع العظام وتفريقها فى الدنيا ، وإنما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثانى ـ ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد . وارتباطها بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء ـ سبحانه ـ لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها ، ففى هذا أعظم الأدلة على قدرته ـ سبحانه ـ على جمع عظامه بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوى ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مريد للفجور ما عاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع فى الحال ، ولا يعزم فى المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب .

ثم نبه ـ سبحانه ـ على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم لقيامه وليس هذا استبعادا لزمنه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه ، كما حكى عنه فى موضع آخر قوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد ﴾ أى : بعيد وقوعه ، وليس المراد : أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة وعكرمة : قدما قدما فى معاصى الله لا ينزع من فجوره . ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الانسان إذا شاهد اليوم الذى كذب به .

فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ ، وَخَسَفَ القَمرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ يَقُولُ الإنسَانُ يَوْمَئِذ أَيْنَ الْمفر . كَلَّا لَاوَزَرَ إلى ربِّكَ يَوْمَئِذ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ .

أى : إذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذَهَبَ ضَوْءُهُ ، كما نعقله من حاله فى الدنيا ، إلا أن الخسوف فى الدنيا انجلاء ، وفى الآخرة لا يعود ضوءه .

وقوله : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى : أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما روى عن ابن مسعود وقد كان هذا مستحيلا فى الدنيا كما جاء فى قوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغى لها أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَيْل سَابِقُ النَّهار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإنسانُ يَوْمَئِذ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حنئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أى : هل من ملجأ أو موئل قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَاوَزَرَ . إِلَىٰ ربِّك يَوْمَئِذَ المُسْتَقَرُ ﴾ قال المفسرون : أى : لا نجاة ، ليس لكم مكان تعتصمون فيه ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُ ﴾ أى : المرجع والمصير . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اسْتَجيبُوا لِرَبِّكُمُ مِن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَومْ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله مالكم مَن مَّلْجَأ يَوْمئِذٍ وَمَالَكُم مَن نكِير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ .

أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وهذا قال ههنا : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) أى هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى : ﴿ أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ قال مجاهد (ولو ألقى معاذيره) ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتاده وابن زيد والحسن البصرى (ولو ألقى معاذيره) أى حجته . قال ابن كثير والصحيح قول مجاهد وأصحابه كقوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وكقوله

تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

(توجيه وإرشاد)

قوله تعالى : ﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ .

هذا تعليم من الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه فى صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وايضاح معناه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أى بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أى : فى صدرك (وقرآنه) أى : أن تقرأه (فإذا قرأناه) أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى : ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أى : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى يلقى منه شدة وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وعند البخارى فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

قال العلامة ابن القيم : ومن أسرار السورة إنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقى العلم ، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التى أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقى الوحى ، بل يصبر إلى أن يفرغ أمين الوحى جبريل من قراءاته ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغى لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ، ثم يعيده عليه . أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادر قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها ، والثانى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما) والثالث (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) فضمن لرسوله ﷺ أن لا ينسى ماأقرأه إياه . وهذا يتناول القراءة وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظره . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقره ﴾ .

أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى والقرآن العظيم انهم إنما همهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لا هون متشاغلون عن الآخرة .

قال ابن القيم :

وقد ذم الله ـ سبحانه ـ فى هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وايثاره ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد فى هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة ، وايثاره لها ، واستعجاله لتمتع به فى الآجله أكمل ما يكون . وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه يضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقى ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر شيئا بعد شىء ، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال وينبه على مبدأه : من كونه نطفة من منى يمنى ، ثم علقة ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذا كذب خبره ، وعصى أمره ، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناه ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله تعالى : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

أى فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم الساعة مضيئة مشرقة ، تشاهد عليها نضرة النعيم . (إلى ربها ناظرة) أى : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء : المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة .

قال ابن كثير : وهذا ـ بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام وهداة الأنام .

روى البخارى فى صحيحه « إنكم سترون ربكم عياناً »[1] وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا لا . قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٨ ص ١٤٦ ، ١٤٧ كتاب الرقاق باب « الصراط جسر جهنم » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

وفى الصحيحين أيضاً عن جرير قال : كنا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ولا تضارون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قال : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وزاد مسلم « يعنى العصر والفجر » وقال ابن بطال قال المهلب : قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة » أى فى الجماعة . قال : وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد لئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم . قال الخطابى : هذا يدل على أن رؤية المولى سبحانه وتعالى قد يرجى نيلها بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

وروى مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال ، يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال فينكشف الحجاب ، فماأعطوا شيئاً أحب اليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة »(٢) ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الكفار تكون يوم القيامة كالحة ، عابسة ، باسرة تستيقن انها هالكة وهذا المقام كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

صورة من مشاهد الموت

قال تعالى :

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(١) انظر البخارى جـ ١ ص ١٠٩ باب ـ فضل صلاة الفجر

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ١ ص ١٦٣ كتاب الايمان باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » فقد ورد الحديث من رواية لصهيب

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

معانى المفردات

(التراقى) العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال واحدها ترقوة .
(من راق) أى من يرقيه وينجيه مما هو فيه .
(الفراق) أى من الدنيا حبيبته .
(التفت الساق بالساق) أى التوت عليها حين هلع الموت وفلقه ، والمراد أنه اشتد عليه الخطب .
(المساق) المرجع والمآب .
(فلا صدق ولا صلى) أى فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .
(يتمطى) أى يتبختر افتخاراً .
(أولى لك) أى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .
(فأولى) أى فهو أولى بك من غيرك .
(سدى) . أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب .
(نطفة) أى ماء قليلا وجمعها نطاف ونطف .
(يمنى) أى يراق ويصب فى الرحم .
(علقة) أى قطعة دم جامد .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال القيامة وما يرى فيها من عظيم الأهوال ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدق بأوامر دينه ، ولا هو أدى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

١ ـ أنه لابد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها ، وثواب كل عامل بما يستحق والا تساوى المطيع والعاصى ، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .

٢ ـ أنه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الانسان من منى يمنى ، فأهون أن يعيده خلقاً آخر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴾ .

(كلا) ردع وزجر : أى ازدجروا وتنبهوا إلى ما بين أيديكم من الموت ، فافلعوا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، فستنقطع الصلة بينكم وبينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلدين أبداً .

ثم وصف الحال التي تفارق فيها الروح الجسد فقال :

﴿ **إذا بلغت التراقى**) أى إذا بلغت الروح أعالى الصدر ، وأشرقت النفس على الموت كقوله تعالى : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وقيل من راق** ﴾ أى وقال أهله : من يرقيه ليشفيه مما نزل به ؟
قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا .
﴿ **وظن أنه الفراق** ﴾ أى وايقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وسمى هذا اليقين ظناً لأن المرء ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

وقوله : ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ أى التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال عكرمة (والتفت الساق بالساق) أى الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد بلاء ببلاء وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ هما ساقاك إذا التفتا وفى رواية عنه ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليها جوالا .

وفى رواية عن الحسن . هو لفهما فى الكفن .

وقوله تعالى : ﴿ **إلى ربك يومئذ المساق** ﴾ أى المرجع والمآب كقوله تعالى : ﴿ **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾ شعراً :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا
ونحن فى غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها
وان توشحت من أثوابها الحسنا
ابن الأحبة والجيران ما فعلوا
اين الذين هم كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية
فصيرتهم لأطباق الثرى رُهُنا

خطب عمر بن العزيز أخر خطبة خطبها فقال فيها : أما بعد « إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للفصل بين عباده ، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى

وسعت كل شىء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيرثها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، وفى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قضي نحبه وانقضى أجله فتدعونه فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، غنياً عما خلف ، فقيراً إلى ما أسلف ، فأتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته ، وإنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، ولكن استغفر الله وأتوب اليه ، ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق ثم نزل ، فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه .

قوله : تعالى : ﴿ **فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى** ﴾ .

قال ابن كثير :

هذا اخبار منه سبحانه عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه فلا خير فيه باطنا ولا ظاهراً ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطي** ﴾ أى جذلاناً أشراً بطراً كسلانا لا همة له ولا عمل كما قال تعالى : ﴿ **وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ وكما قال سبحانه : (إنه كان فى أهله مسرورا إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً) .

وقوله تعالى ﴿ **أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى** ﴾

أى ويل لك مرة بعد مرة ، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك .

ويرى بعض المفسرين أن معنى ﴿ **أولى** ﴾ أحرى فيكون المراد ، النار أولى بك وأحرى .

ثم كرر هذا الوعيد فقال :

﴿ **ثم أولى لك فأولى** ﴾ أى يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى فأنت جدير بهذا .

ثم أقام سبحانه الدليل على البعث من وجهين فى قوله تعالى:

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ● ألم يك نطفة من منى يمنى ● ثم كان علقة فخلق فسوى ● فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ● أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ .

الدليل الأول :

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ أى لا يترك الإنسان فى الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره مهملاً لا يحاسب ، بل هو مأمور منهى محشور إلى ربه ، فخالق الخلق لا يساوى الصالح المزكى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسى نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ .

وإذا فلابد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة .

والدليل الثانى :

قوله تعالى ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ أى أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام ؟ ﴿ **ثم كان علقة فخلق فسوى** ﴾ أى فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره ؟ . ولهذا قال تعالى ﴿ **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟** ﴾ أى أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ فتلك أهون من البدء فى قياس العقل كما قال تعالى ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

وقد جاء من طرق عدة أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلى

وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ منكم : « والتين والزيتون ، **وانتهى إلى آخرها** : أليس الله **بأحكم الحاكمين فليقل** : **بلى** وأنا على ذلكم من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، **فليقل بلى** ، وقرأ المرسلات فبلغ فبأى حديث بعده يؤمنون « **فليقل** : آمنا بالله»[1]

بحث فى خلق النطفة

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه القيم خلق الانسان بين الطب والقرآن ما ملخصه :

« إن بداية خلق الانسان ـ إذا تجاوزنا المرحلة الطينية ـ هى النطفة قد ورد ذكر النطفة فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً . . كما ذكرت أحياناً باسم الماء المهين والماء الدافق . . وتذكر أحيانا باسم المنى وليست هذه الألفاظ مترادفة متطابقة المعنى ـ كلا ـ فهى تختلف فى التفاصيل فلفظ المنى مثلاً يشمل النطفة ويزيد عليها بالماء الذى يحتويها . . وهكذا .

والنطفة أنواع ثلاثة :

١ ـ النطفة المذكرة : وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى المنى والتى تفرزها الخصية .

٢ ـ النطفة المؤنثة : وهى البويضة التى يفرزها المبيض مرة فى الشهر .

٣ ـ النطفة الأمشاج : وهى النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الذى يلقح بالبويضة . أى (البويضة الملقحة) .

المنى :

ويطلق لفظ المنى على الأفرازات التناسلية للرجل والتى تفرزها الخصية والبروستاتا والحويصلة المنوية . . والمنى مكون من شقين !

(١) إنظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

الأول : هو الحيوانات المنوية التى تتكون من القنوات المنوية فى الخصية .. وهى ذاتها المسماة بالنطفة .

والثانى هو السائل المنوى الذى يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والتى تسبح فيه حتى تصل إلى الرحم ..

وقد ورد لفظ المنى فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع .. وهى

١ - قوله تعالى ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟** ﴾ القيامة

٢ - وقوله تعالى ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ النجم

٣ - ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ الواقعة .

ما من كل الماء يكون الولد :

والعجيب حقاً (ولا عجب فى الواقع لأن خالق النطفة ومنشئها هو الذى يتحدث عنها) إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة فجعل النطفة جزءاً من المنى فى قوله تعالى ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾ وفى الحديث الشريف « ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء أخرجه مسلم . إن هذا الحديث الشريف إعجاز كامل فلم يكن أحد يعلم أن جزءاً يسيراً من المنى هو الذى يخلق منه الولد .. فلم يكن أحد يتصور أن فى القذفة الواحدة من المنى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة ميليون حيوان منوى وأن حيواناً منوياً واحداً فقط هو الذى يقوم بتلقيح البويضة .

فالحديث صريح فى أنه ليس من كل الماء يخلق الولد .. وانما من جزء يسير منه .. وانى لمن عاش قبل أربع عشر قرناً أن يعلم هذه الحقيقة التى لم تعرف إلا فى القرن العشرين إذا لم يكن علمه قد جاء من لدن العليم الخبير وقد دلت على معنى هذا الحديث آية قرآنية كريمة . قال تعالى ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ .. قال المفسرون السلالة هى الخلاصة وخلاصة الماء المهين هى التى يكون منها الولد .. فهناك انتقاء بعد انتقاء من مئات الملايين من الحيوانات المنوية .. فأول ما تخرج يكون عشرين بالمائة منها غير صالح للتلقيح ، ثم يموت فى المهبل عدد كبير منها .. ثم يموت على عنق الرحم عدد آخر ... ثم تذهب مجموعة منها إلى قناة الرحم اليمنى وأخرى إلى قناة الرحم اليسرى ولا تدرى فى أى منها تكون البويضة .. فتهلك تلك التى ذهبت إلى غير مكان البويضة .. ولا يصل فى النهاية إلى البويضة إلا ما يقرب من خمسمائة حيوان منوى فقط وهنا يقع اختيار وانتقاء واصطفاء آخر لحيوان منوى واحد فقط من بين هؤلاء ليتم به تلقيح البويضة وصدق الله العظيم .. وصدق رسوله الكريم الذى يقول « ما من كل الماء يكون الولد .. وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء » رواه مسلم .[١]

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديق رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورد برواية لأبى سعيد

وهناك اختيار واصطفاء أيضاً للبويضة . . فمبيض الطفلة وهى لاتزن جنيناً فى بطن أمها يحتوى على ستة ملايين بويضة . . فإذا ما خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها . . وتستمر هذه البويضات فى أندثارها حتى بلغت القناة المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً . . وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمائة بويضة فى حياة المرأة كلها . . وفى كل شهر تنمو مجموعة من البويضات ولكن يد القدرة تختار واحدة فقط لتكمل نموها وتخرج لملاقاة الحيوان المنوى السعيد فى الثلث الوحشى لقناة الرحم . .

وهناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوى وهناك اختيار واصطفاء للبويضة . بل أن هناك اختيارا واصطفاءاً للبويضة الملقحة والكرة الجرثومية . . فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً . . كلها فإن الأبحاث الحديثة جداً تقول : إن ٧٨ بالمائة من كل حمل يجهض ويتم اسقاطه . وأن ما يقرب من ٥٠ بالمائة تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل مصداقاً لحديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : « إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكاً فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة . فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً » أخرجه ابن أبى حاتم .

ولم تعرف الحيوانات المنوية ومكونات المنى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث علم دور الحيوانات المنوية فى ايجاد الانسان على ضوء المعلومات الطبية الحديثة وهذا وحده أحد المعجزات العديدة بل التى لا حصر لها بين دفتى الكتاب المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولم تكتف الآية الكريمة بذلك بل إنها قالت أن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التى تمنى . . حيث يقول سبحانه فى نفس الآية الكريمة فجعل منه ﴿ **أى المنى** ﴾ الزوجين الذكر والأنثى كما يقول فى الآية الكريمة التى فى سورة النجم ﴿ **وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

فالذكورة والأنوثة فى الجنين يحددها الحيوان المنوى الذى تختاره القدرة الألهية المبدعة فإذا أرادت المشيئة الطليقة ايجاد ولد ذكر لقح حيوان منوى يحمل شارة الذكورة البويضة وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة هو الذى يلقح بويضة المرأة .

قال تعالى ﴿ **يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير** ﴾ .

الذكورة والأنوثة من الذى سيحدد نوع الجنين وجنسه ذكراً أم أنثى ؟ سؤال قديم اختلفت الأجابات حوله . . وجاء القرآن الكريم بفصل الخطاب ولا غرابة فإن الذى خلق أعلم بخلقه ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾

يقول المولى - عز وجل - فى سورة القيامة !

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منّى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ ؟

ويكون الجواب الوحيد على هذا السؤال بلى إنه على كل شىء قدير .

كما يقول تعالى فى سورة النجم : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ والنطفة التى تمنى هى نطفة الرجل - هى الحيوان المنوى كما نسميه اليوم باصطلاح العلم الحديث .

وقد رأينا فيما سبق كيف أن كل خلية فى جسم الانسان تحتوى على ثلاثة وعشرين زوجاً من الجسميات الملونة . وأن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن جنسه الشخصى وجنسه ذكر أم أنثى كل خلية من خلايا الجسم تنبئك بذلك . . فخلايا الرجل تحتوى على الجسميات الملونة XY بينما خلايا الخصية انقساما اختزالياً فإن ناتج هذا الانقسام هو خلايا أو حيوانات منوية تحتوى على X فقط أو Y فقط أن هذه الحيوانات المنوية مذكرة أو حيوانات منوية مؤنثة ، فالحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة X . . وقد استطاع العلماء أن يفرقوا بينهما فى الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما فى الحقيقة والمخبر فللحيوان المنوى المذكر وميضاً ولمعاناً فى رأسه بينما الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة يفقد ذلك اللمعان والنور ليس هذا فحسب ولكن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أسرع حركة وأقوى شكيمة فى الغالب من زميله الذى يحمل شارة الأنوثة .

وبما أن الأم (البويضة) تعطى دائماً شارة الأنوثة فإن الحيوان المنوى هو الوحيد الذى يحدد بإرادة الله نوع الجنين ذكر أم أنثى . . إذ أنه يحمل شارة الذكورة أو يحمل شارة الأنوثة . . فإذا لقح الحيوان المنوى المذكر البويضة كان الجنين ذكراً بإذن الله . أما إذا لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة فإن نتيجة الحمل هى أنثى بإذن الله وتبقى الآية بعد ذلك كله إعجازاً علمياً كاملاً .

﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

فالنطفة التى تمنى زوجان : حيوان منوى مذكر وحيوان منوى مؤنث والنطفة التى تمنى تقرر نوعية الجنين وجنسه وصدق الله العظيم .

هل للمرأة دور فى تحديد الذكورة والأنوثة ؟

لقد قررت الآيات الكريمة السابقة أن الذى يحدد ذكورة الجنين أو أنوثته هو الله سبحانه وتعالى بواسطة النطفة التى تمنى ويبدو أن ليس للمرأة من دور واضح فى تحديد الذكورة والأنوثة . . ولكن الحديث الشريف الذى أخرجه مسلم فى صحيحه يقول أن للمرأة دور فى ذلك حيث يقول ﷺ لليهودى الذى سأله عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنث بإذن الله »[1] . . قال اليهودى صدقت وإنك لنبى .

وتضمن الحديث عدة قضايا : أولها صفة ماء الرجل وهو أبيض وصفة ماء المرأة وأنه أصفر . .

والقضية الثانية : هى إذا علا ماء الرجل أذكر بإذن الله وإذا علا ماء المرأة أنث بإذن الله .

ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية بينما إفرازات عنق الرحم قلوية . كما نعلم أن إفرازات عنق

---

(١) المرجع السابق

(١) إنظر صيحى مسلم جـ٢ ص١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديق رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورم برواية لأبى سعيد

الرحم تكون ثخينة ولزجة فى غير وقت الإبياض . . أما عند خروج البويضة من المبيض فإن هذه الافرازات ترف وتخف لزوجتها لتسمح للحيوانات المنوية بالولوج بسهولة .

ونحن إلى الآن لا نعلم دور هذه الإفرازات فى تشجيع الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أو الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة . . ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث لتحديد دور هذه الإفرازات فى تحديد الذكورة أو الأنوثة . وذلك بواسطة تأثيرها على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة . .

ونحن نقول مع ابن القيم (التبيان فى أقسام القرآن) : « ومع هذا كله فهذا جزء سبب وليس بموجب . . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب . وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعجيزاً لقدرته . . وقد أشار فى الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وأنث بإذن الله » وقد قال تعالى : **﴿ لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير ﴾** .

فأخبر سبحانه وتعالى أن ذلك عائد إلى مشيئته . وأنه قد يهب الذكور فقط والإناث فقط وقد يجمع للوالدين بين النوعين معاً . وقد يخليهما عنهما معاً . وأن ذلك راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته » .

الشـبه :

وأما الشبه فموضوع آخر تحدثت عنه الأحاديث النبوية أيضاً فقد يشبه الولد أباه وقد يشبه أمه أو أخواله . . وقد يشبه أحد أجداده . . وقد لا يشبه أياً من آبائه . . فقد جاء فى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن الشبه فقال النبى ﷺ « وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال عبد الله بن سلام رئيس أحبار اليهود آنذاك أشهد أنك رسول الله فآمن رضى الله عنه .

فالسبق فى الحديث يحدد الشبه فإذا سبق ماء الرجل كان الشبه له وإذا سبق ماء المرأة كان الشبه لها . وهذا لا ينفى أن الولد قد لا يشبه أياً من الوالدين . . كما جاء فى حديث الفزارى الذى أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد والدارقطنى وفيه أن رجلاً من بنى فزارة جاء إلى النبى ﷺ يعرض نفى ولده لأن امرأته ولدت غلاماً أسود فقال النبى ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال فما ألوانها ؟ قال أحمر فقال رسول الله ﷺ : هل فيها من أوراق (أى أسمر) قال إن فيها لورقاً . قال فأنى أتاها ذلك ؟ قال عسى أن يكون نزعة عرق »[1] ولم يرخص له فى الانتفاء منه .

وقد دل هنا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التى لا تدانى فى الحوار والاقناع بحيث أرجع

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٧ ص٦٨ ، ٦٩ بكتاب الطلاق « باب إذا عرض بنفس الولد » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

السائل إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . وتزيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القائمة فى زوجته التى لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود . .

وقد قال أغلب العلماء والأئمة على أنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لا يشبه أحد أبويه .

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين . كما حدث للفزارى الذى جاءته امرأته بغلام أسود . .

والخلاصة أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو للأسلاف أو بظهور صفات جديدة ـ كما حدث للفزارى أمر بالغ التعقيد . . وتعمل فيه الجينات بصورة خفية ومعقدة . . وبعضها يتبع قوانين مندل حسب الصفة السائدة أو متنحية وبعضها لا يتبعها وحتى تلك التى تعتبر خاضعة لقوانين الوراثة قد تتخلف عن تلك القوانين ويعتبر الجنين عندئذ كامل التعبير أو ناقص التعبير ولا يزال العلم الحديث يجهل الكثير الكثير من الحقائق التى تحدد الشبه فى الولد .

ولا ندرى إلى الآن ما هو دور السبق فى ماء الرجل أو ماء المرأة فى الشبه من الناحية العلمية ـ وحتى يتسع مدى العلم فى هذا الباب فإننا نقبل الحديث الشريف بقلوب مطمئنة واثقة بصدق المصطفى صلوات الله عليه الذى لا ينطق عن الهوى والذى لا يقول إلا حقاً . . وينبغى أن يحفز ذلك العلماء المختصين فى هذا الباب لدراسته فقد تنفتح لهم أبواب وتكشف لهم كشوفات . . وهذا معلم من معالم البحث التى ينبغى أن يدرسها العلماء المسلمون المختصون فى هذا الفرع من العلم . أ. هـ .

تفسير سورة الإنسان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية . وآياتها إحدى وثلاثون . وكلماتها مائتان وأربعون وحروفها : ألف وخمسون .

ونواصل آياتها : على الألف .

ولها ثلاثة أسماء .

سورة (هل أتى) لمفتتحها ، وسورة الإنسان لقوله (على الإنسان) وسورة الدهر ، لقوله : (حين من الدهر) .

مقصود السورة :

بيان مدة خلقة آدم ، وهداية الخلق بمصالحهم ، وذكر ثواب الأبرار ، فى دار القرار ، وذكر المنة على الرسول - ﷺ - وأمره بالصبر وقيام الليل ، والمنة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله فى قوله (**يدخل من يشاء فى رحمته**) .

مناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة الأهوال التى يلقاها الفجار يوم القيامة وذكر فى هذه ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم فى تلك الدار .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

معانى المفردات

(هل) أى : قد ، (حين) أى : طائفة محدودة من الزمان .

(الدهر) الزمان غير المحدود ، (أمشاج : أى : أخلاط واحدها مشج (بفتحتين) .

(نبتليه) أى : نختبره ، (السبيل) الطريق أى : بنصب الدلائل وإنزال الآيات .
أعتدنا : أى هيأنا وأعددنا .
الأغلال : واحدها غُل (بالضم) وهو القيد .
السعير : النار الموقدة .
الأبرار : واحدهم بر وجمع البار البررة الأبرار وهم أهل الطاعة والإخلاص والصدق .
والكأس : هى الإناء الذى فيه الشراب وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها .
والمزاج : ما يمزج به ، أى يكون شوبها وخلطها بماء الكافور ، وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة . (يوفون بالنذر) أى يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من الطاعات .
شره : أى : شدائده .
مستطيراً : أى : قاشياً منتشراً فى الأقطار .
عبوساً : أى : تعبس فيه الوجوه .
قمطريراً : أى : شديد العبوس .
وقاهم : أى : دفع عنهم .
لقاهم : أى : أعطاهم .
نضرة : أى : حسناً وبهاء .
سروراً : أى : حبوراً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أى كان فى العدم ـ لم يكن له ذكر ولا وجود كقوله تعالى ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ قال المفسرون (هل أتى) بمعنى قد أتى كما تقول : هل أكرمتك ، هل وعظتك ؟ ومقصودك بأنك قد أكرمته ووعظته ، والمراد بالإنسان الجنس ، وبالحين مدة لبثه فى بطن أمه . والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان منسياً لا يفطن له ، وكان فى العدم جرثومة فى صلب أبيه ، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومر عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله ، وأبدع تكوينه وإنشاؤه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد .

وبعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن موجوداً ، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود ، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متعه بنعمة العقل والحواس فقال تعالى :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . إنا خلقنا ذرية آدم من نطفة يعنى من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل فى وعاء كان ذلك ركية أو قربة أو غير ذلك .

وقوله تعالى ﴿ أمشاج ﴾ واحدها مشج ومشيج يقال منه إذا مشجت هذا بهذا خلطته وهو مشوج به ، ومشيج أى مخلوط . . وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وروى بسنده عن عكرمة قوله : أمشاج نبتليه قال : ماء الرجل وماء المرأة يشمج أحدهما بالآخر وروى أيضاً قوله ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وكذا قال ابن عباس والربيع بن أنس والحسن البصرى ومجاهد وكثير من المفسرين القدامى والمحدثين .

وقال تعالى ﴿ نبتليه ﴾ أى لنختبره بالتكاليف الشرعية ، والأوامر الإلهية لننظر أيشكر أم يكفر ؟ وهل يستقيم فى سيره أم ينحرف ويزيغ ؟ وقوله ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أى فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً ذا سمع وبصر ، ليسمع الآيات التنزيلية ، ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم .

النطفة الأمشاج فى علم الأجنة

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) :

وتخرج البويضة من المبيض مرة واحدة فى الشهر ـ وعليها التاج المشع كأنها عروس تتهادى وتبعث شيئاً من أريجها لتلك الحيوانات المنوية الضارية أذيالها بقوة والسابحة عبر الإفرازات . . وتقطع المفاوز والمخاطر لعلها تحظى ولو بنظرة إلى هذه العروس الفتانة الجميلة وتسير تلك الحيوانات المنوية (نطفة الرجل) باحثة عن البويضة (نطفة المرأة) لا تدرى أين هى : عن يمين أو يسار فتخترق مجموعة منها القناة الرحمية اليمنى وتسير مجموعة أخرى عبر القناة الرحمية اليسرى (تدعى أيضاً قناة فالوب) وهى تمنى النفس بلقاء المحبوب . . فيهلك من يهلك فى تلك المفاوز وعبر تلك المخاطر دون أن يحظى ولو بنظرة من تلك المحبوبة وتشاء القدرة الإلهية المبدعة أن يقترب من البويضة مئات الحيوانات المنوية بينما تحتوى الدفعة الواحدة من المنى لمئات الملايين تهلك معظمها قبل الوصول إلى البويضة وتختار القدرة المبدعة واحداً من ملايين الحيوانات المنوية لتوصله سالماً إلى البويضة فتهش له مرحبة وتفتح له كوة فى صدارها حتى يلج من خلال ذلك الجدار المصمت المحاط بالتاج المشع ـ فإذا ما ولج أوصدت الباب وأحكمت الرتاج وأضافت إلى الجدار جداراً آخر حتى تمنع عنها أى راغب وتصد بابها دون كل لامس إن هذا الوصف يبدو خيالياً ولكنى سأنقل لك عبارة أستاذ علم الأجنة والتشريح فى جامعة عين شمس القاهرة الأستاذ الدكتور شفيق عبد الملك بنصها حيث يقول فى كتابه علم تكوين الأجنة . . « وتبدأ عملية الإخصاب خطواتها بدور الحيوان المنوى الذى إذا أحس بقرب البويضة سرعان ما يفرز مادة خاصة لها قدرة على إذابة جزء من المنطقة

الدائرية بدورها إجابة لذلك مادة أخرى لزجة القوام على سطحها فى منطقة اقتراب الحيوان المنوى تحية وترحيباً به من جهة ، ومساعدة وتسهيلاً لإمكان تعلقه والتصاقه بسطحها من جهة أخرى - رجاء إمكان الحيوان المنوى إذابة ما بقى فى المنطقة الدائرية المشعة وكذا المنطقة التى تليها وتحيط بالبويضة . وهى المنطقة الشفافة تمهيداً لوصول الحيوان المنوى إلى غشاء البويضة ونقلها ليدخل البويضة وإذا ما ثقبها ودخلها يغلق الثقب حالاً ولن يسمح لحيوان منوى آخر بالدخول فى البويضة ولذلك يكون نصيب العدد الكثير من الحيوانات المنوية التى حاولت ثقب البويضة والدخول فيها ولم تفلح أن تظل ملتصقة ومعلقة بمنطقة البويضة الشفافة حتى تتلاشى ، وإذا ما دخل الحيوان المنوى إلى البويضة هشت له نواتها ومكمن السر فيها لتكون النواة الأولية للأنثى أو الطليعة للأنثى كما أن نواة الحيوان المنوى المتجمعة فى رأسه تفعل الشىء ذاته وتكون الأولية للذكر .

وعند دخول الحيوان المنوى تكمل نواة الأنثى إنقسامها الاختزالى الذى بدأته منذ كانت جنيناً فى رحم أمها . . أى منذ عشرات السنين - وتتقابل النوتان المذكرة والمؤنثة وجهاً لوجه ويقوم مريكيز الحيوان المنوى بتكوين أشعة مغزلية فى قطبى الخلية الأمشاج وعندئذ يحصل أول انقسام عادى فى الخلية الأمشاج . . وتنتقل نصف الكروموسومات (الجسيمات الملونة) فى كل من الذكر والأنثى إلى جهة كما ينتقل النصف الآخر إلى الجهة المقابلة . . وسرعان ما ينزل بينهما جدار يفصل بينهما ليكون أول خليتين تامتين من هذه النطفة الأمشاج .

مرحلة الانشقاق والانقسام
فى النطفة الأمشاج

حالما يتم التخصيب وتتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوى والبويضة . . تصنع يد القدرة للبويضة الملقحة جداراً سميكاً مصمتاً لا يمكن لأى حيوان منوى آخر اختراقه كما أنها تخلع عنها تاجها المشع الذى كان يغرى الحيوانات المنوية بالاقتراب منها ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالعمل الجاد وتبدأ بالانشطار : الخلية تصبح خليتان والخليتان أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت عندئذ تسمى التوتة فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومى أو البلاستولا .

وفى هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة (تتحرك النطفة الأمشاج بواسطة شعيرات قناة الرحم وتقلصات جداره . وليست لها وسيلة للحركة الذاتية) .

وإن كانت حركة بطيئة فهى تنتقل من الثلث الوحشى لقناة الرحم (قناة فالوب) حيث يتم التلقيح وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم وفى خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنظر أين تتوسد وتتغرز .

وتوجهها يد العناية الإلهية إلى أن خير مكان لها هو النصف العلوى من الرحم وخاصة جداره الخلفى - وهناك تنشب وتعلق فى جدار الرحم الذى قد استعد لاستقبالها بفرش الطنف والوسائد وجعل جداره مليئاً بالأوعية الدموية حتى يغذيها وينميها .

وعندما تنغرز الكرة الجرثومية تكون قد تحولت من نطفة الأمشاج إلى علقة وتبدأ عندئذ مرحلة جديدة فى حياة الجنين .. وهى مرحلة العلقة : - أ. هـ .

قوله تعالى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ﴾

ثم ذكر أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال فقال (إنا هديناه السبيل) أى بيناه ووضحناه وبصرناه به كقوله تعالى **﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾** أى بينا له طريق الخير وطريق الشر .

وقوله : **﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾** أى فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد كما جاء فى مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن النبى - ﷺ - قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » قال وما إمارة السفهاء ؟ قال «أمراء يكونون من بعدى لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصلاة قربان - أو قال برهان - يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به ، يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها »[1] ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » .

وقوله تعالى : **﴿ إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً ﴾** ، أى إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا وخالفوا أمرنا وسلكوا سبيل الضلال - سلاسل بها يقادون إلى الجحيم ، وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين فى الدنيا ، وناراً بها يحرقون . ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾** . وكقوله تعالى : **﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾** .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعده للكافرين بين ما أعده للشاكرين من شراب شهى ولباس بهى فقال تعالى :

---

(١) إنظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٣٢١ فقد ورد الحديث من رواية لجابر بن عبد الله

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾

أى : إن الذين بروا بطاعتهم ربهم ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه ـ يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبرداً وبياضاً .

وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم فى غرف الجنات ، يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه .

قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا . ثم ذكر ما لأجله استحقوا الكرامة قال تعالى :

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ .

أى : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر :

قال الإمام مالك بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه »[1] ورواه أيضاً البخارى من حديث مالك . وقوله تعالى : **﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾** أى ويتركون المجرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . كقوله تعالى : **﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾** أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم كقوله تعالى **﴿ وآتى المال على حبه ﴾** وكقوله تعالى **﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾** .

وفى الحديث الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى »[2] ، أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : **﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾** المسكين هو العاجز عن الاكتساب واليتيم : الذى مات كاسبه ، والأسير : المأخوذ من قومه ، المملوكة رقبته ، الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٥٩ باب النذر فى الطاعة فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧١٦ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح حديث ١٠٣٢/٩٢ فقد ورد هطا الجزء من حديث طويل لأبى هريرة

والمراد من إطعام الطعام ، الإحسان إلى المحتاجين ، ومواساتهم بأى وجه كان وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾ أى نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس قال مجاهد وسعيد بن جبير أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

قال تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنْتُم لا تُظلمون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا نخافَ مِن ربِّنا يوماً عبُوساً قَمْطرِيراً** ﴾ أى إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه فى اليوم العبوس القمطرير . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما عبوساً أى ضيقاً ، قمطريراً أى طويلاً ، قال ابن جرير والقمطرير هو الشديد ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء .

قال الله تعالى : ﴿ **فوقاهُم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صَبرُوا جنَّة وحريرا** ﴾ .

أى آمنهم الله سبحانه مما خافوا منه (**ولقاهم نضرة**) أى وأعطاهم نُضرة فى وجوههم كما قال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (وسروراً) أى فى قلوبهم فقد جمع لأولوياته بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه سبحانه فلاأجمل لبواطنهم . ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر إليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهى إشراقه وتحسينه وبهجته .

وقوله تعالى : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنَّةً وحريراً** ﴾ أى بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنّة وحريراً أى منزلاً رحباً وعيشاً رغداً ، ولباساً حسناً . وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم كما قال) ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعمَ عُقْبى الدَّار** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدّروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلا** ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال تعالى : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾ أى متكئين فى الجنة على السرر فى الحجال ، ليس لديهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل جو واحد معتدل دائم سرمدى ، فهم لا يبغون عنها

حولا . وقوله : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ أى أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار ، مظللة عليهم زيادة فى نعيمهم . كقوله تعالى : ﴿ **وندخلهم ظلاً ظليلاً** ﴾ وكقوله ﴿ **وظل ممدود** ﴾ وكقوله ﴿ **إن المتقين فى ظلال وعيون** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائِك مُتَّكِئُون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وذللت قطوفها تذليلاً** ﴾ أى سخرت للقائم والقاعد والمتكىء . قال مجاهد : إن قام ارتفعت منه بقدر ، وإن قعد تدلت له حتى ينالها ، وكذلك إذا اضطجع ، لا يردَّ اليد عنها بُعدٌ ولا شوك .

وعن البراء بن عازب قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا .

وبعد أن وصف ـ سبحانه ـ طعامهم ولباسهم ومسكنهم ـ وصف شرابهم وأوانيه فقال تعالى : ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدَّروها تقديراً** ﴾ أى يدبر عليهم خدمهم كؤوس الشراب والأكواب من الفضة . وقد تكونت وهى جامعة لصفاء الزجاجة وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها كفايتهم وريهم . وذلك ألذ لهم وأخف عليهم ، فهى ليست بالملآى التى تفيض ، ولا بالناقصة التى تغيض .

وقوله تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأساً كان مِزاجها زنجبيلاً** ﴾ أى (كان مزاجها زنجبيلا) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما حرفاً . كما قاله قتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ **عيناً فيها تسمى سلسبيلاً** ﴾ أى الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلاً . وسميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريانها ، وكذلك لسلاستها فى الحلق .

وقوله تعالى : ﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عاليهم ثياب سندس خضرٌ وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً** ﴾ .

أى : ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة (مخلدون) أى على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . وقوله : ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً** ﴾ أى إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء جوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وقد وصفهم سبحانه أيضاً بقوله : ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ أى وإذا رأيت يا محمد (ثم) أى هناك يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحيرة والسرور (رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) أى مملكة الله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان وهو مما يلى أبدانهم ، والاستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلى الظاهر كما هو المعهود فى اللباس (وحلوا أساور من فضة) وهذه صفة الابرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى :﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ . ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أى يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير . وكما حكى سبحانه عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

توجيهات ربانية

قال تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

(١) إنظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٩ باب صفة الجنة والنار فقد ورد هذا الجزء من الحديث من حديث طويل لعبد الله

سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

معانى المفردات

تنزيلا : أى أنزلناه عليك مفرقاً منجماً .
حكم ربك : هو تأخير نصرك على الكفار إلى حين .
والآثم : هو الفاجر المجاهر بالمعاصى .
والكفور : هو المشرك المجاهر بكفره .
(بكرة وأصيلا) أى : أول النهار وآخره . والمراد بذلك جميع الأوقات .
(اسجد) أى : صل .
(سبحه) أى : تهجد .
(وراءهم) أى : أمامهم .
(شددنا أسرهم) أى : أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .
(بدلنا أمثالهم) أى : أهلكناهم ، وبدلنا أمثالهم فى شدة الخلق .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الآخرة ، وبين عذاب الكفار على سبيل الاختصار ، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء أردف ذلك ذكر أحوال الدنيا ، وقدم أحوال المطيعين ، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على أحوال المتمردين والمشركين .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ،ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾** .

يقول تعالى ممتنا على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزله عليه من القرآن العظيم ﴿ تنزيلا ﴾ أى : أنزلناه مفرقاً منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تجد فى الكون ، فتكون تثبيتا لايمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين قال تعالى **﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾** .

وقد يكون المعنى : نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره ، وأن الذى أنزل عليه وحى لا كهانة ولا سحر وبذا تزول الوحشة من قول الكفار : إنه كهانة أو سحر . وقوله تعالى ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ أى كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره . ﴿ **ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً** ﴾ أى لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل اليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا** ﴾ أى أول النهار وآخره والمراد بذلك جميع الأوقات كما قال تعالى ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾ .

أذكار الصباح والمساء

قال ابن القيم فى كتابه « الوابل الصيب من الكلم الطيب » (فى ذكر طرفى النهار) « وهما ما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب . قال سبحانه وتعالى ﴿ **يا يها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ والأصيل : قال الجوهرى هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وقال تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** ﴾ فالابكار أول النهار والعشى آخره ، وقال تعالى ﴿ **فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ وهذا تفسير ما جاء فى الأحاديث : من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسى ، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وأن محل هذه الاذكار بعد الصبح وبعد العصر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه »[1] .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٩/٢٦٩٢ فقد ورد الحديث برواية عن أبى خريرة

وفى صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله . . . »[1] .

وفى السنن عن عبد الله بن حبيب قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قل » قلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال (قل هو الله أحد) والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء قال الترمذى : حديث حسن صحيح . (وهذا اللفظ لأبى داود) . وفى الترمذى أيضاً عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه يقول : إذا أصبح أحدكم فليقل : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا وبك نحيا ، وبك نموت واليك النشور وإذا أمسى فليقل : اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فا غفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة »[2] .

وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم . قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك »[3] قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضاً عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ـ ثلاث مرات ـ فيضره شىء » قال الترمذى : حديث حسن صحيح[4]

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يمسى وإذا يصبح : رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا كان حقاً على الله أن يرضيه »

(١) إنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح ـ رقم ٧٥/ ٢٧٢٣ فقد ورد الحديث برواية لعبد الله

(٢) إنظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٩٨ « كتاب الدعوات » باب أفضل الاستغفار فقد ورد الحديث من رواية لشداد بن أوس

(٣) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥٢

(٤) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص ١٣٢ رقم ٣٤٤٨

وقال : حديث حسن صحيح[١] .

وفى الترمذى أيضاً عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين اعتق نصفه من النار ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار »[٢] .

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن غنام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه . ومن قال مثل ذلك . حين يمسى فقد أدى شكر ليلته »[٣] .

وفى السنن وصحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم أستر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى »[٤] قال وكيع يعنى الخسف . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وكقوله ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له فى جميع الأوقات ، فى الليل والنهار ، والصباح والمساء ، بقلبه ولسانه ، ليتقوى على مجابهة أعدائه كما قال تعالى : ﴿ ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

هديه - صلى الله عليه وسلم - فى قيام الليل

قال ابن القيم فى الزاد :

وقد اختلف السلف والخلف فى أنه هل كان فرضاً عليه أم لا ، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قالوا فهذا صريح من عدم الوجوب ، قال الآخرين أمره بالتهجد فى هذه السورة كما أمره فى قوله تعالى ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ﴾ ولم يجىء ما ينسخه عنه ، وأما قوله تعالى ﴿ نافلة لك ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة لك وانما المراد بالنافلة الزيادة

(١) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص١٣٣ رقم ٣٤٤٩
(٢) المرجع السابق
(٣) إنظر سند ابى داود جـ ٥ ص٣١٤ كتاب الأدب باب مايقول إذا اصبح وإذا أمس
(٤) انظر المستدرك للحاكم جـ ١ ص٣١٣ كتاب باب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر

ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى ﴿ **ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ أى زيادة على الولد . وكذلك النافلة فى تهجد النبى صلى الله عليه وسلم زيادة فى درجاته وفى أجره ، ولهذا خصه بها فإن قيام الليل فى حق غيره مباح ومكفر للسيئات وأما النبى صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل فى زيادة الدرجات وعلو المراتب وغيره يعمل فى التكفير . قال مجاهد : إنما كان نافلة للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة أى زيادة فى الثواب ولغيره كفارة لذنوبه . قال ابن المنذر فى تفسيره بسنده عن مجاهد قال ما سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل فى كفارة الذنوب وليست للناس نوافل انما هى للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة والناس جميعاً ما سوى المكتوبة لذنوبهم فى كفارتها .

قال ابن القيم : والمقصود أن النافلة فى الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه كالمستحب والمندوب وانما المراد بها الزيادة فى الدرجات وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب فلا يكون قوله (نافلة لك) نافياً لما دل عليه الأمر من الوجوب .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً وكان إذا غلبه النوم أو وجع صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة فسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول فى هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله فهو كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستقاء ونحوها لأن المقصود أن يكون آخر صلاة الليل وتراً كما أن المغرب آخر صلاة النهار فإذا انقضى الليل وصليت الصبح لم يبلغ الوتر موقعه هذا معنى كلامه .

وكان قيامه ﷺ بالليل احدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة كما قاله ابن عباس وعائشة فإنه ثبت عنهما هذا وهذا ففى الصحيحين عنها ما كان رسول الله ﷺ يزيد فى رمضان ولا غيره على احدى عشرة ركعة .

وفى الصحيحين أيضا كان رسول الله ﷺ يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر من ذلك بخمس لا يجلس فى شىء إلا فى آخرهن . والصحيح عن عائشة الأول والركعتان فوق الأحدى عشر هما ركعتا الفجر جاء ذلك مبينا فى هذا الحديث بعينه وكان رسول الله ﷺ يصلى ثلاث عشرة ركعة بركعتى الفجر ذكره مسلم فى صحيحه[1] . وقال البخارى فى هذا الحديث كان رسول الله ﷺ يصلى بالليل ثلاث عشرة ركعة ثم يصلى إذا سمع النداء بالفجر ركعتين خفيفتين . .

(فصل فى سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل) .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل علىّ إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوى إلى فراشه . وقال ابن عباس لما بات عنده صلى العشاء ثم جاء ثم صلى ثم نام.ذكرهما ـ أى الحديثين ـ أبو داود وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك ثم يذكر الله تعالى (يقول : لا إله

(١) إنظر صحيح مسلم جـ ١ ص٥٠٨ كتاب الصلاة باب صلاة الليل

إلا أنت سبحانك اللهم استغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وكان يقول إذا انتبه من نومه « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ثم يقول وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ إلى آخرها وقال اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت . . .) ثم بعد ذلك يتطهر ثم يصلى ركعتين خفيفتين كما فى صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح بركعتين خفيفتين وأمر بذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين رواه مسلم . وكان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو انما يصيح فى النصف الثانى وكان يقطع ورده تارة ويصليه تارة وهو الأكثر . كما قال ابن عباس فى حديث مبيته عنده أنه ﷺ استيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا واجعل لى من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم أعطنى نورا » رواه مسلم ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة فأما أنه كان يفعل هذا تارة وهذا تارة وأما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس وهو الأظهر لمواظبتها له ولمراعاتها ذلك ولكونها أعلم الخلق بقيامه الليل وابن عباس انما شاهده ليلة المبيت عند خالته وإذا اختلف ابن عباس وعائشة فى شىء من أمر قيامه بالليل فالقول ما قالت عائشة .

وكان قيامه بالليل ووتره أنواعا فمنها هذا الذى ذكره ابن عباس .

والنوع الثانى الذى ذكرته عائشة أنه يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة .

النوع الثالث : ثلاث عشرة ركعة كذلك . النوع الرابع يصلى ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متوالية لا يجلس فى شىء إلا فى آخرهن . النوع الخامس : تسع ركعات يرد منهن ثمانياً لا يجلس فى شىء منهن إلا فى الثامنة يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلى التاسعة ثم يقعد ويتشهد ويسلم ثم يصلى ركعتين جالساً بعد ما يسلم . النوع السادس : يصلى سبعاً كالتسع المذكورة ثم يصلى بعدها ركعتين جالساً . النوع السابع : أنه كان يصلى مثنى مثنى ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن فهذا رواه الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنه كان يوتر بثلاث .

النوع الرابع : ما رواه النسائى عن حذيفة أنه صلى مع النبى ﷺ فى رمضان فركع فقال فى ركوعه سبحان ربى العظيم مثل ما كان قائما ثم جلس يقول رب اغفر لى ، رب اغفر لى مثل ما كان قائما فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الغداة . وأوتر أول الليل ووسطه وآخره وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهى قوله تعالى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[1] وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع . أحدها وهو أكثرها صلاته قائماً . الثانى أنه كان يصلى قاعداً ويركع قاعداً . الثالث أنه كان يقرأ قاعداً فإذا بقى يسير من قراءته قام فركع قائماً . والانوع الثلاثة صحت عنه ﷺ . ا.هـ .

قوله تعالى : ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا** ﴾ أى إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها وينهمكون فى لذاتها الفانية ، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده .

قوله تعالى : ﴿ **نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد فى قوله تعالى ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ أى وشددنا خلقهم ﴿ **وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ أى وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداءة على المرجعة كما قال تعالى ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة** ﴾ يعنى هذه السورة تذكرة وقد كان ﷺ يقرأ يوم الجمعة فى صلاة الصبح ﴿ **ألم تنزيل** ﴾ السجدة ، ﴿ **وهل أتى على الانسان ؟** ﴾ رواه مسلم . قال ابن تيمية رحمه الله كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها فإنهما اشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت .

وقوله تعالى : ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى فمن شاء الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة ، فليتقرب إلى ربه بالطاعة ، ويتبع ما أمره به ، وينته عما نهاه عنه ، ليحظى بثوابه ، ويبتعد عن عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ أى وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها فلا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ **إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما** ﴾ أى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ ثم قال جل فى علاه ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته**

---

(١) إنظر سنن النسائى كتاب الصلاة باب ما يقول فى قيامه جـ٢ ص١٩٩ ـ ٢٠٠

والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ أى يهدى من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له .

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس اليك ، والمهدى من هديت ، أنا بك وإليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .

تفسير سورة المرسلات

مقدمة

قال صاحب البصائر عن هذه السورة الكريمة :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمسون .

وكلماتها : مائة وإحدى وثمانون .

وحروفها : ثمانمائة وستة عشر .

مجموع فواصل آياتها : (عبرتم لنا) على اللام الفصل فى الموضعين ، وعلى الراء (القصر) (صفر) ، وعلى الباء (شعب) (واللهب) .

وسميت سورة المرسلات ، لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

القسم بوقوع القيامة ، والخبر عن إهلاك القرون الماضية ، والمنة على الخلائق بإيجادهم فى الابتداء ، وإدخال الأجانب فى النار ، وصعوبة الحق إياهم ، وأنواع كرامة المؤمنين فى الجنة والشكاية عن الكفار بإعراضهم عن القرآن فى قوله ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

المتشابهات :

قوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ مكرر عشر مرات : لأنه كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكرارها مستهجنا . ولو لم يكرر كان متوعدا على بعض دون بعض . وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ، كما من عادتهم الاقتصار والإيجاز وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الايجاز .

قال البخارى بسنده عن ابن مسعود - رضى الله عنه قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها . . . الحديث »[١] .

ومناسبتها لما قبلها : أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجار ، ووعد المؤمنين الأبرار .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا ﴾ المراد الرياح .

﴿ فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ﴾ المراد الملائكة .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن سورة المرسلات جـ٣ ص ٢١١ ، ٢١٢

﴿ عذراً أو نذراً ﴾أى : فالملائكة الملقيات الى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وانذار لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره .

﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ أى : أقسم بهذه الأقسام إن ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة .

﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أى : ذهبت ضؤها .

﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى : انفطرت وتشققت .

﴿ أقتت ﴾ أى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممها .

﴿ أجلت ﴾ أى : أخرت وأمهلت .

﴿ الفصل ﴾ أى : الفصل بين الخلائق .

﴿ ويل ﴾ عذاب وخزى .

﴿ من ماء مهين ﴾ أى : من نطفة قذرة حقيرة .

﴿ فى قرار مكين ﴾ أى : فى الرحم .

﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أى : إلى مقدار معين من الوقت عند الله .

﴿ فقدرنا ﴾ أى : على خلقه وتصويره كيف شئنا .

﴿ كفاتا ﴾ ما يكفت ، أى يضم ويجمع .

﴿ رواسى ﴾ أى : جبالاً ثوابت .

﴿ شامخات ﴾ أى : مرتفعات .

﴿ فراتا ﴾ أى : عذباً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع** ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالمرسلات وهى الرياح كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ وقيل ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ . أى أقسم بالرياح حين تهب متتابعة يقفو بعضها إثر بعض ، ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ هى الرياح كما يقال عصفت الرياح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب تبارك وتعالى .

وأقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووجدانيته ، وعظم قدرته ، ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها . فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحيى بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوبا ، وترة دبورا ، وتارة صبا ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شىء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السموات والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه الأرض هلك ، كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله سبحانه إذا شاء ويرسلها إذا شاء ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب وهى أقوى خلق الله . . كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد . فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يا رب ، هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد قال النار قالوا يارب فهل من خلقك شىء اشد من النار ؟ قال نعم : الماء قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال نعم . الريح . قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقه بيمينه يخفيها عن شماله » ورواه أحمد فى سنده[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً** ﴾ يعنى الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحياً فيه ، إعذار إلى الخلق وانذار لهم عقاب الله أن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما توعدون لواقع** ﴾ هذا هو جواب القسم أى أن ما توعدون به من أمر القيامة كأمر الحساب والجزاء ، كائن لا محالة . قال المفسرون : أقسم تعالى بخمسة أشياء : تنبيهاً على جلالة قدر المقسم به ، وتعظيماً لشأن المقسم عليه ، فأقسم بالرياح التى تحمل الرحمة والعذاب ، وتسوق للعباد الخير أو الشر ، وبالملائكة الأبرار ، الذين يتنزل بالوحى للإعذار والإنذار ، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه ، وأن ما وعد الله تعالى به المكذبين ، من مجىء الساعة والثواب والعقاب ، كائن لا محالة فلا ينبغى الشك والامتراء .

وقال ابن القيم رحمه الله « ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم فى هذه الآيات وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية عن بشر بن حجاش

روح الله ، وقد جعلها الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء » ا. هـ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ أى : فإذا ذهب ضوء النجوم . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ كقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى وإذا السماء انفطرت وتشققت ، كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ وكقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وقوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أى وإذا الجبال فرقتها الرياح ، فلم يبق لها عين ولا أثر كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ﴾ وكقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ الآية وكقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لأى يوم أجلت ﴾ أى : ويقال حينئذ : لأى يوم أخرّت الأمور المتعلقة من تعذيب الكفار واهانتهم ، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفظاعة أهوالها .

والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذى أجل اجتماع المرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم . ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى ﴿ ليوم الفصل ﴾ أى ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، وهو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له . وقوله ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته وعظيم أهواله ؟

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذ فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به .

قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

يقول تعالى ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعنى من المكذبين للرسل أى : ألم نهلك من كذب الرسل قبلكم ، ونعذبهم فى الدنيا بشتى أنواع العذاب فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح وقوم فرعون ، وأخرى

بالزلزال كما كان لقوم لوط إلى أشباه ذلك من المثلات التى حلت بالاسم قبلكم ، جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسىء أفعالهم ، وأن سننا فى المكذبين لا تبديل فيها ولا تغير ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم وتندموا ، ولات ساعة مندم .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين** ﴾أى : ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخرين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم فعلوا مثل أفعالهم كقوله تعالى ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها** ﴾ .

﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾أى : إن سنتنا فى جميع المجرمين واحدة ، فكما أهلكنا المتقدمين لاجرامهم وتكذيبهم - نفعل بالمتأخرين الذين حذوا حذوهم واستنوا سنتهم .

وقوله : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى : هؤلاء وإن عذبوا فى الدنيا بأنواع من العذاب ، فالطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة ، والتكرير للتوكيد شائع فى كلام العرب كما تقدم فى سورة الرحمن .

وقال القرطبى : كرر الويل فى هذه السورة عند كل آية لمن كذب بشىء لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فجعل لكل مكذب بشىء عذاباً سوى عذابه بتكذيب شىء آخر ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومحتجا على الاعادة بالبداءة ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ أى ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة البارىء عز وجل .

أخرج الامام أحمد بسنده عن بشر بن حجاش قال إن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »(١) .

وقوله تعالى: ﴿ **فجعلناه فى قرار مكين** ﴾ يعنى جمعناه فى الرحم وهوقرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . ﴿ **الى قدر معلوم** ﴾يعنى إلى مدة معينة من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ولذا قال تعالى ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ أى ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرون ، إذ خلقناكم فى أحسن الصور والهيئات - أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكر لا الكفران والاعتراف بوحدانيته وارساله للرسل والاقرار بالبعث ؟ لكنكم كفرتم أنعمه ، ونكلتم عن الاعتراف بوحدانيته وعبدتم الأصنام والأوثان ، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء ، فسترون فى هذا اليوم عاقبة ما أجترحتم ولذا قال سبحانه ﴿ **ويل**

---

(١) إنظر تفسير ابن كثير والبنون جـ ٩ ص ١٠٦ مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ

يومئذ للمكذبين ﴾ أى خزى وعذاب لمن كذب بهذه المنن العوالى .

ألا إننا كلنا بائد وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

من آيات الله الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته
(القرار المكين)

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » تحت هذا العنوان « القرار المكين » .

قال تعالى ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ . وقال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾ لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج حتى تصير جنينا ثم حملا ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين . . لذا فلابد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة . .

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم . . ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من ميليلترين ونصف بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف ميليليتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض والعجان وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية . . . ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ولبرزت إلى الخارج . . . وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزيق عضلات العجان فى حالة الولادة المتعسرة أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى الى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم وبالجزء العلوى من المهبل ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام . . . وبالمستقيم من الخلف يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفة الانسانية فى أدوارها المختلفة كما أننا نلاحظ توازناً عجيباً بين الضغط المود فى تجويف البطن وتجويف

الحوض بحيث يمسك بالأعضاء فى أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضاً . . واتصال الرحم بالعنق اتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل لما يساعد مساعدة فعالة فى ثبات الرحم فى مكانه .

ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات : خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات . . ولهذه العضلات أهمية خاصة فى منع النزيف من الرحم وخاصة بعد الولادة . . إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية الدموية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم . . ولكن الله هيأ هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة افراز هرمون الحمل البرجستون إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة عكس هرمون الأنوثة الأستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : « إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريباً وكان خالياً من الفضول المانعة له عن فعله أشتد شوقه إلى المنى حتى أن الانسان يحس فى وقت الجماع وكان الرحم يجذب أحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم . . ولا يمكن أن يحصل ذلك أثناء الحمل مثلا . . لأن هرمون البروجسرون (هرمون الحمل) يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار . . فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ويقول لها أرخى من قبضتك قليلاً فتسمع له وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات .

فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتخاء فيقول للحوض اتسع فيتسع وعند ذاك يمر الطفل فى ذلك الطريق الضيق الذى احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر به دون أن ينحشر انحشاراً مميتاً فيه . .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك فى كل طور من أطوار حياتك منذ كنت نطفة مغلقة فعظاماً فلحماً يكسو العظام . . فخلقا من بعد خلق . . والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء . . وتدفع عنك الأذى فاذا حان موعد خروجك إلى الدنيا . . هيألك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طبيعة لينة . . وأمر الرحم بالانقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى إلى الضغط عليك ضغطاً يؤدى إلى وفاتك . . وهيأ الطريق لخروجك فى ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن تخرج منه لولا رحمته . . ثم تخرج لتجد غذائك جاهزاً فى ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك اياه من

ثديها مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم ثم يرعاك طفلا ويافعا . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكراً لله على عظيم منته وآلائه . . وما أحراك أن تطيع فلا تعص أبداً . . ولكنها النفس الأمارة بالسوء . . ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار . . ولابد من أوبة . . ولابد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار . . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

أى : ألم نجعل الأرض مهاداً لكم ، فتكفتكم وتجمعكم فيها أحياء على ظهرها وأمواتاً فى بطنها ، فالأحياء يسكنون فى منازلهم ، والأموات يدفنون فى قبورهم .

قال مجاهد وقتادة والشعبى فى هذه الآية : « ألم نجعل الأرض كفاتا احياء وأمواتا » بطنها لأمواتكم وظهرها لاحيائكم .

(وجعلنا فيها رواسى شامخات) أى : وجعلنا جبالا ثوابت عاليات على ظهرها لئلا تميد بكم .

وهذه الجبال بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة التى فى باطنها ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها .

وقوله تعالى : ﴿ **وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ أى : واسقيناكم ماء عذباً تشربون منه ، إما آتياً من السحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، واما من العيون النابعات منها ويمدها الثلج الذى يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض متنزلا إلى بطنها ، متجهاً إلى عيونها الجارية .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى : عذاب عظيم فى الآخرة لمن كفر بهذه النعم .

من صور الوعيد والوعد

قال تعالى :

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

لا ظليل : أى : لا يقى من حر الشمس .

الشرر : ما يتطاير من النار .

كالقصر : أى : كالدار الكبيرة المشيدة .

جمالة : واحدها جمل .

فكيدون : أى : فاختالوا علىَّ .

ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الفىء ، فإنه يقال ظل الليل ، ظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فىء الا لما زالت عنه الشمس ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة .

عيون : أى : أنهار .

اركعوا : أى : صلوا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ أن للمكذبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب فى يوم الفصل والجزاء ـ بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب ، ويخر من هو له كل مخبت أواب ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم ، يوم لا ينطقون من شدة الدهشة والحيرة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار فيعتذرون ثم أعقبه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذ ، ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال : (كلوا وتمتعوا قليلاً) ولا نصيب لكم فى الآخرة ، لأنكم كافرون .

ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا وأصروا واستكبروا استكباراً ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبى الذى جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه ، فبأى كلام بعده يصدقون ؟

التفسير

قوله تعالى : **﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾**

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » كقوله تعالى : **﴿ فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾**(١)

---

(١) الطور الآيات من ١١ ـ ١٦

وقوله : ﴿ **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب** ﴾ يعنى : لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن شمالهم ، وشعبة من فوقهم ، والمراد أنه محيط بهم من كل جانب كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لا ظليل ولا يغنى من اللهب** ﴾ أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب يعنى ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهيبها كالقصر قال ابن مسعود كالحصون .

وقوله : « كأنه جمالة صفر » قال مجاهد وقتادة والحسن كالابل السود وقال سعيد بن جبير : (جمالة صفر) يعنى حبال السفن .

فهذه النار يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة كانه القصر عظماً وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصفر لوناً وكثرة وتتابعاً وسرعة حركة .

(ويل يومئذ للمكذبين) بهذا اليوم الذى لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيص .

قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى : هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار لأن ليس لديهم عذر صحيح ، ولا جواب مستقيم كقوله تعالى : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً** ﴾ وقوله : ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون** ﴾ ، ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بما دعتهم اليه الرسل ، فأنذرتهم عاقبته .

قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

أى : هذا يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب ، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض ، فيقتص من الظالم للمظلوم ، وترد له حقوقه .

وقوله : ﴿ **جمعناكم والأولين** ﴾ أى : جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم فى صعيد واحد ليمكن الفصل بينكم ، فيقضى بهذا على هذا ، ولولا ذلك ما أمكن ، إذ لايقضى على غائب .

وقوله : ﴿ **فإن كان لكم كيد فكيدون** ﴾ أى : فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا ، لتخلصوا أنفسكم من العذاب .

وفى هذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات : إنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن ، وقوله : ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا كقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ وكقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ .

وقوله : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الاحسان اليهم . كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

وقوله : ﴿ انا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ الذين عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعل بهم .

ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال تعالى :

﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴾ أى : كلوا بقية آجالكم ، وتمتعوا بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى ، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمى الأمم الخالية التى متعت إلى حين ، ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأى كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ .

قال ابن حاتم بسنده عن اسماعيل بن أمية قال سمعت رجلاً أعرابيا بدويا يقول سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفا ـ فقرأ(فبأى حديث بعده يؤمنون) فليقل آمنت بالله وبما أنزل .

« اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

« رضينا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، اللهم أسلمت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، والجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت » .